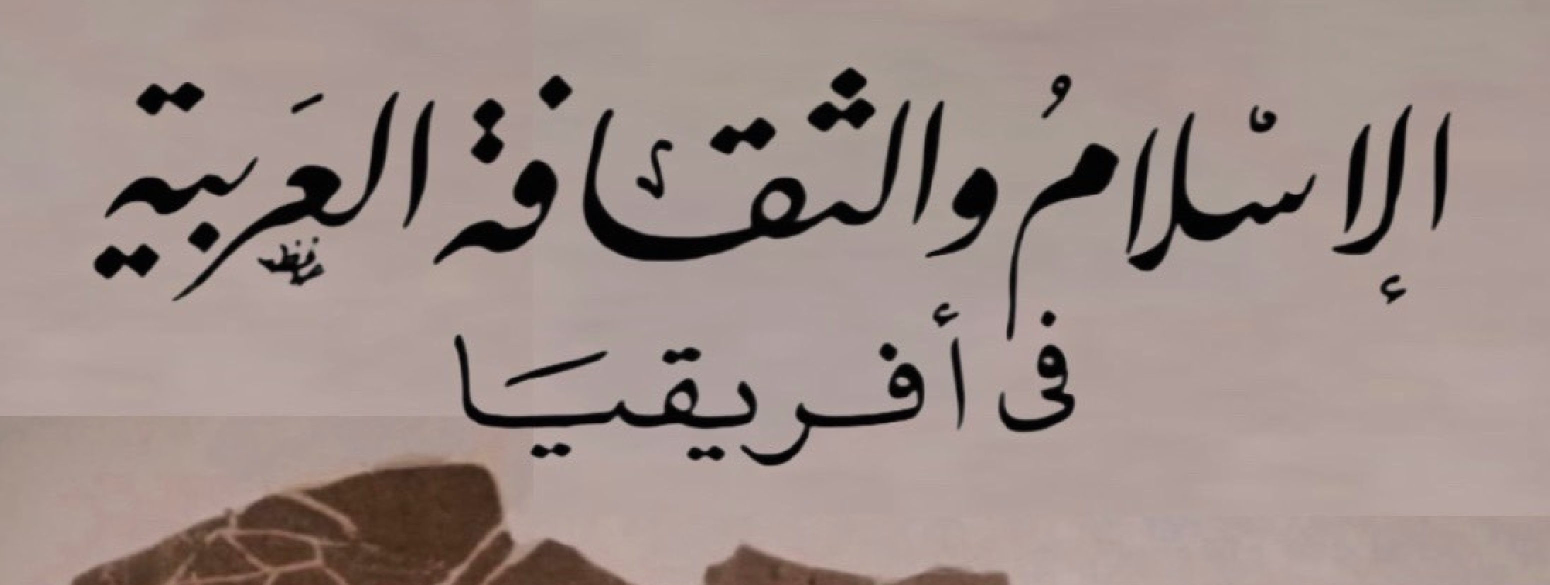


الإسلام والثقافة العربية
فى أفريقيا

الدكتور / حسن أحمد محمود

دار الفكر العربي

الإسلام والثقافة العربية
فى أفريقيا

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الإسلامى — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
١١ شارع جواد حسنى - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

اشتركت فى بعثة طوفت بإفريقية ، نزلنا بالصومال وأقمنا زمناً بمدينة نيروبى عاصمة كينيا ، ثم انطلقنا إلى غرب إفريقية عبر أعالى النيل ومنطقة بحيرة شاد ، ونزلنا بمدينة لاجوس عاصمة نيجيريا ، ثم انتهينا إلى مدينة كانو عاصمة نيجيريا الشمالية .

فى كل هذه البلاد التى زرناها رأينا حياة إسلامية ناهضة . وشعوباً مسلمة متمسكة بدينها إلى أبعد الحدود ، وثقافة إسلامية مزدهرة ، غالبت ثقافة الغرب فغلبتها . ولم تكن الصورة تختلف فى كل بلد من هذه البلاد : شعور بالأخوة الإسلامية بعيد الغور ، وإحساس بزعامة مصر الفكرية عميق الجذور ، وتلهف على تراث العروبة ، وتنسم لأخبار المسلمين .

وقد عدت وفى ذهنى صورة واقعية لا زيف فيها عن هذه الأخوة الأصيلة ، وهذه الروابط الثقافية التى غالبت الزمن لم تنفصم عراها ولم تهن قوتها ، فأخذت على نفسى أن أؤرخ للإسلام فى إفريقية كلها ، وأن أكشف ما استطعت عن هذه القوة الروحية الخفية التى تجمع بين العرب والمغاربة والسودانيين والأحباش والصوماليين والزنجباريين وأهل كينيا ومسلمى غرب إفريقية فى هذا الرباط الروحى ، وأن أهيىء للمكتبة العربية كتاباً يعالج هذا الموضوع . واعتزمت أن أتتبع تاريخ الإسلام فى هذه القارة منذ البداية الأولى حتى العصر الحاضر ، ورأيت أن تكون معالجة هذا الموضوع فى كتاب واحد .

يعرض الكتاب لتاريخ الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية منذ الفتح العربى حتى القرن التاسع عشر حين خضع المسلمون فى أرجاء هذه القارة للاستعمار الغربى .

وقد خصصت الباب الأول من هذا الكتاب لدراسة التطورات العامة التى

مرت بها الثقافة الإسلامية فى هذه الفترة والقوانين الطبيعية التى خضعت لها . فعرضت لأهمية إفريقية للعالم الإسلامى ، وأشرت إلى أن انتشار الإسلام كان فى الحقيقة انتشار لظواهر ثلاث : الثقافة العربية - الدين الإسلامى - اللغة العربية .

وعرضت للتطورات العامة التى مرت بها كل ظاهرة منها ، وأشرت إلى وسائل انتشار الإسلام ثم لطبيعة القارة وأثرها فى هذا الانتشار ، ثم طبقت ما انتهيت إليه من أسس فى دراسة انتشار الإسلام فى الأوطان الإفريقية وطناً وطنا .

أفردت الباب الثانى لانتشار الإسلام فى مصر وبلاد المغرب على هدى ما انتهيت إليه فى الباب الأول ، مع العناية بوجه خاص بأثر كل من مصر والمغرب فى انتشار الإسلام فى بقية أجزاء القارة .

أما الباب الثالث فقد خصصته لدراسة انتشار الإسلام فى غرب إفريقية . أما انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل فقد عالجته فى الباب الرابع ، وقصرت الباب الخامس على دراسة انتشار الإسلام فى بلاد الحبشة وشرق إفريقيا .

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى الوقت والجهد الذى أنفقته فى جمع شتات هذا الموضوع الغامض ، والإحاطة بنواحيه المختلفة والتأريخ للإسلام فى نحو اثنى عشر قرنا ، ولعلى قد حققت الغاية التى ظللت أعمل من أجلها طيلة أعوام حافلة بالعناء ، وحسبى أنى كشفت معالم الطريق لمزيد من البحث والدرس والعناية بمستقبل هذه القارة التى انجابت ظلماتها بمشرق شمس الحرية من وادى للنيل . هذا وقد نفدت الطبعة الثانية وها هى الطبعة الثالثة بين يدى القارىء الكريم .

وأرجو أن يلقى هذا الجهد نفس القبول من جمهرة القراء وليغفروا لى إذا كنت قد أخطأت أو نسيت . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

حسن أحمد محمود

يوليو ١٩٨٦

الباب الأول



طبيعة انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا

أهمية إفريقية للعالم الاسلامى :

قد يكون من القول المعاد أن نبين المكانة العظيمة التى تحتلها أفريقيا من العالم من حيث مساحتها ، وعدد سكانها ، وثرواتها الدفينة ، وإمكانياتها الاقتصادية وموقعها الاستراتيجى .

إذ أن مساحتها ١١٢٦٢٠٠ ميل مربع ، فهى إذن خمس مساحة الكرة الأرضية كلها ، يعيش بها نحواً من ١٩٨ مليون نسمة ، منهم خمسة ملايين من المستعمرين البيض ، فسكانها إذن ٨٪ من سكان الكرة الأرضية جميعهم . وإمكانياتها الاقتصادية تفوق الوصف ، من حيث تنوع الموارد الاقتصادية بتنوع البيئات ، واختلاف الموقع والمناخ .

فالبلاد الواقعة شمال الصحراء الكبرى تنتمى اقتصاديا وجغرافيا لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ، على حين نجد البلاد الواقعة جنوب الصحراء تضم خليطا عجيبا من الأجناس والمعالم الجغرافية والموارد الاقتصادية .

فإفريقية الوسطى اقتصادها استوائى محض ، يعتمد على الزراعة الطبيعية وتصدير بعض السلع المعدنية والزراعية والغابية ، على حين فى شرق إفريقية تزرع الحاصلات الاستوائية والدفينة مثل القطن والبن والطباق .

واتحاد جنوب إفريقيا أكثر هذه البلاد تطوراً فى الناحية الاقتصادية ، فهذا الإقليم لم تتطور موارده الزراعية والمعدنية فحسب ، بل قطع خطوات لا بأس بها فى سبيل الاقتصاد الصناعى المتنوع ، وقد أنشئت بها صناعة للصلب تنتج ١,٢ مليونا من الأطنان سنوياً ، وبها صناعة للأسمنت إنتاجها ٢,٣ مليون طن فى السنة ، بالإضافة إلى صناعة المتفجرات والكيماويات والزيت والآلات الكهربائية والنسيج وغيرها من الصناعات الهامة .

وساهمت هذه القارة بنصيب وافر فى الإنتاج العالمى ؛ فى ميدان السلع العالمية فهى مثلا تنتج نحوا من ٩٨٪ من ماس العالم ، و٥٥٪ من ذهبه و٢٢٪ من نحاسه عدا المنجنيز والكروم واليورانيوم ، وهى فوق هذا تنتج نحو ثلثى محصول الكاكاو العالمى : ونحو ثلاثة أخماس إنتاج زيت النخيل ، هذا عدا إمكانياتها العظيمة فى القوى المائية .

إذن هذه القارة مورد اقتصادى عظيم فى المعادن والزراعة والمواد الخام الغابية والرعوية .

وقد أدركت الولايات المتحدة هذه الحقائق المذهلة فى السنين الأخيرة فاهتمت باقتصاديات القارة اهتماما بالغا ، حرصا منها على استغلال مالم يستغل من ترابها البكر ، واحتفاظا بأسواقها العظيمة وبما تنتجه من مواد استراتيجية هامة ، ومحاولة للإبقاء على هذا الثراء العريض فى يد الغرب فلا ينافسه فيه منافس ولايتسرب إليه طامع ، فى الوقت الذى أصبحت فيه دول أوربا ذات الماضى الاستعمارى العريق عاجزة عن الاضطلاع بهذه المسئوليات .

ظهر هذا الاهتمام الأمريكى فى الناحية الاقتصادية فى مضاعفة رأس المال الموظف فى هذة القارة . كان رأس المال هذا سنة ١٩٤٣ نحو ١١٣ مليون دولار وأصبح فى سنة ١٩٥٠ ، ٣١٢ مليونا ، وإذا به فى سنة ١٩٥٢ يبلغ ٤٥٨ مليونا ، فما بالك به فى سنة ١٩٦٢ ؟ ؟ . نحو ٥٢٪ من هذا المال موظف فى الصناعات البترولية للتسويق والتوزيع . أو الاستخراج ونحو ٣٠,٥٪ من المناجم ونحو ١٥ ٪ فى الصناعات الأخرى ٧٥٪ من هذا المال مركز فى ليبريا وستة وستون مليونا من الدولارات فى جنوب إفريقية ، و١٥ ٪ من رأس المال فى إفريقية البرتغالية و ٣٦ مليونا فى المستعمرات الفرنسية و١٢ مليونا فى الكونغو(١) .

وأبلغ دلالة على ماذكرت هذا الجدول الذى يبين تطور توظيف رأس المال الأمريكى بين عامى ١٩٤٣ و١٩٥٠ .

---

(١) Bernard Blankenheimer : Private Enterprise in Africa : Africa to day, p. 453.

[illegible]

نوع الاستغلال	عام ١٩٤٣	النسبة المئوية	عام ١٩٥٢	النسبة المئوية
التعدين	٣٣ مليون دولار	٪٢٠,٤	٦٤ مليون دولار	٪٢٠,٣
البترول	٣٧ »	٪٢٢,٧	١٦٢ » »	٪٥١,٩
الصناعات	١٦ »	٪٩,٧	٤٧ » »	٪١٥,١
التجارة	١٨ »	٪١٥,٩	٢١ » »	٪٦,٧
الزراعة	٢٠ »	٪١٧,٧	١٣ » »	٪٤,٣

بل هذا الاهتمام تجاوز الميدان الاقتصادى إلى الميدان الاستراتيجى . هذه الأهمية الاستراتيجية ألقى عليها مزيدا من الضوء الأميرال رتشارد كانولى (١) فى مقال له فى مجموعة المقالات المسماة بإفريقية اليوم " Africa to day " التى أشرف على تحريرها الأستاذ جروف هينز Grove Haines ، هـذه المواقع الاستراتيجية على هذا النحو :

١ — طنجة وجبل طارق .

٢ — قاعدة مراكش الجوية وقاعدة الدار البيضاء البحرية .

٣ — شمال غرب إفريقية .

٤ — ليبيا .

٥ — أريتريا — الحبشة — الصومال وموانى مصوع — جيبوتى — مقدشو .

٦ — جزيرة مدغشقر وأهميتها فى حماية مسالك المحيط الهندى .

٧ — رأس الرجاء الصالح خصوصا قاعدة سيمونز تاون البحرية .

---

(١) Admiral Richard Canolly : Africa's strategic significance :
Africa to day p. 55.

٨ — قاعدة دكار التي تحرس طرق المواصلات في غرب إفريقية :

إذا كانت هـذه الاعتبارات كلها قد حفزت الولايات المتحدة الأمريكية على مضاعفة الاهتمام بافريقية ، بأحوالها ومستقبلها ، وانطبعت هذه العناية في ما يكتبه الـكتاب الأمريكيون وما تنتجه المطابع الأمريكية من إنتاج أدبي خصب زادت خصوبته في السنوات الأخيرة ، فإنه من الأولى أن لا يكون اهتمامنا نحن معشر العرب في مصر بصفة خاصة، ونحن المسلمين بصفة عامة أقل من الاهتمام الأمريكي بل المنطق يقضي بأن يكون اهتمامنا بإفريقية أضعاف الاهتمام الأمريكي ، لسبب واضح هو أن إفريقية بها نحوا من ستين مليونا من المسلمين وفق الإحصاءات التي ذكرها مسنيون في كتابه Annuaire du monde Musulman (١) .

توزيعهم كما يلي :

مصر	٢٢ مليونا
ليبيا	
طرابلس	٨٠٠,٠٠٠,
برقة	٣٠٠,٠٠٠,
فزان	٤٥,٠٠٠
تونس	٣,٥٠٠,٠٠٠
الجزائر	٧,٧٢٠,٠٠٠
المغرب الأقصى	٩,١٦٦,٠٠٠
أفريقيا الغربية الأسبانية	٦٠,٠٥٠
موريتانيا	٥٠٠,٠٠٠
النيجر	١,٥٠٠,٠٠٠
السنغال	١,٤٠٠,٠٠٠
السودان الفرنسي	١,٩٠٠,٠٠٠

(١) Louis Massignon : Annuaire du monde Musulman pp. 228—395 .

غيانا الفرنسية (غنينا)	١,٣٨٠,٠٠٠
الفولتا العليا	٥٠٠,٠٠٠
ساحل العاج	٣٠٠,٠٠٠
داهومى	١٠٥,٠٠٠
جمبيا البريطانية	١٣٠,٠٠٠
جيانا البرتغالية	٣٠٠,٠٠٠
سيراليون	٩٣٠,٠٠٠
ليبريا	٣٠٠,٠٠٠
ساحل العاج	١٣٠,٠٠٠
توجو	٣٠,٠٠٠
نيجيريا	١٤,٠٠٠,٠٠٠
الكاميرون الفرنسى	٥٠٠,٠٠٠
أوبانجى شارى	٣٠,٠٠٠
منطقة بحيرة شاد	٩٧٠,٠٠٠
الكونغو	٧٠,٠٠٠
روديسيا	٤,٩٠٠
نياسالاند	١٥٠,٠٠٠
جنوب إفريقية	٧٩,٠٠٠
مدغشقر	٨٧٠,٦٦٨
موريشيوس	٦٤,٠٠٠
سيشل	٣٠٠
زنجبار	٦٤,١٦٢
تنجانيقا	١,٠٠٠,٠٠٠
أوغنده	١٥٠,٠٠٠
كينيا	١,٠٠٠,٠٠٠
الصومال	١,٧٥٦,٠٠٠
أريتريا	٣٥٩,٠٠٠
الحبشة	١,٧٤٥,٠٠٠
السودان	٦,٠٠٠,٠٠٠

من هذا التوزيع تتبين لنا حقائق هامة عن الإسلام فى إفريقية ، تتبين سعة انتشاره إلى أبعد الحدود ، فقد اخترق نطاق الغابات فى غرب إفريقية ، كما انتشر على طول الساحل الغربى ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكنغو وكذلك الحال فى الشرق ، نفذ جنوب السودان وهضبة البحيرات ، وتدفق إلى قلب الهضبة الحبشية وتخطى ساحل شرق إفريقية إلى المناطق الداخلية ، إلى كينيا وتنجانيقا . ودخل جنوب إفريقية مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية ، ولا زال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة (١) .

وفى الجولة التى قمنا بها فى صيف ١٩٥٦ موفدين من قبل المؤتمر الإسلامى للقيام بدراسة شاملة لأحوال المسلمين فى إفريقية لمسنا نهضة شاملة تفشت بين مسلمى القارة من جميع النواحى ، فقد ترك المسلمون سياستهم السلبية القديمة ، وأخذوا بأسباب الحضارة الغربية ، وأصبحوا فى غرب إفريقية مثلا عنصراً فعالا فى بعث الوعى القومى ، وشاركوا فى الحركات التحريرية ، وتولوا أعظم المناصب ، ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية أو ثقافتهم الإسلامية بل حرصوا على التعلم الدينى حرصهم على الحياة ، وتجاوبوا مع جماهير المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى .

وكذلك الحال فى شرق إفريقية ، نفس الشعور ونفس الاتجاه . ففى الصومال مثلا استطاع الإسلام أن يصمد لإضطهاد دام أكثر من ثمانين سنة ، خرج منه صلبا قويا ، وإحساس أهل الصومال بالشعور الإسلامى وتطلعهم إلى الوحدة الإسلامية وتمسكهم بتعاليم الإسلام لايقل عن تمسك أهل غرب إفريقية ، وكذلك نفس الحال فى كينيا وزنجبار .

الإسلام إذن قوة كبرى فى هذه القارة ليس من حيث العدد ، بل من حيث أثر المسلمين البالغ فى الحركات التحررية ، وفى النشاط الثقافى والاقتصادى والاجتماعى . فالإسلام هو القوة التى يرهب الاستعمار جانبها ، ويعمل لها كل حساب .

هذه القوة الهائلة يجمعها شعور مشترك ، وثقافة مشتركة ومثل مشتركة ، فلو قدر لهذه الوحدة أن تتوطد دعائمها للعبت دورا عظيما فى تشكيل مستقبل هذه القارة .

---

(١) ديشان : الديانات فى افريقيا السوداء ص١٥٢-١٥٣ .

التى بدت على حد تعبير «جون جونثر» كالجزيرة المتفجرة تخطو من عالم السحر المظلم الى نور الحضارة(١) ، وبدأت تجتاحها حركات تحررية منبعثة من إقليم مصر منذ ثورته فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وتنشر فوق صفحة القارة كلها .

لهذه الإعتبارات كلها كان لزاماً أن نؤرخ للإسلام فى إفريقية لنلفت النظر إلى الدور الخطير الذى يقوم به فى تشكيل مستقبل القارة وتقرير مصيرها .

ولفهم تاريخ الإسلام فى إفريقية فهما صحيحاً ، لابد أن نوضح بعض الأمور الهامة التى تساعد على فهم التطورات التى مر بها والظروف التى خضع لها .

وأول ما يجب أن نلفت إليه الأنظار أن انتشار الإسلام فى الحقيقة انتشار لظواهر ثلاثة :

١ — انتشار الثقافة العربية الإسلامية .

٢ — انتشار الدين الإسلامى والشريعة الإسلامية .

٣ — انتشار اللغة العربية نفسها باعتبارها لغة للحديث والتخاطب .

ولا يفهم من ذكر هذه الظواهر على هذه الصورة أن كل ظاهرة منها كانت منفصلة عن الأخرى تماماً إنما كانت مختلطة متشابكة تسير جنباً إلى جنب وتتفاعل كلها فى وقت واحد ، وتخضع جميعها لمؤثرات تكاد أن تكون واحدة .

انتشار الثقافة العربية فى إفريقية :

أما عن الناحية الأولى وهى انتشار الثقافة العربية الإسلامية فى إفريقية فالواضح أنها فصل من قصة الحضارة الإسلامية عامة ، وأنها خضعت لنفس الظروف والأحوال التى خضعت لها الحضارة الإسلامية ، ومرت بنفس التطورات . وهى بذلك خليقة بأن تدرس فى ضوء القوانين العامة التى تدرس الحضارة الإسلامية فى ضوئها .

فقد جابهت الثقافة الإسلامية فى إفريقية نفس المشكلة العامة التى جابهتها الثقافة الإسلامية فى العصور الوسطى ، وهى مشكلة أو ظاهرة الالتقاء الثقافى بل هى

---

(١) John Gunther ; Inside Africa p. 4—6.

[illegible] المشكلة التي تواجهها الحضارات الإنسانية عموماً حينما تلتقى وتختلط وتتبادل التأثيرات [illegible]

هذه الظاهرة درسها الدارسون وعرض لها فلاسفة التاريخ، ووضعوا لها القواعد والأصول [illegible] ومن عرض لهذا الموضوع المؤرخ توينبى ، الذى انتهى لقوانين معينة لهذا الالتقاء الثقافى وهى :

١ — الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولا من الثقافة فى مجموعها ، ومعنى هذا القول أن الثقافة قد لا تقبل ككل إنما قد تقبل بعض أجزائها .

٢ — قوة النفاذ لأى إشعاع تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك الإشعاع .

معنى هذا أن أتفه الجوانب الثقافية أعظمها نفاذا وأعمقها أقلها نفاذا .

٣ — قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجر وراءه سائرها .

فالمسلمون أقبلوا أول الأمر على الصناعات وعلى ألوان الحياة الاجتماعية ثم ما لبثوا أن تعمقوا فى هذه الثقافات وفى فهمها .

٤ — هذا العنصر المفرد أكثر إزعاجا للمدنية المستعيرة مما لو تبنت الثقافة الأجنبية كلها . بمعنى أن أخذ عنصر من عناصر أى ثقافة دون فهم كنه الثقافة كلها قد لا يستطاع هضمه ، ومن ثم يصبح عامل إزعاج .

والثقافة الإسلامية فى إفريقية فى الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادى حتى خضوع المسلمين للثقافة الغربية فى ظل الاستعمار الأوربى واجهت هذه المشكلة أو تعرضت لهذه الظاهرة . فى مصر التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافات إغريقية نابعة من جامعة الإسكندرية ذات التقاليد الحضارية العريقة كما التقت بثقافة مصرية قديمة ، والتقت النظم الإسلامية بنظم بيزنطية ، ومن هذا الالتقاء ظهر طراز من الحضارة إسلامى الصورة متأثر فى طابعه بهذه الثقافات القديمة ، أعنى أن الإسلام أخذ وأعطى ، ومن هذا الأخذ وهذا العطاء ظهرت الحضارة الإسلامية فى مصر .

وفى بلاد المغرب حدث نفس الشيء ، الالتقاء بثقافات إغريقية أحيانا ولاتينية أحيانا أخرى ، بل وفينيقية أيضا ، وبتقاليد ونظم درجت عليها شعوب البربر منذ

ماضيها السحيق ، وحينما نمت الحضارة الإسلامية فى المغرب واكتمل نموها حتى بلغ الغاية فى عهد الموحدين مثلا وضحت فيها هذه الصورة الإسلامية العامة مختلطة بتأثيرات وتقاليد مغربية عتيقة .

والوطن الزنجى الصميم شهد هذه الظاهرة حينما دخل إليه الإسلام وفى ركابه الثقافة العربية الإسلامية ، فأهل البلاد حينما أسلموا وتشربوا الثقافة الإسلامية لم يهملوا تقاليدهم القديمة ، إنما قاموا بنوع من الملاءمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة وثقافتهم الإسلامية المكتسبة .

وحدث هنا ما حدث فى مصر والمغرب ، ونشأت بعد فترة من التطور حضارة إسلامية الشكل زنجية الطابع . تتضح لك هذه الحقيقة بدراسة ما كتبه القلقشندى فى صبح الأعشى الجزء الخامس ، وابن بطوطة فى رحلته عن بعض مظاهر الحياة فى السلطنات الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقية ، أو وسطها ، مثل سلطنة مالى وغيرها .

فتظهر التأثيرات الزنجية واضحة فى طريقة جلوس السلطان للمظالم ، وفى لباسه وفى المحيطين به واستخدامهم الطبول المصنوعة من القصب والقرع ، وطريقة الجلوس ، والتمرغ فى التراب بين يدى الملك إظهارا للخضوع (١) .

يضاف إلى هذا ما ذكره ابن بطوطة من وصف للقصر ولحياة السلطان وإشارته لبعض المناصب والمصطلحات الإدارية مثل : نائب السلطان والفرارية (الأمراء) والتراجمة(٢) .

ونجد نفس هذه الظواهر فى سودان وادى النيل ، فى السلطنات الإسلامية التى ظهرت فى القرن السادس عشر الميلادى ، فيما يسوقه نعوم شقير (٣) فى كتاب تاريخ السودان عن نظم الحكم فى دارفور ويظهر فيه هذا الخليط الظاهر بين التأثيرات الإسلامية والتأثيرات المحلية فى عادات السلاطين وأخلاقهم ، وفى ملكية الأرض

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ــ ٥ ص ٠٠٠ .

(٢) ابن بطوطة ــ ١ ص ١٨٨–١٨٩ .

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان ــ ٢ ص ١٣٧ – ١٣٩ .

وفى الألقاب والنظم والرسوم » فحاكم الإقليم يسمى مقدومارى وأبو شيخ هو كيجه الخصيان » زمالك النخاخرة » وملك الجناجرين وملك دادات السلطان » ولكل سلطان وكيل يسمى « الكامنة » .

وظهر هذا الاختلاط حتى فى ميدان القضاء فهنالك القانون العرفى الذي جمع إلى كتاب واحد عرف بقانون دالى إلى جانب الشريعة الإسلامية ، ونجد نفس الشيء فيما يذكر عن ملوك الفونج وتقاليدهم ورسومهم وتتجلى نفس الصورة فيما أورده ابن بطوطة عن سلطنات مقدشو وكلوة فى شرق إفريقية (١) .

وتاريخ الثقافة الإسلامية عامة وفى إفريقية خاصة فى الحقبة التى حددناها يمكن أن يقسم إلى مراحل أو إلى فترات متمايزة ، فقد حاول M. Abel على هدى قوانين توينبى أن يقسمه إلى ما يلى :

١ — مرحلة الفتح والتشرب ، من دخول الإسلام حتى اكتمال التأثير الإسلامى :

٢ — رد الفعل واستبعاد النواحى المدنية ، وقد استمرت هـذه المرحلة من اكتمال التأثير الإسلامى حتى بداية العصور الحديثة .

ولكن هذا التقسيم لا يستقيم مع الفهم الصحيح لتاريخ الثقافة العربية ويمكننا أن نقسم مراحل هذا التطور تقسيما أفضل على النحو الآتى :

١ — مرحلة ازدواج الثقافات : الثقافة الإسلامية بطابعها المعروف والثقافات المحلية تلتقيان وتعيش كل منفصلة عن الأخرى إلى حين .

٢ — بداية الاندماج : فى العصر الأموى مثلا حينما احتـاج العرب إلى الصناع والمهندسين من أهل الذمة لبناء القصور والمساجد ، ونشأ علم التفسير وبدأ يواجه أمورا وردت فى القرآن مجملة ، فاحتاج المفسرون إلى مزيد من القصص والأخبار التمست عند أصحاب العلم الأول ، واقتربت المسافة بين التيارين فى هذا العصر اقترابا شديدا وبدأت المحاولات الأولى لتعلم هذه المعرفة القديمة ، وظهرت طلائع حركة الترجمة .

---

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ١٥٣–١٥٥ .

ونفس هذه المرحلة يمكن التعرف عليها فى الوطن الزنجى حينما يتم إسلام الملوك وذوى النفوذ ثم يجمعون بين تقاليدهم الإسلامية والقديمة .

٣ — مرحلة الاندماج الكامل فى العصر العباسى بكثرة عدد الداخلين فى الإسلام من أهل الذمة وتعلمهم العربية ، واشتداد حركة الترجمة ودخول الثقافات القديمة إلى الحياة العربية . هذه المرحلة تتضح فى موطن الزنجى باكتمال الإسلام وقيام السلطات الإسلامية : ملوك مسلمون ورعية مسلمة .

إذن نشأت فى إفريقية بيئات حضارية محلية لكل بيئة مقوماتها الخاصة وإتجاهاتها الخاصة ، ولكن تجمعها فى إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة اللغة والدين والمثل .

والثقافة الإسلامية فى الشرق الأدنى وفى إفريقية بوجه خاص بدأت مع ميلاد العصر الحديث تجابه مشكلة من نوع المشكلة التى جابهتها طوال العصور الوسطى .

فلنبحث أسباب هذا الالتقاء ومظاهره ونتائجه فى مستقبل الثقافة الإسلامية فى إفريقية .

المعروف أن العالم الإسلامى بلغ أوج قوته فى الناحية الثقافية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فسقوط بغداد فى يد المغول وامتداد عدوانهم إلى بلاد الشام جعل هذه الثقافة تتركز فى مصر المملوكية التى أصبحت بحق زعيمة الإسلام فى هذه الناحية والمقريزى ومعاصروه واللاحقون به يمثلون أحسن ما وصل إليه تطور الفكر الإسلامى فى القرن الخامس عشر .

وتركزت الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى فى تطور مشابه فقد طرد المسلمون من الأندلس وفر كثيرون إلى المغرب الأقصى بفنهم وعلمهم وثقافتهم ، وكانت الثقافة الإسلامية قبل ذلك قد زحفت إلى قاصية المغرب فى أعقاب غارات الهلالية (١) .

وشهدت إيران نهضة مماثلة فقد أفاقت من آثار غزو المغول ونهضت نهضة موفقة فى عهد الصفويين ، وعهدهم عهد زاهر فى تاريخ إيران وبقيت لهم آثار معمارية عظيمة فى أصفهان (٢) .

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ٩٢ .
(٢) بارتولد : الحضارة الإسلامية ص ١١٨ .

وأصبحت استنبول نفسها في ظل العثمانيين إحدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامي . ولم يكتف الترك بمجرد التعريف بالتراث الباقي عن الماضي بل أبرزوا أسلوباً جديداً في فن العمارة يخالف العمارة الإيرانية (١) .

وظلت الدولة المغولية في الهند إمبراطورية قوية حتى القرن السابع عشر والآثار المعمارية التي خلفتها الدولة المغولية من ذلك العهد عظيمة . لو قورنت بالآثار الأوربية المعاصرة .

وفي غرب إفريقية أصبحت مدينة تنبكت طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر من مراكز الثقافة العالمية ، وعلماؤها يبارون علماء المدارس الإسلامية الأخرى في القوة والإنتاج . وامتدت هذه النهضة إلى سنار وإلى هرر ومقدشو وكلوة وزنجبار وغيرها من مراكز الإسلام في إفريقية (٢) .

كل هذا يدل على أن القول بأن العالم الإسلامي في ذلك العصر كان في نوم عميق قول مبالغ فيه ينتقص من قوة الحضارة الإسلامية وأصالتها .

ومن الإسراف في القول أن يرى العثمانيون بأنهم سر تأخر العالم الاسلامي وسر ما أصاب الحضارة الإسلامية من ركود وجمود .

والثقافة في ظل الحكم التركي لم تقل كثيراً في مستواها عن العصور السابقة . ونريد أن نسأل هل امتد النفوذ العثماني إلى المغرب الأقصى ؟ . طبعاً لم يمتد نفوذ العثمانيين إلى هذا الأفق . ومع ذلك لم تنهض مدارس المغرب في ميدان الدراسات الاسلامية نهضة تفوق نهضات الشرق ومدارسه ، وبقي الصفويون بمعزل عن النفوذ العثماني وكذلك المغول في الهند .

فمن الظلم أن يرى العثمانيون بأنهم سر تأخر المسلمين ، بل من الإنصاف أن يقال أن العثمانيين صانوا تراث الاسلام ودافعوا عن دار الاسلام ، وأخروا الزحف الأوربي إلى الشرق فترة طويلة .

---

(١) بارتولد ص ١٧ .

(٢) السعدي : تاريخ السودان ٢٨ وما بعدها .

وامتداد النفوذ العثمانى إلى شمال إفريقية صان هذه البلاد من عـــدوان قراصنة أوربا ، وكان بمثابة الدفاع عن الخط الأمامى لإفريقية ، وامتداد النفوذ العثمانى إلى البحر الأحمر كان له أثر واضح فى وقف الخطر البرتغالى (١) .

إنما تفسير ما حدث أن أوربا بدأت تسير فى طريق النهضة السريعة من القرن الخامس عشر فصاعدا ، وكان هذا التقدم واضحاً فى جميع النواحى الثقافية والعسكرية وكانت جهود الأسبان والبرتغاليين فى الكشف الجغرافى طليعة الزحف الأوربى ، وعنواناً للقوة الأوربية المتفجرة الناهضة . فبدت الحضارة الإسلامية التى كانت قد قطعت آخر الشوط الذى بدأته منذ القرن السابع الميلادى متخلفـــة عن الركب إذا قيست بما تفجرت به ينابيع أوربا . كان الغرب يسرف فى تقدمه فيبدو الشرق مسرفاً فى تأخره وجموده ورجعيته .

وبدأ المسلمون المعاصرون يشعرون بخطورة ما تتمخض عنه أوربا من تطورات وبدأوا يسلحون أنفسهم بأسلحة الغرب التماساً للقوة ، فقد أدركت تركيا فعلا مبلغ تفوق الأوربيين فى البحر ، فرأت وجوب إنشاء أسطول كأسطول أوربا : وظل هذا الأسطول التركى منافسا قوياً لأساطيل أوربا ، كما تسلحوا بالأسلحة النارية. ولكن أوربا كانت تسابق الزمن ، وكانت انطلاقتها انطلاقة عنيفة ، فتخلف المسلمون عن الركب وأفلت الزمام وانتقلت الأستاذية إلى أوربا فى جميع الميادين (٢) .

وانتهى هذا التطور إلى غايته ، فاحتلت فرنسا مصر ، ثم جلت عنها واحتلت الجزائر وفرضت الحماية على تونس ومراكش ، واحتلت بريطانيا مصر والسودان ، وانتشر نفوذها فى شرق إفريقيـــة وغربها . كما توطد الاحتلال الفرنسى فى السنغال والنيجر ومنطقة بحيرة شاد . ووقع الإسلام فى إفريقية فى قبضة الدول الأوروبية الاستعمارية (٣) .

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia. pp. 78, 83, 100.
Coupland : East Africa and its invadors p. 58.

(٢) بارتولد : ص ١٢٣ .

(٣) Haines : Africa to day p. 118—119.

والاستعمار الغربي الطامع في الأسواق وموارد الثروة جلب معه ثقافة غربية ذات طابع خاص ، وبدأت هذه الثقافة الوليدة تلتقي بالثقافة الإسلامية .

وهو التقاء يشبه الالتقاء القديم من بعض الوجوه ، ويختلف عنه من بعض الوجوه المسلمون في العصـــور الوسطى التقوا بالثقافات المعاصرة وهم سادة العالم ، ملكوا زمام أنفسهم ، وأخذوا من هذه الثقافات مالاءم دينهم وما اتفق مع حاجاتهم .

أما في القرن التاسع عشر فقد التقوا بثقافة الغرب في وقت غلبوا فيه على أمرهم وضعفت وحدتهم السياسية ، التقى العرب بالثقافات القديمة وأخذوا منها مختارين . والتقى المسلمون في القرن التاسع عشر بالثقافة الوافدة مكرهين .

كانت ثقافة العرب في القرون الوسطى الثقافة الغالبة التي تأخذ من الثقافات المغلوبة فإذا العكس صحيح في المشكلات الحديثة . كانت الثقافة الغربية الوافدة ثقافة فنيـــة متحررة من نير التقاليد العتيقـــة البالية تتفتق في كل جيل عن كشف جديد لمواطن القوة في الطبيعة ، والثقافة الإسلامية تعيش على الماضي وترسف في أغلاله .

والأستاذ جرنيبوم يصور هـــذا الفرق بين الثقافتين تصويراً واضحاً ويرده إلى أسبابه المعقولة بقوله « إن سبب تفوق أوربا على الشرق أن أوربا اعتمدت في نهضتها على الأفلاطونية وما تمتاز به من تحرر على حين وضع المسلمون أنفسهم في قوالب جامدة من الأرسططاليسية المحافظة . اكتشف الغرب آفاقا جديدة ، وعاش العرب في تراثهم القديم (١) » .

وكان لابد للعالم الإسلامي في إفريقية أن يواجه هـــذه التطورات الجديدة التي وفدت على الحياة الإسلامية وراحت تهددها تهديداً خطيرا ، وهذه التأثيرات الغربية التي بدأت تزحف إلى محيط الثقافة الإسلامية في جميع أرجاء إفريقية .

وكانت الطبقة الواعية في العالم الإسلامي في موقفها من هـــذه المشكلة الثقافية فريقين : الفريق الأول أحس بما في الثقافة الغربية من خير قد يفيد جمهور المسلمين فسعوا إلى الإصلاح عن طريق التقريب بين الهوة القائمة بين الثقافة الإسلامية القديمة والثقافة الغربية الوافدة ، تحتفظ الثقافة القديمة بخير ما فيها وتأخذ من ثقافة الغرب خير ما فيها .

(١) Unity and variety in muslim Civilisation p. 6,

هـــذا الفريق من المصلحين يسمى فريق المجددين وهم كانوا يهدفون إلى تحقيق أمور ثلاثة :

الأمر الأول : ١ - محاربة البدع والعادات الضارة التى شاعت فى حياة الناس .
٢ - محاربة الطرق الصوفية ، وما تشيعه بين العامة من إيمان بخوارق ومعجزات .
٣ - محاربة بقايا السحر والكهانة وتقديس الأولياء ، وإقامة الموالد ، والأخذ من عادات الغرب التى لا تسىء إلى الإسلام .

والأمر الثانى : إصلاح التعليم العالى وتطعيمه بالأفكار الجديدة والملاءمة بين الشريعة وبين الفكر الحديث ، ففى زعمهم أنه لا إصلاح بغير علم وقد اتخذت هذه الحركة فى مصر صفة إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه .

حركة التجديد إذن هى مجرد اتجاه فكرى بين طبقة المتعلمين والمفكرين ويرى الأستاذ جب أن الصوفية كانت حربا على هـــذه الدنيوية Secularism التى شاعت بين أوساط المتعلمين ، فلما أضعف العلماء الصوفيـــة لم يملأوا الفراغ الذى تركته فى حياة الناس ، فلما جاءت المدنية الغربية بنزعتها الدنيوية وجدت الباب مفتوحاً والطريق مهيئاً .

والأمر الثالث : هو الدفاع عن الإسلام فى وجه التأثيرات الأوربية والهجمات المسيحية ، وذلك بدراسة الأفـــكار الغربية والرد عليها ، ثم المناداة بإحداث ثورة فى طريقة إدراك المعرفة بمحاربة الوسائل القديمة فى اكتساب هذه المعرفة .

فالمعرفة عند الإسلاميين ليست إدراك المجهول إنما هى عملية آلية لجمع المعلوم ، وهذا المعلوم لا ينظر إليه على أنه تطور وتغير ولكنه على أنه خالد ، الأمر الذى ترتب عليه أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ديناميكياً متحركا ، إنما هى كم جامد غير متحرك ، وباتوا يرون أنه لا يعتبر من المعرفة صحيحاً إلا ما يتمشى مع ما هو متفق عليه بإجماع ، كما أن طريقة تحصيل العلم ليست بالتحليل والاستنباط والتجربة بل بجمع ما هو موجود أو باستخدام المنطق الشائع .

لهذا نادى المجددون بضرورة تحرير الإسلام من جموده والقضاء على القيود التى يفرضها الفقهاء على المعرفة ، وكانت الجهود التى بذلها المجددون فى إدخال الطريقة التحليلية فى الفكر الإسلامى محدودة النجاح (١) .

---

(١) Gibb : Modern Trends p. 33—60.

وقد تجاوزت آراء المجددين هذه الآفاق إلى أفق جديد هو أفق الخلافة ونظامها.

فقد تغيرت نظرتهم إليها بتأثرهم بالمبادىء والأفكار الغربية . فهم لا يستطيعون أن ينكروا أن الإسلام يجمع بين الدين والدولة فى شخص الخليفة ، ولكنهم يرون أنهم لا يعترفون بالخليفة إلا إذا كان منقذاً وممثلا لشريعة الله، فلما ساءت حالة الخلافة العثمانية وتردت فيما تردت فيه من أخطاء فقدت هذا الولاء . وأخذ المسلمون يفكرون فى وسائل جديدة تسد هذا الفراغ (١) .

وامتدت آفاق المجددين إلى ميدان الشريعة الإسـلامية ومحاولة الملاءمة بين الأحوال الشخصية عند المسلمين وبين الآراء الجديدة (٢) ، بل كانوا يهدفون إلى خلق نزعة رومانتيكية تحريرية تهدف إلى تخليص الخيال من الآراء المفروضة ودراسة التراث الإسلامى دراسة نقدية تحليلية متحررة (٣) .

تتمثل حركة التجديد هذه فى مصر فى الشيخ محمد عبده وبرنامجه فى الإصلاح الذى كان يرمى إلى تطهير الإسلام مما تسرب إليـه من بدع ، وإصلاح التعليم العالى والملاءمة بين الشريعة وروح العصر ، ثم الدفاع عن الإسلام ضد التيارات الأوروبية (٤) .

وامتدت حركات المجددين فشملت العالم الإسلامى كله ، مثلها فى الهند الشاعر الفيلسوف إقبال ، كما امتدت إلى تركيا .

واتخذت فى بلاد المغرب التى خضعت للاحتلال الفرنسى المباشر صورا أخرى فقد بدأ التجديد من أعلا ، الطبقة العليا تقلد الحاكمين الفرنسيين والطبقة الوسطى تقلد العليا ثم ينتقل هذا التقليد إلى الطبقات الأقل شأناً .

بل حدث أمر آخر عجيب وهو أن الهوة بين أهل الجديد والقديم لم تكن تتجه إلى الاقتراب أو الاندماج كما حدث فى مصر ، إنما كانت تتجه إلى العنف أو العمق،

---

(١) Gibb : op. cit. p. 111.

(٢) Ibid ; p. 90.

(٣) Ibid ; p. 11.

(٤) Gibb : p. 33.

فالمتمسكون بالتقاليد القديمة ازدادوا تمسكا بها واعتقادا أنهم ليسوا أقل مستوى من الحاكمين ، واشتدت مطالبهم بالعودة إلى القديم مهما كان شأنه .

وأخذ التعليم الديني لا يناله ما ناله فى مصر إنما اتجه نحو التوسع ، فالتعليم الديني فى مراكش مثلا بلغ ثلاثة أضعافه فى ثلاثين سنة ، وجامع الزيتونة فى تونس بلغ عدد طلابه خمسة عشر ألفا سنة ١٩٤٥ ، وكانت جماعة نهضة العلماء فى الجزائر تتجه نحو هذا الاتجاه .

ومن ناحية أخرى نرى طبقة أخرى من المجتمع يدفعها مركب النقص إلى استخدام أدوات أوربا ووسائلها والتشبه بالأوربيين فى كل شيء واستخدام اللغة الأوربية فى المعاملة والتخاطب وإهمال اللغة العربية إلى حد بعيد(١) .

والفريق الثانى من المسلمين رأى أنه لامعصم له من آراء الغرب وأفكاره وشروره ومفاسده ، ولا منجاة من الضعف والتخاذل الذى شاع فى الحياة الإسلامية فى ظل الخلافة العثمانية المتداعية إلا بالحركات السلفية والعودة إلى ماضى الإسلام المشرق وأن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الإسلام وتطهيره .

وقد اتخذ هذا الاتجاه صورة علمية هادئة تقوم على الدراسة والوعظ والتعلم وتنبيه الناس إلى ما فى الإسلام من خير ، وما فى حضارة الغرب من شر . تتمثل هذه النزعة فى مدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وجماعة المنار ، وما عمدت إليه من تقليد الحنابلة وابن تيمية ، والتى تتمشى مع الوهابية الجديدة التى خفت حدتها فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود

وقد وجد هؤلاء استجابة لحركاتهم فى العالم الإسلامى كله ، فى شمال إفريقية وفى الهند وأندونيسيا . فقامت فى الجزائر جمعية العلماء لمحاربة الصوفية ونشر تعاليم القرآن وأحرزت نجاحا عظيما فى عهد ابن باديس وامتد أثرها إلى تونس ومراكش والهند .

ومن هؤلاء قوم رأوا أنه لا يصلح الحال إلا بالسيف وإعلان الجهاد لتطهير الإسلام من البدع ، ورده إلى نقائه الأول ، وتجنيد المسلمين لإنقاذ الإسلام مما أصابه على أيدى العثمانيين الضعفاء والاستعمار الغربى الوافد .

---

(١) Unity and variety p. 13.

فقامت الحركة الوهابية فى جزيرة العرب ، فكانت حركة حنبلية ، مثل حركة ابن تيمية وغيرها من الحركات التى ظهرت فى الحجاز والعراق وفلسطين فى العصور الوسطى ، وأعلنت مبدأ الثورة على الحكومات الباغية وانتشرت دعوتها فى البلاد التى خضعت للاحتلال الغربى (١) .

ومما يدل على مشاركة مسلمى إفريقية للعالم الإسلامى فى اتجاهاته وانفعالاته ومحنته أن الوهابية لقيت استجابة سريعة فى القارة الإفريقية فأثرت فى السنوسية التى ظهرت فى طرابلس وشمال إفريقية ، وامتد أثرها نحو بلاد السودان .

ورغم أن السنوسية طريقة صوفية إلا أنها استلهمت تعاليم الدعوة الوهابية فى مناهضتها للاستعمار وثقافته ومحاربتها للبدع . وقد استمد السنوسى مؤسس الطريقة هذه التأثيرات أثناء إقامته بمكة يطلب العلم وقت استيلاء الوهابية عليها ، فعاشرهم وتتلمذ على علمائهم وتأثر بمذهبهم(٢) .

وأمعن أثر الوهابية فاخترق نطاق الصحراء الكبرى إلى غرب إفريقية فقد كان الداعية الوهابى عثمان بن فودى (دنفديو) أحد أفراد قبيلة الفولانى فى الحج بمكة والتقى بالوهابية ، واعتنق مبادئهم ، وعاد إلى بلاده ، وأخذ يحارب البدع السائدة بين عشيرته وينشر تعاليم الدين الصحيحة ، ويذيع مبادىء ابن عبد الوهاب .

فاستطاع أولا أن يجمع قبيلته فى وحدة متماسكة ، وأعلن الجهاد ضد قبائل (الحوصة) ، وقضى على إمارة غوبير .

وفى سنة ١٨٠٤ أقام سلطنة (سكت) فى شمال نيجيريا على أساس الدعوة الوهابية ، ومدت هذه الدولة رواقها على جميع الأقطار الواقعة بين تنبكت وبحيرة شاد ، واحتفظت باستقلالها نحوا من قرن (٣) .

---

(١) Gibb : op. git. pp. 26—27.

نجلاء عز الدين ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) أرنولد : الدعوة فى الإسلام ص ٢٧٠ — ٢٧٢ . محمد حبيب ص ٦٢ .

(٣) Dubois : Tombouctou pp. 151—152.

Fage : Wes(Africa p. 35, Hogben pp. 58—61.

Meek, vol. 1, pp. 98—100. محمود كعت : الفتاش

ونهج الحريصون على ثقافة الإسلام نهجاً آخر في الإصلاح السلفي ، لجأوا إلى المهدى والمهدوية ، هذه الحركات التي تنبثق من نفوس المسلمين كلما ساء الحال وغضب الناس على أولياء الأمر ، فتؤمن الأكثرية بمهدى ينتظر ظهوره ليخلص الناس مما هم فيه ، ويعود بالمجتمع الإسلامي إلى ماضيه الأول .

وقد ظهرت انتفاضات مهدوية فى ربوع إفريقية فى القرن التاسع عشر ، القرن الذى تنبه فيه المسلمون إلى الخطر المحدق ، خطر الاستعمار وثقافته .

ظهرت هذه الحركة فى سودان وادى النيل ، على يد محمد أحمد الدنقلاوى السامانى الطريقة . وكانت حركته — مهما قيل فيها — نزعة مخلصة نحو الإصلاح والثورة على الفساد ، وإنشاء دولة عالمية جديدة ، وفتح باب الاجتهاد والتواصل مع المسلمين .

هذه النزعة الواضحة والرغبة المخلصة فى الإصلاح تظهر من الكتب التى وجهها إلى المعاصرين ، ففيها الإيمان العميق والرغبة الملحة فى الإصلاح والإحساس العميق أيضا بما آل إليه العالم الإسلامى من فساد ، وإحساس عميق بخطر الاستعمار . يتجلى هذا كله فى الخطاب الذى وجه إلى أهل مصر . ففيه ثورة على الاحتلال ورغبة فى إنقاذ الإسلام .

انظر كتبه إلى مصر وملكة انجلترا والسلطان عبد الحميد وملك الحبشة والسنوسى وسلطان واداى وسكت ورابح بن الزبير ، كلها تنبض بهذا الإخلاص ويتجلى عمق إيمانه بما فى تراث الإسلام من قوة وعمق فى محاولة إنشاء حكومة على أسس إسلامية صرفة (١) .

وانتشرت هذه الانتفاضات المهدوية غربا إلى غرب إفريقية ، فقامت حركة أحمد بن محمد المعروف بأحمد لوبو فى منطقة ماسنة .

ادعى الانتساب إلى أسرة الرسول ، ثم اتخذ لقب المهدى ، وعمد إلى إصلاح أمور المسلمين وكانت له كتب إلى المعاصرين من رجال المسلمين تشبهها بالكتب التى

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ صفحات ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٨٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ .

نسبت إلى المهدى . فكان هو الآخر يحس بما يرمى به الإسلام المعاصر وبما يجول فى أفكار المعاصرين من رغبة ملحة فى الإصلاح .

وقد نشر مارسيل ديبوا بعض الرسائل المنسوبة إليه فى كتابه عن تمبكتو وقد توفى سنة ١٨٤٤ بعد أن أعلن الحرب على البدع وحرم الخمر والميسر وخلفه أحمدو شيخو ، وتابع رسالته فى الإصلاح .

وشهد الصومال حركة مماثلة قام بها محمد بن عبد الله حسان ، وهى تشبه من وجوه كثيرة مهدية السودان . فقد كان محمد أحمد الدنقلاوى سامانيا وكان الصومالى صالحيا . وانتهى به الأمر إلى المناداة بنفسه مهديا وأعلن الجهاد على المشركين والأجانب والصوماليين الذين رفضوا الإذعان له .

وظل فى جهاده يناضل البريطانيين حتى توفى سنة ١٩٢٠ . فكانت دعوة وطنية دينية مخلصة ترمى إلى توحيد القبائل تحت لواء الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية وطرد العدو الأجنبى (١) .

وامتدت حركات الإصلاح إلى الطرق الصوفية فقد عمتها نهضة شاملة فعادت الطرق الصوفية القديمة إلى الانتشار ، ونشأت فرق صوفية جديدة ، وزاد نشاط التيجانية والقادرية وتفشت المرغنية فى شرق إفريقية .

واتحدت أهداف المصلحين مع أهداف الصوفية بسبب التقائهما فى مقاومة الحضارة الغربية والنفوذ الأوربى والنزعة المادية والتبشير المسيحى (٢) .

واتخذ بعضها طابعاً تبشيرياً صرفاً مثل القادرية والسنوسية ، واتخذ بعضها الآخر طابعاً حربياً مثل التيجانية . وقد خلصت هذه النهضة الدعوة الإسلامية من ركود القرن السابع عشر والثامن عشر (٣) .

وظهر أثر هذه النهضة الصوفية فى إفريقية أيضاً ممثلا فى نشاط المرغنية وغيرها من الطرق كما ظهر فى الدور الذى قامت به السنوسية ، لكنه ظهرت حركات

---

(١) عابدين : تاريخ الحبشة ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) Gibb ; op. cit. pp. 29—32.

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٠ .

تيجانية ذات طابع عسكري فى غرب إفريقية على يد الحاج عمر فى بلاد فوتا جنوب السنغال الأدنى ، وكان قد ذهب حاجا إلى مكة سنة ١٨١٠ ، وانضوى تحت لواء التيجانية ، وأصبح مقدمها فى غرب إفريقية وتجول فى مصر وبلاد برنو وسكت ، وأنشأ رباطا فى فوتا جالون تشبها بعبد الله بن ياسين اللمتونى ، ثم جمع الأنصار وأعلن الجهاد سنة ١٨٤٨ ، ولم يوقف نشاطه إلا الاحتلال الفرنسى (١) سنة ١٨٧٠ .

وقامت حركة من هذا النوع فى جنوب سنغامبيا على يد أحد الماندنجو يدعى صمدو الذى اتجه اتجاها مماثلا لاتجاه الحاج عمر ، وبلغت حركته أوجها سنة ١٨٨١ وقضى الفرنسيون عليها وأسروه سنة ١٨٩٨(٢) .

وامتدت حركة الإصلاح الصوفى إلى بلاد السنغال وقامت طائفة المريدية أسسها أمادو بامبا الذى تتلمذ على الشيخ سيديا سنة ١٩٢١ ، وأنشأ طريقة جديدة اسمها المريدية ، وهى أصلا من القادرية ، ولكنها تتجه إلى الخضوع المطلق لشيخ الطريقة ، وهى تجسم من قيمة العمل اليدوى . وقد انتشرت هذه الطريقة فى السنغال واستطاعت أن تجتذب الكثير من الأنصار ، أصبح أنصارها سنة ١٩٥٢ نحواً من ٣٥٠ ألف مريد(٣) .

وانتهت انتفاضات القرن التاسع عشر وحركاته الإصلاحية ولم تستطع أن تنقذ العالم الإسلامى من المصير المحتوم .

واستسلم المسلمون ونشر الاستعمار نفوذه فى القارة الإفريقية فى شمالها وغربها ووسطها وشرقها وخضعت الثقافة الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين للتأثيرات الغربية على نطاق واسع ، واختلفت مناهج المستعمرين وأساليبهم فى معالجة أمور أمور المسلمين فى إفريقية والنظر إلى حضارتهم وثقافتهم .

---

(١) Dubois ; Toumbctou pp. 152–162.
L'Islam noir p. 60, Fage pp. 147–148.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٨٦ — ٣٩٦ .

(٣) Massignon ; Annuaire du monde musulman p. 914.

فالفرنسيون رأوا في الإسلام وحضارته وتعاليمه وروحه التي توحد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم خطراً أسموه بالخطر الإسلامي Le Peril de l'islam فعملوا على محاربته والحيلولة دون توسعه وانتشاره والإبقاء على المجتمعات الوثنية، فلم تستطيع هذه الأساليب أن تنال من روح المسلمين ؛ وعمدوا إلى إقامة نوع من التوازن بين الإسلام والوثنية(١) وذلك بالمحافظة على النظم المحلية والإبقاء على نفوذ الزعماء وتضيق نطاق العادات القبلية .

ولم تأت هذه السياسة بالنتيجة المنتظرة إذ ليس من المعقول أن تنافس التقاليد الوثنية النظم الإسلامية ، واضطرت فرنسا إلى أن تعدل هذه السياسة أخيراً .

والبريطانيون كانت لهم أيضا سياستهم الخاصة فعمدوا إلى تفتيت القوى الإسلامية في كل قطر دان لحكمهم . فعلوا هذا في مصر وشرق إفريقية ، وفي نيجيريا فصلوا أهل الشمال عن الجنوب ، وأثاروا بين صفوفهم المحن والعداوات ، وأثاروا حرب الطبقات وضربوا على الأوطان الإسلامية نطاقاً يحول بينها وبين أن تتصل وأن تتعاون وأن تتبادل التأثير . ؟

إلى جانب هذا نشروا التعليم الغربي على نطاق واسع . فرض الفرنسيون لغتهم وثقافتهم في البلاد التي دخلوها في شمال إفريقية وفي غربها وشرقها . وفعل البريطانيون نفس الشيء ، وانتشرت المدارس والجامعات البريطانية في أكرا بساحل الذهب ، (وإبادان بنيجيريا) . وفي كمبالا بأوغنـــده وفي كينيا وتنجانيقا وزنجبار . وقام المبشرون المسيحيون بنشاط ملحوظ في هذا الميدان الثقافي (٢) .

ولم تفلح هـــذه الجهود في قهر الروح الإسلامية أو النيل من ثقافة الإسلام ، بل من الغريب أن هذه السياسة قد شدت آزر الإسلام من حيث لا يريدون . فقد كان هذا الإسراف سببا في نمو روح المقاومة وحافزاً للمسلمين للمحافظة على بقائهم والتشبث بثقافتهم الموروثة بكل ما يملكون من قوة (٣) .

---

(١) Anderson ; Islamic law in Africa p, 1.

(٢) Trimingham : Christian Church pp. 4-6.

(٣) Turner : Impact of Western education, Africa to day p. 147.

يظهر هذا كله بصورة واضحة فى المناطق التى خضعت للفرنسيين، ظهرت هذه الروح المحافظة فى بلاد المغرب، فى تونس والجزائر ومراكش؛ بل ظهرت فى المناطق الإسلامية فى غرب إفريقية. وظهرت هذه الروح أيضاً فى المناطق التى خضعت للبريطانيين خصوصاً بين مسلمى نيجيريا الشمالية وهم لازالوا حتى اليوم شديدو التمسك بهذه التقاليد.

ولم يجد الغربيون بدأ من مهادنة هـذه القوى الإسلامية. فاعترفوا بالإسلام رسميا، وطبقوا الشريعة الإسلامية، ومنحوا المسلمين مزيجا من الحريات المدنية والدينية.

ظهر هذا كله فى المناطق التى خضعت لنفوذ بريطانيا، بل ظهر أيضاً فى المناطق التى خضعت لنفوذ فرنسا، إذ غير الفرنسيون سياسة محاربة القوى الإسلامية إلى مهادنتها والإفادة منها (١).

ولم يحل هذا النضال دون تسرب بعض المؤثرات الغربية إلى أوساط المسلمين خصـــوصا فى التعليم المدنى وفى تطبيق القانون الغربى فى بعض النواحى وتطبيق النظم الغربية.

كما بدأ المسلمون فى السنين الأخيرة يخرجون عن سلبيتهم القديمة ويقبلون على التعليم الغربى مع عدم إهمال ثقافتهم الإسلامية، وبرز كثيرون منهم فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية (٢).

ثم بدأت طلائع النهضة الحديثة والحركات التحررية فى النصف الثانى من القرن العشرين تغذى المسلمين بقوى جديدة وتشد أزرهم فى كفاحهم مع الاستعمار وثقافته الغربية.

ووجد رواد النهضة فى مصر وفى غيرها من البلدان الإسلامية المتحررة، كما يقول الأستاذ Harold Smith أن الحضارة الإسلامية التى رماه أعداؤها بالجمود ذات قابلية غريبه للنهوض إلى مستوى الغربيين.

---

(١) Trimingham : Christian Church pp. 4–6.

(٢) Unity and varieiy pp. 335–348.

فهذه الحضارة ذات أساس متين يمكن من الإصلاح فى ميدان السياسة الاجتماعية فإن مافى نظام الإسلام الأساسى من مساواة وديمقراطية يصلح أن تنبع منه أية حركة اجتماعية ترمى إلى التخفيف من الحرمان والفقر اللذين تعانيهما أية طائفة .

والمسلمون يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الأخلاقية الأساسية فى الإسلام فى المطالبة بإصدار تشريع يكون من شأنه رفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة ، ومنح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم .

وفى الميدان القانونى يستطيع المجتمع الإسلامى أن يدرك أن وراء جميع القوانين الإنسانية قانوناً إلهياً ثابتاً ، وليست القوانين الإنسانية فى أحسن صورها إلا تقريبا للقانون الإلهى . وهذا من شأنه أن يشعر المشرعين بالحرية فى أن يلائموا بين قوانينهم وبين الأحوال المتغيرة فى العالم الحديث .

وفى الميدان السياسى يستطيع العالم الإسلامى أن ينمى فلسفته الخاصة المميزة دون تقليد للأشكال الغربية ، فالإسلام يعترف بالقيمة الذاتية للفرد باعتباره مدينا بوجوده لله ولا يمكن أن يقبل مايقضى على الفردية ولا يمكن أن يقبل الرأسمالية الطاغية التى تسود أمم الغرب .

فبدأت النهضات الحديثة تعود إلى هذه الأصول الإسلامية القديمة وتلائم بينها وبين خير ما ورد فى النهضات الغربية الجديدة . وبدأت مقدمات الثقافة العربية الحديثة الجامعة بين هذين المؤثرين تتضح وتنتشر من مدارس مصر وجامعاتها الى أرجاء العالم كله .

وبدأ المسلمون فى إفريقية الذين كانوا حتى أول هذا القرن يقفون من هذه الثقافة الغربية وقفة الحذر الخائف يتعلمون فى مصر أصول هذه النهضة الجديدة ، أو بمعنى آخر بدأ العالم الإسلامى فى ميدان النهضة الفكرية يقف على قدميه فى مواجهة الغرب ، وقد غذت هذه النهضة الحركات التحريرية التى انبعثت من مصر وامتدت إلى آسيا وإفريقية .

انتشار العقيدة الإسلامية :

والظاهرة الثانية هي إنتشار العقيدة الإسلامية وقد خضع انتشارها للظروف التي خضعت لها الثقافة الإسلامية ، وواجهت نفس المشاكل تقريباً .

فكما التقت الثقافة العربية بالثقافات القـديمة كذلك التقى الإسلام بديانات قديمة توطدت أقدامها في القارة قبل ظهور الإسلام بوقت كبير .

فاليهودية مثلا كانت بعض جذورها قد استقرت بمدينة الاسكندرية ، وكانت قد نفذت أيضا إلى بعض مدن شمال إفريقية ، بل وصلت إلى المغرب الأقصى(١) .

وكانت المسيحية قد استقرت في وادى النيل وانتشرت على نطاق واسع اعتبارا من القرن الرابع الميلادى ، وامتدت إلى شمال إفريقية ، فانتشرت في المدن الساحلية وفي نطاق السهل الساحلي ، ونفذت تأثيراتها إلى المغرب الأقصى والمناطق الداخلية .

ولم يقف التيار المسيحى عند هذا الحد فقد دخلت المسيحية بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين وانتشرت بمضى الوقت في بلاد النوبة كلها . ومضت في طريقها جنوبا ، فامتدت إلى سنار وكانت الكنائس والأديرة منتشرة على جانبي النيل في جزيرة مروى وعلى جانبي النيل الأزرق .

وقد عاشت المسيحية في السودان نحوا من تسعة قرون حتى قضى عليها الإسلام(٢) كما انتشرت بين شعوب المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بين البلميين (Blemyes) وهم الذين يطلق عليهم كثير من المؤرخين إسم البجاة وهم الذين يتكونون في العصر الحاضر من البشاريين وبنى عامر والهدندوة وغيرهم .

واعتنق كثيرون منهم المسيحية في القرن السادس الميلادى ووصلت المسيحية إلى أوج انتشارها حول منتصف القرن الثانى عشر(٣) .

---

(١) Palmer ; The Bornu, Sahara and Sudan p. 61, 204, 276.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ج ١ ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٣ .

وكانت المسيحية قد نفذت إلى الهضبة الحبشية على أحد رجال الدين الاسكندريين ويدعى فرومنتيوس حوالى سنة ٣٣٠ ، أى فى حكم «غيرانا» الذى كان أول ملوك الأحباش اعتناقاً للمسيحية (١) .

وقد انتشرت التأثيرات المسيحية من الحبشة وامتدت حتى ساحل البحر الأحمر.

ولم تقف المسيحية عند حدود سودان وادى النيل، بل نفذت من المسالك الموصلة بين بلاد النوبة وغرب إفريقية .

ويرى بالمر أنها انتشرت فى منطقة بحيرة شاد ووصلت إلى برنووغوبير منحدرة من بلاد النوبة فى القرن الثالث عشر (٢) ، ومن المغرب نفذت بعض التأثيرات المسيحية جنوباً حتى أدركت دولة غانة • ويرى ميك أن دين غانة القديم خليط بين المسيحية والوثنية (٣) .

وقد دخل الإسلام مصر فى ركاب الفتح العربى ثم دخل المغرب مع الفتح العربى أيضاً ، ثم انتشر الإسلام فى مصر انتشاراً عظيما إعتباراً من القرن الثالث الهجرى وبقيت معالم من الكنيسة المصرية .

وفى بلاد المغرب اختفت المسيحية تماماً منذ القرن الرابع الهجرى ، واتخذ المغرب صبغة إسلامية بحتة .

ولا نريد أن نشايع ما انتهى إليه أرنولد (٤) فى كتابه الدعوة إلى الإسلام من تعليل لانتشار الإسلام فى هذه المناطق بسبب ما أصاب الكنيسة المسيحية من ضعف أو بسبب فساد رجال الدين ، فنحن لا نشك فى أن الناس دخلوا فى الإسلام غير غير مكرهين ، تدفعهم إلى ذلك ظروف كثيرة منها مغريات الدين نفسه ، وما يعقب اعتناقه من تغيرات اجتماعية أو سياسية وربما مادية ، وكان للدعوة السلمية إلى الدين أثرها الواضح فى دفع التيار الإسلامى إلى الأمام .

---

(١) عابدين : الحبشة ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) Palmer ; Op. cit. p. 61, 204, 276.

(٣) Meek ; Northern Nigeria, Vol. 1. p. 72.

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦ — ١٢٩ .

وبدأ الإسلام ينفذ إلى بلاد النوبة بعد فتح مصر ، ثم انتشر في هذه البلاد على يد القبائل العربية التي بدأت تغادر مضاربها في مصر وتنطلق نحو الجنوب ، وقد استمر الصراع بين الإسلام والمسيحية في بلاد النوبة حتى انهيار ممالك النوبة المسيحية وانفساح المجال أمام الهجرات العربية تمضي في طريقها إلى الجنوب .

ثم اندفع التيار الإسلامي نحو الغرب إلى كردفان ودارفور ، ومنها إلى ما جاورها غرباً .

كما اندفعت التأثيرات الإسلامية عبر المسالك الموصلة بين المغرب والنطاق الشمالي من السودان الغربي آتية على التأثيرات المسيحية التي دخلت البلاد ثم غلبت الصبغة الإسلامية على هذه الجهات آخر الأمر .

وفي شرق إفريقية نفذ الإسلام إلى أرض البجاة ، وانتشر في المناطق الساحلية وأخذ يغزو الهضبة الحبشية نفسها .

ولم يكتب للإسلام أن يتفوق على هذا النحو إلا بعد نضال وبعد مقاومة عنيفة من جانب المسيحية نفسها ، فقد ظلت المسيحية في النوبة تقاوم نحواً من تسعة قرون(١) وظلت الحبشة تقاوم حتى مستهل القرن العشرين ، واستطاعت أن تحسر التيار الإسلامي الذي بلغ الغاية في حركة أحمد بن إبراهيم في القرن السادس عشر واحتفظت المسيحية بهضبة الحبشة ولا زالت محتفظة بها حتى اليوم .

بعد هذا التوسع العظيم الذي بلغته القوى الإسلامية بدأت القوى المسيحية تلتقط أنفاسها وتقوم بهجوم مضاد سيكون له أكبر الأثر في تاريخ النضال بين الإسلام والمسيحية في إفريقية .

ويجب ألا نعتقد أن التوسع العظيم للمسيحية أو بمعنى آخر بداية الهجوم المضاد للمسيحية إلى القرن التاسع عشر فقط ، القرن الذي وصل فيه النفوذ الاستعماري إلى أوج قوته وسلطانه ، إنما كان التطور الذي شهده القرن التاسع عشر زعماً خاتمة الحلقات المتصلات التي ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي ، بل إلى ما قبله بكثير . ترجع إلى نمو حركة الاسترداد في اسبانيا بعد سقوط الخلافة الأموية ونمو القوى النصرانية

(١) Carpenter ; The Role of Christianity and Islam in Contemporary ofrce Africa to day, pp. 90–113.

وإحداقها بالمسلمين فى الأندلس ، ثم استيلاء النورمان على صقلية والمهدية، وإحرازهم النصر فى معركة السيادة فى البحر الأبيض المتوسط ، ثم قيام المد الصليبي المعروف الذى استولى على بيت المقدس وهدد قلب العالم الإسلامى الخافق .

وإذا كان المسلمون قد دافعوا الصليبيين وطردوهم من الشام واستردوا مدينة المهدية، إلا أن النورمان بقوا فى صقلية ، ومضت القوى المسيحية فى أسبانيا فى تقدمها حتى انتهى الأمر بطرد المسلمين من الأندلس نهائياً .

ثم تابعت القوى المسيحية هذا النصر فى القرن الخامس عشر، حينما بدأ البرتغاليون يدورون حول إفريقية ليصلوا إلى أسواق الشرق الأقصى أو ليتصلوا بالمسيحية فى الحبشة للقيام بجهد مشترك لمهاجمة المسلمين من الخلف .

وكان الجهاد بين المسلمين والحبشة قد اتخذ طابعاً صليبياً منذ بداية العصر المملوكى ، واشترك المماليك فى هذه المعركة الدائرة الرحى فى شرق إفريقية (١) .

ووصل المد الإسلامى إلى غايته فى عهد أحمد القرين فى الوقت الذى ظهر فيه البرتغاليون على مسرح الحوادث فى شرق إفريقية . فقد انتهى عهد الكشوف التى استهلها هنرى الملاح (٢) باكتشاف الطريق إلى الشرق ، وفتح البرتغاليون صفحة جديدة فى تاريخ إفريقية وفى سنة ١٤٩٣ ضرب فاسكوداجاما ميناء مقدشو بالقنابل، واستولى سنة ١٥٠٧ على جزيرة سوقطرى فى مدخل البحر الأحمر . وقد اجتمع المسلمون الواقعة أراضيهم حول البحر لسحق الخطر البرتغالى ولكنهم فشلوا(٣) .

وأدرك الأحباش أهمية هذه القوة الجديدة التى ظهرت فى سماء شرق إفريقية ، ففكروا فى مد يدهم للبرتغاليين والاستعانة بهم على مدافعة المسلمين .

وضح هذا التفكير فى عهد الامبراطورة هيلانة ، وكان هذا الاتجاه قد خطر على بال Pedro de Oovalha والملك جون الثانى ملك البرتغال سنة ١٤٧٨ ، حينما علم لأول مرة بوجود دولة مسيحية فى إفريقية .

---

(١) المقريزى : الإلمام ص ٧-٨ .

(٢) Fage : West Afric pp. 43-44.

(٣) Trimingham ; Islam In Ethiopia pp, 81-75.

وقد وصل بدرو إلى الحبشة سنة ١٤٩٤ ، واقترح إنشاء تحالف بين الحبشة والبرتغال . وقد اشترك البرتغاليون فعلا فى هذه المعركة الصليبية حين تدخلوا فى الصراع القائم بين أحمد القرين وبين الأحباش ، فنزلوا فى مصوع واشتركوا فى القتال سنة ١٥٤٣ (١) .

وهزم أحمد القرين هزيمة أضاعت هيبته فى نفوس أنصاره . ولم تقو انتصاراته اللاحقة على رد هذا الاعتبار المفقود .

ثم دخل الأتراك العثمانيون ميدان هذا الصراع بين الإسلام والمسيحية، فى الربع الأول من القرن السادس عشر بدأ العثمانيون يغزون البلاد الإسلامية ، فتحوا الشام ومصر وبعض مدن المغرب ، وسواحل بلاد العرب بين سنتى ١٥١٢و١٥١٧ .

ولم يستطع العثمانيون أن يفيدوا من هذه الظروف ، فمثلا لم يفتحوا المغرب الأقصى ليقفلوا الطريق الدائر حول إفريقية . كما أنهم لما وصلوا إلى البحر الأحمر والطريق الموصل للهند ، وجدوا البرتغاليين قد استولوا على مواقع هامة ، إذ سيطروا على المحيط الهندى ، وبقى النفوذ العثمانى قاصرا على البحر الأحمر .

ثم اطرد تقدم القوى المسيحية فى الوقت الذى بدأ فيه العثمانيون الذين تزعموا حركة الدفاع عن الإسلام يمضون حثيثاً نحو الضعف . وكان معنى ضعفهم من ناحية وقوة الأوربيين من ناحية أخرى ، وقوع إفريقية فريسة سهلة فى يد القوى الغربية النامية (٢) .

وكما واجهت الثقافة العربية مشكلة الحضارة الغربية الوافدة فى ظل الاستعمار ، كذلك واجه الإسلام مشكلة مماثلة ، فقد واجه نشاطا فائقا للتبشير بالمسيحية ، وشهد منافسة كبرى بينه وبين الغربيين الوافدين على اكتساب الوثنيين .

---

(١) Trimingham ; Islam in Ethiopia pp. 67-68.

(٢) Trimingham ; op. cit. pp. 97-98.

وقد بدأ انتشار المسيحية في ظل الاستعمار ببداية التوسع الاستعماري نفسه . فبعد أن أتم البرتغاليون استكشاف سواحل إفريقية أنشأوا مراكز للتبشير في ساحل الذهب ومصب نهر الكنغو ، وفي عام ١٤٩١ اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحي .

ولكن هذه الجهود لم تأت بالثمار المرجوة . وفي سنة ١٦١٠ أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية بمستعمرة أنجولا ولكنهم لم ينجحوا في نشر المسيحيـة في داخل البلاد .

وامتد نشاط البرتغاليين إلى الساحل الشرقي لأفريقية . فقد اعتنق الملك مونوتابا المسيحية في سنة ١٥٦١ ، واستقر الآباء اليسوعيون والدومينيكان في حوض نهر زمبيزي . وفي عام ١٦٣٠ اعتنق زعيم ممبسة المسيحية . ولم تثمر هذه الجهود الثمار المرجوة أيضاً ، فلم يبق في أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية إلا نفر قليل .

ثم دخل الإسبان ميدان التبشير ، وأرسلوا عدة بعثات تبشيرية خصوصاً في مملكة داهومي ، وقام الفرنسيون بجهود مماثلة ، إلا أن الحروب في القارة الأوربية قضت على كل هذه المحاولات ، ولم تبق إلا نواة صغيرة من الكاثوليك في مدينة سانت لويس (١) . وأدلى البروتستانت بدلوهم في الدلاء ، وفي سنة ١٦٦٥ نزل إلى مستعمرة الرأس أول قسيس بروتستنتي .

على كل حال في بداية القرن التاسع عشر لم تكن للمسيحية قدم ثابتة في أي مكان من افريقيا السوداء إذا استثنينا فئات قليلة على الساحل .

ثم بدأ النشاط المسيحي يسترد قوته في القرن التاسع عشر ويسير سيراً مطرداً ، فعاودت المسيحية انتشارها في شرق إفريقية بعد أن سيطر الإنجليز على زنجبار في سنة ١٨٤٠ ، واستطاع أحد المبشرين أن يستقر في ممبسة وأن يترجم الكتاب المقدس إلى السواحلية ، وأخذ نفوذهم يمتد إلى الداخل .

وفي عام ١٨٦٠ أسست بعثة كاثوليكية للتبشير في مدينة على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار . وبدأت المسيحية تنفذ إلى الداخل بعد اكتشاف منطقة البحيرات

---

(١) دبشان : الديانات في افريقيا السوداء ص ١٥٦ — ١٥٨ .

العظمى ، فقد استقر المبشرون فى تنجانيقا ، وفى كينيا ، وتطرقوا إلى أوغنده عام ١٨٧٤ .

ويرجع الفضل فى انتشار المسيحية فى أوغنده إلى وجود بعض المبشرين وهم فى الغالب من أصل فرنسى .

أما الكونغو البلجيكى فقد أرسل إليه الملك ليوبولد الثانى بعثات تبشير بلجيكية ، وأرسل البروتستنت الإنجليز والأمريكان بعوثاً مماثلة .

وامتد هذا النشاط إلى غرب إفريقية فى نفس الوقت تقريباً ، فمنذ عام ١٨١٥ عقب تحريم تجارة الرقيق نزلت بعوث تبشيرية بروتستنتية فى كل من ليبريا وسيراليون ونزلت البعثة السويسرية إلى ساحل الذهب وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل الفانتى .

ثم أسست كنيسة محلية خاصة بالزنوج فى ساحل العاج . وعملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوب نيجيريا ، كما عملت بعوث أخرى فى شمالها (١) .

إذن اشتركت فى نشر المسيحية فى إفريقية أكثر الأمم المسيحية : الأمم الكاثوليكية والأمم البروتستنتية على حد سواء (٢) .

وقد كان من أهم العوامل التى ساعدت على نشر المسيحية فى القرن التاسع عشر تغير نظرة المبشرين إلى الديانات الوثنية ، فقد كان هؤلاء أول الأمر ينظرون إلى هذه الديانات نظرة احتقار ، وانصرفت جهودهم الأولى إلى محوها من نفوس الزنوج .

غير أن المبشرين بدأوا يستعينون بعلم الأجناس ويفرضون على أعضاء البعوث التبشيرية قبل أن يقصدوا تلك الجهات اتباع خطة مرسومة تقضى بدراسة البيئات دراسة شاملة وفهم نظمها الاجتماعية ولغاتها .

وعمد المبشرون إلى الإختلاط بالسكان والتعاون معهم فى كل مناسبة ، وترجمت الكتب المقدسة إلى اللغات المحلية وفرضت على هؤلاء المبشرين مهام اجتماعية وثقافية .

---

(١) Fage ; West Africal pp. 119–122

(٢) Carpenter ; The Role of Christianity, Africa to day pp. 90–113.

وبدأت الكنائس المحلية ، تعين قساوسة من الإفريقيين حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكارا للجنس الأبيض .

بدأ هؤلاء المبشرون يتوسلون بوسيلتين بالغتي الخطورة : أولاهما الخدمة الطبية بإنشاء المستشفيات ، أنشئت مئات المستشفيات والعيادات فعملت على تنمية العلاقات بين المبشرين وأهل البلاد .

ثانيهما : إنشاء المدارس المسيحية ، أنشأ المبشرون فى أفريقيا الزنجية المدارس قبل أن تبدأ الحكومات ، بل اضطرت بعض الحكومات إلى أن تعهد للمبشرين بمهمة التعليم . وقد التحق بهذه المدارس مئات الألوف ، بل أصبح نحواً من ٨٥ ٪ من المدارس الأولية فى المناطق غير الإسلامية فى يد المؤسسات التبشيرية ، خصوصاً فى الكنغو .

وفى الحق كانت حركات المبشرين ، الطليعة الأولى فى ميدان نشر الثقافة الغربية فى إفريقية إذ قامت بنشاط عظيم فى ميدان التعليم ، ولا تزال هذه الجماعات تزاول هذا النشاط حتى اليوم .

غير أن الحكومات المعنية لم تجد مفراً فى أغلب جهات إفريقية من أن تشرف على التعليم بنفسها ، وأن تشد أزر الجمعيات الدينية ، وأن تجعل هذا التعليم أداة للتقريب بينها وبين الشعوب المحكومة ، كما وجدت فى تشجيع هذا التعليم ونشره منافسة للتوسع الإسلامى الذى ينمى العلم ويبث المعرفة .

وقد قطع التعليم الغربى شوطاً بعيداً نحو التقدم فى غرب إفريقية خصوصاً فى نيجيريا وساحل الذهب ، ففى نيجيريا فى السنوات الأخيرة أعد مشروع العشر سنوات للنهوض بجميع أنواع التعليم ، وتشجع الحكومة البريطانية هذا التعليم باللغات المحلية .

وقامت بريطانيا بنشاط مماثل فى ساحل الذهب بحيث بلغ عدد الأطفال المسجلين فى التعليم الابتدائى سنة ١٩٥٠ نحواً من ٢١٢ ألفا ، وامتد هذا النشاط إلى مناطق النفوذ البريطانى فى شرق إفريقية : فى كنيا وتنجانيقا وزنجبار .

وأنشئت جامعة ماكريرى فى أوغندة وفتحت أمام جميع الأجناس منذ عام ١٩٥٣ ، ويقترح إنشاء جامعة لوسط إفريقية فى سالسبورى بجنوب روديسيا(١) .

ولم يغفل المبشرون الفرنسيون ولم تغفل الحكومة الفرنسية أمر التعليم فى الجهات التى تخضع لنفوذها . وهى تهيء نوعين من التعليم ، نوع للأوربيين والثانى لأهل البلاد الأصليين ،فتنشيء المدارس العامة والفنية والعالية . وفى المناطق الإسلامية تنشيء الحكومة الفرنسية مدارس لأبناء الزعماء تخضع لإشراف الحكومة وتعلم الشريعة الإسلامية والفلسفة إلى جانب اللغة العربية . ودب مثل هذا النشاط فى المناطق البلجيكية والبرتغالية .

وقد بقى لنا أن نتساءل هل نجحت الجماعات التبشيرية فى أداء رسالتها التعليمية على الوجه الأكمل ، وهل نجحت الحكومات التى تساندها وتظاهرها فى تحقيق أهدافها العلمية والثقافية ؟

عرض الأستاذ لورنزو تيرنر Lorenzo Turner (٢) لنتائج هذا التعليم التبشيرى الغربى فى الوطن الافريقى . عدد أدواءه ومساوئه . فذكر أن هذه الحركة التعليميه التى وضعت لخدمة التبشير والاستعمار تركت أسوأ الأثر فى الناحية الاقتصادية : فقد بدأ الأفريقيون يتركون وسائلهم التقليدية لكسب الرزق . ولم يستطع النظام الجديد أن يعوضهم عنها شيئاً ، والمفروض أن التعليم الذى رسمه الأوربيون لأهل البلاد كاف لجعلهم متطورين مع الحياة الجديدة .

غير أن التعليم فى المناطق البلجيكية والفرنسية يفقد الناس صفتهم الإفريقية ، ويجعلهم فرنسيين أو بلجيكيين ، والتعليم فى المناطق البريطانية لا يهيء فرص التدريب المهنى إلا لعدد محدود من أهل البلاد .

وترك هذا التعليم أثرا أيضا فى هـــذه الناحية فقد زلزل إيمانهم بالمسيحية لأن جمهور الافريقيين الذين اعتنقوا المسيحية رأوا أن مبادىء هـــذا الدين لا يطبقها الأوربيون الذين يعيشون بين أظهرهم ، وأن المبشرين لا يحترمون تقاليد البلاد .

---

(١) Carpenter : The Role of Christianity, Africa to day p. 90.

(٢) L.D. Turner : The Empact of Western education on the african way of life, African to day p. 147.

بل ترك هذا التعليم أثراً أسوأ فى الميدان الاجتماعى ، فقد قطع صلة الناس بماضيهم ، وحارب تقاليد اجتماعية جرت فى جسمهم مجرى الدم . فقد لوحظ أن أن الإفريقى الذى تعلم على هذا النحو لا يصلح للحياة بين الأوربيين أو الإفريقين . فاضطربت نظم الأسرة وتعقدت مشاكلها الاجتماعية ، كما خلق هذا التعليم هوة عميقة بين الرجـــل والمرأة ، فهو يعنى بالرجل ويترك المرأة على حالها ، فيقل إقبال المتعلمين على الزواج من الزوجات غير المتعلمات .

والأمر الذى نريد أن نبينه هو مدى نجاح حركة التبشير بوسائلها الدينية والتعليمية فى الانتشار فى إفريقية . ومدى إقبال الشعوب الوثنية على الدين الذى تدعو إليه . وهل استطاعت أن تجارى الإسلام فى قوته وسعة انتشاره ، وأيهما أكثر قبولا لدى أهل البلاد ، الإسلام أم المسيحية وأيهما أكثر ملاءمة لأحوال النـــاس وحياتهم وتقاليدهم وعاداتهم ؟ وأيهما أقوى على البقاء وأقدر على المقاومة ؟ ولمن الغلبة فى هذا العراك بعيد الأثر فى مستقبل إفريقية والإفريقيين ؟ .

والحقيقة ان حركة التبشير بالمسيحية بين أوساط الوثنيين لم تنجح النجاح المنشود بعد جهود استغرقت أكثر من نصف قرن ، فالكنيسة فى إفريقية لا تضم أكثر من ٢١ مليوناً من المسيحيين من أهل البلاد بين بروتستانت أو كاثوليك على حين تعداد القارة كلها ١٩٨ مليونا .

أعنى أن النسبة لم تتعد ١٠ ٪ من سكان القارة ، وهو نجاح ضئيل إذا قيس بمقاييس الجهود التى أنفقت ، وهذه ظاهرة فى حاجة إلى مزيد من التوضيح ويمكننا أن نعلل ذلك بأسباب عديدة .

منها ما ينسب إلى الأحوال السياسية للدول الأووبية المستعمرة ، فبانقضاء القرن التاسع عشر وبزوغ شمس القرن العشرين اختل توازن القوى فى أوربا ودخلت الدول الكبرى فى صراع من أجل السيادة ، وانتقل هذا الصراع كله إلى القارة الإفريقية فوجد أهل البلاد أن المستعمرين البيض منقسمون على أنفسهم متعادون كما انقسمت دولهم وتعادت ، فلم تستطع دول أوربا أن تتعاون فى جهد مشترك .

ولا ننسى ما جرته الحروب العالمية من تغير فى حدود مستعمرات إفريقية ، ووضع هذه الحدود قوم من الساسة لا يعرفون الكثير عن الجغرافيا البشرية للقارة ولا عن ظروفها الاقتصادية ، أو بعبارة أخرى أصبحت إفريقية (بلقان) أخرى .

ولم تختلف دول أوربا متبنية حركة التبشير سياسياً ، بل اختلفت مذهبياً وانقسم المبشرون إلى بروتستانت وكاثوليك .

وانتقل الصراع التقليدى بين كنائس أوربا إلى كنائس إفريقية .

ورأى أهل البلاد أنفسهم فى حيرة بين الكنائس المتعارضة . بل انقسمت أوربا ثقافياً وأصبحت لغة التبشير والتعلم تختلف باختلاف الدول ، ففى المناطق الفرنسية تسود الفرنسية ، وفى المناطق الانجليزية تسود الإنجليزية وهكذا .

وكما اضطربت دول أوربا على هذا النحو اضطربت مناهج المبشرين ووسائلهم والأستاذ وستر مان يرى أن المبشرين فى الحقيقة يلتزمون طريقين فى التفكير .

ففريق منهم يقف من ثقافات إفريقية موقفاً سلبياً لا يستفيدون من أبحاث الأنثروبولوجيين ، عندهم نظم الغربيين وحياتهم هى المثالية ، وأنه يجب أن تفرض هذه المثل فرضاً ، فإذا اختلفت النظم المحلية فهو كفر ومروق . على حين نجد فريقاً آخر يستفيد من أبحاث علماء الأجناس وتجاربهم واختلاف الوسيلة يستتبع اختلاف الرأى واختلاف الهدف(١) .

وأهم الأسباب فى نظرى أن الدول الأوروبية المتبنية لحركات التبشير تبدو متناقضة بين المثالية والواقع ، مثالية الدعوة المسيحية التى تنادى بالاخاء وواقع التميز العنصرى الواضح .

فالجاليات الأوربية تكاد تكون متفقة فى موقفها من العناصر الوطنية فى القارة والإنجليز والفرنسيون مثلا وإن اختلفوا فى الأهداف إلا أنهم يتفقون فى أمر واحد هو إعطاء المسائل العنصرية أهمية كبرى . والأستاذ Edwin Munger (٢) يقسم إفريقية إلى ثلاث مناطق . (ا) مناطق التميز العنصرى (ب) مناطق الاتحاد العنصرى (حـ) مناطق بين بين .

فالمسيحية حملت الزنجى على أنها دين الأسياد ، والمسيحية التى يتعلمها توحى إليه أنه أحط منزلة من معلمه وأكثر خضوعاً له ، والأدب المسيحى نفسه يكره الزنوج ويحط من قدرهم (٣) .

---

(١) Carpenter : op. cit.

(٢) Africa to day, pp. cit.

(٣) Blyden ; Christtanity, Islam and the Negro race p. 15.

و فوق هذا وذاك ارتبطت المسيحية بالحضارة الأوربية ، وفرضت على الأوربيين نزعة مادية معينة تناقض سمو المسيحية وروحانيتها (١) .

و دخول الزنوج فى المسيحية كان معناه ليس التطور البطىء إنما الطفرة المفاجئة وتغيير أوضاع الزنوج فى بيئاتهم ومجتمعاتهم ، حتى إن هذا التطور كثيراً ما يوصف بأنه (الموت الشخصى) ، (أو الاحتضار المعنوى) للدلالة على خطورة هذه النقلة .

فقد دأب المبشرون على تحريم تعدد الزوجات وعبادة الأسلاف ونحر القرابين والاعتقاد فى السحر ، كما كافحوا عادة المهر وحفلات التلقين وحرموا الزنوج من متع الحياة البريئة فى مجتمعهم ، فسلخوا كل من اعتنق المسيحية عن قومه وعشيرته وعن مشاعر طفولته الحبيبة ، فأصبحوا طبقة غريبة عن مجتمعهم القديم .

يضاف إلى ذلك ما يتعرض له المتنصرون من الزنوج فى كل لحظة من هجمات من لا يستطيعون مقاومتهم . إن تحنان الإنسان إلى عادات طفولته ومداركها أيسر عليه كثيراً من أن يتغلب على نفسه ، ويلزمها عادات جديدة ، وخاصة بين الذين يؤهلهم استعدادهم للاستقلال بالرأى والخروج عن صفوف الجماعة .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أن كثيرين من زعماء القبائل الذين اعتنقوا المسيحية لم يفعلوا ذلك عن اقتناع ، وإنما دخلوا فيها بغية الانتفاع بتأييد البعوث التبشيرية فى تمدين شعوبهم ، وحماية قبائلهم (٢) .

وإذا كانت هذه الظروف قد حدت من انتشار المسيحية فإن ظروفاً أخرى كتبت للإسلام أن ينتشر بين الافريقيين على نطاق واسع حتى أصبح الإسلام بحق دين الإفريقيين .

فالاسلام باستثناء الثورات العسكرية التى حفل بها القرن التاسع عشر لم يفرض على الشعوب الوثنية فرضاً ، ولم يفرض فى ظل حكم أجنبى استعمارى ، إنما حمله قوم من أهل إفريقية نفسها ، قوم اتخذوا صفة التجار أو المعلمين ، فليس غريبا أن يلقى قبولا منهم فهو فى نظرهم دين إفريقى غير دخيل .

---

(١) Trimingham ; Christian Church p. 14.

(٢) ديشان : الديانات فى افريقيا السوداء ص ١٧٤ .

والإسلام لم يستعبد هذه الشعوب إنما أشعرها العزة والكرامة ، وقوى فيهما النزعة إلى الحرية والاستقلال .

لم يقض على نظمهم المحلية ، إنما اكتسبت شكلا جديدا وتلاءمت مع تقاليد الإسلام . ففي المجتمعات الإسلامية فى غرب ووسط إفريقية نجد التعاليم الإسلامية منسجمة مع التقاليد المحلية فهي على حد تعبير بليدن (Healthy Amalgamation) (١)

يضاف إلى هذا أن الإسلام عقيدة سمحة بسيطة ملائمة لكل عصر وبيئة .

والمعروف أن الإسلام يتلاءم مع البيئات التى ينتشر فيها ، ويخلق فى كل منها طابعاً محلياً ، بل هو يناسب الجماعات المختلفة أمزجتها وأذواقها .

فبعضها يرى فيه نظاماً سياسياً يناسب تقاليدها ، فتؤمن به لتشد أزرها فى نضالها من أجل الاستقلال والتخلص من الاستعمار ، أو للتفوق على جيرانها (٢) .

والبعض الآخر تغريه نواحيه الاجتماعية والاقتصادية ، فكل جماعة تستطيع أن تأخذ منه ما تريد . والعبادة فى الإسلام بسيطة غير معقدة لا ترتبط بكنيسة معينة أو رجال دين محترفين (٣) .

ولم يكن الإسلام دينا فحسب ، إنما كان دينا وثقافة متآلفين غير متنافرين كالتنافر بين المسيحية والنزعة المادية للحضارة الغربية .

لذلك ارتبط الإسلام بالعلم ، وكان لهذا الارتباط أثر عظيم فى حياة الزنوج . فالمرء لايكاد يسلم حتى يتعلم القراءة والكتابة ، ويرتفع قدره اجتماعياً كلما زادت ثقافته .

وفى كل مكان تسرب إليه الإسلام انتشرت الكتاتيب وأقبل الافريقيون عليها لرغبتهم فى تعلم القراءة ، وقد أثر فى نفوسهم ارتفاع مستوى إخوانهم المسلمين .

والإسلام فى نظامه التعليمى لا يجعل الهوة سحيقة بين المعلم والمتعلم . بل هو يوثق الصلة بينهما ، على عكس الحال فى النظام التعليمى الذى جلبته المسيحية الغربية . حيث الأوربى المعلم لايعمل على تقريب الهوة بينه وبين من يتلقى العلم عليه (٤) .

(١) Blyden : op. cit. pp. 13-19. ، Meek, Vol. 2, p. 10.

(٢) Carpenter : op. cit.

(٣) Trimingham : Christian Church p. 32.

(٤) Blyden : op. cit. pp. 13-19.

والتفرقة العنصرية التي باعدت في إفهام الزنوج بين الواقعية والمثالية ليس لها محل في الإسلام ، فهو لايعرف حواجز الطبقات ، أو الجنس أو اللون ولاتحول بين زنجي مسلم وبين التمتع بحقوقه السياسية والاجتماعية كاملة .

وتاريخ الإسلام في إفريقية حافل بالأمثلة الكثيرة للسلطنات الزنجية الخالصة التي ارتفع قدرها في نظر المعاصرين جميعاً بصرف النظر عن اللــون أو الجنس : وتاريخ إفريقية حافل بالعلماء السودانيين الذين تعلموا ووصلوا الى مرتبة الإمامة والقضاء والفتيا ، وذاعت مؤلفاتهم في العالم الإسلامي كله .

وهناك ملاحظة طريفة أضافها ترمنجهام مبيناً الفرق بين توقف انتشار المسيحية وبين ذيوع الإسلام ، وهي أن رجال الدين المسلمين يمكن إعدادهم بعــد تدريب بسيط بحفظ سور من القرآن أو معرفة أصول الدين ، ثم هم لايختلفون عن أهل البلاد الأصليين في شيء ، ومن الممكن أن نجد في القرية الواحدة أكثر من معلم من هؤلاء الناس ، على حين نجد الكهنوت الغربي برسومه وتقاليــده معقدا غاية التعقيد (١) .

والإسلام لايأخذ المجتمعات الوثنية بالطفرة إنما يأخذها بالرفق والأناة حتى لا تكون النقلة مفاجئة .

وقد عدد كل من أندرسون وترمنجهام المراحل التي ينتشر بها الإســلام بين الزنوج بقولهما : إنه في المراحل الأولى يقوم التجار أو الفقهاء المسلمون بزيارة البلاد أو يقيمون بها متبركين كما يزورون كهنتهم وترتبط في أذهانهم طقوس المذهب الحيوي بفكرة المسلمين عن الأولياء والجن .

ثم يتقدمون خطوة أبعد من هذه وهي تقليد الصلوات الإسلامية ، ففي الجامبيا وساحل الذهب نجد الوثنيين يحضرون جنائز المسلمين وأعيادهم وصلواتهم ، وفي المراحل الأخيرة يعتنقون الإسلام مباشرة مع الاحتفاظ ببقية من تقاليدهم القديمة(٢).

---

(١) Trimingham : Christian Church. p, 14.

(٢) Anderson : Tropical Africa : Infiltration and expanding horizonl pp. 266-282.

والإسلام فى إفريقية كان دائما عنصر توحيد ، يقاوم عناصر الفرقة Segregaion وله قيمة إيجابية لا تقهر فى تقوية الشعور بالجماعة Loyalty Group ، والقضاء على حواجز اللون والجنس .

ولا ننسى قيمة اللغة العربية كلغة دولية للتفاهم وكعامل من عوامل التوحيد بين المجتمعات الإسلامية فى إفريقية (١) .

ورغم هذا فإن الأستاذ كاربنتر ينتقص من هذه الحقائق الواضحة فيزعم أن الإسلام فى إفريقية كان عقبة فى سبيل التطور والأخذ من الحضارة الغربية .

فهو فى نظره دين محافظ وعبقريته الخلاقة التى ظهرت فى القرون الأولى حل محلها استسلام ورضا بإرادة الله .

ولعله لا ينسى أن المسلمين وقفوا من الحضارة الغربية موقفاً سلبيا حين رأوها تقترن بالتبشير المسيحى وكانوا يخشون إذا أقبلوا عليها أن يتمخض هذا الإقبال عن خضوعهم لسلطان المبشرين .

وقد انقلبت هذه السلبية إيجابية فى السنين الأخيرة خصوصا بعد نجاح حركات التحرير فى مصر وشمال إفريقية ، وقام فى هذه البلاد تعليم إسلامى عربى يأخذ من الحضارة الغربية بنصيب مع عدم إهمال الثقافة الإسلامية (٢) .

ويكفى لإثبات تفوق الإسلام على المسيحية فى إفريقية أن نورد هذه الإحصاءات .

انتشار اللغة العربية :

وانتشار الإسلام كان معناه أيضاً انتشار اللغة العربية كلغة للحديث والمخاطبة والكتابة .

والمعروف أنه قبيل الإسلام كانت الزعامة الثقافية فى جزيرة العرب تتنازعها لغتان : اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية ، وأن هذا التنافس انتهى باضمحلال لغة الجنوب ، بعد أن اضمحلت الدول العربية الجنوبية فى ميدان السياسة والاقتصاد .

---

(١) Carpenter : op. cit.

(٢) Idem.

	وثنيون	مسلمون	النسبة	مسيحيون	العدد الإجمالي
السودان الفرنسي	١ر٥٠٥ر٠٠٠	١ر٨١٠ر٠٠٠	٥٥%	١٧٠٠٠	٣ر٣٣٦٠٠٠
الفولتا الأعلى	٢٤٨٨٠٠٠	٥٥٥٠٠٠	١٧%	٧٠٠٠٠	٣١١٣٠٠٠
غانا	٧٢٨٠٠٠	١٣٨١٠١١	٦٥%	٢٢٠٠٠	١٢٣١٠٠٠
ساحل العاج	١٦٤٢٠٠٠	٣٢٤٠٠٠	١٥%	١٦٣٤٠٠	٢١١٩٠٠٠
النيجر	٣٢٠٠٠٠	١ر٨٠٠ر٠٠٠	٨٥%	٣٩٢٤٠٠٠٠	٣١٢٤٠٠٠
داهومي	٢ر١٥٨٠٠٠	١٧٩٠٠٠	١٧%	١٤٣٠٥٠	١٥٨٠٠٠٠
السنغال	٤٥٠٠٠٠	١٩٦٠ر٠٠٠	٧٨%	٩٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠
منطقة شاد	٦٣٠٥٠٠	٢٦٢١٥٠٠	٧٢%	—	٢٢٥٢٠٠٠
توجو الفرنسية	٨٠٤٠٠٠	٥٠٠٠	٥ %	١٦٠٠٠٥	١٠١٤٠٠٠
توجو البريطانية	٣٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠		٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠
الكرون	٢ر٧٢٩ر٣٠٠	٧٥٠٠٩٠	٨٥%	١٢٦٠٠٠	٣٠٧٢٣٠٠
جنبيا	٢٠٠٠٠	٢٣٥٠٠٠٠	٩٠%	٥٠٠٠	٢٦٠٠٠٠
سيراليون	١ر٧٩٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠	١٦%	٦٠٠٠٠	٢ر٢٠٠ر٠٠٠
ساحل الذهب	٣٣١٨٥٠٠	١٥٠٠٠٠	٣ر٦%	٦٥٠٠٠٠	٤ر١١٨٥٠٠
شمال نيجيريا	٤٦١٦٠٠٠	١١١١١٠٠٠	٦٩%	٥٥٨٠٠٠	١٦٨٣٥٠٠٠
غانا البرتغالية	٢٧٦٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٢٦%	٥٠٠٠	٣٨٠٠٠٠
ليبيريا	٠ر٢٠٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٢٦%	٢٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠

	المسيحية	الإسلام	اليهودية	الوثنية
أرتيريا	٢٩٠٠٠٠	٣٥٩٠٠٠		١٦٥٠٠
الحبشة	٩ر٥٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠٠٠	—
جلاء سدامة	٢٠٠ر٠٠٠	٥٠٠ر٠٠٠		٨٠٠٠٠٠
هرر	٣٠٦١١٧٠	٧٨ر٠٠٠		٥٣١٦٦٣
الدناقل	—	٥٠٠٠٠		—
الحدود الشمالية الغربية	—	٧٥٠٠٠		٨٠٠٠٠
الحدود الجنوبية	٥٠ر٠٠٠	٤٠٠٠٠		٤٠٠٠٠
الصومال الإيطالي	٢٠٠	٥٧٠٠٠٠		١٠٠٠٠
الصومال الفرنسي	—	٣٤٥٠٠٠		—
الصومال البريطاني	—	٤٦٣٨١		—
	٣ر٨٤٦ر٣٧٠	٣ر٢٤٥ر٣٩١	٦٠٠٠٠	١ر٧٣٨ر١٦٣

وانتقلت زعامة العرب إلى لغة الشمال وقبائل الشمال ، وأن الهوة بين اللغتين فى عصر البعثة النبوية كانت غير سحيقة فكان الرسول يفهم لغات الدعاة إلى الإسلام حينما كانوا يفدون إلى بلاد اليمن يدعون الناس إلى الإسلام .

وانتهى الأمر بأن أصبحت لغة الشمال لغة الأدب والكتابة والخطابة والفكر الراقى ؛ وإن الآثار الباقية لشعراء اليمن فى المراحل الأخيرة للعصر الجاهلى كانت تؤلف باللسان العربى وتعلق على أستار الكعبة ليكتب لها الذيوع والانتشار .

وكانت لغة الشمال هى الأخرى قد انقسمت منذ عهد بعيد إلى لهجات فرعية تختلف بعضها عن بعض فى بعض المظاهر الصوتية أو اللفظية أو النحوية لأن اللغة الواحدة كما يقول علماء اللغة إذا انتشرت فوق رقعة واسعة من الأرض تنقسم إلى لهجات فرعية صغرى .

وكانت أهم هذه اللهجات هى لهجة قريش صاحبة البيت العتيق ، وكانت اللهجات الفرعية هذه تتنافس بدورها لزعامة الحياة الفكرية فى بلاد الشمال ، وانتهى أمرها بانتصار لهجة قريش على لهجات القبائل الشمالية الأخرى بسبب ما توافر لقريش من زعامة دينية وسياسية وتفوق اقتصادى .

وكان اختلاف العرب إلى أسواق مكة فى أوقات معلومة مما يشد من أزر هذه اللهجة ويكسبها الغنى اللغوى والشهرة الأدبية ، حتى بعث محمد بن عبد الله ﷺ فى قريش ونزل عليه عليه الوحى بلغتها ، فكان نزول القرآن بها مثبتاً لما أحرزته هذه اللغة من تفوق ومتوجا لحركة طويلة من التطور ، وأصبحت هذه اللغة لغة الدولة الإسلامية فى الحجاز فى عهد الرسول .

ثم حملت إلى الشرق الأدنى مع العرب الفاتحين ، حملت إلى العراق وإيران ثم إلى الشام . ثم دخلت إفريقية مع الفتح العربى لمصر والمغرب ، بل دخلت إلى أسبانيا عبر البحر ، ودخلت إلى غرب إفريقية عن طريق ساحل المحيط الأطلسى .

وما لبثت هذه اللغة أن نافست اللغات السائدة فى العالم القديم ، نافست الفارسية فى إيران والإغريقية فى بلاد الشام والقبطية فى مصر والقوطية فى بلاد الأندلس ولغات إفريقية أخرى .

فما هي اللغات التي نازعت اللغة العربية في إفريقية ، ما هو توزيعها الجغرافي وما هو نصيبها من التوفيق في هذا الصراع الثقافي العام ؟

يرى بعض الباحثين وعلى رأسهم Tucker (١) أن اللغات في إفريقية يمكن حصرها في أربع مجموعات رئيسية :

أولا : مجموعة اللغات السامية وهي في الراجح لغات طارئة مهاجرة من بلاد العرب موطن الساميين القدماء ، منها اللغة الحبشية وهي تنتمي إلى اللغات السامية الجنوبية ، وتقترب كثيراً من لغة اليمن القديمة ، وتنتشر هذه اللهجة إلى الحبشة ومصوع وبعض المناطق في شرق إفريقية ، وبقية قديمة من لهجة الفينيقيين القدماء الذين وفدوا على بلاد المغرب في عهود سحيقة وأسسوا إمارة قرطاجنة ، وبقيت لغتهم السامية من بعدهم يتكلم بها الناس في بعض مدن شمال إفريقية ، وخصوصاً مدينة قرطاجنة ، وهي لغة اختلطت كثيراً بلغات البربر ويسميها العلماء الفرنسيون ومنهم جوتييه باسم Patois ، أي اللغة الدارجة .

ثانيا — مجموعة اللغات الحامية : وتشمل غالبية إفريقية كلها ، وينفسح وطنها ليشمل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي شرقا ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى السنغال والنيجر وجنوب ليبيا وبحر العرب والصومال جنوبا .

ومن المجموعة الحامية : اللغة القبطية وكانت منتشرة في وادي النيل حتى الشلال الأول ، ثم اللغة النوبية وهي إحدى اللغات الحامية في السودان ، وهي التي يتكلمها الآن الكنوز والسكوت والمحس وأهل دنقلة ، وهي ليست عريقة في وادي النيل بل يرجع ظهورها في هذه البلاد إلى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ، ويقال أنها جاءت من جنوب كردفان ، حملها إلى ضفاف النيل بعض سكان غرب السودان المقيمين في جبال النوبة .

وعندما وفدت اللغة النوبية إلى السودان الشمالي وجدت هناك لغة مروى ، فعاشت اللغتان جنباً إلى جنب ، وظلت اللغة النوبية لغة الكلام ولغة مروى لغة الدين والدولة

---

(١) Tucker : The Eastern Sudani languages pp. 66-60.

حتى سقوط مملكة مروى سنة ٣٥٠ م ، وظلت هاتان اللغتان حتى وفدت القبائل العربية ثم بدأ النزاع سافراً بين اللغتين ...

ومن اللغات الحامية فى السودان كذلك لغة التبداوى وهى لغة البجة الذين ينتشرون فى الصحراء الشرقية من مصر إلى كسلا ، ولهجاتهم الرئيسية خمس . لهجة العبابدة والحلنقا والأمرار والبشاريين والهدندوة ، وهذه اللغة بفروعها الخمس أوسع اللغات الحامية انتشاراً .

ومن اللغات الحامية أيضاً لغة البربر فى شمال إفريقية وهى تنتشر فى مساحات واسعة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى ، وهى تتألف من شعبتين : شعبة ساحلية تسود بين قبائل السهل الساحلى ، وشعبة صحراوية تنتشر بين شعوب الطوارق فى شمال الصحراء الكبرى ، وتمتد هذه اللغة جنوباً بشرق حتى بلاد برنو وكانم والتبو ، وجنوباً بغرب حتى شمال نيجيريا ، فلغة الحوصة يظن أنها تنتمى إلى لغات البربر .

ومن هذه اللغات الحامية اللغة الكوشية وهى تسود مساحات واسعة من شرق إفريقيا ، وخصوصاً بلاد الصومال .

ثالثاً : مجموعة اللغات السودانية : وقد حاول العلماء وعلى رأسهم ديلافوس Delafosse الفرنسى إحصاء هذه اللغات فعدد منها ٤٥٠ لغة سودانية زادها إلى ٥٦٠ ثم قسم هذه اللغات على أساس جغرافى إلى ست عشرة مجموعة .

ويخالفه تكر فى هـذا التقسيم ، ويرى أنه من الممكن أن تقسم إلى أربعة أقسام فقط :

١ — السودانية الغربية .

٢ — السودانية الوسطى .

٣ — قسم اختلطت فيه اللغات السودانية بلغة البنتو .

٤ — السودانية الشرقية (١) .

---

(١) Meek : Northern Nigeria vol. II p. 133. 133.

ذكر ميك توزيعاً طيباً لهذه اللغات . انظر ص ١٢٧ .

رابعاً : مجموعة لغات البنتو (١) وحدودها الشمالية نيجيريا فخط تقسيم المياه فالصومال ، ما عدا لغتى البشمن والهوتنتوت .

ويرى بعض الباحثين أن المجموعة الرابعة تتمثل ممتزجة بغيرها فى لغات سكان جبال النوبا .

ومهما يكن من شىء فإن هناك لغات كثيرة فى مناطق كردفان ودارفور ودارفنج لا تزال فى حاجة إلى كشف ودراسة .

ولكن اللغة العربية خرجت على مر الأجيال من هذا الصراع ظافرة متغلبة . غلبت اللغة الفارسية والإغريقية والقبطية وأغلب اللغات الأخرى ، وأصبحت لغة الناس ولغة الثقافة والدولة فى أغلب جهات الشرق الأوسط وشمال إفريقية وبعض جهات أخرى من إفريقية .

فما هى العوامل التى ساعدت على تغلب لغة العرب على هذه اللغات كلها ؟

درس وولنر Woolner هذه الظاهرة فى كتابه « Languages in History and politics » وردها إلى عدة عوامل منها .

العامل الأول الدينى : فقد عمل الدين الإسلامى على انتشار اللغة فحيث انتشر الإسلام واستقرت قواعده انتشرت اللغة العربية .

ولعل ما ساعد على انتشار اللغة العربية على هذا النحو ما أجمع عليه أغلب الأئمة المسلمين من عـدم جواز ترجمة القرآن ، فكان لابد لمن يعرف أسراره أن يقبل على تعلم اللغة العربية ، وكذلك عدم جواز كتابته بغير العربية ، وعدم جواز القراءة بغير العربية فى الصلاة، رغم أن الإمام أبا حنيفة قد أجاز فى بعض الحالات القراءة فى الصلاة بالفارسية ، إلا أن كل الفقهاء تقريباً نهوا عن ذلك .

فكان كل داخل فى الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته ثم يمضى إلى تعـلم اللغة العربية ليزداد تفقهاً فى الدين ، ولعل الإحجام عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية من أهم الأسباب التى أبقت على اللسان العربى وصانت التراث العربى.

العامل الثانى : القرابة السامية لأن الدين وحده ليس كافياً فى تعليل سرعة هذا

---

(١) Meek : Northern Nigeria vol II p. 132.

الإنتشار ، لأن انتشار الأسلام كان أسبق من تعـلم العربية بعدة قرون . بل يعلل انتشار العربية بالقرابة بينها وبين أخواتها الساميات في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية .

العامل الثالث القرابة الحامية : فعلماء اللغات يجمعون على التشابه بين اللغات السامية والحامية . مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية مثلا فى الضمائر وأسماء العدد والتثنية وقواعد الصرف والأصوات الساكنة ، مما دفع بعض الباحثين وعلى رأسهم إرمان الذى يعد حجة فى الدراسات المصرية إلى القول بأنها لغـة الغزاة من الساميين .

العامل الرابع ، العامل الحضارى : فعلماء اللغة يقولون بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضارى متفوق مع لغة أخرى حظها من ذلك التراث قليل ينتهى الأمر بتغلب اللغة الأولى .

وكانت أغلب اللغات الإفريقية قليلة الحظ من الحضارة ، فلم تستطع أن تصمد طويلا أمام لغة العرب وثقافتهم ودينهم ، فخضعت لهذه المؤثرات خضوعا تاما .

فما هى مظاهر انتشار اللغة العربية فى إفريقية أو مدى تأثر اللغات الإفريقية باللغة العربية ؟ .

إن ظاهرة انتشار اللغة العربية فى إفريقية تختلف من قطر إلى قطر سعة مدى فى الانتشار وعمقاً فى التأثير .

فهى مثلا كانت فى مصر أسرع انتشاراً منها فى أى قطر افريقى آخر . كانت الوثائق الإسلامية الأولى من أوراق البردى تكتب بالإغريقية ثم بدأت تكتب باللغتين العربية والإغريقية وبعد تعريب الدواوين فى عهد عبدالملك بدأت هذه الوثائق تكتب بالعربية فقط ، بل امتد التعريب إلى الكتب الدينية نفسها ، فعربت الأناجيل بل دخلت العربية إلى ميدان الكنيسة المصرية . وما كادت تحل سنة ٣١٧ ﻫ إلا واللغة العربية شائعة فى مصر ، بل إن المسيحيين أنفسهم اعتبارا من القرن الرابع الهجرى كتبوا باللغة العربية مثل ساويرس بن المقفع وغيره .

وكان انتشار اللغة العربية فى شمال إفريقية أبطأ منه فى مصر ، والسبب فى ذلك راجع إلى الفرق الواضح بين طبيعة البلدين . فالطبيعة الجبلية التى غلبت على المغرب مكنت قبائل البربر من أن تحتفظ بلغاتها الأولى مدة أطول ، حتى كان القرن الخامس الهجرى وغزو الهلالية لبلاد المغرب فكان هذا الغزو العربى الثانى من أهم العوامل التى ساعدت على إتمام انتصار اللغة العربية .

بل يمكننا أن نربط بين حركة انتشار اللغة العربية ونمو الثقافة الإسلامية فى بلاد المغرب ، فإن هذه الثقافة بلغت الذروة فى القرنين الرابع والخامس الهجرى حين بدأ علماء من البربر يبرزون فى ميدان الدراسات الإسلامية ويتضلعون فى فهم العربية والكتابة بها .

وقد أخذ انتشار اللغة العربية مظاهر أخرى فى بقية القارة الافريقية ويمكننا أن نضرب لذلك بعض الأمثلة .

١ — أن يتكلم الشعب اللغة العربية وأن يحتفظ بها إلى جانب لغته الأصلية كما حدث فى بلاد النوبة حيث يتكلم الناس بلغتين (١) . وكذلك الفلاتة فى دارفور وبعض القبائل الأخرى التى تقطن هذه البلاد ، أو مثل سكان المناطق الجبلية فى شمال إفريقية حيث يتكلمون العربية والبربرية فى وقت واحد .

٢ — أن تكتسب اللغة نسبة من الألفاظ العربية تتوقف على مقدار التأثير الذى خضعت له مثل اللغة النوبية ، حيث أن ٣٠٪ من مجموع ألفاظها مستمد من العربية . واللغة التبداوية واللغة السواحلية فى شرق إفريقية والصومالية والحوصة فى نيجيريا .

٣ — إذا اتخذ الشعب اللغة العربية لغة له يحتفظ ببقية من اللغات القديمة مثل بعض الكلمات الإفريقية الدخيلة الكثيرة فى اللهجات السودانية أو المغربية أو حتى المصرية .

٤ — أن تتأثر اللهجات العربية المحلية بلهجات اللغة التى كانت تسود البلاد من قبل ، وهذا يصدق على لهجة السودان العربية فهى أربع لهجات :

(أ) بعضها يرجع إلى تغيير الحروف مثل إحلال الهمزة محل العين .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٥٧ .

(ب) بعضها يرجع إلى تغيير الحركات كالضمة والفتحة والكسرة.

(جـ) حذف بعض الأصوات مثل حذف اللام في ولد.

(د) تغيير مدلول الكلمة.

وهذه الظاهرة موجودة في مصر وفي بلاد المغرب.

٥ - كتابة اللغات بحروف عربية : مثل لغــات : البربر والنوبة والصوماليين والسواحيلية ولغــة الهوصة (١) ، وقد حاول أهل هرر كتابة الأمهرية بحروف عربية (٢) .

* * *

عرفنا طبيعة انتشار الإسلام في إفريقية بظواهره الثلاث ، وعرضنا للتطورات التي مرت بها كل ظاهرة منها في المدى الفسيح الذي شملته الدعوة الإسلامية منذ القرن السابع عشر الميلادي حتى العصر الحاضر ، ولكي تكمل في أذهاننا هذه الصورة ونلقي مزيداً من الضوء على تاريخ الإسلام في هذه القارة لابد من أن نبين الوسائل التي انتشرت بها هذه العقيدة وهذه الثقافة .

وسائل انتشار الإسلام في إفريقية :

لا نريد أن نعرض لحركات الفتح والتوسع والجهاد التي حفل بها تاريخ الإسلام في القارة في هذه الفترة الطويلة ، فإن هذه الحركات كانت ذات أثر ضئيل في نشر الإسلام . فحركات الفتح العربي الأول لمصر والمغرب لم ينتشر الإسلام إلا بعد تمامها بعدة قرون ، الأمر الذي يدل على الأقل على أنهــا لم تكن سبباً مباشرا في نشر الإسلام .

وحركات الجهاد التي حفل بها تاريخ الإسلام في غرب إفريقية مثل حركات عبد الله بن ياسين في حوض السنغال ، ثم في صحراء المغرب . وحركات سلاطين مالي وسنغي والحركات التي أعقبتها ، وكذلك الحركات التي امتلأ بها تاريخ الإسلام في شرق إفريقية كلها لم تتمخض عن انتشار الإسلام على نطاق واسع .

---

(١) Palmer : pp. 5, 78, 273—4.

(٢) عابدين : الحبشة ص ٢٧٧ .

بل من الغريب أن الإسلام بدأ ينتشر في إفريقية على نطاق واسع بعد انتهاء هذه الحركات في القرن العشرين ، وذلك في ظل الإستعمار الذي بسط نفوذه على إفريقية . في ظل هذا الاستعمار قطع الإسلام أشواطاً نحو الذيوع والانتشار بالطرق السلمية ، هذه الطرق السلمية وحدها هي التي تعنينا هنا .

ولقد لعب الأفراد المسلمون دورا عظيما في تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية ، لأن افتقار الدعوة الإسلامية إلى طبقة كهنوت تقوم على نشر العقيدة قد ضاعف من مسئولية الفرد المسلم ، فعليه وحده يقع هذا العبء ، وعليه وحده أن يؤدي هذا الواجب .

وأعظم نشاط قام به الأفراد في ميدان الدعوة الدور الذي قام به أفراد اكتسبوا حظا من التعليم الديني أو حجوا إلى مكة ، وهم تختلف ألقابهم باختلاف الجهات التي يعيشون فيها ، فبعضهم يسمى المرابط أو « ألفا » أو المعلم أو الفقيه . هؤلاء الناس يظفرون بنصيب كبير من الاحترام في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وهم أينما ذهبوا يعاملون بأعظم مظاهر الاحترام ، وفي استطاعتهم التنقل في حرية مطلقة من قرية لأخرى ، أو من إمارة لأخرى ، ويصادفون الرعاية والتشجيع أينما حلوا ، وهم ينشئون المدارس ويحفظون القرآن ويعلمون الأطفال المسلمين والوثنيين على حد سواء . وقد تعلم أكثرهم في مدارس المغرب أو في مصر ، وقاموا بنشاط ملحوظ في نشر الإسلام (١) .

ولم ينفرد الرجال بهذا الأمر إنما شاركهم فيه النساء ، فكثيرات منهن قمن بنصيب موفور في نشر الإسلام . والسير توماس آرنولد (٢) يذكر أنه يرجع الفضل في اسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة ، ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سببا في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين عندما كانوا يغيرون على البلاد الإسلامية .

وقد أحس السنوسيون بأهمية المرأة في هذا الشأن : وأنشأوا المدارس لتعليم البنات واستغلوا ما كانت تتركه النساء من نفوذ قوي بين القبائل .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٠ — ٤٥١ .

وقد لعبت النساء دوراً كبيراً فى شرق إفريقية ، فكثيرون من الوثنيين الذين رحلوا إلى هذه البلاد للعمل فى الزراعة اضطروا إلى الإقامة الدائمة وأسلموا بعد أن تزوجوا من نساء مسلمات .

وقد قيل أن انتشار الإسلام فى الحبشة خلال النصف الأول من القرن الماضى كان راجعاً إلى حد كبير إلى ما بذلته النساء المسلمات من جهود وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، وكن مسلمات يتظاهرن باعتناق المسيحية وينشئن أبناءهن نشأة إسلامية (١) .

وفى ميدان هذه الجهود الفردية فى نشر الإسلام لعب التجار الدور الأول فى نشر الدعوة ، فقد كانت الطرق التجارية الموصلة بين المراكز الإسلامية فى شمال القارة والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء المسالك الحقيقية التى تسرب الإسلام عبرها إلى قلب إفريقية . وقد انتشر الإسلام دائماً على طول هذه الطرق التجارية .

ويعتقد ترمنجهام أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان عبر الصحراء الكبرى أو على طول ساحل المحيط الأطلسى قامت هذه الطرق بدور جليل الشأن فى نشر الإسلام فى بلاد السنغال وأعالى النيجر ومنطقة بحيرة تشاد .

هذا التأثير المغربى لم ينقطع أبداً طوال العهد بالإسلام ، وكانت المجتمعات الإسلامية الجديدة التى تنشأ فى شمال السودان تقوم بدورها فى نشر الإسلام فى المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية .

وفى غرب إفريقية على وجه الخصوص كان لتجار الفولانى والهوصة والتكرور الدور الأكبر فى انتشار الإسلام .

كان هؤلاء التجار ينزلون فى الأسواق الكبرى أو المراكز التجارية . ثم يحتكون بالزنوج عن طريق التجارة ، ويؤثرون فيهم بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم الشخصى ، وغالباً ما ينتهى هذا الاحتكاك بدخول كثير من هؤلاء الزنوج فى الإسلام .

---

(١) أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٤٤٠ — ٤٥٢ .

لذلك كاد الإسلام أن يتركز فى المراكز التجارية الهامة وفى المدن الكبرى . وبعض هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم ، فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا مدارس لتعليم القرآن أو أنشأوا مسجدا ، وأقاموا فى نفس الوقت بمزاولة النشاط التعليمى والاقتصادى (١) .

وكما لعبت طرق التجارة دورا كبيراً فى نشر الإسلام من مراكزه فى شمال إفريقية وإشاعة المؤثرات الإسلامية فى غرب القارة ، كذلك كان شأن الطرق التجارية التى تصل وادى النيل بشرق إفريقية . كان لها مثل هذا الأثر فى نشر الإسلام من مصر إلى بلاد السودان وشرق إفريقية .

فمعاهدة البقط مثلا التى عقدت بين بلاد النوبة ومصر الإسلامية كان يقصد بها قبل كل شىء تنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين القطرين ، وعلى أثر عقد هذا الاتفاق أخذ التجار المسلمون يتجولون فى بلاد النوبة ، وإليهم يرجع الفضل الأول فى نشر الإسلام فى هذه البلاد (٢) .

وقد نشأت بوادى النيل مراكز للتجارة كان لها شأن عظيم فى نشر الإسلام فى شرق إفريقية على الخصوص .

المركز الأول مدينة عيذاب (٣) التى نشأت نتيجة لاستقرار بعض الجماعات العربية فى إقليم العتباى واستغلال مناجم العلاقى ، والنشاط الاقتصادى فى هذه المنطقة أدى إلى ظهور مدينة عيذاب . وذاعت شهرتها على الخصوص ابتداء من القرن الثانى عشر بعد تحول قوافل الحاج من مصر وبلاد المغرب من سيناء الى الصعيد بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين .

وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر منذ أواخر العصر الفاطمى ، وظلت كذلك حتى أوائل دولة المماليك الثانية . وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها إدارة مصرية ، وكانت الدولة المملوكية تعين إلى جانب واليها الحدربى واليا مصريا (٤)

---

(١) أرنولد : ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 20.

(٣) مصطفى مسعد : دولة النوبة المسيحية ص ١٥١ .

(٤) كانت تقع فى المكان المعروف الآن برأس رودية . انظر نعوم شقير ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ .

ومن هذه المراكز الهامة مدينة قوص التي أصبحت سوقاً تجاريا هاماً ترد إليه منتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند والحبشة ، حيث نشأت طائفة من التجار المسلمين تسمى بالكارمية ، اتخذت هذا الإسم على الخصوص اعتباراً من العصر الأيوبى ، وقد اتسعت هذه التسمية فأطلقت على عامة التجار الذين اشتغلوا بتجارة التوابل ، وأصبح لهم نفوذ كبير وشهرة عظيمة .

وقد وصل هؤلاء التجار إلى الحبشة ووجدوا ترحيبا عظيما من زعمائها نظرا لما قاموا به من تصريف منتجاتهم وتسويقها بأسعار مجزية .

وكان هؤلاء التجار يقيمون فى بلاد الحبشة فى مواسم التجارة ويوطدون صلتهم بالزعماء ، ويعملون فى نفس الوقت على نشر الإسلام ، وكان هؤلاء الناس يحتكرون تجارة الحبشة خصوصاً والأحباش قوم محاربون أو زراعيون يحتقرون التجارة أو يأنفون منها . فتركوا هذا الميدان لتجار المسلمين ، فبرعوا فيه إلى أبعد الحدود . واحتكروا هذه التجارة وركزوا الشئون الاقتصادية فى أيديهم (١) .

وخير ما يدل على أثر المراكز التجارية فى نشر الإسلام ما كان من استقرار بعض المهاجرين من غرب جنوب الجزيرة على شاطىء شرق إفريقية ، وإنشائهم مدناً ساحلية مثل سواكن وباضع وزيلع وبربرة ومقدشو وكلوا .

وأصبحت هذه المدن مراكز تجارية هامة تقوم بحمل متاجر إفريقية إلى أسواق آسيا وحمل متاجر آسيا إلى إفريقية ، وتشتغل على الخصوص بتجارة التوابل أو تجارة الرقيق .

هذه المدن الساحلية أصبحت مراكز هامة لنشر الإسلام ، إذ قام أثرياء التجار بفتح المدارس وإرسال الطلاب المتفوقين إلى البحرين أو القاهـرة أو دمشق لإتمام تعليمهم .

ومن هذه المدن الساحلية كان التجار يندفعون إلى داخل الإقليم لشراء المنتجات أو تصريف البضاعة . ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تصل إلى المناطق الداخلية فى موسم الأمطار ، فقد اعتاد هؤلاء أن يتخذوا لهم مأوى فى المناطق الداخلية فيقيمون الشهر أو الشهور يتاجرون ثم يعودون من حيث أتوا .

---

(١) عابدين : الحبشة ص ١٩٩ - ٢٠١ .

وعلى هذه الطرق نشأت بعض المستعمرات الداخلية . هؤلاء التجار المنحدرون من المدن الساحلية كان لهم شأن فى نشر الإسلام بين الصوماليين والجلاء وغيرهم من الشعوب النازلة فى هذا الإقليم(١) .

ويرى ترمنجهام(٢) أن تجارة الرقيق كان لها شأن عظيم فى نشر الإسلام بين القبائل الوثنية : ولا يقصد بالطبع اعتناق هؤلاء الرقيق للإسلام إذا مااتباعهم سادة مسلمون ، إنما يهدف إلى القول بأن هذه التجارة عملت فى سودان وادى النيل على الخصوص على تدمير مراكز الحياة الوثنية بالقضاء على كثير من القبائل الوثنية الأمر الذى يسر على الإسلام أن يجتاح هذه القبائل المتفرقة فى الجنوب الغربى من بحر الغزال .

وقد أدت تجارة الرقيق إلى القضاء على قبائل بأسرها فضعفت مقاومة المجتمعات الوثنية .

وقد أدى وقوع إفريقية فى قبضة الاستعمار فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين إلى زيادة نشاط هؤلاء التجار وبالتالى إلى ازدياد الإسلام سعة فى الانتشار(٣) .

فقد فتحت أمام هؤلاء المغامرين ميادين جديدة للعمل . إذ استطاعوا فى ظل الاستعمار اختراق مناطق الغابات ، واستطاعوا التوغل مسافات بعيدة بعد إنشاء الطرق والسكك الحديدية .

بل سلكوا سبلا أخرى لم تظهر إلا بظهور الاستعمار ، وتوغلوا نحو المناطق الساحلية ليس عن طريق البر فحسب ، بل عبر الطريق البحرى الذى يدور حول إفريقية : لذلك ظهرت جماعات إسلامية على طول الساحل الغربى(٤) .

وأصبحت المدن الممتازة من مصب السنغال حتى مدينة لاجوس بنيجيريا تضم جاليات إسلامية وفيرة العدد، إما من المهاجرين أو ممن أسلموا على يد التجار الوافدين.

---

(١) Coupland : Eest Africa and its Invaders p. 31.

(٢) Trimingham : Islam in tha Sudan pp. 242–247.

(٣) André : L'Islam Noir p. 25.

(٤) ديشان : الديانات فى إفريقية ص ١٢٩ .

وقد لعبت تحركات القبائل وهجراتها دوراً عظيما في نشر الإسلام في إفريقية .

ومن الغريب أن أغلب القبائل والشعوب التي اعتنقت الإسلام ثم عملت على نشره كانت شعوباً بدوية غير مستقرة تنتقل من أوطانها انتقالا فصلياً أو تهجر هذه الأوطان لأسباب اقتصادية .

بل كانت هذه التحركات القبلية تكمن وراء الحركات التوسعية التي تمت في غرب إفريقية وفي شرقها : تحركات الفولاني أو الصــومالى أو الدناقل والجلا وتحركات القبائل العربية في السودان .

وأهم الهجرات التي كان لها شأنها في نشر الإسلام في إفريقية هجرات القبائل العربية التي دخلت مصر في أعقاب الفتح العربي لهذه البلاد واستقرت في وادى النيل ، ثم دخلت المغرب في أعقاب الفتح العربي ، وبلغت في تحركها غرباً ساحل البحر .

هذه القبائل منذ القرن الثالث الهجرى ومنذ اختلاطها بالشعوب أضحت عاملا هاماً في نشر اللغة العربية والدم العربي والدين الإسلامى .

وقد لعبت القبائل العربية المهاجرة من مصر دوراً عظيما جداً في نشر الإسلام في بلاد النوبة والسودان .

وأصبحت بلاد النوبة منذ القرن الرابع عشر ليست وطن النوبيين فحسب ، وإنما شاركتهم فيه قبائل عربية كثيرة من غير بنى كنز ، ولم يعد الشلال الثانى حاجزاً يمنع تدفق القبائل العربية نحو الجنوب(١) .

وكان انهيار مملكة مقرة المسيحية مما فتح الباب أمام هذه القبائل العربية لتمضى في توغلها نحو الجنوب ، مضت جنوباً حتى منطقة النيل الأزرق ، بل مضى عرب جذام غرباً ، واجتاحوا مملكة الزغاوة وسيطروا على دارفور واتخذوا من هذه المنطقة قاعدة لشن غاراتهم على ماجاورها من أقاليم ، ووصل بهم تجوالهم حتى مملكة برنو ، بدليل ماجاء من شكوى سلطان برنو إلى المماليك سنة ٧٩٤ هـ من هؤلاء الأعراب(٢) .

---

(١) مصطفى مسعد : الممالك المسيحية في النوبة ص ١٨٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٦ .

ولكن الهجرات العربية التي تركت أثراً واضحاً في حياة المغرب هي هجرات الهلاليين وأحلافهم منذ القرن الحادي عشر فصاعداً .
هذه الهجرات كان لها الفضل في نشر الدم العربي واللسان العربي في المغرب ونشر الإسلام كذلك(١) .

واستطاعت هذه القبائل العربية أن تعبر جنوب مراكش وأن تفتح منطقة أدرار وتصل إلى السنغال الأدنى في نهاية القرن السادس عشر الميلادي مثل بني حسن ، ثم استداروا نحو الشرق(٢) .

ومن أدلة انتشار النفوذ العربي أنه قل أن تجد بيتاً حاكماً في غرب إفريقية إلا وينتسب بعض حكامه إلى أصل عربي . بعضهم يدعى نسباً علوياً أو أموياً أو عباسياً أو فاطمياً وبعضهم يدعى نسباً يمنياً(٣) .

ولم يتسرب الدم العربي أو الهجرات العربية إلى إفريقية عبر مصر أو المغرب فحسب ، بل عبر بعضها البحر الأحمر إلى شرق إفريقية مباشرة .

ففي نهاية القرن السابع الميلادي عبرت جماعات من عرب هوازن البحر الأحمر واستقرت في أرض البجة حيث عرفوا باسم الحلانقة ، ثم انتقلوا إلى مركز تاكة . ويبدو أن هؤلاء الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب في أرض البجة(٤) .

ويقال إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة في منتصف القرن الثامن الميلادي ، والأبحاث الأثرية أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة خورنبت على مسافة سبعين ميلا غربي سواكن ، إذ عثر على شواهد قبور عربية ترجع إلى سنة ٧٦٠ ميلادية .

وقد ظل العرب من اليمن والحجاز وحضرموت يتسربون إلى سهول السودان الفسيحة ، وبعضهم اختلط بقبائل النوبة والبجة بين النيل والبحر الأحمر ، ونتجت من هذا الاختلاط أرستقراطية حامية تتكلم اللغة العربية(٥) .

---

(١) Meak : Northern Nigerls. 1, p. 61.

(٢) Fage : West Africa p. 15.

(٣) Meek : op. cit. p. 16,

(٤) Paul : History or Beja tribes, p. 73.

(٥) Trimingham : Islam in the Sudan pp. 10-16.

كما خرجت هجرات عربية من منطقة عمان إلى شرق إفريقية عام ٦٩٥ ميلادية. هاجرت طائفة من الزيدية عام ٧٤٠ وانتشرت حتى خط الاستواء .

وبعد ذلك بأجيال خرجت هجرات من إقليم الإحساء عام ٩٢٥ م وانتشرت المستعمرات العربية على طول الساحل الإفريقى وعملت هذه الهجرات على نشر الإسلام فى منطقة إفريقية(١) .

وكان لهجرات البربر أثر عظيم جدا فى نشر الإسلام فى إفريقية خصوصاً فى غربها . هذه الهجرات إلى غرب إفريقية هجرات قديمة ولكنها بدأت تلعب دورا هاماً ابتداء من القرن العاشر الميلادى بعد أن أسلم البربر .

وكانت غارات العرب الهلاليين سبباً فى هجرات قبائل كثيرة من البربر إلى منطقة الصحراء ثم توغلها نحو الجنوب إلى منطقة السنغال والنيجر .

ويرى بالمر(٢) أن هوارة ولواتة ونفراوة هاجرت نحو الجنوب بعد غارات عرب الهلاليين مباشرة .

وقد كان للطوارق شأن عظيم جدا فى نشر الإسلام فى منطقة السنغال، والنيجر، وظلت هجراتهم تؤثر فى هذه الجهات حتى القرن الثامن عشر (٣) .

وامتدت هجرات البربر إلى بلاد برنو، ويرى بالمر(٤) أن شعب البرنو بربرى الأصل ، بل وصلت هجرات البربر شرقاً حتى دارفور ، إذ أن شعب الطنجور الذى كان له شأن فى نشر الإسلام فى دارفور يمثل هجرات من هجرات البربر وصلت هذه البلاد بعد غارات بنى هلال (٥)

ومن الهجرات الهامة التى كان شأن فى غرب إفريقية هجرات الفولانى ، ويظن أنها هجرات بربرية وفدت على الحياة فى منطقة غرب إفريقية ، وأنهم انحدروا من

(١) Hourani : Arab seafaring . 1.

(٢) Palmer : op. cit. p. 9.

(٣) Dubois : Tombouctou p. 152.

(٤) Palmer op. cit. VII.

(٥) Trimingham : Sudan p. 89.

منطقة أدوار شمال السنغال ، وانتدفعوا إلى السودان الغربى بعد طرد المسلمين من الأندلس ، ثم تسربوا إلى الحياة هناك يشتغلون بالرعى أو الزراعة أو التجارة ، حتى لم شملهم ووحدهم المجاهد عثمان بن فودى فى القرن التاسع عشر ، وكانوا عدته فى جهاده ، واستطاع بفضلهم أن يؤسس سلطنة سكت(١) .

وكان لهجرات أخرى غير هجرات العرب والبربر شأن فى نشر الإسلام فى إفريقية ، فقد كان لهجرات الحس النوبيين واستقرارهم فى منطقة النيل الأزرق أثر واضح فى انتشار الإسلام بين الفنج (٢) .

وكان للقبائل الرعوية فى شرق إفريقية أثر عظيم فى انتشار الإسلام ، فالنضال بين الحبشة والمسلمين فى القرن السادس عشر ، كان يخفى من ورائه حركات توسعية قام بها الأعفار والصوماليون .

ويبدو أن هذه الحركات قد بدأها الأعفار الذين كانوا ينزلون فى واحات أوسا والوديان الممتدة من المناطق إلى الشرق من شوا .

كانت هذه القبائل كلها من وراء حركة الجهاد الكبرى التى قام بها أحمد بن إبراهيم الغازى (١٥٠٦ — ١٥٤٣) (٣) .

ومن الهجرات التى أثرت فى انتشار الإسلام فى شرق إفريقية هجرات الجلا . بدأت هذه الهجرات بعد انتهاء الموجة الأولى واستطاعت فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر أن تحتل مناطق كبيرة فى هضبة الحبشة ،وفى القرن الثامن عشر اعتنق الجلا الإسلام وعملوا على نشره فى البلاد (٤) .

وقد لعب التكرور دوراً مماثلا فى انتشار الإسلام فى غرب إفريقية ، فقد استطاعوا سنة ١٧٧٦ أن ينشروا الإسلام فى منطقة فوتاتور وأن يؤسسوا دولة استمرت حتى سنة ١٨٨٤ (٥) .

---

(١) Dubois : op. cit. pp. 152-153.

(٢) Trimingham : Sudan p. 182.

(٣) عرب نقيه ص ٨٠ Trimingham : Ethiopia p. 79.

(٤) Trimingham ; Ethiopia p. 79.

(٥) Islam Noir p. 31.

وأحدث هذه الهجرات هجرة المسلمين من الهنود واستقرارهم في شرق إفريقية وفي جنوبها (١).

على أن الجهود الصادقة التي بذلت لنشر تعاليم الإسلام بالطرق السلمية بالتعليم والدعوة الخالصة قد تمت على يد الطرق الصوفية، هذه الطرق التي كانت منذ القرن الرابع عشر قد تغلبت على خلافها مع الفقه ، بل رجحت كفتها على كفة الفقهاء ، ووجد هؤلاء أنفسهم أمام قوة لا قبل لهم بها ، فتقبلوا ما كانوا بالأمس يرفضون، وأصبحت التقاليد الإسلامية منذ ذلك الوقت مصبوغة بالصبغة الصوفية في كل شيء في العبادات والمعاملات(٢)، وساعدها على هذا الانتصار انتشار العنصر التركي في البلاد الإسلامية وتقبله الإسلام وقبضه على زمام السيادة بين المسلمين.

هذا الوفاق بين الفقه والصوفية وصل إلى أقصاه في القرنين من السابع عشر والثامن عشر (٣).

ثم أظل العالم الإسلامي القرن التاسع عشر فأسدت الطرق الصوفية إلى الإسلام خدمات عظيمة ، فقد دب إليها دبيب النهضة الذي دب في الثقافة الإسلامية عامة. في وقت ضعفت فيه السلطة المركزية في الإسلام بضعف الخلافة العثمانية ، وفي وقت تفتت فيه وحدة المسلمين وبدأت أوطانهم تخضع للاستعمار.

واستطاع الصوفية هؤلاء أن يحفظوا في الميدان الديني هذه الوحدة التي عزت في الميدان السياسي. استطاعوا في الميدان الديني أن يقوموا بجهود لم تكن الحكومات الإسلامية بقادرة على القيام بها بعد أن أفلت منها الزمام.

وقد ظهرت جهود الصوفية في إفريقية على وجه الخصوص.

هذه النهضة الصوفية كان مظهرها إحياء طرق صوفية وإكسابها لوناً من النشاط الجديد أو إنشاء طرق جديدة تلائم أوضاع العصر وأحوال الناس.

ومن الطرق التي ظهرت في هذا العصر المرغنية ومؤسسها محمد عثمان المرغني الذي أرسل إلى السودان داعية لأحمد بن إدريس سنة ١٨٣٥ ، فقام برحلة إلى

---

(١) خلف الله : مستقبل أفريقيا السياسي ص ٥ - ٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٣) Gibb : op. cit., p. 24.

إفريقية لنشر تعاليم الإسلام عبر البحر الأحمر إلى القصير، ونجحت جهوده فى بلاد النوبة ثم انتقل إلى كردفان ومنها إلى سنار فنجحت رسالته نجاحاً عظيما .

وبعد موته سنة ١٨٥٠ نشأت طريقة جديدة تنتسب إليه ، وقد لقيت من الحكم المصرى فى السودان تشجيعاً عظيما وانتشرت دعوتها فى المناطق الجديدة التى ضمت إلى بلاد السودان (١) .

ثم السنوسية التى أسسها محمد بن على السنوسى الفقيه الجزائرى فى سنة ١٨٣٧ ، وهى تهدف إلى إصلاح الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية .

ولم يكد السنوسى ينتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دون أن يريق الدماء .

وانتشرت طريقته فى شمال إفريقية كلها، وامتدت زواياها من مصر إلى مراكش بل أوغلت فى واحات الصحراء وفى السودان وكان مركزها فى واحة جغبوب ، وفيها كان يتعلم مئات الدعاة الذين يرسلون إلى كافة بلاد إفريقية ، وقد امتد أثرهم الى أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال ، واستطاعت هذه الطريقة أن تدخل فى الإسلام الكثير من الدول الوثنية (٢).

ومن الطرق التى تم إحياؤها القادرية التى أسست فى القرن الثانى عشر على يد عبد القادر الجيلانى ، وكان من أشد أولياء المسلمين واعظمهم هيبة .

ودخلت القادرية إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من توات واتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم .

وفى مستهل القرن التاسع عشر اندفعت القادرية فى طريق النهضة الكبرى ، وانتشر الفقهاء والمريدون من السنغال إلى النيجر ، وأنشئت المراكز لبث الدعوة فى مختلف الجهات ونظمت البعوث إلى الأزهر وتونس وطرابلس والقيروان .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) أرنولد : ٢٧٠ — ٢٨٢ ونعوم شقير : تاريخ السودان جـ ١ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

ـك والتيجانية التي كانت قد أثارت في غرب إفريقية ثورات الجهاد والتوسع العسكرى استردت طبيعتها المسالمة في ظل الاحتلال الفرنسى وعملت على نشر الإسلام بالطرق السلمية الخالصة (١).

وقد لقيت هذه الطرق نجاحا عظيما في إفريقية الزنجية ، فكان المرابطون المثقفون من مشايخ الطرق وحولهم طبقة من متصوفى الدرجة الثانية فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين أو زاولوا السحر ونافسوا الكهنة المتطببين من الوثنيين في صناعتهم فحل المرابط محل الكاهن والساحر ، وجمع في يده سلطات روحية مختلفة (٣) فحلت الطرق الصوفية محل الجمعيات السرية الوثنية (٢).

طبيعة القارة وأثرها في انتشار الاسلام :

كان لطبيعة القارة الإفريقية وطبيعة شعوبها أثر واضح في انتشار الإسلام ، بل إن فهم تاريخ الإسلام في إفريقيا فهما صحيحا يتوقف على فهم عاملين واضحين ، كان لهما أكبر الأثر في تاريخ انتشار الإسلام في هذه القارة .

العامل الأول : طبيعة الشعوب التي قامت بنشر الإسلام وتبليغ رسالته ، ثم طبيعة الأرض التي اتخذها الإسلام موطناً له في إفريقية (٤) . ومن الغريب أن الشعوب التي قامت بالدور الأول في نشر الإسلام كانت كلها شعوباً بدوية رعوية أو شبه رعوية كما قلنا .

كذلك كان شأن العرب أصحاب الفضل الأول في نشر الإسلام وتبليغ رسالته ، وكذلك كان شأن الشعوب الأخرى غير العربية التي تبنت الإسلام واحتضنته وأتمت الرسالة وبلغت الإسلام كما بلغه العرب .

فالطوارق الذين نشروا الإسلام في غرب افريقية ، كانوا من البدو النازلين في المغرب الأقصى وتمتد ديارهم من جنوبى مراكش حتى حوض السنغال ...

---

(١) Islam Noir:p. 60 ,

(٢) ديشان : ص ١٤٥-١٥٠ .

(٣) ديشان : الديانات في أفريقيا السوداء ١٤٥ - ١٥٠ .

(٤) Unity and Variety p. 288.

والفولانى الذين عملوا على نشر الإسلام فى شمال نيجيريا ومنطقة بحيرة شاد كانوا أيضاً من هذا القبيل .

والقبائل التى كانت تنزل فى ساحل شرق إفريقية بين الهضبة الحبشية وبين ساحل البحر الأحمر ، مثل قبائل البجة وقبائل الأعفار وقبائل الصومالى وقبائل الجلا كانوا من البدو أيضاً . تأثروا بالعرب الذين استقروا فى منطقة الساحل ، وتعلموا منهم الإسلام . ثم عملوا على نشره فى موجات متعاقبة : موجة البجة ، وموجة الأعفار والصومالى ، ثم موجة الجلا صاحبة الفضل الأول فى نشر الإسلام فى ربوع الحبشة نفسها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص .

ونشر الإسلام فى بلاد النوبة والسودان الفضل فيه أيضاً للقبائل العربية التى تركت ديارها فى مصر وبدأت تبحث لها عن مواطن جديدة فى بلاد النوبة والسودان .

والبدو عادة — والعرب على رأسهم وهم خير من يمثلهم — كانوا أصحاب إبل وأصحاب خيل لا يستطيعون التقدم إلا فى السهول المكشوفة . ولم تكن لهم خبرة بركوب البحر أول الأمر . ولم تتوفر لهم هذه الخبرة إلا بعد وقت طويل من المران والممارسة .

لذلك كان الفتح العربى يقف وقفة طبيعية إذا اصطدم بعقبات طبيعية كأداء ، فقد وقف الفتح عند جبال طوروس ، ولم ينفذ إلى قلب آسيا الصغرى إلا فى زمن متأخر ، ووقف الفتح عند جبال البرزفى فى إيران ولم يتخطاها إلا بعد وقت طويل أيضاً ، ولم يكن هذا حال العرب ، بل كان تقريبا حال القبائل البدوية الأخرى التى اعتنقت الإسلام وعملت على نشره .

والعامل الثانى (الذى أشرنا إليه) طبيعة الأرض التى انتشر فيها الإسلام وتسربت إليها جموع البدو .

هذا الوطن الإسلامى كان يحيط بالصحراء الكبرى من الشمال والجنوب والشرق . من الشمال فى المنطقة الممتدة من مصر غربا حتى المحيط الأطلسى ، ومن الشرق فى وادى النيل نفسه حتى حدود النوبة ، وفى الغرب فى السهل الساحلى المحيط بالمحيط الأطلسى ، وفى النطاق الرعوى المحيط بهذه الصحراء من الجنوب والممتد من مصب السنغال حتى سودان وادى النيل .

ولم تستطع القبائل البدوية أن تتوغل إلى أبعد من العروض التي تنمو فيها الشجيرات القصيرة ، بسبب عدم ملاءمة الأرض لزحف البدو ، وبسبب سوء المواصلات وتفشي الأمراض الفتاكة .

ولم يستطع الإسلام أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى في هذا الوطن إلا بعد جهد ومشقة . ففي سودان وادي النيل مثلا بقي واقفاً أمام منطقة الشلالات حتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، واصطدم بالهضبة الحبشية ثم انحسر عنها أكثر من مرة ، وفي الجنوب الشرقي وقف عند هضبة البحيرات الكبرى .

هذان العاملان إذن كان لهما أثر واضح في قصة انتشار الإسلام في إفريقية ، ولاثبات ذلك نستطيع أن نسوق بعض الأدلة ونضرب بعض الأمثلة .

ففي مصر مثلا تجنب الفاتحون العرب الطريق الساحلي الممتد مباشرة إلى الإسكندرية بسبب افتقارهم إلى الخبرة البحرية وفضلوا الطريق البري القديم الممتد من الفرما إلى بابليون ، وهاجموا الإسكندرية برا من الخلف .

ولم يستقر لهم الأمر في مصر إلا بعد البدء في بناء البحرية المصرية الإسلامية في عهد الوالي عبد الله بن سعـــد بن أبي سرح ، إذ أصبح في استطاعتهم أن يدافعوا عن السواحل المكشوفة ويحموا البلاد من غارات الأسطول البيزنطي .

والتوغل من مصر جنوبا لم يتم إلا بعد تمام الفتح بوقت طويل ، في عهد عبد الله ابن سعد ، حينما عقد مع أهل النوبة معاهدة البقط المشهورة .

ووقف الإسلام عند الحدود الطبيعية في منطقة الشلالات لا يتخطاها إلا بعد وقت طويل ، والاسلام لم يستطع أن ينفذ من الصحراء الشرقية أو يتصل بشعب البجة إلا في وقت متأخر نوعاً ما .

وقد حدث في بلاد المغرب مثلما حدث في مصر ، فالغزاة العرب الأوائل تجنبوا الطريق الساحلي المباشر كما تجنبوه في مصر .

ولم يستطيعوا تماما فتح المغرب إلا بعد نمو البحرية الاسلامية وقدرتها على هزيمة البحرية البيزنطية

واقتصر النفوذ الإسلامي أول الأمر على المنطقة الساحلية التي تحف بالبحر حتى المحيط الأطلسي .

ولم يتوغل الاسلام في المناطق الهضبية بطريق الفتح ، بل بالتسرب السلمي ، حينما أسلمت قبائل البربر بعد الفتح بزمن طويل ، وبدأت تنشر الاسلام في المناطق التي خلفها .

بل لم ينفذ الاسلام إلى قلب الجزائر ومراكش إلا بعد الفتح بنحــو قرنين أو أكثر .

وتوقف الاسلام توقفاً طبيعيا عند الحدود الشمالية للصحراء الـكبرى ، ولم يستطع أن يدخل إلى إفريقية عن هذا الطريق إلا على نطاق ضيق وفي ركاب التجارة المتبادلة عبر هذه الصحراء .

هذا عن مصر والمغرب ، أما انتشار الاسلام في غرب إفريقية فتجد فيه أثر العاملين السابقين . فكانت الطلائع الأولى التي دخلت غرب إفريقية هي طلائع المرابطين وهم بدو المغرب الأقصى ، دخلوا عن طريق النهاية القصوى لسهل المحيط الأطلسي ثم انحدروا جنوبا حتى حوض السنغال ، ثم توقفوا عند نهاية منطقة الشجيرات القصيرة وحدود المنطقة الاستوائية .

ولم يستطع الاسلام أن ينفذ جنوب هذا النطاق على صورة واسعة ، بسبب مقاومة السكان الوثنيين في نطاق الغابات خصوصا شعوب البمبارا (١) والموسى .

ولكنه بدأ يتجه شرقا بجنوب منتشرا أيضاً على الحافة الشمالية لمنطقة الاستبس أو المنطقة الرعوية . فنجد مثلا مدن تنبكت وأدوغشت وهي المراكز الاسلامية الأولى في غرب إفريقية كانت واقعة في هذه المنطقة .

ولم يتوغل الاسلام في نيجيريا جنوبا إلا إلى منطقة كانو أو مدينة كادونا العاصمة الحالية للدولة الشمالية .

---

(١) ديشان : الديانات في افريقيا السوداء ص ١٢٧ .

Carpenter : The Role of Christianity and Islam, Africa ,o dad.

ولم يتخط الإسلام نطاق الغابات إلا بعد . ولكن الاسلام في زحفه شرقاً يتبع هذا النطاق الشمالي أيضاً وينفذ إلى بحيرة تشاد ومنطقة برنو وكانم ولا متوغلاً نحو الجنوب نحو المناطق الوعرة ، ولا متوغلاً صوب الشمال صوب الصحراء .

ويمكننا أن نحدد لانتشار الإسلام نحو غرب إفريقية طريقين لا ثالث لهما :

أولاً : الطريق الساحلي عبر حوض السنغال وهو الطريق الذي سلكته جموع المرابطين ، ثم انحدار هذا الطريق صوب الشرق ساحلا لمنطقة الشجيرات القصيرة .

ثانياً : تسرب الاسلام من مدن إفريقية الشمالية إلى بعض المراكز القائمة على حافة الصحراء عن طريق التجارة .

وتعد لعب هذا الطريق التجاري دوراً كبيراً في تسرب الاسلام إلى هذه المنطقة من إفريقية . وكانت أهم السلع التي تحملها القوافل الشمالية الملح الجبلي الذي كان يستخرج من صحراء المغرب من ثلاثة مواضع .

وظل أهل شمال إفريقية يسيطرون عليها طيلة ألف عام ، إلى جانب هـذا المعدن النفيس كان المغاربة يصدرون النحاس والصدف والمنسوجات ، وفي مقابل ذلك يستوردون العبيد والذهب وبعض المحصولات الاستوائية . وكان المغاربة فوق ذلك يقدمون رأس المال وينظمون القوافل التي تخترق الصحراء (١) .

هذه الطرق التجارية تسير من شمال إفريقية عبر الواحات الصحراوية إلى المدن الكبرى التي أسست في شمال السودان قرب حافة الصحراء .

وقد أصبحت هذه المدن بمثابة موانى للتصدير في غرب إفريقية ، تستقبل القوافل المنحدرة من مدن الشمال عبر الواحات ، كما تقدم للمسافرين الطعام والماء والمأوى .

وأهم المراكز التجارية في إفريقية . غانة — مالي — جني — تمبكت — كانو : وفي النهاية الشمالية قرب حدود المغربية قامت مدن مغربية مماثلة مثل : القيروان — تونس — طرابلس .

---

(١) Blyden p. 1 Cooley pp. 1–2
Fage p. 9–10 Hogben pp. 25–27
Dubois 282 , Meek, vol I. p. 62.

هذه التجارة المتبادلة بين الشمال والجنوب كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية هي :

١ — طريق غربي من مراكش إلى منحنى النيجر والمناطق الواقعة غربا .

٢ — طريق أوسط من تونس إلى المنطقة الواقعة بين نهر النيجر وبحيرة تشاد .

٣ — طريق شرقي من طرابلس إلى المنطقة المحيطة ببحيرة شاد (١)

وانتشار الإسلام في سودان وادي النيل وشرق إفريقية تنطبق عليه هذه الظروف التي شرحناها .

في المنطقة الممتدة في جنوب الحبشة حتى موزمبيق انتشر الاسلام عن طريق هجرات عربية من منطقة مسقط وعمان ، وإمارات الجنوب العربي ، أو نتيجة للعلاقات التجارية بين بلاد العرب وشرق إفريقية ، وهي علاقات لم تنقطع طوال العصور التاريخية .

وقد انتشرت المستعمرات العربية في منطقة السهل الساحلي ، ونشأت المدن الهامة على الساحل نفسه مثل : مقدشو وكلوا ، وزنجبار . ولم يتسرب الإسلام من هذه المناطق الساحلية إلى الداخل إلا قليلا .

ولم يفكر العرب الذين استوطنوا هذه البقاع في استعمار هذه المناطق الداخلية أو استغلالها على نحو ما فعلت أوربا فيما بعد ، إنما كانت علاقتهم بالقبائل الزنجية المجاورة علاقات قائمة على الإغارة لجلب العبيد ، أو قائمة على المبادلات التجارية في سن الفيل وغيره من المنتجات الأسيوية . ونستطيع أن نؤكد أن التيار الإسلامي ظل قاصراً على هذه المناطق الساحلية حتى أوائل القرن التاسع عشر .

أما المنطقه التي تشمل الصومال والمناطق الساحلية المحيطة بخليج عـدن والبحر الأحمر مثل إرترية وهرر وسواكن ومصوع وزيلع والحبشة فقد نشأت بها أول مجتمعات إسلامية في المنطقة الساحلية التي تحف بخليج عدن .

نشأت المدن الساحلية مثل سواكن ومصوع وزيلع وبربرة ، وقامت هذه المجتمعات بنشر الإسلام بين القبائل الحامية البدوية التي تقيم في المنطقة الممتدة من ساحل البحر حتى الهضبة الحبشية ، مثل قبائل البجاة والأعفار والصومال والجلا(٢).

---

(١) Fage : op. cit. pp. 6–10.

(٢) أرنولد : ص ٣٨٥ .

كانت هذه القبائل تتبنى الدعوة الإسلامية وتنشرها جيلا بعد جيل . بيناها أولاد البجة ثم الأعفار ثم الصومال ثم الجلاء ، وهذه كلها قبائل بدوية لم تألف سكنى الهضاب المرتفعة . ووقف الإسلام لا يتسرب على نطاق واسع عند حافة الهضبة الحبشية (١) من الشرق أو الشمال أو الجنوب وإن كانت قد تسربت بعض التيارات عن طريق العلاقات التجارية والتسرب السلمي .

وقد حدثت محاولات كثيرة لاختراق هذا النطاق الطبيعي وضرب الهضبة الحبشية في الصميم مثل المحاولة المشهورة في تاريخ الإسلام في شرق إفريقية في القرن السادس عشر على يد الزعيم المسلم أحمد بن ابراهيم الملقب بالقرين (١٥٠٦ – ١٥٤٣) ، الذي قام بحركة فتح واسعة محاولا اختراق الهضبة الحبشية والقضاء على المقاومة المسيحية قضاء تاما .

وقد نجح فيما أراد ، ولكنه كان نجاحاً موقوتاً بسبب مقاومة العناصر الجبلية من الأمهريين والتجراي ، وهم مسيحيون متعصبون . ومحاولات الجلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم تكن على شكل غزوات ، إنما كانت نوعا من التسرب السلمي البطيء .

أما في سودان وادي النيل فإن التيار الإسلامي قد ظل متوقفا توقفا طبيعيا عند منطقة الشلالات لا يخترقها صوب الجنوب ، ظل كذلك حتى القرن العاشر الميلادي حين دخل نفوذ الإسلام بلاد النوبة وأنشأ المسلمون مسجدا في مدينة سوبة عاصمة المملكة المسيحية ، ولم يتجاوز هذا النطاق حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر بدليل أن ابن بطوطة زار هذه البلاد في ذلك الوقت ووجد أهلها لا زالوا على المسيحية .

هذا النفوذ الإسلامي لم يدخل في بلاد النوبة من طريق نهر النيل فلم يكن هذا النهر صالحاً للملاحة في جميع شهور السنة أو في كل أجزائه بسبب الجنادل . ولهذا قام منذ القديم طريق هام للقوافل يبدأ من أسيوط وينتهي عند الفاشر وهو المعروف بدرب الأربعين (٢) .

---

(١) Trimingham : Ethiopia p. 1,2.

(٢) Trimingham : p. 7, 9, 19,

لم نقل ولكن النفوذ الإسلامي لم يلبث بعد ذلك أن غزا منطقة النوبة ثم سهول السودان الشمالي ووصل جنوبا إلى ملكال ، ووقف عند حدود السودان الجنوبي لم يستطع أن يتخطاها ، ثم انتشر غربا وشمالا بغرب في إقليم دارفور وكردفان حتى اتصل بالتيار الإسلامي القادم من غرب إفريقية عن مدينة كانو وبحيرة شاد ... (١) .

لم يستطع الإسلام دخول المناطق الاستوائية إلا في ظل الاستعمار الأوربي (١) .
بسبب ما قام به الاستعمار من قطع الغابات وإنشاء الطرق والقضاء على معظم الأمراض المتوطنة ، وأمكن توطن البيض في تلك الأماكن ، فنجد الإسلام يتخطى السنغال جنوباً وينفذ إلى ساحل الذهب وليبريا ، كما نجده يتخطى منطقة الشجيرات وينفذ إلى غرب نيجيريا وإلى جنوبها ، ويعتنقه كثيرون من شعب اليروبا (٢) . كما نجده يتخطى بحيرة شاد جنوباً إلى الكمرون والكنغو ويتخطى السودان الشمالي وينتشر في جنوبه في ظل الحكم البريطاني ، كما يتجاوز سواحل إفريقية الشرقية ، ويدخل كينيا وأوغندة (٣) .

قلنا إن الإسلام أخذ ينتشر في إفريقية منذ القرن السابع الميلادي وأنه لا يزال ينتشر حتى اليوم .

نجد أن القرن التاسع عشر على وجه خاص ، يعتبر من أهم القرون في تاريخ الإسلام في هذه القارة :

ففي هذا القرن كان الأوربيون قد قطعوا أشواطاً بعيدة في سبيل الكشف عن مجاهل إفريقية وتمهيد الطريق أمام دول غرب أوربا ، لتبسط نفوذها وسلطانها على أجزاء من هذه القارة .

ولم تكن هذه الدول حتى عام ١٨١٥ قد اقتطعت من القارة شيئاً كثيراً .
فالأسبان مثلا كانت لهم مدينة سبتة ومليلة وجزر كناري وجزيرة فرناندوبو في خليج غانة . أما البرتغاليون فقد كانت لهم غيانة البرتغالية وأنجولا وموزمبيق وجزر ماديرا والرأس الأخضر وأزورس وسانت توماس وبرنسيب . ولم يكن لهولندة غير محطة

---

(١) أرنولد ص ٣٦٤ ، L'Islam Noir p. 40.

(٢) أرنولد ص ٣٦٤ ، Meek, vol. II p. 7

(٣) Groves : vol I, 10

صغيرة على ساحل الذهب . أما الفرنسيون فكانوا قد استقروا فى السنغال ، واستولوا على بعض المحطات فى جزيرة مدغشقر ، والإنجليز كانوا قد استقروا فى ساحل الذهب وغمبيا ، وبعض أجزاء من سيراليون وفى منطقة الرأس ،

لم تكن أملاك الأوربيين فى إفريقية تتجاوز مساحتها ٥٠٠ ألف ميل مربع من مساحة القارة كلها .

وفى النصف الأخير من القرن التاسع عشر أو بمعنى آخر فى الفترة الواقعة بين ١٨١٥ ونهاية هذا القرن وصل التوغل الأوربى إلى أقصاه ، بدأت فرنسا فى غزو الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وانتهت من فتحها قبل سنة ١٨٤١ وتوغلت فى إقليم السنغال وفى سنة ١٨٦٨ تركزت الحماية الفرنسية فى برتو نوفو على ساحل داهومى ، وفى سنة ١٨٤٢ وضعت أسس الإمبراطورية الفرنسية فى الكنغو ،واشترت فرنسا أوبك على ساحل الصومال سنة ١٨٦٢ ، ولم يكد القرن التاسع عشر ينتهى حتى امتد نفوذها إلى تونس والجامبيا وغينيا وساحل العاج .

وتوسع البريطانيون فى سيراليون وساحل الذهب ، وفى سنة ١٨٦٢ حصلت إنجلترا على لاجوس ، ثم توغلت فى نيجيريا والجامبيا واحتلت مصر سنة سنة ١٨٨٢ وأعلنت الحماية على الصومال سنة ١٨٨٤ ، وضمت بتشوانالاند فى جنوب إفريقيا الشرقية ، وتوسعت فى سيراليون وساحل الذهب ، وأعلنت الحماية على أوغندة سنة ١٨٩٤ ، واحتلت السودان باسم مصر .

وفى سنة ١٨٨٠ استولت ألمانيا على جنوب غرب إفريقية والكمرون وتوجولاند وإفريقيا الشرقية . على حين توسع البرتغاليون فى غانة وأنجولا وإفريقية الشرقية ، كما احتلت إيطاليا الصومال وأرتريا .

إذن نهاية هذا القرن وما تمخضت عنه من أحداث بداية عصر جديد فى تاريخ الإسلام فى إفريقية ، عصر الصراع بين الإسلام والاستعمار ، ثم هو من ناحية أخرى نهاية مرحلة من تاريخ الإسلام فى إفريقية ابتدأت منذ القرن السابع الميلادى

القطر	عدد السكان	المساحة
	١ — فرنسا	
مدغشقر	٣ر١٥٣ر٠٠٠	٢٢٦٠٠٠
الصومال	٢٠٠ر٠٠٠	٤٦٠٠٠
ساحل العاج	١ر٢١٦ر٠٠٠	١٢٠٠٠٠
بورتونوفو	—	—
الكنغو	—	—
الجزائر	٥ر٦٠٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠
تونس	١ر٨٠٠ر٠٠٠	٤٦٠٠٠
السنغال	١ر٣٥٠ر٠٠٠	٧٤٠٠٠
غينيا	١ر٧٧ر٣٥٠	٩٢٠٠٠
	٢ — بريطانيا	
إفريقيا الشرقية	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٤٦٠٠٠
الصومال	٣٠٠ر٠٠٠	٦٨٠٠٠
الرأس	٢ر١٦٠ر٠٠٠	٢٢٠٠٠٠
ناتال	٢ر٤٩٠ر٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
باستوانالاند	٣٥٠ر٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
بتشوانالاند	٩٩ر٠٠٠	٥١٠٠٠
ساحل الذهب	٨٥٧ر٠٠٠	٣٠٠٠٠
لاجوس	—	—
نيجيريا	—	—
مصر	١١ر٣٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٤٠٠٠
غمبيا	١٤٦ر٠٠٠	٤٠٠٠
سيراليون	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٤٤٠٠٠

القطر	عدد السكان	المساحة
	٣ ـ ألمانيا	
إفريقية الشرقية	٧ر٦٤٥ر٠٠٠	٣٨٤٠٠٠
جنوب غرب أفريقية	١٢٠ر٠٠٠	٣٢٢٠٠٠
توجولاند	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٣٠٠٠
الكمرون	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٩٥٠٠٠
	٤ ـ إيطاليا	
الصومال	٣٠٠و٠٠٠	١٣١٠٠٠
أرتريا	٢٨٠ر٠٠٠	٦٠٠٠
	٥ ـ البرتغال	
أنجولا	٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٤٨٠٠٠
إفريقية الشرقية	٣ر٢٠٠ر٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
غينيا	٤٠٠ر٠٠٠	١٤٠٠٠
	٦ ـ أسبانيا	
من رأس بوجادور إلى الرأس الأبيض	٢٠٠ر٠٠٠	٧٥٠٠٠٠

هذه المرحلة السابقة شهدت انتشار الثقافة الإسلامية فى إفريقية على نطاق واسع لا ينافسها منافس ، ولا تحد من تطورها قوة خارجية ، ساد المسلمون فى القارة شعور مشترك من الوحدة المكينة فى ظل الإسلام ، خضع المسلمون لمؤثرات مشتركة وخضعوا لظروف مشتركة ، وبدأ الإسلام فى آخر هذه المرحلة يحل أزماته بنفسه .

وشهد القرن التاسع عشر محاولات للإصلاح والإفادة من التجارب الجديدة التى تمخضت عنها النهضة الأوربية .

كما شهدت البلاد الإسلامية فى هذا العصر انتفاضات شملت الأوطان الإسلامية فى أفريقية كلها . كانت محاولات مخلصة للنهضة والإصلاح .

وكان من الممكن أن ينهض الإسلام ، وأن يحل مشاكله بنفسه دون حاجة إلى تدخل أجنبى .

وبدأت التأثيرات الأوربية تتسرب إلى مصر ، وبدأت مصر عملية الملاءمة بين التقاليد الإسلامية والحضارة الغربية ، ثم أخذت مدارس مصر تشيع هذه المؤثرات فى مختلف أرجاء إفريقية عن طريق مدارسها ومعاهدها وصلاتها الوثيقة بمختلف أرجاء القارة .

لكن الاستعمار قضى على هذه المحاولات باستيلائه على الأوطان الإسلامية ، وكأنه أسدل الستار على هذه الحقبة الطويلة التى أشرنا إليها .

والتطور الإسلامى فى إفريقية كلها فى هذا العصر الطويل يكاد يكون متحد الصورة ، كل قطر نفذ إليه الإسلام تتكرر فيه نفس الظواهر التى حدثت فى الأقطار الأخرى .

وفى هذه الدراسة سنقسم الوطن الإسلامى تقسيما جغرافياً ، وسندرس كل قسم على حدة على هدى المتشابه من التطورات :

الإسلام فى جميع أقطار إفريقية فى العصر الذى حددناه مر بالأدوار الآتية :

١ – دور النهوء (التكوين) : شهد دخول المؤثرات الإسلامية عن طريق الفتح أو التسرب السلمى ، فانتشرت اللغة العربية وشاعت المؤثرات الإسلامية .

٢ – دور الازدهار : يمثل اكتمال التطور الإسلامى ، إذ يتم فيه الاندماج الكامل بين الإسلام وبين المؤثرات المحلية الموجودة ، ويظهر الطابع المحلى للثقافة الإسلامية ، وتبدأ شعوب المنطقة التى أسلمت وتشربت الثقافة الإسلامية تؤسس دولا إسلامية يؤسسها أبناء البلاد الأصليون ، هذه الدول تعمل على نشر الإسلام وإشاعة المؤثرات الإسلامية ويظهر فى حضارتها وتقاليدها المزيج الجديد المؤلف من الثقافة الإسلامية الوافدة والثقافات المحلية .

يمتد هذا الدور حتى أوائل القرن الثامن عشر ، وسوف يشهد ظهور الأتراك العثمانيين على مسرح الحوادث وقيادتهم معركة الجهاد الإسلامى فى البحر الأبيض والأحمر وأوربا .

٣ – عصر الإصلاح – القرن التاسع عشر .

فى هذا العصر يأخذ الإسلام فى مجابهة المؤثرات الغربية الوافدة وفى التلاؤم معها فى البلاد التى وفدت عليها هذه المؤثرات .

وفى بعض البلاد الأخرى تظهر الانتفاضات المهدوية أو الوهابية أو الحركات الإسلامية الأخرى هادفة إلى إصلاح الأحوال ، والنهوض بالإسلام والعودة به إلى قوته الأولى .

أو بمعنى آخر ظهور عصر التجديد فى بعض الأقطار ، ثم ظهور الحركات السلفية فى بعض الأقطار الأخرى ، ثم تظهر القوى الأوروبية وتخضع العالم الإسلامى لنفوذها وسيطرتها .

كل البلاد الإسلامية فى إفريقية مرت بهـذه الأدوار الثلاثة : مر بها شمال إفريقية وغربها ، وسودان وادى النيل وشرق إفريقية ، والجدول التالى يوضح هذه الحقيقة .

أولا – دور النهوء (التكوين) :

فى مصر والمغرب يبدأ منذ تمام الفتح وينتهى ببداية ظهور الإمارات الإسلامية المستقلة .

وفى غرب إفريقية يمثله ظهور المرابطين ونشرهم الإسلام فى دولة غانة وحوض السنغال . وفى سودان وادى النيل الفترة التى تنتهى بسقوط ممالك النوبة المسيحية ثم بداية تدفق القبائل العربية وتسربها إلى بلاد السودان .

وفى شرق إفريقية استقرار المهاجرين العرب وعملهم على نشر الإسلام بين أهل البلاد الأصليين .

ثانيا — دور الازدهار .

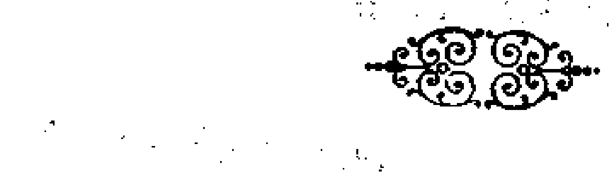
فى مصر والمغرب يشمل تاريخ الدول الإسلامية المستقلة حتى بداية القرن التاسع عشر . وفى غرب إفريقية يشهد ظهور الدول الإسلامية المستقلة : مالى وسنغى وسلطنات كانم وبرنو .

وفى سودان وادى النيل ظهور سلطنات الفنج ودارفور وتقلى وفى شرق إفريقية ظهور الإمارات المستقلة وصراعها مع القوى المسيحية فى البلاد .

ثالثا — عصر الاصلاح :

شهد ظهور حركات التجديد فى كل من مصر وشمال إفريقية، وظهور حركات الجهاد فى غرب إفريقية : حركات ابن فودى والحاج عمر وأحمدو لوبو وشيخو أحمدو .

ويتمثل فى سودان وادى النيل فى الفترة الممتدة من الفتح المصرى حتى نهاية المهدية . وفى شرق إفريقية يتمثل فى الصراع الأخير بين القوى الإسلامية فى البلاد وتدخل المصريين والمهدويين فى السودان .



الباب الثانى

انتشار الإسلام والثقافة العربية
فى مصر والمغرب

١ — الفتح العربى لمصر والمغرب

فتح العرب لمصر والمغرب فصل من قصة طويلة ، هى قصة امتداد النفوذ الإسلامى خارج جزيرة العرب ، قصة الفتوح الإسلامية الشهيرة ، والتوسع العربى المعروف ، الذى ظل مستمراً منذ خلافة أبى بكر الصديق حتى آخر العهد بالدولة الأموية .

فتح مصر إذن مرحلة من مراحل هذا التوسع من حيث الظروف التى مهدت له ومن حيث الأسباب الدافعة إلى الفتح ، ومن حيث النتائج التى ترتبت عليه .

فقد كانت أحوال مصر فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى تمهد لنجاح الفتح العربى ، فقد انتشرت المسيحية فى مصر وأدى انتشارها على نطاق واسع إلى إحياء القومية المصرية التى خبت منذ سقوط ملك الفراعنة ، فقد ترجم الإنجيل إلى اللغة القبطية ، ودخلت هذه اللغة إلى الكنائس فأصبحت لغة الصلاة والترتيل ، وقد أدى هذا إلى إحياء اللغة القبطية وارتفاع شأن الأدب القبطى .

وقد تكتل الشعب المصرى خلف كنيسته التى كانت إحياء للدولة المصرية القديمة فى نظامها وتقاليدها ، وظهر لهذه الكنيسة كيان مستقل ، فقد تأثرت بتعاليم مدرسة الإسكندرية القديمة ، وبمذهب أفلوطين على وجه الخصوص ، ففسرت طبيعة المسيح على أنها طبيعة واحدة يندمج فيها الناسوت فى اللاهوت فى أقنوم واحد ، وبذلك استقلت فى الرأى وفى العقيدة عن كنيسة الدولة البيزنطية الحاكمة .

ثم اتسعت الهوة وانقلب هذا الاستقلال إلى حركة اضطهاد دينى ضخمة ، اضطهاد الكنيسة المصرية والعقيدة المصرية . هذا الاضطهاد بلغ مداه فى عهد الامبراطور هرقل(١) ، عزل القساوسة المصرية وصودرت أموال الكنيسة المصرية ، وأسىء إليها إساءة بالغة .

والمصريون الذين امتهنت مقدساتهم على هذا النحو أصبحوا أحرص الناس على

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦ وما بعدها .

الخلاص من هذه العبودية المذهبية بأية وسيلة . لم يجدوا بدا من تأييد الفاتحين العرب ، متأثرين بتصرفات العرب وتسامحهم الديني مع المسيحية فى بلاد الشام .

والبطارقة اليعقوبيون ونخص بالذكر ميخائيل الأكبر يرى فى فتح العرب وفى انتصاراتهم المتلاحقة يد العدالة الإلهية التى بعثت لتثأر لما نال كنيستهم من تعذيب واضطهاد(٢) . وسيندفع أهل مصر إلى مساعدة العرب فى فتح البلاد والقضاء على الجبروت الملكانى الذى أذلهم .

ومن مظاهر الضعف الأخرى : ضعف النظم العسكرية البيزنطية بوجه عام وضعف التنظيمات العسكرية فى مصر بوجه خاص .

ويمكننا أن نتلمس مظاهر هذا الضعف فى تقسيم مصر إلى قيادات منفصلة غير متعاونة للحيلولة دون ثورة الحامية المصرية على الدولة الحاكمة ، ولكن البيزنطيين لم يكونوا يقدرون أن هذه القسمة ستسهل من مهمة العرب كثيراً .

يضاف إلى هذا أن الجيش البيزنطى نفسه قد تسربت إليه طوائف من المجندين المصريين وأن هؤلاء لم يكونوا مخلصين للقضية البيزنطية ، وأنهم كانوا يلقون السلاح عند أول لقاء لهم بالعرب .

وكان النظام الذى وضعه البيزنطيون للدفاع عن مصر يعتمد إلى حد كبير على خط دفاع أقيم على الحدود الشرقية ، وهو يتألف من قسمين : حصون فرعية من الفرما إلى بلبيس ، ثم قاعدة عسكرية كبرى عند حصن بابليون تتحكم فى الدلتا والصعيد فى وقت واحد ، ؛ ومثل هذا الخط لم يكن كفيلا بحماية البلاد ، إذ بمجرد أن اخترقه العرب تمكنوا من وادى النيل .

وتضاف إلى هذه المظاهر مساوىء أخرى كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية تضافرت كلها على أن تمهد للنصر الذى حققه العرب ، وتمكن لهم من وادى النيل .

ولا نريد أن نخوض كثيراً فى ماأثير حول الفتوح العربية والظروف الدافعة إليها ،

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٧٢

(٢) Maspero : Organisation Militaire,

ومما نادى به المؤرخون المحدثون من أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية ، إنما يكفى أن نقول إن فتح مصر كان شأنه شأن الفتوح الأخرى ، تذكيه أولا وقبل كل شيء رغبة دينية جامحة ، هى نشر الدين الإسلامى .

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت ترى أن الخطوة الأولى فى سبيل نشر الدين الجديد هي أن تفرق بين الشعوب السامية فى الشرق الأدنى وبين الحكومة البيزنطية . وكانت الهوة سحيقة جداً بين الحاكمين والمحكومين ، هوة فى الدين وفى المقومات وفى الثقافة أيضاً .

لذلك انصرف الفاتحون العرب إلى ضرب القوة البيزنطية فى الصميم ، هزموها فى اليرموك ، وتعقبوها فى بلاد الشام ، وطردوها من هذه البلاد ، وأعادوا الاتصال المباشر بينهم وبين الشعوب السامية فى الشام

وكان عليهم بعد هذا أن يتعقبوا هذه القوة البيزنطية فى بقية معاقلها وحصونها ، وكانت مصر من أمنع هذه المعاقل بسبب قاعدة الإسكندرية أعظم القواعد البحرية فى البحر الأبيض وبسبب مواردها الهائلة ، وبسبب الإمبراطورية المترامية الأطراف الممتدة حتى المحيط الأطلسى . وأبجديات الاستراتيجية تحتم على العرب حماية الشام بفتح مصر ثم حماية مصر بفتح المغرب .

ولم يكن فتح هذا المعقل المنيع مجرد حملة لايزيد عديد جنودها عن أربعة آلاف على رأسهم قائد مغامر ، إنما كانت عملا عسكرياً دبر بعناية وإحكام لتسديد ضربة محكمة إلى المقاومة البيزنطية .

فقد اتفق على خطة الفتح فى مؤتمر للقواد العسكريين عقد فى مدينة الجابية ، وأعدت لهذا الفتح فرق من الجنود اليمنية لها خبرة خاصة بقتال الحصون واختطاط المدن وبالزراعة والصناعة .

كما اتصل العرب بالقبائل البدوية العربية التى كانت تقيم على حدود فلسطين ومصر وتمتد بطونها فى مديرية الشرقية خصوصا قبائل لخم وراشدة . وقد انحاز هؤلاء العرب إلى بنى عمومتهم (١) ، فكان جند عمرو (٢) ، هم القوة الضاربة

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٣٤ وما بعدها .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ . هذه القوة ٣٥٠٠ وثلثهم من غافق .

وخلفهم جموع من عرب فلسطين ومصر تحمى مؤخرتهم ، وتدلهم على مسالك البلاد .

ومن قبيل هذا الاستعداد أن العرب قبيل الفتح كانوا يتجسسون على أحوال مصر وأرسلوا كتيبة استطلاعية لتأليب المصريين والتمهيد للفتح (١) .

وقد عمد العرب إلى تنفيذ الخطة الفارسية القديمة التى استخدمت فى فتح مصر بدليل أن العرب استعانوا ببعض الجنود الفرس الذين اشتركوا فى الحملة السابقة ليدلوهم على وسيلة التنفيذ (٢) .

كانت الخطة الفارسية القديمة تقوم على أساس مهاجمة قاعدة بابليون التى تسيطر على الدلتا والصعيد عند نقطة تفرع النيل ، وبذلك يشطرون الوادى إلى شطرين ويشغلون قوات الصعيد فلا تتصل بقوات الدلتا ، ثم مهاجمة الاسكندرية من الخلف متبعين فرع النيل الغربى .

كانت الخطة العربية هى تطبيق دقيق لنفس هذه الخطة الفارسية القديمة تقدم العرب من حدود مصر الشرقية ، ثم تقدموا حتى دخلوا بلبيس ، ثم هاجموا القاعدة الكبرى قاعدة بابليون. وقد دافعت الحامية البيزنطية عن هذه القاعدة دفاع الأبطال ثم أخليت واستولى عليها العرب ، فإن البيزنطيين كانوا يركزون الدفاع كله حول الاسكندرية لتعاون القوات البرية والبحرية معا فى دفع العرب عن البلاد .

وقد تقدم العرب بعد بابليون فى نفس الطريق الفارسى وضربوا الحصار على مدينة الاسكندرية من الخلف ، وقاومت المدينة بحماية الأسطول البيزنطى مقاومة جبارة ، ولم تستسلم إلا بعد تغير الأحوال السياسية فى الدولة البيزانطية بعد وفاة هرقل ، إذ رأى خليفته بعد ضياع هيبة البيزنطيين فى الشام ومصر أن ينصرف إلى الدفاع عن الحدود الشمالية البلقانية ، وأن ينسحب من مصر ويستسلم للعرب على أن يعاود الكرة فيما بعد .

وهذا هو ما أدى إلى تسليم الاسكندرية للعرب وعقد معاهدة الفتح المشهورة

---

(١) انظر ما ورد فى الواقدى من روايات فى هذا الصدد .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, tome IV.

فكانت إنهاء للمقاومة البيزنطية فى مصر ، وإيذانا بانتصار العرب وبداية عهد جديد فى تاريخ البلاد ، كانت بداية مصر الإسلامية (١) .

لكن الفتح الحقيقى للبلاد لن يتم إلا ببناء البحرية المصرية الإسلامية ، فقد كان البيزنطيون لا يزالون يحتفظون بالسيادة البحرية فى البحر الأبيض وكانوا قادرين على معاودة الكرة ومواصلة العدوان . وفعلا استعادوا الإسكندرية سنة ٢٥ هـ . وبدأوا يتقدمون منها فى إقليم الدلتا ، وكان نجاح العرب فى صدهم واستعادة الاسكندرية بداية الفتح الحقيقى للبلاد . فقد ظهرت فى شواطىء مصر النواة الأولى للبحرية الإسلامية ، ثم اشتد عود هذه البحرية الناهضة ، وانتزعت زمام المبادأة من البيزنطيين أنفسهم وخاضت معركة ذات الصوارى ، وقد دفع البيزنطيون فى هذه المعركة قوتهم كلها ، غير أن العرب هزموهم وانتزعوا منهم أول نصر بحرى . وانتصار ذات الصوارى يشبه من حيث النتائج إنتصار اليرموك : النصر الأول أنهى المقاومة البرية ، والنصر الثانى كتب للمسلمين السيادة البحرية (٢) .

بعد أن تمكن النفوذ الإسلامي من مصر بدأ يتجاوز حدود البلاد الغربية متطلعاً إلى بلاد المغرب ، ومن الغريب أن يحدث هذا بعد فتح مصر مباشرة وبعد الجهود المتواصلة التى بذلت لقهر البيزنطيين فى مصر .

فبدأ عمرو بن العاص بعد تسليم الإسكندرية مباشرة يتوغل بقواته صوب الغرب متعقباً القوات البيزنطية المتقهقرة واخترق برقة وطرابلس ، وما كاد يقترب من حدود تونس وتبلغه أنباء تجمعات الروم حتى عاد أدراجه(٣)

ثم أعاد المسلمون الكرة باستعداد أتم فى عهد عبد الله بن سعد ، فقد جند الخليفة عثمان عشرين ألفاً من العرب . فتوغل بهم حتى بلغ تونس مرة أخرى ، ثم هزم تجمعات البيزنطيين .

ورغم هذا النصر عاد المسلمون إلى مصر مرة أخرى ، مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية فى المضى فى الفتح إلى غايته ، إنما هى مجرد تأمين لحدود

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٨ .
(٢) » » » : » » ص ٨٨ — ٩٠ .
(٣) مؤنس : فتوح العرب للمغرب ص ٦٨ .

مصر الغربية وإرهاب للبيزنطيين ، فلا يفكرون في الاغارة على مصر من ناحية الغرب .

ثم حاول خليفة عمرو ، عبد الله بن سعد أن يعيد الكرة باستعداد أوفر وقوة أتم . فكتب إلى عثمان الخليفة يستأذنه في الفتح ، وجند عثمان عشرين ألفاً من العرب يقودهم أعلام الصحابة لاستئناف الجهاد في هذا الميدان الجديد .

وعاود العرب التقدم مرة أخرى ودخلوا إفريقية هذه المرة ، وهزموا تجمعات الروم في معركة سبيطلة(١) . ولكن العرب ارتدوا مرة أخرى رغم هذا النصر ،وهذا الارتداد سببه بداية الفتنة الإسلامية الكبرى في عهد عثمان ، وبداية تزعزع مكانة الخليفة في نفوس المسلمين .

والمسلمون لم يلقوا السلاح ولم يكن من المعقول أن ينزلوا عن هذه الآفاق الجديدة التي تمكن أن تمتد إليها الدعوة الإسلامية ، فما كادت الدولة الإسلامية تفيق من متاعبها بقيام الدولة الأموية حتى كان الخليفة معاوية أسرع الناس إلى معاودة النضال ليكسب لخلافته الناشئة تأييد كافة المسلمين بسبب إحياء الجهاد في سبيل الله والعقيدة ، ومن ثم كانت محاولة معاوية بن خديج غزو افريقية ، وقد أخفقت محاولة ابن خديج كما أخفقت المحاولات السابقة (٢) .

وكان على العرب إن أرادوا معاودة الكرة والتمكن من الفوز والنصر أن يغيروا خطتهم في الحرب من أساسها ، فقد كان عدوهم يعتمد في معركة المغرب على ثلاثة عناصر قوية : أولها أسطول بحري ضخم بقواعد راسخة في صقلية ، وموانى افريقية وسلسلة عظيمة من الحصون الساحلية القديمة ممتدة من حدود افريقية حتى المحيط الأطلسي تتعاون كلها في صد المغيرين وردهم على أعقابهم . وثالثاً تأييد القبائل المغربية المقيمة بالسهول الساحلية والتي كانت قد اعتنقت المسيحية وتشربت الثقافة الرومانية .

وفعلا عاد العرب الى المعركة مرة أخرى سنة ٥٠ (٣)هـ بخطة جديد لمواجهة تكتيك العدو وخططه .

---

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٨٥ وما بعدها .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١١ — ١٢ .

وقد عاد عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب وفى ذهنه أمور ثلاثة لإحراز النصر فى هذه المعركة الحاسمة . أولها : تجنب الطريق الساحلى بأية وسيلة مع محاولة التقرب من أهل البلاد الأصليين من البدو الذين يكرهون الثقافة الرومانية والحكم البيزنطى وبذلك يطوق الثغور الساحلية من أسفل ، ويتجنب خطر الأسطول البيزنطى ، ثانياً : انشاء قاعدة للغزو الإسلامى لهذه البلاد تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر الأسول قريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الرعوية الواقعة من خلفها ، يتجمع فيها المقاتلة من مصر وغيرها من البلاد الإسلامية وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة تسرب الى بلاد المغرب كله .

وكان إنشاء القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لهذه البلاد من ناحية ، وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية .

فقد كان إنشاء القيروان معناه أن معالم ولاية إفريقية أخذت تتضح منذ إنشاء هذه المدينة ، إذ بدأت تصبح مقراً للولاة والعمال وغيرهم من ذوى السلطان ، وأصبحت الإقامة بالقيراون أول ما تتجه إليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول الأمر يتطلع إلى مصر ويتعجل العودة إليها .

وكان إنشاء القيروان مؤذناً ببدء عهد جديد فى تاريخ البلاد ، ذلك أن مدينة القيروان ستصبح قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام ، فقد وفد إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون دينهم . كما دفن بها كثيرون ممن استشهد منهم ، لذلك نجد الرواة والكتاب يخلعون عليها ثوباً من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات .

ويعتبر إنشاؤها بدء تاريخ الحضارة الإسلامية المغربية ، فإلى جانب الجيوش والبعوث التى تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد يعلمون العربية وينشرون الإسلام ، بل إن الدور الذى لعبته مدرسة القيروان فى إدخال البربر فى حظيرة الإسلام لا يقل عن الدور الذى لعبه القواد الفاتحون (١) .

ورغم أنه لم تتح لعقبة الفرصة لإتمام مابدأ وتنفيذ السياسة الحكيمة التى وضعها

---

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ١٤٣ — ١٤٦ .

غير أن سياسته هـذه أصبحت دستوراً لمن أعقبه من القواد والفاتحين ، لأنها أكثر السياسات ملاءمة لأحوال إفريقية .

زحف خليفته أبو المهاجر دينار (١) من المناطق الداخلية وطرق باب المغرب الأوسط ، واصطنع سياسة التحبب إلى القبائل المغربية فى البلاد ومسالمتها ، وترغيبها فى الدخول فى الإسلام .

كما وضحت الأهمية القصوى لإنشاء قاعدة القيروان العسكرية فى عهد زهير بن قيس البلوى حينما ارتد البربر وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعبهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ، ولولا قاعدة القيروان وأهميتها الاستراتيجية لطرد العرب نهائياً من البلاد ، وضاعت الجهود الشاقة التى بذلت من قبل .

كانت هذه المدينة الأساس الهام الذى تنبعث منه محاولات عبد الملك بن مروان لإتمام فتح هذه البلاد ، فأرسل إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الجند من الشام . وأقبل الناس على الانخراط فى سلك المجاهدين . واستطاع عبد الملك بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية كلها أن ينصرف كلية إلى فتح إفريقية ، فأعاد الكرة مرة أخرى سنة ٧٦ هـ بقيادة حسان بن النعمان ، وكانت الخطة التى التزمها هذا الفاتح تدل على تطور هام فى تاريخ الحملات العربية فى شمال إفريقية (٢) :

فقد انصرف إلى مهاجمة القلاع الساحلية مثل قرطاجنة وهـذا يدل على نمو البحرية الإسلامية نمواً جعلها تقـدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب ومساعدة القوات البحرية .

ودخول البحرية الإسلامية بلاد المغرب طليعة الجهود الحقيقية التى ستبذل لقهر الروم وإتمام فتح البلاد . وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجنة معقل المقاومة وقاعدة الأسطول البيزنطى بعد مقاومة عنيفة ونضال مستمر ، وهزمت البحرية البيزنطية ، وأحرز الأسطول العربى الناشىء أول نصر له فى هذا الميدان . كانت معركة إفريقية معركة البحرية الإسلامية الناشئة ، ونستطيع أن نقول إن فتح إفريقية قد تم بعدها (٣) .

---

(١) المالكى : رياض النفوس ص ٢٠ .
(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ١١٨ وما بعدها .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٤٤ .

وأراد حسان أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حداً لمحاولات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للأسطول الإسلامي في مدينة تونس . وإذا كانت القيروان قد أصبحت حصن البلاد من الداخل ومعسكراً للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة الأسطول العربي(١) . وكان حسان موفقاً كل التوفيق حين اهتم بتعمير هذه المدينة وجلب لها بعض الأسر القبطية المشتغلة بصناعة السفن لتدريب العرب وتمكين أهل البلاد من ركوب البحر .

والخطة الثانية تقريب أهل البلاد من الفاتحين نهائياً بتولية المسلمين منهم في وظائف الولاية الإفريقية ، وتمتعهم بالمساواة الكاملة بالعرب الوافدين لهذه البلاد ، فتبين أهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية ، والسياسة البيزنطية القديمة ، فاشتد ساعد الإسلام وأقبل عليه البربر منذ هذا الوقت إقبالاً عظيما .

وهذا كله كان بالغ الأثر في تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى إفريقية ، فقد نعمت البلاد بالهدوء والطمأنينة ، وأمنت من الغزو البيزنطي وتم التحالف الوطيد بين العرب والبربر .

وكان معنى هذا كله استقرار الأمور الداخلية . فأخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها . كثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء الوافدين من مصر ، وأصبح جامع عقبة بالقيروان مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخصوصاً البربر أهل البلاد الأصليين ، الذين أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة الإسلامية . وانتشر صيت القيروان حتى عم إفريقية كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد .

وبدراسة ما كتبه كل من أبي العرب تميم في كتابة طبقات فقهاء القيروان والمالكي في كتابه رياض النفوس والدباغ في كتابه معالم الإيمان ، نستطيع أن نتتبع تطور هذه المدرسة خلال الفترة التي مضت منذ إنشائها لأول مرة ، فبدأت تختص بدراسة الفقه والحديث والقرآن واللغة والنحو على يد أئمة الدارسين المتخصصين . وكانت مصر بمدارسها المختلفة تشد أزر هذه الحركة وتغذيها .

---

(١) ابن أبي دينار : المؤنس ص ٨ .

وكان استئناف الفتح بعد ذلك هو إعلاء لنفوذ القيروان السياسي والعسكرى ، ولنفوذها الثقافى والروحى ، فإن فتح المغرب الأقصى سيتم بفضل أهل إفريقية .

فلنرى كيف امتد نفوذ القيروان حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى ،

والعامل الحاسم فى قصة امتداد النفوذ العربى إلى المغرب الأقصى هو انتشار الإسلام بين البربر فى إفريقية ، والتقارب بين العرب والبربر والإعتماد على إفريقية نفسها كقاعدة عسكرية لإتمام فتح البلاد .

وهذه القاعدة العسكرية لا يمكن أن تكون ذات أثر فعال إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم ، ثم إن الاعتماد على الامدادات العربية وحدها فى فتح هذه البلاد من الناحية العسكرية أمر غير مرغوب فيه ، بسبب قلة أعداد العرب بعد تفرقهم فى الأمصار وطول خطوط المواصلات نفسها ، واستحالة الاحتفاظ بها سليمة دون أن يصيبها عدوان .

وكانت جهود حسان بن النعمان وسياسته التى أشرنا إليها محققة لهذه الأهداف كلها فقد مهدت لامتداد الثقافة العربية إلى آفاق جديدة (١) .

ومصداق هـذا القول حملة عقبة بن نافع الفهرى فى المغرب الأقصى ، التى كادت أن تكون أسطورة فى تاريخ الفتوح الإسلامية من حيث سرعة الزحف وعنف الهجوم والآفاق التى وصل إليها .

فقد تجاوز إفريقية غرباً وتوغل فى المغرب الأوسط ، ثم سار فى إقليم الساحل حتى وصل مدينة طنجة الحالية .

ودار حول ساحل المحيط الأطلسي إلى اقليم السوس الأدنى ثم السوس الأقصى ، حتى وصل إلى الحـدود الجنوبية للمغرب الأقصى قرب مدينة مشهورة فى تاريخ العلاقات بين المغرب والسودان الغربى هى مدينة أغمات .

بل لم يقف عند هذا الحد فتذكر بعض الروايات أنه توغل فى غرب إفريقية ، ووصل إلى بلاد غانة والتكرور .

---

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٥٠ .

والرحالة بارث (١) فى كتابه Travels and discoveries in north and Central Africa يذكر أن بعض الروايات المحلية تقول أنه كانت بغانة عام ٦٠ هـ جالية إسلامية وأن عقبة بنى فيها بعض المساجد (٢) .

وهذا كله من قبيل المغالاة لأن المسلمين فى هـــذه الجهات يهتمون بأن يرجعوا إسلامهم إلى رجل من الصحابة ومن الرعيل الأول مثل عقبة .

ولم يكن من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة أن يدرك بلاد السودان ومصب السنغال ومنحنى النيجر .

على كل حال نستطيع أن نقبل هذه الرواية بشىء من التحفظ إذا عرفنا أن ديار السودان كانت أكثر امتداداً نحو الشمال . وليس بعيداً أن تكون مملكة غانة الزنجية قد امتدت حتى حدود المغرب الأقصى (٣) .

ولكن رغم هذه السرعة فى الزحف ورغم هـــذا المدى البعيد الذى وصل إليه هذا القائد العربى فإن جهوده ذهبت هباء . وما كاد يعود أدراجه متجها صوب إفريقية حتى انقضت عليه القبائل المغربية التى كانت قد فرت أمامه معتصمة بالجبال والهضاب فقتل وتفرق شمل جيشه .

وكان الفشل منبه أن هذه الحملة لم تكن متجاوبة مع السياسة التى تحدثنا عنها ، ولم تكن تعتمد على أهل البلاد أو تسعى إلى تحبيبهم فى الإسلام أو التقريب بينهم وبين العرب كما فعل حسان بن النعمان فى إفريقية فيما بعد .

وطبيعى أنه لن تنجح الجهود العديدة لفتح هذه البلاد وإدخالها فى نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة التى وضع أساسها حسان بن النعمان ، والتى أثمرت فى إفريقية على النحو الذى ذكرناه .

فلما جاء موسى بن نصـــير إلى المغرب الأقصى يريد أن يترسم خطة عقبة مع تطبيقه لمبادىء حسان ، كتب له النجاح والتوفيق فى مهمته ، وهو نجاح لم يتوفر لعقبة من قبل .

فقد استقامت الأحوال لخلفاء بنى أمية واستطاعوا فى عهد عبد الملك بن مروان أن يقضوا على الفتنة الداخلية ، وأتيح لموسى بإذن عبد الملك أن يعاود الفتح مرة أخرى.

(١) Barth : Travels and discoveries vol. IV p. 570

(٢) De la Chapelle : Hesperis, 1930 T. XI, p. 24

(٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٤ .

وسلك نفس الطريق الذى سلكه عقبة من قبل حتى وصل إلى الحدود الجنوبية للمغرب الأقصى .

وأشرف على حدود غرب إفريقية من الشمال ، لكن موسى كان أبعد نظراً من عقبة ، ولم يكن قائداً فحسب إنما كان مصلحاً وسياسياً فى نفس الوقت ، فقرب إليه البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد ، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم يتيح لهم مكاسب مادية كثيرة(١) ، فبدءوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما .

وموسى لم يكن يحب أن يكون إسلام البربر خوفا أو رهبة بل عن حب واقتناع ، فأخــذ يعلمهم الدين وينشىء المساجد فى البلاد التى فتحها فأنشأ مسجداً فى مدينة أغمات فى أقصى بلاد المغرب ، وبدأت الثقافة الإسلامية تنبت فى هــذه البيئة الحديثة (٢) .

التزم موسى إذن سياسة حسان بن النعمان سياسة التهدئة وأصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه .

وقد تابع خلفاء موسى هذه السياسة الرشيدة ، فإن اسماعيل بن أبى المهاجر فى عهد عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام ، وأمده الخليفة بطائفة من التابعين انتشروا فى البلاد يحضون الناس على الإسلام وينشرون الثقافة الإسلامية .

وكما أن تعريب إفريقية واستقرار أمورها ودخول أهلها فى الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافة العرب فى المغرب الأقصى ، كذلك كان انتشار الإسلام فى المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملا حاسما فى اندفاع الإسلام وثقافة العرب إلى بلاد الأندلس .

فقد كان بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا فى الإسلام حديثا هم عدة هــذا الفتح وهم جنده . وطارق بن زياد المغربى وجهوده وبروزه فى قصة الفتح يعتبر دليلا على نجاح سياسة موسى ، وعلى مدى انتشار العقيدة الإسلامية بين صفوف أهل البلاد الأصليين (٢) .

وبذلك انتشر النفوذ الإسلامى من مصر حتى المحيط الأطلسى .

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٤ .

(٢) قيام دولة المرابطين ص ٦٤ — ٦٥ .

٢ — انتشار الاسلام والثقافة الاسلامية فى مصر

دور التكوين :

بعد أن عرضنا لفتح كل من مصر والمغرب ، سنعرض للتطورات الهامة التى حدثت فى هذه البلاد بعد إتمام الفتح ، والتى كان لها عظيم الأثر فى مستقبل الإسلام فى إفريقية .

من هذه التطورات انتشار الإسلام فى مصر وتحول هذا الشعب بالتدريج من دينه القديم إلى دينه الجديد . هذا الشعب الذى ظل يقاوم الكنيسة البيزنطية وعقائدها مقاومة عنيدة نحوا من أربعة قرون ، استسلم للفاتحين العرب واعتنق دينهم فى مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان .

وموضوع انتشار الإسلام بين المصريين ، والتاريخ الصحيح لهذه الظاهرة الهامة فى تاريخ البلاد لم يعرض لها بالدراسة الكاملة .

لم يعرض لها المستشرق Becker على الرغم من اعتماده على أوراق البردى فى كثير من الدراسات الإسلامية التى قام بها ، لأن هـــذه الاوراق فى الحقيقة لا تلقى ضوءا إلا على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية وأهملت هذه الناحية الدينية الهامة ،

والمؤرخون المسلمون عامة يجملون القول ولايشيرون إلى إحصائيات معينة يمكن الاعتماد عليها، حتى المقريزى نفسه الذى كتب فى القرن الخامس عشر عصر النهضة الإسلامية الشاملة حديثه فى هذا الموضوع فيه خلط وتضارب .

والرحالة الاجانب الذين وفدوا على البلاد اتسمت أقوالهم بطابع المبالغة ولايمكن أن نثق بها كثيراً .

ورغم هذا كله فإننا نستطيع أن نقول أن الإســـلام كان يمضى فى طريقه نحو الذيوع والانتشار فى خطوات سريعة . وذلك إعتماداً على ما تذكره المراجع عن مقادير الجزية المفروضة على القادرين من غير المسلمين . هذه الجزية أخذت تتناقص تناقصا سريعاً مطرداً .

فى عهد عثمان بن عفان بلغ خراج مصر ١٢ مليون دينار .

« « معاوية « « « [illegible] « «

« هارون الرشيد « « « ٤ « «

فى العصر العباسى المتأخر (١) « ٣ « «

كما نستطيع اعتماداً على كتب التاريخ التى كتبها مصريون مسيحيون ابتداء من القرن الرابع الهجرى فصاعداً أن نعرف أنه كانت هنالك موجات كثيرة من التحول إلى الإسلام فى سنة ٧٣٥ و ٨٢٢ و ١١٧١ ميلادية .

وأن سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣ م (٢) على وجه التحديد تعتبر سنة حاسمة فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى مصر : فقد أصبحت غالبية أهل البلاد من المسلمين ، يدل على هذا أن الثورات القبطية المعروفة قد اختفت منذ ذلك العهد بانتهاء المقاومة ودخول أغلب الناس فى الإسلام .

كما أن القبائل العربية التى قاومت الدولة العباسية منذ قيامها قد استكانت منذ هذا التاريخ لانتشارها فى ريف البلاد واختلاطها بالمصريين الذين أسلموا .

كما بدأت فى ذلك العهد ظاهرة تميز المصريين المسيحيين من غير المسيحيين فى الحياة الاجتماعية وفى الزى ، وذلك بناء على المرسوم الذى أصدره الخليفة العباسى المتوكل ، والذى حتم فيه على المسيحيين أن يلبسوا زياً خاصاً . والمنطق يقضى بأن تميز الأقلية المسيحية عن الغالبية المسلمة التى دخلت فى الإسلام واحتفظت بزيها وعاداتها وتقاليدها القديمة (٣) .

ثم مضت هذه الظاهرة فى طريقها المرسوم حتى بعد السنة التى حددناها فحدثت تحولات إلى الإسلام فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وفى القرن التاسع عشر ، وفى الوقت الذى قيل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحاً فى الدين لم تخل سنة من السنوات من تحول أقباطها إلى الإسلام (٤) .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٤ .

(٢) Masignon : Annuaire du Monde Musulman p. 270.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩٠ .

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٧ .

والأستاذ لويس ماسينيون فى كتابه « حوليات العالم الإسلامى » يثبت أن غالبية المسلمين هم من المصريين الذين أسلموا ، وقد وضع نسبة مئوية للدماء المصرية على هذا النحو :

٦ ٪ من القبائل العربية الخالصة .

٢ ٪ من البربر .

٢ ٪ من الحاميين .

٨٨٪ مصريون أسلموا .

٢ ٪ مصريون لم يسلموا (١) .

هذا التطور الخطير فى تاريخ مصر كيف نعلله التعليل الصحيح ؟

ليس من شك فى أن الإسلام فى مصر قد اتخذ السبيل المنطقى المعروف فى انتشاره بين الناس ، وهو سبيل المسالمة والدعوة الخالصة والاقتناع المنطقى الخالص ، بدليل أن بعض المصريين دخلوا فى الإسلام حتى قبل أن يتم للعرب فتح البلاد . بل أسلم بعضهم حتى قبل مجىء عمرو نفسه ، وكان بعض هؤلاء المسلمين الأوائل فى طليعة جيش الفتح ، كما يستفاد من رواية الواقدى(٢) .

وأسلم بعضهم بهذه الوسيلة أثناء حصار الإسكندرية ، يستفاد من ذلك مما كتبه المؤرخ يوحنا النقيوسى ، فهو يعجب لهؤلاء الناس من إخوانه فى الدين الذين أقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه .

ومما يؤسف له أنه ليست لدينا معلومات مفصلة عن نشاط الدعوة إلى الإسلام عن طريق الإقناع والمنطق ، فكتب التاريخ الإسلامى أهملت هذا الموضوع عظيم الأهمية فى تاريخ الإسلام .

إذ ليس من شك فى أن الفقهاء العرب الذين كانوا يقدمون إلى مصر من بلاد العرب ليفقهوا الناس فى دينهم كانوا إلى جانب ذلك يعملون على نشر الإسلام والتمكين للثقافة الإسلامية من نفوس الناس .

---

(١) Massignon : Annuaire p. 271.

(٢) الواقدى : فتوح الشام .

وكانت أعداد هؤلاء الدارسين والمشتغلين بالعلم تتزايد باستمرار . وبدأ هـذا النوع من التعليم لايعود وقفاً على العرب بل أقبل عليه المصـريون الذين أسلموا وتكلموا العربية واشتغلوا بالفقه والحديث ، وقاموا فى سبيل نشر الإسلام بنفس الذى الدور الذى قام به العرب من قبلهم .

ولعل هؤلاء كانوا أكثر تفهماً للعقلية المصرية والروح المصرية من معلميهم العرب ، وليس من شك فى أنهم بذلوا جهوداً مضنية فى هذا السبيل ، وعملوا على إدخال الكثيرين من مواطنيهم فى الإسلام .

ويمكنا أن نربط بين انتشار الإسلام وانتشار الثقافة العربية فى البلاد ، اذ كلما مضت هذه الثقافة فى طريقها المرسوم وتغلغلت فى نفوس الناس كلما عمل هذا من ناحية أخرى على كثرة الداخلين فى الدين الإسلامى .

والمعروف أن الحركة العلمية الإسلامية قد اشتدت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وشرعت مصر فى احتلال مكانتها الطبيعية فى ميدان الثقافة العربية .

وليس من قبيل الإتفاق أو المصادفة أن نقول أنه فى هذا التاريخ بالذات تحولت أغلبية المصريين إلى الدين الجديد ، ووضحت الجهود التى بذلها الدعاة المسلمون منذ الفتح العربى حتى هذا العصر .

ولا تخلو أوراق البردى الإسلامية التى ترجع الى عصر الولاة من إعطاء صورة خاطفة غير واضحة لهذا التحول الخطير فى تاريخ البلاد .

فأوراق القرن الأول تكثر فيها أسماء المسيحيين فى العقود الرسمية وفى المعاملات المالية المختلفة ثم تقل هذه الأسماء بالتدريج ، وتغلب الأسماء العربية ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، وهو القرن الذى وضحت فيه التأثيرات الإسلامية فى البلاد(١) ؟

مهما يكن من شيء فإن هذا الموضوع فى حاجة إلى مزيد من العناية والبحث ولا زال من الموضوعات الغامضة فى التاريخ الإسلامى ،لأن المؤرخين لم يعنوا عادة إلا بأخبار الفتح أو قيام الدول أو المشاكل السياسية أو الثقافية العامة .

وهذا يجرنا إلى سؤال آخر قد تكون الإجابة عليه مفيدة فى الكشف عن الأسباب

---

(١) Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte, 2me Partie pp. 135–137.

الخفية فى سرعة انتشار الإسلام . وهو هل تبنت الدولة الإسلامية فى مصر مسألةنشر الإسلام ؟ أو بمعنى آخر هل كانت الدولة تكره الناس على الدخول فى الإسلام ؟

والإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا ألا نعتمد على ما كتبه المؤرخون العرب وحدهم فقد نخشى أن يكونوا قد سكتوا عن بعض الحقائق أو أخفوها .

بل نعتمد على ماكتبه المؤرخون المسيحيون خصوصاً يوحنا النقيوسى الذى أرخ لحوادث القرن السابع الميلادى . ثم التواريخ التى ظهرت فى مصر ابتداء من القرن الرابع الهجرى والتى كتبها مصريون باللغة العربية بعد أن تعلموها واتخذوها أداة للتعبير عن آرائهم .

ونستطيع اعتماداً على هذين المصدرين أن نقرر فى اطمئنان أن الدولة الإسلامية فى مصر لم تكره الناس على الدخول فى الإسلام ولم تفرض الدعوة الإسلامة فرضاً .

وإذا أردنا أن نثبت هذه الحقيقة فلنستعرض حوادث العصر الإسلامى فى مصر فى هذه الفترة التى حددناها .

فى عهد الخلفاء الراشدين تمتع المسيحيون بحريتهم الدينية المطلقة التى لم تنتقص منها أية قيود واستردت الكنيسة أنفاسها بعد ما يزيد عن قرن من الاضطهاد البيزنطى .

هذه الحقيقة تثبتها كتب التاريخ الإسلامى وكتب التاريخ المسيحى خصوصاً يوحنا النقيوسى .

بل إن بعض الوثائق البردية التى اكتشفت حديثاً تدل على أن العرب فى سبيل المحافظة على الأوضاع القائمة أبقوا العملة على حالها وجعلوا الدينار البيزنطى أساسا للمعاملة .

وكانوا يدفعون أثمان مشترياتهم بهذه العملة الذهبية . وأعيدت أملاك الكنيسة كاملة ، وكانت الدولة فى مصر مسيحية فى حقيقة الأمر ، الموظفون كلهم مسيحيون ماعدا وظائف السلطة العليا(١) .

وانتقال السلطة إلى بنى أمية لم يغير من جوهر هذه السياسة على الإطلاق بل ربما مضى الأمويون فى تسامحهم الدينى إلى أبعد مما ذهب إليه العهد السابق .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤ ، سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٦٧ .

تولى المسيحيون وظائف الخراج فى العهد الأموى ، وتولوا أرفع المناصب وقد استطاع واحد منهم فى عهد مروان بن الحكم وإسمه أثناسيوس الرهاوى أن يصل من حيث الصيت والنفوذ إلى ما يحسده عليه المسلمون ، فقد اتخذ لقب الكاتب الأفخم ، وكان له ديوان استخدم فيه عددا كبيرا من الموظفين واستطاع واحدمن هؤلاء المصريين فى عهد عبد العزيز بن مروان أن يصل إلى مثل هذا النفوذ، فكانت له بطانة تتألف من أربعة آلاف عبد وبلغ راتبه فى السنة ستين ألف دينار إلى جانب الضياع الواسعة(١) .

ولكن بدت مظاهر كثيرة من سخط المسيحيين وقلقهم فى العهد الأموى ، نلمح هذه الظاهرة فى شيء من التفصيل فيما كتبه المؤرخون المسيحيون .

والسخط لم يكن سببه تدخل للدولة فى الحريات الدينية ، أو فرضها الإسلام على الناس فرضاً ، إنما كان سببه مالياً إلى حد بعيد .

لأن الدولة الأموية كانت فى حاجة ماسة إلى المال لتنفيـــذ سياستها الداخلية والخارجية . ففرضت الضرائب على الرهبان . وزادت مقدار الجزية والخراج . وعمد بعض الأمويين حتى إلى عدم إعفاء المسلمين من ضريبة الجزية وفقا لتعاليم الإسلام(٢) . وعمل بعضهم أيضا على مضاعفة الجزية على من بقى على دينه .

وقد أدت زيادة الضرائب على هذا النحو إلى ضعف مستوى الإنتاج وانتشار الكساد فى ريف مصر .

واضطر كثيرون من أهل مصر إلى أن يتركوا أراضيهم التى أصبحت عبئا اقتصاديا عليهم . وأن يهاجروا إلى أقاليم أخرى ،أو يعتصموا بالأديرة أو الكنائس.

ووجد الأمويون مصر وقد أشرفت على كارثة اقتصادية محققة إن لم توقف الهجرة الجماعية . ومن هنا نشأ الاحتكاك المشهور بين الأمويين والمسيحيين فى مصر ، وتدخلت الدولة البيزنطية فى هذا النزاع ثم بدأت تزيد منه لتجد فيه منفذا إلى العودة إلى البلاد مرة أخرى (٣) .

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام . (٢) ابن عبد الحكم ص ١٠٤ .

(٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٥٢ .

هذه الثورات لم تكن لأسباب دينية ، وإنما كانت أسبابها مالية بدليل اختفائها بعد انتقال الخلافة إلى العباسيين ، وعملت هذه الخلافة على تهدئة الأحوال والملاءمة بين مقدار الضرائب وبين القدرة على الإنتاج .

وقد أقرت السكينة فى البلاد . فهدأت الثورة وعاد المصريون إلى حياتهم الطبيعية وأقبلوا على أراضيهم يزرعونها ويضاعفون من إنتاجها .

والسياسة المالية الأموية بلغت أقصى مداها من العنف إبتداء من عهد عبد الملك ابن مروان ، وصحبها فرض اللغة العربية فى دواوين الحكومة واضطرار كثيرين من الموظفين إلى اعتزال الخدمة لجهلهم باللغة العربية ثم اشتراط الخلفاء اللاحقين الإسلام لتولى الوظائف العامة .

وإذا كنا قد نفينا عن الدولة الإسلامية تهمة الإكراه فى الدين ، فإننا لانستطيع أن ننكر أن الدولة بوسائلها الخاصة المباشرة أو غير المباشرة كانت تشجع الدخول فى الإسلام .

فالدخول فى الإسلام كان يصحبه تغيير عظيم فى وضع الشخص السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، كان يجعل للمسلم الجديد الحق فى تناول العطاء من بيت المال ، وقد استمر هذا العطاء يفرض للمسلمين طوال عهد الراشدين ولم يقطعه الأمويون ، إنما قللوا منه ، وميزوا طبقات العرب عن الطبقات الأخرى من المسلمين ، ولم ينقطع العطاء إلا فى العصر العباسى .

والدخول فى الإسلام أيضاً كان سلما للخدمة فى الجيش العامل أو فى فرق المطوعة وكانت هذه الخدمة فى الجيش سلما للنجاح فى الحياة السياسية والاجتماعية .

والإسلام أيضاً كان معناه تولى الوظائف العامة فى الدولة ، وليس من شك فى أن الدولة تفضل المسلم الصالح للوظيفة عن الذمى الصالح لها إذا تم التساوى فى الكفاية المطلوبة .

ولا ننسى أن الإسلام كان معناه الإعفاء من الجزية وإلى حد ما الإعفاء من الخراج . لأن المسلم كان من حقه نظير الإعفاء من الخراج أن يأخذ عطاء من بيت المال .

والإسلام كان يعطي المسلم امتيازات واسعة للسفر في الامبراطورية الإسلامية والتمتع بحق الرعوية الإسلامية . وكان هذا يفتح أمامه فرضاً عظيمة للعلم والثقافة في ظل الإسلام ، وتفوقه في هذا العلم أو الثقافة يفتح أمامه آفاقا من الثراء والجاه لا يمكن تصورها .

فهذه هي محاسن الدخول في الإسلام وها هي مساوىء الاحتفاظ بالوضع القديم بما فيه من قيود مالية واجتماعية وسياسية .

ولا شك أن الكثيرين من الناس إلى جانب الاقتناع بالدين كان يغريهم هذا البريق ، خصوصاً الطبقات الدنيا من المجتمع ، ومحصولها الديني والثقافي في أي عصر من العصور ضئيل جداً .

وإنما كانت الدولة تشجع على الدخول في الإسلام لأنها هي التي تمنح المسلم نصيبه المشروع في هذه الحقوق وهذه الامتيازات ، وكانت تهيء للمسلم الجديد الفرص المواتية للافادة من هذا الوضع الجديد ، فتفرض لهم العطاء ، أو تدخلهم في الجيش أو تعفيهم من الجزية أو توليهم الوظائف الهامة .

ومن أمثلة تدخل الدولة أن عمر بن عبدالعزيز أمر بأن يعفي المسلمون من الجزية وأن تضاعف الجزية على من بقي على دينه . فكان هذا تشجيعاً للدخول في الإسلام(١) ومثبتا لمن أراد البقاء على دينه القديم من أهل البلاد .

ومثال آخر من تشجيع الدولة لحركات الدخول في الإسلام ما كان من تعريب الدواوين في مصر ، واشتراط تعلم اللغة العربية لتولي الوظائف العامة .

ثم اشتراط الإسلام لتولي هذه الوظائف منذ عهد عمر بن عبد العزيز ، وقد أدى هذا الشرط إلى اعتناق كثيرين من الموظفين للاسلام . كما فتح آفاقاً جديدة أمام من كان ينتظر فرصة العمل المواتية من المسلمين ، وامتدت هـذه الحركة حتى شملت الوظائف الصغرى مثل وظائف العمد .

ومن أمثلة تشجيع الدولة على الدخول في الإسلام ما قامت به الدولة العباسية من

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ .

إعفاء من يسلم من متأخرات الضرائب المفروضة وإسقاطها الحواجز الاجتماعية بين العرب وغير العرب .

والدولة لا أقول كفت عن التشجيع إنما قللت منه ابتداء من القرن الثالث الهجرى حينما أصبح المسلمون غالبية أهل البلاد ، ودخل الإسلام منهم ملايين والوظائف محدودة والخدمة فى الجيش محدودة أيضاً ، ولا تستطيع الدولة أن توفر لكل هؤلاء الناس فرصاً متساوية فى كل الوظائف أو النواحى المالية .

• • •

إلى جانب انتشار الإسلام كانت مصر منذ الفتح العربى مسرحا لتطور آخر ليس أقل شأناً ، فقد بدأت القبائل العربية ، تهاجر إلى البلاد بعد الفتح وتستقر فيها ، وتعمل على صبغ البلاد بالصبغة العربية الحقيقية عن طريق التزاوج والاختلاط .

وبدأت مصر أيضاً تصبح بمثابة مستودع كبير لهذه القبائل العربية المهاجرة ، ومن هذا المستودع بدأت هذه القبائل تتجه نحو الجنوب فى حركات مستمرة فتطرق بلاد النوبة وأرض السودان وتنشر فيها الإسلام والثقافة العربية .

ظاهرة هجرة القبائل العربية إلى مصر لم تتم فى سنة أو بضع سنين انما استغرقت وقتاً طويلا ، واستمرت منذ الفتح العربى للبلاد حتى القرن الخامس الهجرى .

بدأت مع الفتح العربى للبلاد حينما استقر جيش الفتح فى مدينة الفسطاط عاصمة البلاد أو فى مدينة الاسكندرية ، أو فى بعض المناطق الاستراتيجية الأخرى ، وكان كلهم أو أغلبهم من عرب الجنوب ، ثم توافدت بعض القبائل الأخرى(١) ، فزادت أعداد هذه الجالية العربية .

ثم ظلت القبائل لا ينقطع وفودها بعد ذلك إما من تلقاء أنفسها طلبا للعيش أو بتشجيع من بعض الولاة والعمال .

فقد استقدم أحد ولاة مصر سنة ٤٣ هـ نحو اثنى عشر ألفا من هؤلاء العرب أغلبهم من عرب الشمال ، لأن الدولة الأموية خافت أن يستبد الجنوبيون بأمر البلاد ، فأرادت أن تكثر من الشماليين ما وسعها ذلك ، ولتحقيق هذا الغرض استقدموا

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٤٨ — ١٤٩ .

لقبيلة قيس سنة ١٠٩ هجرية (١)، جلبوا نحواً من ثلاثة آلاف أسرة منهم واستقروا في منطقة بلبيس ، حتى أصبح عدد الأسرات العربية المقيدة في ديوان العطاء في العصر الأموى نحوا من ٤٠ ألف أسرة ، خدموا في جيش الدولة ، أو اشتغلوا بالتجارة بين مصر والشام ، وبين مصر المغرب .

ولم يتوقف وفود العرب بقيام الدولة العباسية ، ولم يحد من هذه الهجرة تعصب العباسيين للموالى أو غلبة هؤلاء الموالى على شئون الدولة ، فقد هاجرت بطون كثيرة من قبيلة ربيعة في عصر الخليفة المتوكل العباسى ، واستقرت على الخصوص بصعيد مصر .

واستمرت الهجرة بعد العباسيين ، وفي ظل النفوذ الفاطمي في مصر ، فقد هاجرت قبائل من طيء وقبائل من فزارة ، كما وجد الفاطميون أن قبائل هلال وسليم تحالف القرامطة في بلاد العرب وتقطع طريق الحاج ، وتشيع الفتن والاضطرابات في الأراضي المقدسة ، فشجعهم الخليفة العزيز بالله الفاطمى على الهجرة إلى مصر وأنزلهم بصعيد مصر .

أصبحت مصر في آخر العصر الفاطمي تتمثل فيها جميع فروع شجرة النسب العربية فمن عرب الجنوب : جذام ، وطيء ، وبلى ، وجهينة ، ومن عرب الشمال : كنانة وقيس ، وفزارة ، وربيعة ، وهوازن ، وهلال . بل يمكن اعتماداً على ماذكره المقريزى أن نوزع هذه القبائل توزيعاً جغرافياً .

جذام	:	في منطقة الحوف — شرق الدلتا
طيء	:	الفسطاط — جرجا
جهينة	:	أسيوط — أسوان
كنانة	:	الإسكندرية — دمياط
قيس	:	بلبيس
فزارة	:	قليوب
ربيعة	:	أسوان
هلال وسليم	:	الصعيد (٢)

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦ — ٧٧ (٢) المقريزى : البيان والأعراب .

هذه القبائل العربية المهاجرة ظلت طوال عصر الراشدين والأمويين وأوائل العصر العباسي تكون طبقة أرستقراطية حاكمة تحتكر الخدمة فى الجيش والمناصب الإدارية والعسكرية ، وتنال العطاء من بيت المال ، وإذا زرعت الأرض أبيحت لها الملكية مع إعفائها من ضريبة الخراج .

وظلت طوال هذه الفترة تكاد أن تكون بمعزل فى حياتها الاجتماعية ، مستقلة لا تختلط بالمصريين ولا تخالطهم وتكاد أن تكون كلها مجتمعة فى المدن الكبرى على مقربة من الحكام والولاة .

لكن طرأ على حياة العرب فى مصر ابتداء من النصف الثانى من العصر العباسى تطور هام ترك أثراً فى تاريخ البلاد ، فقدبدأت هذه القبائل تفقدامتيازاتها العسكرية والإدارية والمالية ، ورأت أن حياتها قرب الحكام وذوىالنفوذ لا خير فيها فبدأت تنزح إلى ريف مصر .

وفرضت الدولة عليهم الخراج للمرة الأولى فى الوقت الذى قطعت عنهم العطاء وكان هذا الاستقرار بداية الاختلاط الحقيقى مع الشعب المصرى الذى بدأت غالبيته تتحول إلى الإسلام .

وقد ظل هؤلاء العرب يحتفظون بأنسابهم العربية مدة قرنين فإن أغلب شواهد القبور الإسلامية التى وجدت فى منطقتى أسوان والفسطاط نجد فيها اسم المتوفى ينسب إلى عشيرته وقبيلته .

ولـكن ابتداء من القرن الثالث الهجرى نجد هذه الألقاب العربية تتغير ونجد هؤلاء العرب فى شواهد القبور ينسبون إلى وطنهم مصر وإلى مدنها وأقاليمها ، ينسبون إلى أسيوط أو قليوب أو الاسكندرية أو يكتفون بلقب مصرى (١) ، مثل ذى النون المتصوف المعروف الذى سمى نفسه أو سمى فى شاهد قبره سنة ٢٤٥ ﻫ « ذو النون المصرى » .

ومعنى هـذا التطور أن دماء القبائل العربيـة المهاجرة اختلطت بدماء المصريين ، وكان هذا الاختلاط بداية تكوين شعب مصر الإسلامية ذى الدم العربى والدين الإسلامى واللغة العربية .

---

(١) Wiet : Précis de l'histoire d'Egypte. pp. 136 – 142

ولازالت هذه التأثيرات العربية باقية حتى اليوم تظهر من دراسة أسماء القرى المصرية والمدن المصرية، فبعضها يسبقها لفظ بنى وبعضها منية أو محلة، وأنساب المصريين التى لازالت ممثلة فى كثير من الحجج الشرعية بوزارة الأوقاف.

وبدأت منذ العصر العباسى أيضا ظاهرة أخرى وهى اتجاه الكثير من القبائل العربية التى لم ترض بالاستقرار ولم ترد أن تترك حياة البداوة إلى الهجرة فى حركات مطردة نحو صعيد مصر، ثم نحو حدود النوبة ثم داخل بلاد النوبة والسودان. وأهم هذه الهجرات التى كان لها شأن عظيم فى تاريخ النوبة والسودان :

١ - هجرة قبيلة جهينة اليمنية التى استقر بها المقام أول الأمر بأواسط الصعيد ثم نزحت جنوبا إلى أسوان ثم إلى بلاد النوبة (١).

٢ - بنو كنز وهم ربيعة، وفدوا إلى مصر فى خلافة المتوكل كما قلنا وانتشروا بأعالى الصعيد، وسكنوا بيوت الشعر فى البرارى الجنوبية على تخوم بلاد النوبة.

وقد اختلطوا بقبائل البجة وأفادوا كثيرا مما بأرضهم من معدن الذهب وخاصة فى منطقة العلاقى مما أدى إلى تضخم ثروتهم.

وقد أصبحت رئاسة ربيعة فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى إلى أبى المكارم هبة الله الذى ساعد هذا الخليفة فى إخماد بعض الثورات فمنحه لقب كنز الدولة.

وأصبحت القبيلة تسمى بنو كنز، وقد كونوا أرستوقراطية عربية بمنطقة أسوان وشمال النوبة، واستمر نفوذهم طوال عصر المماليك.

٣ - إلى جانب هؤلاء نزحت بطون من قبيلة فزارة استقروا بالصعيد ثم أمعنوا نحو الجنوب حتى اقتربوا من حدود النوبة (٢).

* * *

ومن هذه التطورات انتشار اللغة العربية حتى أصبحت لغة الحكومة ولغة الثقافة ولغة التخاطب لسكان مصر جميعاً.

---

(١) المقريزى : البيان والإعراب ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر ص ٤٥.

واللغة العربية دخلت البلاد مع الفتح العربي . وقد وجدت في مصر لغتين كانت لهما الزعامة الفكرية ، الإغريقية لغة الثقافة الهلينية ، والقبطية لغة الثقافة المصرية .

فلم تستطع القضاء عليهما دفعة واحدة إنما عاشت معهما جنباً إلى جنب طوال عصر الراشدين ، العربية لغة العرب والإغريقية لغة الثقافة والقبطية لغة الكنيسة ، يدل على ذلك أن وثائق البردى من ذلك العصر كتبت كلها باللغة الإغريقية .

لكن اللغة العربية بعد عهد الراشدين خطت خطوة أبعد ، إذ أصبحت في العهد الأموى لغة الحكومة حين عربت الدواوين وكتبت باللغة العربية بعد أن كانت تكتب باللغة الإغريقية .

وهذا التطور الهام لم يتم دفعة واحدة ، إنما استغرق نحواً من ثلاثين عاماً ، ويظهر ذلك من أوراق البردى الإسلامية التى كتبت فى ذلك العهد ، فكانت هـذه الأوراق أولا تكتب باللغتين الإغريقية والعربية ، ثم بدأت تكتب باللغة العربية وحدها ابتداء من سنة ٩٠ هـ .

وبذلك شهد العصر الأموى الأخير هذا الانتصار الأول للغة العربية إذ أصبحت اللغة الرسمية للحكومة فى مصر (١) ، بل امتد هذا الانتصار إلى نواح أخرى ، فقد أمرت الدولة لأموبة بأن يترجم الإنجيل والكتب الدينية إلى اللغة العربية .

واقتحمت هذه اللغة ميدان الصناعات والفنون فظهرت قطع النسيج والخزف ابتداء من ذلك العهد تحمل نقوشاً عربية (٢) .

لكن هذا التطور لا يعنى أن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب لأغلبية المصريين فقد ظلت القبطية لغة التخاطب فى مصر فى عهد الخليفة المأمون الذى جاء مصر ، ولم يستطع التنقل فى أرجائها إلا ومعه المترجمون كواسطة للتفاهم مع أغلب الناس(٣) .

وكان مدى انتشار اللغة العربية بين الناس يتوقف على مدى انتشار الإسلام ، ومدى تعمق المصريين فى الثقافة العربية ، لذلك نستطيع أن نقول إن اللغة العربية حققت هذه الخطوة الهامة فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، فأصبحت لغة التخاطب

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١١ .   (٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٤ .

للغالبية المسلمة من أهل البلاد ، ولا ننسى أنه فى هذا الوقت بالذات أصبح المسلمون أغلبية فى البلاد ، كما انتشرت الثقافة العربية على نطاق واسع .

ثم كانت الخطوة التالية فى طريق هذا التطور بعيد المدى ، فلم تصبح اللغة العربية لغة الغالبية المسلمة ، إذ أصبحت أيضاً لغة الأقلية غير المسلمة واختفت اللغة القبطية تقريباً ، ومن مظاهر ضعف اللغة القبطية ثم اختفائها أن اللغة العربية دخلت ميدان الكنيسة وأصبحت تتلى بها الصلوات .

هذا التطور الهام يبدو أنه اكتمل تماماً فى القرن الرابع الهجرى ، فقد بدأ المثقفون من المسيحيين فى مصر يكتبون تاريخ الكنيسة باللغة العربية ، فنرى البطريق الملكانى سعيد بن بطريق يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية وذلك فى القرن الرابع الهجرى .

وكذلك نرى ساويرس أسقف الأشمونين يؤرخ للبطاركة فى أواخر القرن الربع الهجرى باللغة العربية ، ويقوم بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها ، وإذا بنا نجدساويرس بن المقفع هذا يقول فى مقدمة كتابه « سير الآباء البطاركة » . « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين وسألتهم نقل ماوجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى » .

فى آخر هذا العصر الذى حددناه أصبحت اللغة العربية لغة المصريين جميعاً عرباً أو مسيحيين أو مسلمين ، وأصبحت الطابع المميز للثقافة الإسلامية فى مصر .

• • •

والتطور الأخير الذى تم فى ذلك العهد هو انتشار الثقافة العربية فى البلاد ، هذا الانتشار تتمثل فيه جميع مظاهر التطور التى رأينـــا فى انتشار الاسلام أو انتشار اللغة العربية .

فـــكما تسامح العرب مع الديانات القديمة وأبقوا عليها ، وكما حافظ العرب على اللغات القديمة ، كذلك فعلوا بالثقافات التى وجدوها بمصر عندالفتح ، لم يتعرض العرب للبقية الباقية من مدرسة الاسكندرية فقد ظلت هذه المدرسة بعد الفتح تستقبل طلاباً من المصريين أو من الأجانب .

ويؤكد بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر أن الاسكندرية كانت أعظم مراكز الثقافة فى العالم زمن الفتح . ومع أن أكثر العلوم التى تدرس بها كانت دينية إلا أننا نجد فيها عناية بالآداب القديمة وبدراسة المسيحية اعتماداً على مذهب الأفلاطونية الحديثة .

إلى جانب هذه الثقافة الإغريقية وجد العرب بمصر أدباً قومياً أنتجه المصريون بلغتهم وكان أغلبه دينياً يتعلق بالكنيسة والرهبان وسير الآباء البطاركة والشهداء .

وبجانب هذه الثقافات وجد العرب بمصر آداباً سريانية ، فقد كان لنهضة الفرس فى القرن السابع الميلادى ، وغزوهم بلاد الشام أثر فى وجود هذا الأدب بمصر ، إذ أن كثيرين من علماء السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفاً من الفرس ونقلوا معهم كتبهم .

وكان بالإسكندرية بعض علماء السريان يدرسون الطب بالسريانية ، وقد انتشرت الآداب السريانية خصوصاً بالأديرة . وفى القرن السابع الميلادى قام أحد الأساقفة بترجمة الكتاب المقدس إلى السريانية ، وظلت هذه الترجمة بوادى النطرون حوالى ألف عام (١) .

إلى جانب هذه الثقافات القديمة التى لم يعرض لها العرب بدأت الثقافة العربية الإسلامية تدخل مصر بعد تمام الفتح العربى ، فما كاد العرب يستقرون فى البلاد ويقضون على المقاومة البيزنطية وتصبح مصر ولاية عربية ، حتى وجدنا صحابة الرسول يتفرقون فى كافة البلاد التى فتحتها الجيوش الإسلامية .

فحضر فريق منهم إلى مصر ، منهم عمرو بن العاص نفسه وعبادة بن الصامت وغيره ، بل أخذ فريق آخر منهم يتوافدون على البلاد يعلمون الناس أصول الدين ، وينشرون علوم القرآن والحديث والفقه ، واضعين الأساس الأول للمدرسة الدينية فى مصر .

ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن عمرو بن العاص (٢) ، فهو بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية ، وأهـــل مصر يروون عنه قرابة مائة حديث من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

---

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر فى مصر الولاة ص ٥ .
أنظر : تاريخ الأمة القبطية ص ٦٧ . (٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٢ .

وكانت هذه المدرسة المصرية الناشئة يشتد أزرها بالتدريج كلما أقبل الناس على هذه الثقافة الجديدة وشغفوا بها وارتاحوا إليها . وقد قطعت فى العصر الأموى شوطاً بعيداً فى طريق التطور بكثرة عدد الوافدين إلى مصر من التابعين وحملة العلم من ناحية ، وبقدر إقبال القبائل العربية النازحة إلى مصر على هذه الثقافة ، وبقدر دخول المصريين فى الإسلام وإتقانهم اللغة العربية ، ثم تلقيهم العلم على يد أساتذتهم الجدد وهضمهم لهذه الثقافات الجديدة .

ويبدو أنه فى أواخر العصر الأموى بدت بواكير الإنتاج لمدرسة مصر الإسلامية حين نبغ بعض المصريين فى هذه العلوم الدينية الجديدة ، وبلغ نبوغه حداً جعل أولى الأمر فى الدولة الأموية يعهدون إليه بالفتيا على قدم المساواة مع العرب دون تمييز بين جنس أو لون .

وكتاب تاريخ مصر الإسلامية فى هذه الفترة يتحدثون عن هذا الرجل الذى يسمى يزيد بن حبيب المصرى(١) وعن علمه وشيوخه ، وتمكنه من الثقافة الدينية .

وشعر الدارسون فى هذه المدرسة الجديدة بالحاجة الماسة إلى مزيد من العلم . وكان العالم الإسلامى قد شهد مولد مدارس إسلامية كثيرة فى جميع الأمصار المفتوحة تختلف فى ميدان الثقافة من حيث العمق وغزارة الإنتاج .

فبدأ المصريون أساتذة وطلاباً يرحلون إلى المدينة المنورة أو إلى دمشق أو إلى العراق طلبا للمزيد ، ثم يعودون إلى البلاد مرة أخرى لمتابعة حياة الدرس والفقه والتعليم .

كما وفد كثير من أهل المدارس الأخرى إلى مصر لمبادلة أساتذة مصر وطلابها تجاربهم الثقافيه وخبراتهم الدينية(٢) .

وقد تحققت الحلقة الأولى من حلقات تطور الثقافة الإسلامية فى مصر فى أواخر العصر الأموى فبرزت مصر فى ميدان الحياة الثقافية الإسلامية بطائفة من أعلام أساتذتها وبنخبة من إنتاجها الدينى والثقافى .

وبرزت فى ميدان الفقه والحديث وبدأ يظهر فى أفقها قوم ذاع صيتهم فى مصر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٣٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٤٣ .

وفى غير مصر ، منهم الفقيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصرى (١) ، والليث بن سعد المصرى (٢) . وتحدثنا كتب الطبقات أن هذا الرجل الأخير كان كبير الديار المصرية ورئيسها فى ميدان الفقه ، بل كان أكثر تلاميذ الإمام مالك بن أنس علما وأغزرهم فقها .

ومن آيات تفوق مصر فى هذه الخطوة الأولى التى خطتها أنها نقلت هذا العلم إلى ما وراء حدود مصر غربا إلى المغرب ، ثم الى الأندلس .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن مذهب مالك الذى ساد المغرب والأندلس بل القارة السوداء جميعها ، قد نقل عن تلاميذ مالك المقيمين فى مدرسة جامع عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط ، وأصبحت هذه المدرسة مقصد الدارسين والراغبين فى الاستزادة من فقه مالك .

وإن كانت هذه المدرسة المصرية قد تخلفت قليلا فى ميدان الدراسات الأدبية واللغوية التى ظهر أمرها فى مدارس العراق وخصوصاً فى مدرستى البصرة والكوفة اللتين عرفتا بالإنتاج الأدبى واللغوى الغزير .

ثم ظهر هذا الاقتراب بين الثقافتين الأصلية والجديدة والوافدة فى نفس الوقت الذى تفوقت فيه المدرسة الدينية على النحو الذى رأيناه ، ونعنى فى أواخر العصر الأموى . فروى كتاب الطبقات أخباراً عن ترجمة كتب العلم القديمة إلى العربية على يد خالد بن يزيد الأمير الأموى ، وامتداد حركة التعريب إلى كل ناحية تقريبا حتى إلى المحيط الدينى إلى الكتب الدينية المسيحية(٣) .

وساعد على عمق هذا التطور إقبال المصريين على الإسلام وتعلمهم لغة القرآن، بل أقبل بعض المصريين غير المسلمين على هـــذه اللغة ، وامتد هذا الأثر حتى إلى رجال الدين أنفسهم ، فروى أن القديس شنوده فى أواخر العصر الأموى كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية غير أنه اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة

---

(١) ابن خلكان : الوفيات جـ ١ ص ٣١٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٨٢ .

(٣) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٨ .

العربية حتى يتسنى للأقباط أن يقرأوها ، بل إن مراسيم الكنيسة نفسها بدأت منذ ذلك العصر تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية(١) .

ثم جاء العصر العباسي ودفعت هذه الحركة التطورية إلى الأمام مرة أخرى ، فقد كان قيام هذه الدولة نذيرا بتفوق الموالى أو المسلمين من غير العرب فى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية وفوزهم بالمساواة التى حرموا منها فى العصر الأموى .

وكان لهذه الأحداث أثر بارز فى مصر الإسلامية وفى تاريخ الثقافة العربية ، فقد اشتدت حركة الترجمة واشتدت حاجة العرب فى مصر إلى معارف الإسكندرية القديمة وخصوصا فى ميدان الطب ، حيث نما الطب العربى متأثرا بالتقاليد الطبية الإغريقية التى وضعت فى الإسكندرية منذ القدم .

وازداد إقبال المصريين عن ذى قبل على الإسلام يدخلون فيه فى أعداد غفيرة ومايصحب ذلك من ازدياد اللغة العربية سعة فى الانتشار وعمقا فى التأثير ، وتضاءلت اللغة القبطية تضاؤلا تاما وكادت أن تصبح اللغة العربية فى مصر ليست لغة العلم فحسب بل لغة الحديث والتخاطب أيضا .

بل اضطرت القبائل العربية التى استقرت فى مصر وعاشت حياة أرستقراطية فى الثغور والعواصم مبتعدة عن أهل البلاد مستعلية عليهم فى أغلب الأحيان معتمدة على نصيبها من العطاء الذى يصرف لها من بيت المال أن تنزل من عليائها إلى ريف مصر ، وبدأ هؤلاء العرب يختلطون بأهل البلاد فى ريف مصر يخالطونهم ويتزوجون منهم ، مما ساعد على نشر الدماء العربية فى مصر .

وقد مضى هذا التطور فى طريقه قدما إلى الأمام ، وما جاء القرن الثالث الهجرى حتى نمت مدرسة مصر الإسلامية نموا غريبا ، وبدت بواكير شخصية مصر الإسلامية فى الناحية الثقافية ، وأصبحت مدرسة مصر فى مضمار الثقافة العربية الإسلامية لانقول تتفوق على المدارس الإسلامية الأخرى ، بل على الأقل تساويها أو تدانيها(٢) .

واشتد وفود الطلبة إلى مصر من الأمصار الإسلامية المختلفة طلبا للعلم ، وفدوا

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) المرجع نفسه .

ليس من إفريقية والمغرب فحسب بل من المشرق أيضا للتزود من العلوم الدينية على الخصوص .

وظهر هذا التفوق فى ميدان الإنتاج الثقافى كله فى ميدان الفقه ظهر محمد بن إدريس الشافعى الذى عاش بمصر ودرس فى مدارسها وتوفى بها سنة ٢٠٤ هـ وأسس مذهبه المشهور .

بل تفوقت مصر فى ميدان قراءة القرآن فظهر رجل مصرى كان قبطيا وأسلم هو عثمان بن سعيد المصرى الملقب بورش صاحب المذهب المعروف باسمه فى قراءة القرآن(١) .

بل ظهرت فى مصر بواكير الحركة الصوفية الإسلامية متأثرة بتعاليم الرهبانية المصرية على يد رجل مصرى هو ذو النون المصرى المتصوف المعروف الذى توفى سنة ٢٤٥ هـ ، وهو الذى وضع أصول التصوف الإسلامى بتعاليمه المشهورة .

بل شهد القرن الثالث الهجرى تدوين الحديث والفقه والتفسير فى مصر وقد دون هذا التراث عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث ، وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثا فى مدينة إدفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكاتب ومتاحف العالم . وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذى عرفت به مصر منذ القدم ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجرى وقد ألفه ابن وهب هذا الذى أشرنا إليه (٢) .

ورغم ذلك ورغم ما وصلت إليه المدرسة المصرية من تفوق على هذه الصورة فإنها لم تصل إلى المستوى الذى بلغته مدارس الشام ومدارس الحجاز ومدارس العراق . فمؤرخو الثقافة الاسلامية فى مصر يرون أن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق وعاشت مصر على ما أنتجه العراقيون وما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين . كما كان للكتب التى تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة ، يحدثنا أحد المؤرخين انه عقب وفاة أحد علماء مصر فى القرن الثالث الهجرى أمر الوالى فى ذلك العهد بالإستيلاء على صناديق كتبه عساه يجد فيها شيئاً من كتب العراق .

---

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٣٧ — ٣٨ . (٢) نفس المرجع .

دور الازدهار :

فى سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م كانت الامبراطورية الاسلامية المترامية الأطراف مهددة بالتفكك والانحلال .

ذلك أنه بعد أن انتشر العرب فى الأمصار المفتوحة ، واشتد انتصار الإسلام وبرز الموالى فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ظهر كل إقليم بطابعه الخاص المميز .

وأخذت القوميات التى دخلت فى نطاق الدولة الاسلامية تظهر من جديد (١) . فوضحت شخصية إيران وشخصية الشام والمغرب والأندلس ، وقامت فى هذه البلاد إمارات مستقلة بالشئون الداخلية خاضعة خضوعا اسميا للخليفة العباسى المقيم فى بغداد .

وقد شهدت مصر هذا التطور السياسى بعيد المدى كما شهدته الأقطار الاسلامية الأخرى حينما استطاع الطولونيون ثم الأخشيديون من بعدهم أن يؤسسوا إمارة وراثية فى كنف النفوذ العباسى معتمدين على موارد مصر وعلى جهد أهلها فى تثبيت ملكهم وتنفيذ سياستهم .

بل إن خضوعهم الاسمى للخليفة العباسى وذكر اسمه فى الخطبة أو كتابة اسمه على العملة لم يحل دون تنفيذ أطماع هذه الأسرات فى التوسع ولو على حساب الخلافة نفسها ، فقد قاتل الطولونيون والأخشيديون من بعدهم جنود الخليفة نفسه فى سبيل بسط نفوذ مصر فى بلاد الشام والجزيرة ، بل فكر أحمد بن طولون فى إيواء الخليفة العباسى .

وهذا التطور كان له أثره الواضح إذ ترتب عليه ازدياد نفوذ المسلمين من أهل البلاد فى جميع نواحى الحياة السياسية والاجتماعية ، بل أصبح هؤلاء المسلمين أداة الحاكم وعدته فى تنفيذ سياسته الاستقلالية .

واشتد إقبال المصريين على الدخول فى الإسلام عن ذى قبل ، وما تبع هذا من انتشار اللغة العربية وتغلغلها فى صميم الحيـــاة المصرية والعناية بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية وتنمية مواردها بالقدر الذى يكفل للأمراء تحقيق سيادتهم .

---

(١) Laue - Pooie : Egypt in ths middle ages p. 51.

غير أن هذا التطور كانت له نتائج أكثر عمقاً في الميدان الثقافي ، فقد تنافست هذه الإمارات المستقلة في الناحية الثقافية ، وعمل كل أمير بقدر ماوسعه لتشجيع العلم واستقدام العلماء ، وإظهار بلده بمظهر المتفوق في الناحية الثقافية .

وقد أدى هذا إلى تحقيق المرحلة التالية في تاريخ تطور الثقافة العربية في مصر إذ أن مدارسها أصبحت من حيث علمائها ومن حيث إنتاجها الثقافي لاتقل عن مدارس الشام والحجاز والعراق .

وظهر هذا التفوق في الميادين الثقافية كلها فنشأت طائفة من المؤرخين المصريين لايعنون بتاريخ الاسلام بوجه عام بل يعنون بتاريخ مصر الاقليمي ويتحدثون عن المصريين ، عن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية . ومن هؤلاء المؤرخين عبد الرحمن ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر ، والكندى صاحب كتاب الولاة والقضاة ، وابن الداية مؤرخ ابن طولون وصاحب كتاب المكافأة (١) .

بل ظهر تفوق المدرسة المصرية في الدراسات الأدبية واللغوية وفي الفقه والحديث والتفسير وظهرت طبقة جديدة ليست كبيرة العدد من العلماء ليسوا من العرب الذين استوطنوا مصر إنما من المصريين الذين آلت إليهم الإمامة في كثير من الميادين الثقافية ، أمثال ابن الغطاس وسعيد بن زياد وسعيد بن تليد ويحيى بن بكر وغيرهم (٢) .

ورغم هذا المستوى الذى بلغته الثقافة العربية في هذا العصر ، ورغم بلوغها مستوى المدارس الإسلامية الأخرى فإن مدارس مصر الإسلامية في ذلك العهد كانت وثيقة الصلة بالبيئات الثقافية الأخرى في بغداد وغيرها يتبادلون العلماء والطلاب والإنتاج .

ولم تكن حركة توطن الثقافة العربية في مصر قد رسخت أقدامها لأن كثيرين من المشتغلين بالعلم في مصر طوال ذلك العهد كانوا من الوافدين على مصر من البلاد الإسلامية الأخرى ، من العراق أو الشام أو المغرب .

وكانت الخطوة المرتقبة في طريق تطور الثقافة العربية هى رسوخ أقدامها في

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٧٤ — ٨٨ .

(٢) سيدة كاشف : مصر في عهد الإخشيديين ص ٣٠٣ — ٣٢٩ .

مصر وانتشارها على نطاق واسع بين أهل البلاد، وظهور مدارس مصر الإسلامية وتفوقها على جميع المدارس الإسلامية الأخرى، فتصبح مصر بحق زعيمة العالم الإسلامي فى ميدان الثقافة والعلم . هذه خطوة ستحقق جانب كبير منها فى العصر الفاطمى ، ثم تكتمل فى العصرين الايوبى والمملوكى .

والمتشيعون لعلى بن أبى طالب المؤمنون بأحقيته فى إمامة المسلمين وأحقية أبنائه من بعده لم تفتر همتهم بعد قيام الدولة العباسية واغتصابها الخلافة والحكم ، بل كان قيام هذه الدولة وماصادفوه فى ظلها من تعذيب واضطهاد حافزاً لهم لمواصلة الجهد والإصرار على تحقيق الهدف المنشود ، فدأبوا على نشر الدعوة إلى مذهبهم فى جميع الامصار الإسلامية ، خفية حيناً وجهراً أحياناً أخرى .

غير أن هذه الجهود قدر لها أن تثمر فى القرن الثالث الهجرى ، وفى سنة ٢٩٦هـ على وجه التحديد، حينما قامت الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية ، ووقفت للعباسيين بالمرصاد تريد أن تسترد الحق المغتصب وتحيى الخلافة .

بث الدعاة فى بلاد الأندلس وفى المغرب الاقصى وبلاد اليمن والشام والعراق وإيران . غير أن هذه الدعوة لم تنجح فى بلاد الأندلس بسبب يقظة الأمويين ، كما لم تنجح فى بلاد المغرب الأقصى بسبب مقاومة أهل السنة بوجه عام والمالكية بوجه خاص يؤيدهم الأمويون بالأندلس وبعض القبائل المغربية التى كانت تعمل بوحى من الأمويين وتوجيههم .

غير أن جهود الفاطميين صادفت قدرا من التوفيق فى مصر فى أواخر أيام الإخشيديين فنجحت الدعوة الشيعية وكسبت كثيراً من الأنصار ، وتمهد الطريق أمام الدولة الفاطمية لتمد نفوذها إلى مصر ، ففتحت هذه البلاد سنة ٣٥٨ هـ ، وأسست القاهرة وانتقلت الخلافة الجديدة إلى مصر فى عهد المعز لدين الله الفاطمى .

وكان لهذا الانتقال فى تاريخ مصر أثر وأى أثر فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية .

إذ أنه فى ظل الحكم الفاطمى فى مصر استجدت عوامل معينة كان لهـا شأن عظيم . وهى أن العقائد الفاطمية تستند على ركنين هامين . الركن الأول : استخدام الفلسفة الإغريقية بوجه خاص ، والفلسفة الإسلامية بوجه عام ، فى تفسير الغريب والشاذ من هذه العقائد وتقريبها إلى جمهور المسلمين .

وإذا كان العباسيون الأوائل ، قربوا بين العقل والنقل ، ووفقوا بين مذاهب السنة ، والحركة الفكرية وليدة الترجمة من المعارف القديمة ، فإن الفاطميين حاولوا أيضاً الملاءمة بين العقيدة الشيعية ومذاهبها وبين المعرفة القديمة والفلسفة الإسلامية .

بل هذه الحركة ، أقرب شبهاً باستعانة مبشرى المسيحية بالفلسفة الإغريقية لشرح عقيدتهم وتفسير غريبها وشاذها .

والركن الثانى : الاعتماد فى نشر هذه العقائد على دعاية أو على دعوى علمية منظمة إلى أبعد الحدود التى يمكن تصورها ، وذلك بتدريب طائفة من الدعاة ، تدريباً علمياً دقيقاً وتثقيفهم بجميع الثقافات الممكنة وتدريبهم على المنطق والمناقشة والجدل ليقارعوا أهل السنة الحجة بالحجة ، ويقهروا الدعاية السنية العباسية(١).

وكان هؤلاء الدعاة فى هذه النواحى لايبارون ولا يشق لهم غبار فى هذا الميدان والسجلات الثقافية فى ذلك العصر حافلة بأمثلة كثيرة من هذا الجدل الذى قام بين دعاة الشيعة وبين فقهاء أهل السنة (٢) . وكذلك إنشاء المدارس والمعاهد ودور الكتب لبث الدعوة ومساندة الدعاة فيما يهدفون إليه وتشجيع الحركات العلمية إلى أبعد الحدود .

كما أن الفاطميين حاولوا النهوض بمصر إلى أبعد الحدود وجعلها منافسة للعراق ومتغلبة عليه نكاية فى العباسيين ، بل حاولوا اتخاذ مصر قاعدة لامبراطورية إسلامية شيعية ترث العالم الإسلامى كله .

ولا ننسى ما كان من الاعتماد على المصريين إلى أبعد الحدود فى النهوض بهذه الأعباء الجسام . حقيقة اعتمدوا على البربر المجلوبين من المغرب أحيانا ، أو على فرق السودانيين أحياناً أخرى ، إلا أن اعتمادهم على المصريين كان بعيد الأثر .

كان من أثر دعوة الفاطميين إلى العلم والعمل الاستزادة من جميع العلوم والآداب أن تألق نجم الدعاة الفاطميين فى سماء الحركة الثقافيـــة فى مصر واستطاعوا أن

---

(١) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٣٦ .

يكاسروا خصومهم بأدلة علمية ، وأن يتخذوا من سعة أفقهم وإدراكهم وثقافتهم مجالا يبزون فيه غيرهم .

فلا نعجب إذا كان أحد دعاتهم المؤيد فى الدين هبة الشيرازى يعرف جميع ألوان العلوم التى كانت معروفة فى عصره ، واستطاع أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يجادل خصومه بأدلة علمية منطقية (١) . ولعل هذا يفسر ما عمد إليه الفاطميون من اتخاذ الجامع الأزهر مركزاً من مراكز دعوتهم ، ومعهداً تلقى فيه علوم أهل البيت .

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين يبنون جامع الحاكم ، وجامع راشدة وجامع المقس ، وجامع القرافة ، والجامع الأقمر ، ونقل إليها الفاطميون المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء . فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقين الدعوة الفاطمية

ولعل هذا أيضاً يفسر مدى عناية الفاطميين ، باقتناء الكتب فى كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس من كل علم .

ومكتبات القصر لعبت دوراً هاماً فى الدعوة ونشرها . فأنشئت دار العلم فى عهد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ ، وحمل إليها الكتب من خزائن القصر وأباح ذلك لجميع الناس وأجرى الأرزاق على المترددين عليها(٢) .

ولعل هذا أيضاً يفسر مدى ازدهار الحركة العلمية فى جميع مظاهرها فى العصر الفاطمى ، فهم فوق اهتمامهم بالعلوم الشيعية وتأسيسهم دور العلم وجمعهم الكتب الوافرة فى جميع ألوان العلوم والفنون ، إلا أن العلوم الأخرى ، كانت تسير فى مصر سيرها الطبيعى ، وتتطور تطورها الطبيعى .

بل شجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب والفلسفة ، فلا نعجب إذا كانت الحركة الفكرية قد ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً .

---

(١) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠ .

تحقق إذن ما كان يهدف إليه الفاطميون وأصبح عصرهم في رأي مؤرخي الحركة الفكرية من أزهى عصور مصر الإسلامية في الناحية العلمية .

فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار وأصبحت القاهرة المعزية مطمح أنظار العلماء ومحط رجاء الطلاب ، واستطاعت مصر أن تتفوق على المدارس الإسلامية الأخرى في الحياة العلمية .

وكان من أثر جهود الفاطميين المشار إليها أن اشتد توطن الثقافة العربية في مصر . كان مظهر ذلك تغلب اللغة العربية نهائياً ، وصيرورتها لغة الثقافة لغير المسلمين من النصارى واليهود ، بل أصبحت الصلوات في الكنائس والمعابد تتلى بالعربية ، وأصبحت هذه اللغة بالنسبة إلى المثقفين من أهل الذمة لغة العلم والثقافة .

ولعل مما ساعد على إتمام هذا التطور فقدان القبائل العربية في مصر ما كان لها من تفوق ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي ، وهجرة أغلبها إلى صعيد مصر ، وانتقال بعضها إلى بلاد النوبة مما سيكون خطوة أولى نحو دخول الثقافة العربية إلى السودان عن طريق بلاد النوبة ؛ بل خرجت بعض القبائل العربية من مصر مهاجرة إلى بلاد المغرب ؛ كما خرج الهلاليون .

ومظهر ذلك أيضاً رسوخ قدم المصريين نهائياً في مختلف العلوم والفنون وظهورهم في علوم اللغة والنحو ، فقد ظهر علي بن أحمد المهلبي ، وابن ولاد المصري ، وفي رواية الحديث ، أبو بكر محمد العسكري المصري ، والحافظ السلفي أشهر المحدثين الذين شهدتهم مصر في أواخر العصر الفاطمي ، وفي التاريخ والسير حين ظهرت طائفة من المؤرخين من صميم أهل مصر مثل ابن زولاق ، والمسبحي والقضاعي ، لاهتمامهم فوق كل شيء بأخبار مصر وتاريخها وخواصها وفضائلها (١) .

والمدارس المختلفة لم تعد في هذا العصر قاصرة على حاضرة البلاد ، بل انتشرت في جميع أرجاء مصر ، في الإسكندرية ، وفي أسيوط ، وقوص ، وأسوان ، وإدفو ، مما سيمهد السبيل أمامها لتخطي حدود مصر الجنوبية ، والنفوذ إلى بلاد السودان .

---

(١) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٧٨ - ١١٧ .

لا ننكر أن الثقافة العربية في مصر قد تم توطنها إلى حد كبير ، ولا ننكر أن مدارس مصر في هذا العصر زهت وتفوقت على المدارس الأخرى. غير أن مصر في ذلك العهد لم تبلغ الذروة المنشودة من التطور .

لا ننكر أن الفاطميين كما قلنا اجتهدوا في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين والأمويين بالأندلس .

بل بسطوا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان واتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية .

كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، واتجهت قلوب الشيعة إلى مصر ، وأصبحت القاهرة كعبتهم .

غير أن صبغ مصر بالصبغة الشيعية حد من هذه الزعامة وجعلها أقرب إلى أن تكون منطقة مغلقة ؛ وحجبت إلى حد كبير عن كثير من بلدان العالم الإسلامي السني .

وعملت الدعاية السنية القوية على وقف تسرب النفوذ الفاطمي إلى العراق والقضاء عليه آخر الأمر بعد إخفاق ثورة البساسيري في بغداد .

كما ضاع المغرب تماما وخرج عن طاعة الفاطميين منذ سنة ٤٤٣ هـ باستقلال الزيريين بملك المغرب وقتلهم الشيعة واضطهادهم أنصار الفاطميين واحتلال الأمويين في الأندلس للمغرب الأقصى (١) .

وأصبحت مصر وثقافتها العربية رغم هذا النفوذ الباهر في عزلة عن العالم الإسلامي غير أن تحقيق الحلقة الأخيرة من التطور الذي أشرنا إليه سيكون رهينا بتحرير مصر من النفوذ الشيعي وإعادة صلتها بالعالم الإسلامي السني لتصبح زعامتها الثقافية حقيقة واقعة .

وقد تم تحرير مصر من النفوذ الشيعي وإعادة صلتها بالعالم الإسلامي السني على يد الأيوبيين .

فقد كان القرن السادس الهجري — الثاني عشر الميلادي — من أجلك العهود

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢٣٠ .

فى تاريخ الحياة الإسلامية ، فقد دهم الانقسام العالم الإسلامى وقضى على وحدته وفرق صفوفه :

تفرق شمل المسلمين فى الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية وبقى العالم الإسلامى كله موزعاً بين خلافتين : الخلافة الفاطمية فى مصر والخلافة العباسية التى هزمت وأصبح نفوذها لا يتجاوز منطقة بغداد .

وفى أثناء هذا الضعف كانت المسيحية فى أوربا قد وحدت صفوفها حول الكنيسة ، وبدأت تتطلع صوب بيت المقدس لتنتزعها من المسلمين ، واضطرمت أوروبا بحماس دينى فاتر ، وبدأت الحملات الصليبية تتدفق صوب بلاد الشام مستغلة هذا الضعف وهذا الانقسام .

ووجد بنو زنكى أتابكة الشام أن الخطر الصليبى لاترده إلا أمة إسلامية متجددة ، وأن هذه الوحدة لاتتم والشيعة فى مصر يفرقون الصفوف ويدعون إلى الفرقة والانقسام .

كما أحس الصليبيون بأهمية مصر من هذه المعارك الدائرة الرحى فى بلاد الشام . وتسابق الطرفان أيهما يفوز بالغنيمة . وكان الأتابكة أسرع إلى العمل واستطاعوا بعد حملات متتابعة أن يفتحوا مصر ، وأن يفوتوا على الصليبيين غرضهم .

غير أن القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب استطاع أن يفيد من هذا النصر الذى حققه نور الدين صاحب حلب ، بل استطاع أن يستقل بأمر البلاد . وأن يؤسس دولة ظلت تحكم مصر حتى سنة ٦٤٨ هـ .

والعصر الأيوبى بطابع واضح كان له أبلغ الأثر فى تاريخ الثقافة العربية فى مصر وهو أن مصر تزعمت معركة توحيد القوى ومعركة الجهاد ومطاردة الصليبيين والدفاع عن العالم الإسلامى(١) .

وكان من نتيجة ذلك ، أن مصر كما تزعمت حركة الكفاح الإسلامى تزعمت حتى الحركة الفكرية فى العالم الإسلامى كله وعلت كفة مدارسها على مدارس العالم

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى ص ٨٢ .

الإسلامى ، كما تحققت بذلك الخطوة الهامة فى تاريخ الثقافة العربية التى سبق أن أشرنا إليها .

وقد ترتب على هذه الحقيقة الهامة أن طبعت الثقافة العربية فى مصر منذ هذا العصر بالطابع الدينى الصرف النابع من طبيعة العهد واستجابة لحركة الجهاد الإسلامى .

فبينما كان الجنود فى الميدان يحاربون الفرنجة ويحاولون حصرهم فى شريط ضيق على ساحل البحر ، كان العلماء والفقهاء فى داخل القطر يغزون الناس غزواً دينياً ويفتحون البلاد فتحا مذهبيا .

ونمت سلطة رجال الدين بوجه عام وعلماء الأزهر بوجه خاص . ونما نوع من الحكم الروحى قام عليه رجال الدين ، وكان المسلمون من المصريين أطوع لهم من الملوك والسلاطين أو بعبارة أخرى كان رجال الدين يقفون من الشعب موقف الآباء الروحيين ، ويرجع ذلك :

إلى اشتراك الفقهاء ورجال الدين بأنفسهم فى الحروب الصليبية بحمل السلاح أو تحريض الجند على حمل السلاح .

واعتماد الملوك والسلاطين على الفقهاء ورجال الدين فى الترويج للحرب خارج الميدان .

ونظرهم إلى أنفسهم على أنهم يمثلون سلطان الأمة المسئولين عن تقويم الحكام (١) .

كما يمتاز أيضا بمقاومته الدعوة الشيعية بالعلم ، فأصبحت المدارس الأيوبية جزءا من خطة صلاح الدين وخلفائه وقصد بها أن تقوم بتعليم الناس المذهب السنى ومحاربة الشيعة وإثارة التحمس الدينى ضد الصليبيين .

وقد أنشأ صلاح الدين خمسا من هذه المدارس . وذكر المقريزى أن الأيوبيين بنوا من هذه المدارس فى القاهرة وحدها ٢٥ مدرسة .

---

(١) عبد اللطيف حمزة ص ٦٧ .

وبفضل هذه السياسة تحول الأزهر من مدرسة تعلم فقه الشيعة الى مدرسة سنية بل تفوق الأزهر على هذه المدارس كلها ، وبدأت شهرته منذ هذه اللحظة كجامعة إسلامية تزداد نفوذاً كلما رسخت أقدام مصر فى تزعم الحياة الفكرية والسياسية فى الإسلام (١) .

وفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م استطاع الفرسان المماليك الذين أكثر الأيوبيون الأواخر من استخدامهم فى الجيش والذين أحرزوا لمصر النصر الكامل فى معركة المنصورة التى تمخضت عن هزيمة الصليبيين من الفرنسيين أن يرثوا ملكهم وأن يؤسسوا لأنفسهم دولة استمرت تحكم البلاد حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧ م .

هذا العصر الطويل صحبته أحداث هامة كان لها أبلغ الأثر فى تطور الثقافة العربية فى مصر ، وفى إتمام زعامة مصر الفكرية للعالم الإسلامى كله .

ذلك أن جنكيزخان كان قد تمكن بعد حروب أهلية متصلة من توحيد القبائل المغولية ومن حملها على القيام بحركة فتح واسعة المدى ، ففتحت بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٢٠ م .

وبعد فترة من التوقف استأنف هولاكو هذه الحركة التوسعية مرة أخرى ، فعبر نهر جيحون واكتسحت جيوشه فارس وسحقت القوى الاسماعيلية التى كانت عقبة كأداء فى سبيل تقدمه .

واقتحموا مدينة بغداد سنة ١٢٥٨(٢) ، وقتلوا الخليفة وأزالوا الخلافة العباسية من العراق .

ووصل المد المغولى إلى بلادالشام وحدود مصر فى الوقت الذى كانت فيه دولة المماليك تمكن لنفسها من الحكم والسلطان فهزم المغول وجنبت مصر شرهم وارتدوا على أعقابهم إلى إيران مرة أخرى .

وقد استطاع الظاهر بيبرس السلطان المملوكى أن يحى الخلافه العباسية مرة أخرى وأن ينقل بقايا الخلفاء العباسين إلى القاهرة ، فأصبحوا بجرد موظفين فى البلاط المملوكى .

(١) عبد اللطيف حمزة ص ٨٢ .

(٢) Lane - Poole : Egypt iu the middle ages p. 261.

يتبين هذا من إشارة المؤرخ المقريزى حين يقول « وضع المماليك خليفة رجلا أعطوه اسمه وألقابه التى تلائمه لكنه لا يملك من السلطة شيئا حتى ولا حق إبداء رأيه ، كان يقضى وقته بين الأمراء والموظفين الكبار والكتاب والقضاة يزورهم ليشكرهم على ولائمهم ومسامراتهم التى كانوا يدعونه إليها » .

غير أن مجرد انتقال الخلافة الرمزية إلى القاهرة كان كفيلا باتجاه المسلمين إلى هذه القوة الروحية التى تعيش فى كنف الرعاية المملوكية .

ولا ننسى ما كان من ارتفاع مكانة مصر فى ميدان التجارة الدولية المتبادلة بين الشرق والغرب ، هذه التجارة التى نمت زمن الحروب الصليبية وتضاعف نموها فى العصر المملوكى ، مما مكن الحكومة المملوكية من جباية المكوس الطائلة ، ومن تشجيع هذه التجارة التى جلبت لمصر الرخاء ، ونمت علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة البيزنطية ، ومع صقلية ومع توسكانيا والبندقية وأشبيلية وأرغونة ، بل نمت علاقاتها بدول افريقية وآسيا .

والتجارة كما نعلم عامل هام فى تبادل المؤثرات الثقافية وبقدر نمو صلات مصر وعلاقاتها بالعالم الخارجى يشتد هذا التبادل الثقافى ويزداد .

يضاف إلى ذلك ما ورثته مصر من العهـــد المملوكى من مشكلة الصليبيين ، وما كان من زعامتها لحركة الجهاد وتوفيق الظاهر بيبرس فى طرد الصليبيين من آخر قلاعهم ببلاد الشام ، وتحرير العالم الإسلامى من هذا الخطر الذى ظل يهدد أمنه وسلامته مدة طويلة .

هذه الأمور كان لها أثر عظيم فى تطور الحياة الثقافية فى مصر بل فى العالم الإسلامى كله .

ذلك أن المماليك حين صـــدوا الخطر المغولى عن مصر والشام دافعوا عن الحضارة الإسلامية ، وصانوا التراث العربى فى مصر والشام من التفرق والضياع ، ذلك التراث الذى سيكون النبع الذى تتفجر منه القومية العربية فى العصر الحديث .

وكانت الأحداث التى أصابت إيران والمحن التى تعرض لها العراق سببا فى أن أهل العلم المشتغلين به كانوا يفرون بأنفسهم وعلمهم معتصمين بمصر حيث يظلهم الأمن والطمأنينة .

واتجاه الثقافة العربية فارة من الشرق إلى مصر يشبه إلى حد كبير ما كان لسقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين من هجرة المشتغلين بالعلم القديم إلى إيطاليا وغيرها من من بلاد أوربا .

وكان ضعف العراق واضمحلال الثقافة الإسلامية فى فارس معناه بالتالى ازدياد نفوذ مصر باعتبارها المعصم الأخير لهذه الثقافة ، خصوصا بعد توفيقها فى دفع الخطر الصليبى ، وإيوائها للخلافة العباسية المحتضرة .

ضعف العراق لأن المغول كانوا لا يزالون على الوثنية لم يهتموا بالتراث الإسلامى ولم يرحموه من الضياع ، ونجم عن ذلك انهيار نفوذ العراق من جميع نواحيه ، فلم يعد المركز الروحى للعالم الإسلامى ، بل أصبح إحدى ولايات الأطراف فى امبراطورية شرقية عاصمتها فى بلاد فارس ، حتى التجارة لم تعد تمر بالعراق كما كانت قبلا بل تحولت طرق التجارة بين الشرق والغرب شمالا وشرقاً إلى تركيا وفارس ، وغرباً إلى مصر والبحر الأحمر .

بل تمخضت أحداث الشرق عن أمور بالغة الأثر فبدأت اللغة العربية نفسها تضمحل باعتبارها لغة العلم والثقافة والدين ، فقد بدأ الفرس أولا ثم تلاهم الأتراك يجعلون لغاتهم أداة لثقافتهم الإسلامية ، كما استولوا على الزعامة السياسية والثقافية واقتصر استخدام اللغة العربية كلغة للأدب والثقافة على البلاد التى يتكلم أهلها العربية. تبع هذا بالطبع أن أصبحت مصر موئل الثقافة العربية ، وزعيمة الحياة الفكرية الإسلامية بعد ما أصاب الشرق من ويلات على أيدى المغول .

وقد ألقت هذه الزعامة على أهل مصر عبئا عظيما فى صيانة هذا التراث ومضاعفته فأخذوا يجددون التراث الإسلامى ولكن بعقول مصرية ظهر أثرها فى كل لون من ألوان العلوم العقلية والنقلية . ومن أدلة العناية بالنواحى المصرية أن كتاب التاريخ فى ذلك الوقت كانت تواليفهم كلها أو أغلبها تدور حول أحوال مصر أولا والعالم الإسلامى ثانياً .

وقد وصلت الحركة الفكرية إلى أوجها فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، لأن هذا القرن شهد ظهور طائفة من الدارسين المصريين اشتغلوا بأنواع الثقافات

الإسلامية المعروفة وجودوا فيها وخدموا التراث الإسلامي خدمات جليلة مثل المقريزي والسخاوي والعيني وابن حجر والسيوطي(١) .

بل ابتداء من العصر أخذت أقاليم المغرب الإسلامي تدين لمصر بالزعامة المطلقة في ميدان الفكر ، بسبب ما كان من سقوط ملك المسلمين واضطراب شئون المغرب الإسلامي .

ليس أدل على ذلك من أن ابن خلدون شيخ المؤرخين لم تطب له الإقامة بوطنه المضطرب المتقلب إنما يمم شطر مصر وقام بالتدريس بالجامع الأزهر ، أقام بمصر ومات بها وتأثر بعلمه وفنه كثيرون ، ومن أشهر تلاميذه المؤرخ المشهور تقي الدين المقريزي .

وكان من أثر تزعم مصر لحركة الجهاد الصليبي ، وترسم المماليك سياسة الأيوبيين من شد أزر السنة ومقاومة الحركات الشيعية أن أكثروا من تأسيس المدارس التي رأينا الأيوبيين يكثرون من تأسيسها في مصر .

فيذكر المؤرخ السيوطي أنه في عهد المماليك كثرت دور العلم والمدارس، وكان لسلاطين هذه الدولة عناية كبرى بهذه الدور ، أعانهم على ذلك الثراء الذي بلغته مصر في أيامهم .

ومن المدارس التي أنشأها المماليك المدرسة الظاهرية القديمة أنشئت سنة ٦٦١هـ والمدرسة المنصورية سنة ٦٧٩ هـ والمدرسة الناصرية سنة ٧٠٣ هـ ومدرسة السلطان حسن سنة ٧٦٨ هـ والمدرسة الظاهرية الجديدة سنة ٧٨٩ هـ .

بل انتشرت المدارس في مصر كلها وبلغ عدد ما أحصاه الإدفوي في كتابه الطالع السعيد في مدينة قوص وحدها في القرن الثامن الهجري ست عشرة مدرسة وأنشئت مدارس في اسنا وادفو(٢) .

هكذا حفل العصر المملوكي في مصر بهذه الانتصارات المتلاحقة للثقافة العربية في مصر ، اكتمل تطورها واكتملت حلقاتها ، توطنت وتفوقت وعقدت الزعامة لمصر ومدارسها وجامعاتها .

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربي ص ٩١ .
(٢) عبد اللطيف حمزة : ص ١٦٣ .

غير أن المهم في نظرنا هو اتساع أفق التجارة العالمية وإفادة مصر منها إلى أبعد حد فقد نشطت التجارة الدولية إلى أبعد الحدود في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ودرت على العرب ثروات طائلة لاشتغالهم بالوساطة بين الهند والصين من ناحية وأوربا من ناحية أخرى ، وظلوا يسيطرون على المحيط الهندي حتى نهاية القرن الخامس عشر . والعرب هم الذين أرشدوا فاسكو داجاما في رحلته المشهورة إلى الهند سنة ١٤٩٧ .

كان الشطر الأكبر من بضاعة الشرق المحملة بطريق البر يمر بالعراق في طريقه إلى الموانى السورية ثم تشحن إلى أوربا ، لكن أغلب هذه المتاجر كان يأتي بطريق البر ماراً بعدن وجدة ويفرغ في مصر فيتسلمه التجار الأوربيون ويشحنونه إلى أوربا.

وبلغت العلاقات التجارية مع أوربا وبالأخص جمهوريات إيطاليا ذروتها ، فكانت الأساطيل التجارية للبندقية وجنوة وبيزا وأمالفي وغيرها تتنافس تنافساً شديداً للمتاجرة مع الشرق .

وأسهمت المدن الفرنسية بنصيب في هذه التجارة الرابحة ، وكذلك كان شأن أسبانيا فعقد ملوكها معاهدات تجارية مع سلاطين مصر . وكان ثمة تبادل تجاري بين قبرص والامبراطورية البيزنطية .

استطاعت مصر إذن أن تتصل بآسيا وأوربا واتصلت على الخصوص بإفريقية فيما وراء حدود مصر الجنوبية .

ومما يدل على عميق صلة المماليك بالعالم الافريقي أن المؤرخين بدءوا يتحدثون عن الدول الاسلامية الافريقية ، عن تاريخها ونظمها وحضارتها ووصف شعوبها ، فالمقريزي مثلا يكتب عن الاسلام في الحبشة ويكتب عن بلاد النوبة ، والقلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى يفرد بعض الجزء الخامس من موسوعته الكبيرة للدول الافريقية ، وكذلك فعل النويرى في كتابه نهاية الأرب ، والعمرى في كتابه مسالك الأبصار ، وهذا بالطبع نتيجة لكثرة الرحلات ونمو التجارات .

وليس أدل على تأثير التجارة في نشر الاسلام من أن فريقا من تجار العصر المملوكي يسمون بالكانمية أوالكارمية كان لهم شأن يذكر في نشر الإسلام في شرق إفريقية وفي بلاد الحبشة ..

ويبدو أن هذه النهضة كانت شاملة لم تقتصر على ميدان التجارة فقد جاوزته إلى ميدان الصناعة فنشطت صناعة النسيج والأوانى المعدنية والخزف والزجاج والسجاد والجلود والورق فأسهمت فى رخاء الدولة وفى ثرائها ، وازدهر الفن المعمارى ، فكان المماليك من أعظم البنائين ، واجتمعت لديهم وسائل تنيلهم تحقيق هذه الرغبة فبنيت المساجد الرائعة والمدارس .

بل امتد تيار هذه النهضة فتجاوز الأدب التقليـــدى إلى الأدب الشعبى فاتخذت قصص ألف ليلة وليلة صورتها النهائية فى ذلك العصر وانتشرت قصة عنتره بطل الصحراء وملحمة بنى هلال وأساطير لقمان الحكيم .

كانت هذه هى حال الثقافة العربية فى مصر حتى سنة ١٥١٧ سنة سقوط دولة المماليك ، وامتداد النفوذ العثمانى إلى مصر ، ونهاية هـــذا العهد الزاهر فى تاريخ الثقافة الإسلامية ترجع إلى عوامل أهمها :

١ — أنه حوالى القرن الخامس عشر ظهرت دولة جديدة فى الشرق الأوسط هى الدولة العثمانية التى قامت كالطود الشامخ من بين أنقاض السلطنة السلجوقية فى الأناضول .

٢ — كان التدهور الاقتصادى والضائقة المالية الكبرى التى أصابت مصر فى القرن الخامس عشر مما دفع المماليك إلى مضاعفة رسوم المرور على التجارة العالمية واحتكار المنتجات الرئيسية التى تعتمد عليها هذه التجارة . فدفع ارتفاع الأسعار الأوربيين إلى الانتقام لأنفسهم : وفى سنة ١٤٨٩ وقعت الكارثة الكبرى ، ففى ١٧ مايو من هذه السنة استطاع فاسكودا جاما أن يصل إلى الرجاء الصالح ، وأقام البرتغاليون قواعد فى الهند . فكان ذلك ضربة قاضية على طريق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى سلبت المماليك مقومات حياتهم .

٣ — انهيار عملية جلب العبيد بطريق الشراء وذلك بسبب ماقام فى وجه هذا النظام من صعوبات فى أسواق العبيد على البحر الأسود مما أدى إلى عدم الانتظام فى الحصول عليهم وإلى انحطاط صفاتهم

ورغم أن خضـــوع مصر للعثمانيين كان معناه امتداد اللغة التركية إلى مصر كما امتدت إلى بلاد الشرقين الأدنى والأوسط . وأصبحت لغة الدولة والدواوين ،

غير أن الثقافة العربية فى مصر ظلت تدور حول الجامع الأزهر الذى احتضن هذه الثقافة العربية فى هذا العصر المظلم وصانها من العجمية والضياع ، فلم تمتد أيدى العثمانيين إليه بسوء .

بل كان لاتساع النفوذ العثمانى نحو المغرب من ناحية أخرى وبعض جهات شرق إفريقية الفضل فى فتح آفاق جديدة أمام هذه الثقافة العربية ، بل كان لهذه الوحدة الإسلامية التى تحققت فى ظل الحكم العثمانى أثر واضح فى نمو سلطان الأزهر فى نفوس المسلمين كافة فى إفريقية وآسيا .

ففى الوقت الذى جاء فيه نابليون إلى مصر كان الأزهر يضم طلبة من شمال إفريقية والنوبة وبلاد السنغال وساحل الصومال ومكة والمدينة واليمن وسورية والعراق بل من تركيا وكردستان وخراسان وأفغانستان وجاوة وبرنيو والهند .

فلم تنقطع زعامة مصر للعالم الإسلامى فى هذا الميدان الثقافى ، بل كانت هذه الزعامة الأساس الذى بنيت عليه حركة الإحياء والبعث وتمكنت مصر من الإمساك بزمام النهضة العربية ولا زالت تمسك به حتى اليوم .

غير أن القرن السادس عشر والسابع عشر صحبته تطورات جديدة كان لها أثرها الواضح فى ثقافتنا العربية ، فقد قامت علاقات جديدة بين الإسلام وبين غرب أوربا الذى سجل تقدما علميا كبيرا فى صناعات الحرب والسلم وتحررت تجارته من كل قيد وقويت فى أهله روح المغامرة والابتكار .

بدأت هذه العلاقات منذ أوائل القرن السادس عشر حين قام الفرنسيون بمعارضة الباب العالى لعقد تحالف دفاعى مشترك ، وقد تحول هذا الاتفاق إلى اتفاق اقتصادى يمنح التجار الفرنسيين امتيازات واسعة فى الامبراطورية العثمانية وتغلغل النفوذ الفرنسى فى الشرق ، وأقيمت القنصليات والفنادق وأخذت التجارة الأوربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمو باطراد ووفدت جماعات جديدة من التجار أقامت فى الشام ومصر فى ظل حماية القناصل ، ثم تحول هذا الاهتمام إلى طمع واستعمار فى ظل الحملة الفرنسية على مصر .

وكانت لهذه التطورات نتائج هامة فى مستقبل الثقافة العربية فى مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط إذ كان معنى ذلك أن الثقافة الإسلامية التى كفت عن التطور ووقفت كأن لا حياة فيها تعيش على تراث الماضى ، بدأت تلتقى بالثقافة الجديدة الفنية التى ظهرت فى أوربا منذ عصر النهضة .

الثقافة العربية فى مصر فى القرن التاسع عشر

كانت مشكلة الثقافة الإسلامية فى مصر ، وفى غيرها من العالم الإسلامى محددة المعالم واضحة كل الوضوح ، منحصرة فى كيف يمكنها أن تفيد من هذه النهضة الشاملة التى ظهرت فى أوربا فى العصر الحديث .

فقد وضح للمفكرين أن التراث الإسلامى يزداد خموداً والتراث الأوربى يزداد تفجراً ووثوباً ، ولم يعد فى استطاعة المسلمين، أن يقفوا هكذا سلبيين و الغرب يقطع هذه الخطوات الهامة المطردة فى سبيل التقدم والرقى (١).

كان يهز كيان المعاصرين ما رميت به الحياة العثمانية من ضعف وجمود ، وما انتشر فى الولايات العثمانية من أزمات اقتصادية وإهمال للمرافق العامة وفساد فى النظم وتخلف عن الركب ، فى الوقت الذى تقدمت فيه أوربا وتخلصت من جمودها وركودها .

ولم يكن يعرف أحد كيف يتم الاقتراب بين هاتين الثقافتين ، هل يبدأ الأصلاح من أعلا أو من أسفل .

وكان باستطاعة الدولة العثمانية أن تفعل بالشرق الأوسط ما فعلته اليابان من الملاءمة البطيئة بين الحضارة الغربية وبين النظم القائمة ، ملاءمة لا تهدم أسس الحياة ولا ترقى إلى مستوى الطفرة .

ولكن العثمانيين عجزوا عن مجاراة الغرب فى نهضته العسكرية والفكرية والاقتصادية بل فرضوا على العالم الإسلامى سياسة العزلة والانقطاع .

وقامت فلسفتهم فى حكم الولايات التابعة لهم حتى القرن التاسع عشر على أن تتخفف الدولة بقدر ما تستطيع من أعباء الحكم المباشر ، فتترك الناس يديرون شئونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها فهى لا تريد أن تغير من حياتهم شيئا(١) .

وما دام الإصلاح قد عز من الداخل فلا بد أن يأتى من الخارج على يد الغربيين

---

(١) Radwan ; Old and new forces in Egyptiau education. p. 18-22.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : النهضة العربية الحديثة فى مصر ص ٥٢٨ .

أنفسهم ، الذين كانوا قد قطعوا فى ذلك الوقت أشواطاً بعيدة فى التفوق البحرى والعسكرى فوق تفوقهم الصناعى والحضارى .

فكانت الحملة الفرنسية محاولة لفرض الحضارة الغربية على المجتمع الإسلامى فى مصر فرضاً تسنده جيوش الفرنسيين وأساطيلهم . ولم يكونوا ليقنعوا بمصر ، فقد كانوا يحاولون أن يتسربوا إلى الشرق الأدنى كله ليفرضوا عليه السيادة الفرنسية وأنماط الحضارة الغربية التى جلبوها معهم .

وصح هذا الاتجاه من سيرة الحملة الفرنسية نفسها . فقد استعد لها نابليون استعداداً وافراً ، وليس فى الناحية العسكرية فحسب ؛ إنما عبأ عدداً من العلماء لدراسة مصر ومناخها وطبوغرافيتها ومواردها المعدنية ونباتها وحيوانها وآثارها التاريخية .

وكانت هذه البعثة تضم عدداً من أعاظم الخبراء فى الرياضة والفلك والجغرافيا والجيولوجيا والمعادن والكيمياء والنبات والحيوان ، وفيهم المهندسون والنحاتون والموسيقيون ، وأعدت لهم مكتبة وزودها بالأجهزة العلمية المناسبة ، وأنشىء معهد مصر Institut D' Egypte ؛ على غرار معهد فرنسا ليضم كبار العلماء المرافقين للحملة وضباط الجيش ذوى المعرفة الواسعة بفروع العلم .

وكان هذا المعهد يهدف إلى زيادة المعرفة بمصر عن طريق الدراسة والنشر . وقسم إلى أربعة فروع : فرع الرياضة ، والعلوم الطبيعية ، والاقتصاد السياسى والفنون والآداب ، وسجلت أبحاث المعهد فى نشرته الضخمة ... وصف مصر(١) .

غير أن المجتمع العربى الإسلامى فى ذلك الوقت كان يفكر تفكيراً إسلامياً وسيطاً ... كان يعيش بفكره وروحه فى عالم العصور الوسطى . ولم يكن فى حاجة إلى اليقظة المفاجئة أو الطفرة ، إنما كان فى حاجة إلى ملاءمة وئيدة بين حسنات الغرب وتراث الإسلام ، وأن يعطى من ثقافة الغرب وحضارته مايلائم تفكيره ومستواه فكيف يقوى على هذا الطوفان الذى جاء فى ركب الحملة الفرنسية على مصر . فلم تكسب محاولة نابليون عطف الناس إنما أثارت ذعرهم وفزعهم .

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ٩٨ .

ثم كيف يقبل هذا المجتمع ذو التفكير الاسلامي الصرف محاولة للاصلاح تجىء فى ركاب المسيحيين الخارجين على سلطان المسلمين وخليفتهم ؟

وكان عمر الحملة الفرنسية مرتبطاً بمشاكل السياسة الدولية فلم تعمر طويلا ولم تعمر محاولتها فى الاصلاح ، ولكنها لم تخل من فائدة هزت أعماق الشرق ، وزلزلت أفكار المعاصرين ، واطلعوا على أنماط فى الحياة ، وجدوها تختلف كل الاختلاف عما عرفوه وألفوه ، ورأوا مصادر جديدة للقوة ، ومنهاجاً جديداً فى الحياة يختلف عن منهجهم .

ورأو أن قوة المماليك أو قوة العثمانيين ليست هى القوة الوحيدة التى تحتكر القوة والنفوذ وتحرز النصر .

وأن المعسكر المسيحى مسلح بالأسلحة ، بأحدث ماوصل إليه العلم الأوربى المعاصر ، وزالت من نفوس المسلمين فى مصر وبلاد الشام هيبة الخلافة العثمانية التى بدت فى نظرهم هزيلة ضعيفة تعجز عن الغرب حتى فى الميدان العسكرى(١) .

وكان لا بد من الإصلاح ، وهنا تشعبت مسالك المصلحين واختلفت آراؤهم هل يصلحون الحال بالثورة على الخلافة العثمانية ويصلحون من فسادها بقوة السلاح ؟ وهل إذا أصلحوا يقبلون على الغرب ويتزودون بعلمه وسلاحه ؟ أم هل يمكن الإصلاح فى نطاق الخلافة العثمانية وأن يجىء الإصلاح من الداخل متخذاً ثوباً شرعياً من الولاء لخليفة المسلمين مع الاقتباس من الغرب ، التماسا لمواطن القوة العسكرية والإفادة من الغربيين فى وثبتهم الحضارية التى بهرت المعاصرين .

هذا التساؤل أو هذه الحيرة أدت إلى ظهور منهجين فى الإصلاح ، وظهور مدرستين كل تمثل تياراً فكرياً من التيارات التى أشرت إليها ؛ نشأت مدرسة الوهابيين ذات الهدف السلفى فى الإصلاح والثورة على الخلافة . والمدرسة المصرية فى عهد محمد على التى ترمى إلى الإصلاح من الداخل ، الإصلاح ذى الصبغة الشرعية مع عدم إهمال ثقافة الغرب ومصدر قوته ونفوذه .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : النهضة العربية الحديثة فى مصر ص ٥٣٢ .

نشأت المدرسة الأولى فى نجد بعيدة عن مركز القوة العثمانية وبعيدة أيضاً عن تيار الحضارة الغربية ، فجاءت متجاوبة مع بيئتها وموقعها الجغرافى .

كانت رجعة الى الماضى ، كانت حركة حنبلية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، إعادة التوحيد الإسلامى إلى نقائه الفطرى ، وتجريده من أوهام وشبهات المانوية أو الهندوكية والباطنية والقرامطة والسبأية ، ثم دعوة صريحة إلى الإبداع فى التشريع وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه، والاعتماد على القرآن والسنة وحدهما كمصدر للعقيدة والتشريع ، ثم التوسل بالقوة لفرض هذا الإصلاح ومد نفوذه الى العالم الإسلامى كله .

وقد تحقق هذا بتحالف الوهابية مع أمير الدرعية من آل سعود عام ١٧٤٧ ، وبدأت الفتوح والتوسعات وأعلن المنهج الثورى فى الإصلاح (١) .

وتمت المحاولة الثانية فى مصر مستوحاة من موقع البلاد وطبيعتها حيث يلتقى الشرق والغرب ، فلا يمكن أن تهمل حضارة الغرب وتقاليده ، ولا يمكن أن تكون المحاولة سلفية خالصة فتعرض البلاد لسطوة الخلافة من أساطيلها فى البحر وعساكرها المنتشرين فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

كانت محاولة محمد على أولا ثورة على فساد الحياة العثمانية فى مصر ومحاولة لإصلاحها اصلاحاً شرعياً فى نطاق الولاء للخليفة شكلا على الأقل ، ثم بعث القوى الإسلامية مستعيناً بتجارب الغرب وخبراته المالية والعسكرية .

وقد أجمل الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم برنامجه الإصلاحى على النحو الآتى :

١ — نهضة داخلية شاملة تتناول جميع مرافق البلاد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

٢ — تكوين قوة عسكرية فى البر والبحر للدفاع عن البلاد ، وتنفيذ سياستها الخارجية .

---

(١) محمد بديع شريف : النهضة العربية الحديثة ص ١ — ٢٢ .

٣ — اتخاذ سياسة خارجية نشطة تهدف إلى إحياء الشرق العربي وتنظيم الصلات بين مصر والسودان، والتوسع في إفريقية كخطوة لابد منها لمقاومة الاستعمار الأوربي الذي بدأ زحفه إلى هذه المناطق(١).

كان هذا الإصلاح بقدر مظاهر الفساد التي وضحت في مصر طوال القرن الثامن عشر. في أواخر هذا القرن أثبت النظام العثماني المملوكي عجزه عن تحقيق الحكم الصالح للمصريين. كما أثبت عجزه عن الدفاع عن بلادهم عندما دهمها الغزو الفرنسي وقد اظهرت حوادث حملة بونابرت كما أثبتت الأحداث التي مرت بها مصر وعاناها المصريون بين سنتي ١٨٠١ و ١٨٠٥ أنه لن يكون لمصر أمل من الخلاص من هذا الفساد أو حظ من رقى إلا بتحطيم هذا النظام وأصبح انهياره مقدمة لابد منها لنهضة مصر في القرن التاسع عشر.

وكانت محاولة محمد على إصلاح هذا النظام متمشية مع ما بلغه من السوء وكان هدفه أن تخلص مصر لسلطانه فلا تتمكن فيه عصبيات مسلحة من قواد الألبانيين أو أمراء المماليك أو شيوخ العشائر أو زعامات شعبية من المشايخ والمتصوفة.

لذلك شرع في السنوات العشر الأولى إلى تحطيم هذه العصبيات ليبنى على أنقاضها السلطة العامة، سلطة الدولة تسندها قوة الجيش الوطني والحكومة المركزية.

واستطاع أن يبني سلطان الحكومة على نحو لم تعرفه مصر من قبل معتمداً على نظام إداري دقيق وقوة عسكرية ثابتة.

وثبت في يقين الناس أن الحكومة قوية جداً يتجهون إليها في كل أمر ويلتمسون منها التوجيه والقيادة، وإن كان المصريون في ظل هذا التنظيم الحكومي الجديد ونتيجة له فقدوا هذا القدر من الحرية والحكم الذاتي الذي كانوا يتمتعون به في تدبير أمورهم وتنسيق علاقتهم بالحكم (٢).

وكانت محاولة الإصلاح في القرن التاسع عشر موجهة إلى فساد الأوضاع الاقتصادية التي سادت في مصر قبل هذا العصر. فالاقتصاد المصري كان اقتصاداً محلياً لا يرتبط

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم: النهضة العربية الحديثة ص ٢٢٦.

(٢) نفس المصدر: ص ٥٤١

بالاقتصاد العالمي بصلة قوية ، فهو يعتمد على الزراعة ، وكادت مصر أن تقسم إلى وحدات اقتصادية يعتمد كل منها في حياتها على نفسها ، فحركة التبادل بين هذه الوحدات تتم في أضيق الحدود ، والفكرة الأساسية أن أهل القرية الواحدة أو الإقليم الواحد يعتمدون في تدبير معاشهم على إنتاجهم . انكمشت تجارة مصر الخارجية وأصبحت الصناعات منزلية صرفة ، فقل النقد المتداول ، وضعف التمويل ، وانعدم الاستثمار ، وقل الحافز إلى التغيير .

كانت محاولة الإصلاح قضاء على الفساد واستكمالا لهذا النقص ومعالجة لهذه الأدواء . بدأت هذه الحركة الإصلاحية بضبط مرافق البلاد الاقتصادية تحت إشرافها فألغى الالتزام ونظمت جباية المال على أسلوب حديث يضطلع به جباة موظفون ، وضبطت الحكومة الصناعات القائمة وشرعت في احتكار التجارة الخارجية .

ثم بدأت مرحلة الانقلاب الاقتصادي بالعمل على زيادة الإنتاج والتنمية الاقتصادية بتوسيع الرقعة الزراعية وزراعة محاصيل تجارية . وتحولت البلاد من النظام الزراعي الذي يقوم على الإنتاج المحلي إلى النظام الزراعي الذي يقوم على التخصص والإنتاج لسوق أوسع نطاقا ، السوق المصرية العامة ، ثم السوق الخارجية .

واتجهت الدولة إلى التصنيع ، وأنشئت في القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الأقاليم مصانع كبيرة لغزل القطن ونسجه والحرير والكتان والجوخ ومصانع لإنتاج الأسلحة ، ودور للصناعة البحرية . وامتدت يد الإصلاح إلى التجارة ، وربط الاقتصاد المصري بالاقتصاد العالمي واحتكار التجارة الدولية (١).

غير أن أهم ناحية في هذه الحركة الإصلاحية التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر هي بداية حركة التجديد في الحياة الإسلامية ، التجديد بما يلائم طبيعة المسلمين وحاجة العصر وأوضاع الناس وأفكارهم وثقافتهم بالأخذ من الغربيين خير ما عندهم والاعتماد على هذا في الأخذ بيد المجتمع الإسلامي في مصر والشرق .

كانت حركة موجهة ما في ذلك شك تخدم منهج محمد علي في إصلاح فساد النظام وبعث قوته العسكرية وتحقيق أطماعه المادية لكنها كانت التجربة الأولى المفيدة التي شهدها الشرق الأدنى ، فكانت ذات نتائج بعيدة المدى بالغة الأهمية .

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : ص ٥٤٩ - ٥٥٦ .

كانت هذه الإصلاحات مبنية على أسس متعددة : إنشاء نظام تعليمى حديث يخدم أهداف هذه النهضة ويهيء لصاحب هذا المنهج طائفة من المعاونين والعمال يمكنه الاعتماد عليهم فى شق طريقه نحو الإصلاح .

وكانت خطته التعليمية أن يترك الأزهر والمدارس الدينية على حالها لا يتعرض لها وينشيء إلى جانبها مدارس تأخذ باللون الجديد فى التثقيف والتهذيب ، فوضع أساس الثنائية فى حياتنا العلمية ، ثنائية التعليم الدينى والمدنى .

لاننكر أن الأزهر لم يكن يعلم الطب أو الهندسة أو فنون الحرب والصناعة ، وأنه من العبث أن يلتمس محمد على هؤلاء الفنيين فى أروقة الأزهر وحول أعمدته كما يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم(١) .

ولكن كان من الممكن أن تنبعث الحركة الإصلاحية فى حجر الأزهر ولو فعل لكان لنهضتنا الثقافية الحديثة شأن آخر بل لكان لنهضة المسلمين شأن آخر . ولكن المصلح كان يهدف إلى أطماعه وذاتيته ، وكان يريد الإصلاح السريع الذى يحقق آماله من أيسر طريق .

وأنشأ المدارس الابتدائية والثانوية والفنية . كما أنشئت مدرسة الطب والتحق بها مائة من الطلاب . وكان أساتذتها من الأطباء الفرنسيين وساعد الأساتذة فى مهمتهم عدد من التراجمة كانوا يحضرون الدروس ويترجمون المحاضرات ، واتبعت هذه المدرسة نفس برنامج كلية الطب فى باريس . وفى خلال العشر سنوات التى تلت هذا التاريخ أنشئت مدرسة التوليد ومدرسة الصيدلة ومدرسة البيطرة(٢) .

وكان يريد أن يدعم هذه النهضة العملية بطائفة من الدارسين يلتحقون بمعاهد أوربا ، فكانت البعثات التى ذهبت أولاها سنة ١٨٤٧ ، وبلغ عدد الطلبة المصريين الذين اشتركوا فى هذه البعوث ٣١٩ طالباً درسوا الطب والحقوق والإدارة المدنية والعلوم الطبيعية والكيمياء والرياضيات والهندسة والآليات والطباعة وعلم المعادن والزراعة والرى وصناعة النسيج والصباغة والعلوم الحربية وصناعة الأسلحة والملاحة وبناء السفن .

---

(١) النهضة العربية الحديثة : ص ٥٥٩.

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ١٠٣ .

ومثل هذه النهضة لابد أن تقوم على حركة فى الترجمة واسعة النطاق ، وهذا يتطلب جيلا من المثقفين يعرفون العربية وغيرها من لغات الغرب .

وأسست مدرسة الألسن وأشرف عليها رفاعة الطهطاوى الذى استهل أول حركة للترجمة فى مصر فى العصر الحديث .. ولقد ترجم كتباً شتى فى موضوعات مختلفة ، فى الجغرافية أربع مجلدات عن كتاب فيكتور أدولف ملطبرون الجغرافى الفرنسى ، وفى التاريخ ترجم نبذة من تاريخ الإسكندرية وتاريخ قدماء الفلاسفة ، وفى الاجتماع ترجم كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها وكتاب أصول الحقوق الطبيعية ، ونقل كتباً أخرى فى الميثولوجيا والمنطق والهندسة وترجم لمنتسكيو . وقد شارك فى هذه الحركة أبناء البلاد الشرقية والمستشرقون الذين كانوا يفدون إلى مصر اختيارياً (١) .

وأهم معالم هذه النهضة أنها لم تقتصر على النقل من التراث الغربى إنما امتدت إلى الإحياء ، إحياء التراث القديم ، فأنشئت مطبعة بولاق سنة ١٨٣١ وأخذت تطبع الكتب المدرسية وتنشر الكثير من عيون التراث العربى القديم ، فكان إنشاء هذه المطبعة ثم عكوفها على هذا الطبع بمثابة وضع الأساس الأول لحركة الإحياء الثقافى التى انبعثت فى مصر فى القرن العشرين ، ومهدت لنجاح حركة التجديد والالتقاء الثقافى الحق بين التراث العربى القديم والتراث الغربى الوافد ، ونشأة تراث جديد عربى الصورة والمذاق غربى الروح والطبع .

كانت هذه المدرسة تهدف أساساً إلى الأخذ من الثقافة الغربية بقدر مايلائم حاجة الناس بالملاءمة الوئيدة بين الإسلام والثقافة الغربية الوافدة ، وكان نجاح هذه الحركة التطورية الوئيدة يتوقف على مايتوفر للقوة المسلحة من قدرة على الصمود ؛ فهى سد منيع أمام التيار الغربى المتدفق بثقافته وأطماعه التجارية والسياسية . تأخذ من هذا التيار وتشيع منه مايناسب الحاجة ويتلاءم مع الصالح العام ، فإذا ماضعف هذا السد وانهار طمى التيار الغربى واندفع اندفاعا لاتوقف بعده .

وكانت هذه الحركة الإصلاحية الموجهة مرتبطة بأهداف المصالح السياسية

---

(١) بديع شريف : النهضة العربية ص ٣٠ .

ومرتبطة بسياسته القائمة على إصلاح الحياة العثمانية من الداخل مع التظاهر بالولاء للخلافة العثمانية ما استقام أمرها وما تجاوبت مع هذه الحركة الإصلاحية .

لذلك كانت نهاية محمد على سببا فى تغيير طابع هذه المدرسة وفاتحة التطورات بعيدة المدى فى تاريخ الثقافة الإسلامية فى مصر فى القرن التاسع عشر .

كانت حركة محمد على تهدف إلى الإصلاح داخل نطاق السيادة العثمانية فإذا بالقضاء عليه وإذا بالملابسات التى صحبت نهايته وأعقبتها تدفع مصر إلى أن تشق طريقها خارج حدود الامبراطورية العثمانية (١) .

وتسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١ تشف عن هذا الاتجاه، فقد دفعت بالمستقبل السياسى لمصر خطوة إلى الأمام فى طريق الانسلاخ عن الامبراطورية العثمانية ، إذ جعلت من مصر ولاية ممتازة ولا يجرى عليها الحكم العثمانى المباشر ، فلا يتعاقب على ولايتها ولاة من رجال الإدارة أو العسكرية العثمانية ، وقد أصبح لمصر إدارة وطنية من أبناء البلاد أو ممن استقروا فيها واتخذوها لهم وطنا(٢) .

وتركت مصر تواجه الحضارة الغربية المتدفقة والنفوذ الغربى الظافر ، وتوثق صلاتها بأوربا فى وقت ضعفت فيه قوتها العسكرية والاقتصادية ولم يستطع ولاتها الضعفاء أن يؤدوا نفس الدور الذى اداه محمد على من قبل ؛ وأن يحسروا هذا التيار وأن يأخذوا منه بقدر متابعين سياسة الإصلاح والتجديد التى تابعها محمد على من قبل .

واندفع التيار الغربى لايكاديقيده قيد . أدخلت فى البلاد الخطوط الحديدية وأنشأت شبكة من التلغراف وبنيت مئات الجسور ، وحفرت آلاف من قنوات الرى. وزادت الصادرات والواردات ، وزيد من إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية والفنية ، وفتحت المدارس الأجنبية ، أنشأتها البعوث التبشيرية ، وأسست دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، والجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ .

وقد لاحظ دى ليون Deleon قنصل أمريكا العام فى مصر هذا التيار الغربى المتدفق على البلاد فى شدة وعنف خصوصاً فى عهد إسماعيل و انشاءات لامثيل لها فى

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ١١١ (٢) أحمد عزت عبد الكريم : ص ٥٧٠

أي بلد تبلغ مساحته وسكانه أربعة أضعاف مساحة مصر وسكانها وهو من النوع الذى سيزيد فى المستقبل رخاء مصر زيادة طائلة » . أما عن التعليم فإنه مدهش حقاً ويعتبر مدهشا فى أى بلد من بلاد العالم ، وكتبت صحيفة التايمز اللندنية سنة ١٨٧٦ بأن مصر « مثال مدهش للتقدم ، فلقد تقدمت خلال سبعين سنة بما يعادل تقدم البلاد الأخرى خلال خمسمائة سنة (١) » .

وصحب هذا كله إسراف ولاة الأمور فى الاستدانة للسير فى ركاب هذه الحضارة الغربية الوافدة ، ثم تدفق رأس المال الغربى لاستخدامه فى مصر وتدفق الخبراء الأجانب وتوغل النفوذ الأوربى فى حياة الناس ، وانتهى الأمر بفرض الرقابة الدولية على مصر فى الناحية المالية .

ورأى المفكرون المعاصرون حضارة أوربية تتدفق على البلاد وتنتقل منها إلى مختلف جهات العالم الإسلامى دون حساب .

كان مصلحو الأمس يأخذون بقدر فإذا بها اليوم تتدفق كأنها السيل ، وإذا بها تواجه الثقافة الإسلامية وجها لوجه ، وطبقة من الحكام استبد بهم الضعف ودفعهم الإسراف إلى الإثقال على الكادحين من أهل البلاد فى وقت بدأت يقظة الواعين من أهل البلاد ومطالبتهم بالحد من سلطان الاستبداد والاقتداء بالغرب فى الحياة الدستورية ثم نفوذ أجنبى ينفث سمومه فى البلاد ويسيطر على أقدارها يوما بعد يوم .

وكما انقسم مفكرو القرن الماضى فى منهجهم فى الإصلاح إلى مدرستين لكل منهما منهجها ورسالتها ، كذلك نشأت فى الحياة المصرية المعاصرة مدرستان وظهر تياران فى الإصلاح ، تيار يريد أن يجابه مشكلة التقاء الثقافات الإسلامية بالثقافات الغربية الوافدة ، إذ يلتمس لها الحلول ، ويرسم لها منهج الإصلاح .

وفريق آخر يصب كل همـــه على الحد من طغيان الحاكم وفساده ، وإنصاف الشعب . وإصلاح الحياة النيابية الدستورية وإقامة حكم وطنى قوى نظيف ، يصمد لهذا النفوذ الغربى الذى وضح فى أمور البلاد .

المدرسة الأولى : تتمثل فى منهج جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده .

---

(١) نجلاء عز الدين : ص ١١٢ .

والمدرسة الثانية : تمثلها الثورة الإصلاحية الكبرى التي انبعثت من صفوف الشعب بزعامة أحمد عرابي .

المدرسة الأولى تريد أن تعالج المشاكل الثقافية وتهيء للإسلام أن يواجه الغرب والمدرسة الثانية تريد أن تنهض بالحكم الوطني لتواجه الغرب في ميدان السياسة (١).

كانت مدرسة جمال الدين تقوم على أساس مواجهة الغرب بإسلام واع متجدد ، متين الأساس ،وتطهير الإسلام من البدع التي دخلت فيه ، وعودة به إلى أصوله الأولى ، وفهم شامل له وتقيد بحقائقه ومبادئه الجوهرية .

وهذه الحقائق إذا ما فهمت فهما صحيحا لا تتعارض مع الحقائق العلمية ، لأن الدين لا يعوق التقدم العلمي ، ثم تحرر عقلي ، وإصلاح فكرى يمكن الوصول إليه ، بتحرير العقل من كل ما يعوق بحثه عن الحقيقة . فالعقل الحر ينسجم مع الحقيقة ، وهذا الانسجام يعيد التوازن إلى الإنسان ، وفي زعمهم أن هذا الإصلاح الفكرى مقدمة لأى إصلاح سياسى .

ونادت هذه المدرسة أيضاً بالتحرر من المعتقدات والعادات البالية فناضل جمال الدين من أجل حرية الفكر ، وحض على إعلان الأفكار الحرة بجرأة وعلانية ، وأنكر الطغيان والظلم مهما كان مصدرهما .

ثم الدعوة إلى التحرر من الاستعباد أيا كان شكله ، فحاول أن يوجد رأياً عاماً مدركاً واعياً ، فألهم مدرسة من الكتاب ، وشجع الشبان على إنشاء الصحف وبث روح القومية ، وترك تأثيره طابعاً عميقاً في الأدب واتجاهه . ذلك الأدب الذى كان حتى عصره منصبا على مدح الأمراء والحكام ، فوضع للأدب غاية : هى خدمة الشعب والتعبير عن حاجاته ، والدفاع عن حقوقه ، فنشأ أدب جديد متطلع إلى الشعب ، ليستمد منه المادة والموضوع (٢) .

وقد أنجبت تعاليم جمال الدين المصلح الأستاذ محمد عبده وإن كان يختلف عنه في تطبيقه لهذه المبادىء ، إذ كان يرى أن تعزل الأمور الدينية عن الحركات الثورية السياسية ، وأن تتطور كل ناحية في طريقها المرسوم .

---

(١) Cibb : Modern trends in Islam pp. 28–31

(٢) نجلاء عز الدين : ص ١١٨ — ١١٩ .

وكان يهدف إلى تطهير الإسلام مما دخله ، وإصلاح التعليم العالى ، والملاءمة بين الشريعة وروح العصر ، والدفاع عن الإسلام ضد التيارات الأوربية والمسيحية(١) .

أما المدرسة الأخرى التى كانت ترى أن أي إصلاح يجب أن يبدأ بالناحية السياسية أولا ، فقد تمثلت فى الحركة الوطنية التى تزعمها أحمد عرابى .

وهى تمثل العناصر المستنيرة والحرة فى مصر ، كانت رغبة صادقة من أجل التحرر من الاستغلال الأجنبى ، ووضع دستور يضمن حقوق الشعب ويحمى مصالحه من عبث حكام أصبحوا أداة عاجزة طيعة فى يد الدسائس التى ينفثها الأجانب والرجعيون من أهل البلاد .

وأصدق شاهد على صدق رغبة هذه المدرسة فى الاصلاح السير ولفردسكاون بلنت Wilfred Scawen Blun ، الذى عاش فى مصر سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ والذى كان يعرف عرابى معرفة جيدة ، ويعطف على الأمانى المصرية .

وهو يقول أن الحركة الوطنية لعام ١٨٨١ « كانت فى جوهرها حركة فلاحين غايتها تحرير الفلاحين » ، وهو يصف عرابى بأنه من الأحرار وأنه يتصف بانسانية واسعة وأن إخلاصه يعلو على الشبهات(٢) .

وتتضح هذه الاتجاهات فى برامج الحزب الوطنى التى وضعت سنة ١٨٨١ ففيها الاعتدال فى الروح والفكرة .

فقد وقف موقف الولاء من الخديو بشرط أن يعدل فى حكمه ويتقيد بالقانون ونادى بضروة الرقابة المالية بشرط أن تكون مؤقتة واعتبر أن الشرف الوطنى يقضى بوفاء الدين الأجنبى . أما الظلم الناجم عن إعفاء الأوربيين المقيمين فى مصر من الضرائب ومن الخضوع لقوانين البلاد فيجب إصلاحه بغير عنف . لم يفرق هذا الحزب بين الناس على أساس من دين أو جنس بل نادى بأنهم جميعاً سواءأمام القانون فى الحقوق . وأدرك أن الموقف السلبى لايحقق الحرية بل اعتبر أنالمصريين

(١) Gibb : Modern trends in Islam p. 29.

(٢) Elnat : Secret History of British occupation of p. 110.

إذا ما أرادوا الحرية فعليهم أن يصمموا على إكمال تدريبهم السياسى عن طريق البرلمان وحرية الصحافة ونشر العلم (١) .

وقد جاء فى الفقرة الأخيرة من البرنامج ما يلى « وأخيراً فإن الهدف العـــام للحزب الوطنى هو بعث البلاد وذلك بحسن تطبيق القانون وبزيادة التعليم وبالحرية السياسيه التى يعتبرها حياة الشعب وهو واثق بعطف الشعوب الأوربية التى تنعم بالحكم الذاتى وبمساعدتهما لمصر فى أن تكسب لنفسها هذه النعمة ذاتها » .

كان من الممكن أن تنجح المدرسة الأولى فى بعث الإسلام وتلقيحـــه بثقافة الغرب تلقيحاً صحيحاً وأن تنجح المدرسة الثانية فى إصلاح الدولة وإنصاف الشعب وإدخال المبادىء الدستورية وبوقف التدخل الأوربى فتخلقان أمة إسلامية تأخـــذ بأسباب النهضة على أسس سليمة وأن تشيعها فى إفريقية لولا الاحتلال البريطانى.

هذه إذن قضية الثقافة الإسلامية فى مصر منذ الفتح العربى حتى الاحتلال البريطانى فلنعرض لنفس هذه الثقافة فى الشطر الآخر من شمال إفريقية فى بلاد المغرب .

---

(١) نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ١١٦ .

٣ – انتشار الاسلام فى بلاد المغرب

دور التكوين :

رغم أن العرب لم يستقم لهم أمر بلاد المغرب إلا بعد نضال عنيف استغرق نحو خمسين سنة : إلا أن الإسلام فى هذه البلاد كان أكثر نجاحا وأسرع انتشارا ، أسرع من انتشاره فى مصر رغم سهولة فتحها .

فما كاد القرن الثانى الهجرى يؤذن بالإنتهاء حتى كان الإسلام قد استقر فى بلاد المغرب ودخل المغاربة فيه واندمجوا فى الحياة الإسلامية ، واكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الواضحة .

ولعل ذلك يرجع إلى ظروف البلاد نفسها . إلى طبيعة المسيحية فيها وإلى طبيعة البلاد نفسها وطبيعة أهلها ، ثم إلى سياسة الدولة الأموية التى أتمت الفتح وأدخلت البلاد فى نطاق الدولة الإسلامية .

كانت المسيحية فى بلاد المغرب تختلف اختلافا بينا عنها فى مصر ، فقد كانت العقيدة المسيحية فى مصر قد تعمقت فى نفوس المصريين وأصبحت لهم عقيدة ووطنية فى وقت واحد ، واستطاعت كنيسة مصر على النحو الذى رأينا أن تكتل الشعب المصرى حولها فى نضالها العنيف مع الدولة البيزنطية ومذاهبها الدينية التى كانت تفرضها على الناس .

أما فى بلاد المغرب فإن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية والسهل الساحلى لسبب واضح هو أن النفوذ الرومانى والبيزنطى لم يكن يتجاوز هذا النطاق .

ظل النطاق الداخلى خارجا عن النفوذ البيزنطى من ناحيـــة وخارجاً عن نفوذ الكنيسة الإفريقية من ناحية أخرى .

ولا ننكر أن بعض التأثيرات قد نفذت إلى بعض هذه النواحى الداخلية غير أن السير توماس أرنولد(١) يشك إطلاقا فى امتدادها إلى قبائل البربر فى المناطق الداخلية

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٥ .

لسبب واضح فى مخيلته ، هوأن هذه القبائل البدوية لم تتشرب الحضارة الرومانية وكانت تقف من الدولة البيزنطية موقف العداء الصريح . وأنها كانت لاتفتأ تهدد مناطق الاستقرار ، مناطق النفوذ البيزنطى بالإغارات المستمرة (١) .

فإذا كان هذا هو حال برقة وطرابلس وتونس والجزائر فما بالنا بالمغرب الأقصى بشعابه الجبلية وهضابه وطبيعته المعقدة . كانت الكثرة الكثيرة من أهل هذه المناطق الداخلية على الوثنية وكذلك شأن غالبية شعوب المغرب وقبائله .

هذه المسيحية محدودة الانتشار فى المغرب كانت قد ضعف سلطانها بالتدريج فى أغلب المناطق التى كانت قد استقرت فيها ، فى برقة مثلا كادت أن تتلاشى قبيل الفتح الإسلامى(٢) . وقد نال من كنيسة افريقية مالقيته فى ظل الوندال الآريين قرابة قرن من الزمان اضطهدوا الأرثوذكس اضطهادا عنيفاً ، وشردوا أساقفتهم وحرموا عليهم الجهر بإقامة شعائر الدين وأمعنوا فى تعذيب من أبى أن يدخل فى مذهبهم(٣).

فلما عادت هذه البلاد إلى الدولة الرومانية وعقد مجمع قرطاجنه لم يحضره إلا نحو مائتين وسبعة عشر أسقفاً ، بعد أن كانت كنيسة إفريقية من أغنى الكنائس بالأساقفة والقسيسين (٤) .

ولم تكد الكنيسة تخلص من الوندال حتى ذاقت من البربر ، حتى إذا كان القرن السابع الميلادى وبدأ الزحف الإسلامى كانت المسيحية قد تناهت فى الضعف ، ضعفاً فى العدد ، وضعفاً فى نفوس الناس .

لم تستطع المسيحية فى المغرب وهذا حالها أن تقف من المد الإسلامى وقفة على الأقل تدانى وقفة المسيحية فى مصر .

فقد ناضلت كنيسة مصر واحتفظت برمقها على حين نجد كنيسة المغرب رغم تسامح العرب قد تلاشت تدريجياً ، فى سنة ١٠٥٣ مثلا لم يمثل هذه الكنيسة إلا خمسة أساقفة ثم ازدادت ضعفاً خلال القرنين التاليين .

---

(١) Marèais : Les arabes en Berberie, p. 42.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٥ .

(٣) Gibbon, vol. V, p. 214.

(٤) Ibid, vol. IV, pp. 331-3.

وفى سنة ١٢٤٦ كان أسقف مراكش الزعيم الروحى الوحيد الذى يشرف على ما بقى من هذه الكنيسة القديمة .

ثم اختفت تدريجيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولم يبق من ذكراها إلا أطلال الكنائس منتشرة فى هذا السهل الفسيح (١) .

وما دام المغاربة كان إقبالهم على المسيحية على هذا النحو الضئيل فمن الطبيعى أنهم لم يناضلوا من أجلها ولم تستطع عقائدهم البدائية أن تنافس الإسلام ، بل دخل فى هذا الدين من كان قد دخل فى المسيحية ، وكان ضعف المسيحية على هذا النحو ثم قلة مقاومتها من الاسباب التى يسرت للإسلام أن ينتشر ومكنته من أن يعم البلاد كلها .

هناك حقيقة أخرى تفسر هذا الانتشار السريع ، الذى صادفه الإسلام فى بلاد المغرب أبلغ من ضعف المسيحية نفسها ، وهى أن أهل البلاد الاصليين كانوا فريقين : فريق ينزل السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر . ثم ينتشر على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الخصيبة المحيطة بجبال أوراس ، ويمتدون انتشاراً حتى مدينة طنجة ، وهذا الفريق من البربر يسمى فريق البرانس(٢) .

أما فى الجنوب حيث نشاهد سلسلة من الوديان العالية والهضاب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التى تمتد امتدادا متصلا من طرابلس إلى المغرب الاقصى ، فقد نزلت طائفة من القبائل البدوية الكبرى هذه القبائل البدوية من سكان المغرب هى قبائل « البتر » (٣) .

كان المستقرون أكثر إقبالا على الحضارة الرومانية وأكثر تشربا لها وأوفر دخولا فى المسيحية ، فكانوا بحكم تعلقهم بها أشد مقاومة للعرب وأبطأ دخولا فى الإسلام ، بل كانوا هم عصب المقاومة للزحف العربى .

أما البدو سكان المناطق الداخلية البعيدون عن النفوذ الرومانى والبعيدون بالتالى

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٦ .

(٢) Gautier ; Les Siécles obscurs, p. 198.

(٣) Fagnan : L'Afrique. Sept... pp. 134-135.

عن تأثير المسيحية فقد كانوا أكثر عداء للرومان متمسكين بدينهم القديم . هؤلاء الناس رأوا الفتح العربي يقرر مصير المغرب فألقوا بثقلهم معه وأيدوه من أول الامر بل كانوا عـــدة العرب في زحفهم وطليعة جندهم . دلوهم على عورات البلاد ، وأعانوهم فى نضالهم مع الرومان .

وأشهر من أيد الفتح العربي من هذه القبائل البدوية قبيلة لواتة ونفزاوة ونفوسة وقبيلة زناتة (١) ، ومادام هؤلاء قد أيدوا الفتح العربى منذ البداية فقد كانوا اسرع استجابة للإسلام ودخولا فيه .

بدأ الإسلام ينتشر أول ماينتشر بين هذه القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم ، ولم تستطع عقيدتهم الوثنية أن تصمد أمام الدين الإسلامى الوافد فى قوته وعنفوانه .

ولما انهارت مقاومة البيزنطيين وانبسط النفوذ العربى على البلاد كلها ، لم يشأ الفريق الآخر من أهل المغرب أن يتخلف عن الركب ، فبدأوا بدورهم يدخلون فى الإسلام أسوة بمن دخل فيه من البدو .

وثمة أسباب أخرى تفسر سرعة انتشار الإسلام فى المغرب وسرعة تقبل الناس له : وهو أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام وفى إقبال أهل المغرب عليه .

فحسان بن النعمان فاتح إفريقية منح البربر الذين يؤيدون الفتح ويؤازرونه حق المساواة الكاملة مع العرب أو حق الرعوية العربية الكاملة .

ووضح أمام البربر ماينطوى عليه الإســلام من مساواة بالفاتحين العرب ومن مكاسب مادية ومعنوية فسيكونون عدة العرب فى زحفهم المقبل صوب المغرب الأقصى مع ما يتضح من هذا الزحف من مغنم ومكاسب مادية وفيرة (٢) .

وتتضح سياسة حسان هذه من رواية المالكى(٣) ، وهى تهدف إلى إشراك البربر فى جيش الفتح ، ومعنى هذا منحهم حقهم المشروع من العطاء .

---

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ص ٣٦ .   (٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٧ .

ثم إذا به يسوى بين العرب والبربر فى قسمة فى الحرب ومغانمها ، لم يعتبر العرب حكاما والبربر محكومين ، إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وفى الاشتراك فى الحرب .

هذا يخالف ما ألفوه من سياسة الرومان حيث كان أهل المغرب مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم من موالى الرومان لهم المرتبة الثانية فى المجتمع فإذا بهم يظفرون بالمساواة المطلقة .

بل أمعن حسان فى سياسة التهدئة والتراضى هذه فاعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة وأقر البربر على ما بيدهم من الأرض .

وتبين إذن أن محالفة العرب لا تفقدهم أرضهم ولا ميزاتهم المادية وهذه السياسة كان لها أثر نفسى بعيد المدى فى دفع البربر نحو الإسلام . ذلك أنه ميز البربر على سائر أهل المغرب ، فاعتبر الروم والأفارقة موالى للعرب ، لا يتساوون مع البربر ولو أسلموا ، واعتبروا الأرض التى كانت للروم مفتوحة عنـــوة ، فاستحلها العرب ، واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم يتصرفون فى شئونهم كما يريدون .

فوجـــد البربر الذين استعبدوا بالأمس أنفسهم أرفع شأناً من سادة الأمس الأفارقة والروم ، وكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هى اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئاً فشيئاً ، حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريباً ، واختفت تبعـــاً لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها هؤلاء الروم والأفارقة ، وأدت هذه السياسة إلى نهوض الشعب المغربى وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية (١) .

وامتدت سياسة التهدئة هذه من تونس والجزائر إلى المغرب الاقصى ، على يد موسى بن نصير الذى تابع سياسة حسان فى المغرب الاقصى ، فلم يكن قائدا فحسب إنما كان مصلحاً وسياسياً فى نفس الوقت : قرب إليه البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة فولاهم الاعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد (٢) ، فوجدوا أن

(١) مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٨ .
(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٧ .

انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمة ، فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما .

وكان نشر الإسلام يسير جنباً لجنب لان موسى أحب ألا يكون إسلام البربر خوفاً أو رهبة بل اقتناعاً وحباً ، فأخذ يفقههم فى الدين فينشىء المساجد فى البلاد التى فتحها ، حتى لقد أنشأ مسجداً فى أغمات هيلانة فى أقصى بلاد المغرب (١) .

ونجحت سياسة موسى نجاحاً بعيداً ، فأصبح المغرب الاقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه ، وكما أشرك حسان بربر إفريقية فى جيش العرب كذلك فعل موسى ، أشرك بربر المغرب الاقصى فى فتح الاندلس ، وانضمت إليه جماعات البربر طمعاً فى الغنم أو حباً فى الجهاد (٢) .

وحركة فتح الاندلس كانت عظيمة الاثر فى انتشار الإسلام بين البربر فقد كان هذا النصر السريع ، الذى أحرزه العرب حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر للاشتراك فى الحرب والمساهمة فى الغنم الوفير ثم دافعاً لمن بقى على دينه إلى الدخول فى الإسلام حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين .

لذلك كان فتح الأندلس معجلا بإسلام البربر ، فقد حاربوا مع العرب جنباً لجنب واحتكوا بهم وخالطوهم وأفادوا منهم فى الدين والثقافة (٣) .

ولم ينفرد الولاة بالاهتمام بأمور المغرب على هذا النحو بل اهتم به الخلفاء ، وكان اهتمامهم متمماً لأعمال الولاة ودافعاً الحركة الإسلامية إلى الأمام خصوصاً الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى كان يريد أن يزيد الإسلام انتشاراً فى المغرب ، وأن يثبته فى قلوب من دخل فيه حديثا .

ولتحقيق هذا الغرض نراه يولى إسماعيل بن عبيد الله سنة ١٠٠ هـ (٤) ليدعوا من بقى من البربر إلى دين الإسلام ؛ ولم يكن إسماعيل هذا عاملا على المغرب فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السلمية والحجة والإقناع .

---

(١) ابن عذارى حـ ١ ص ٢٨ .
(٢) حسن أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٦٤ .
(٣) مؤنس : فتوح المغرب ص ٢٩٢ .
(٤) الدباغ : معالم الإيمان حـ ١ ص ١٥٤ .

والمؤرخون يردون إليه الفضل فى إتمام ما بدأه أسلافه وفى تثبيت العقيـــدة فى نفوس مسلمى البربر.

وأتبع عمر بن عبد العزيز هذا بإرسال التابعين الذين انتشروا بين البربر وأخذوا يعلمون أصول الدين يبصرون بقواعده وأصوله ، وأقام كثيرون منهم فى مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية ، أقاموا المساجد وجعلوها مدارس للاسلام ؛ يقصدها البربر من كافة أقاليمهم .

وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد ، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة ، فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ، ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية (١) .

ويمكننا أن نقول فى اطمئنان أن القرن الثانى للهجرة أظل بلاد المغرب وقد أصبحت قطرا اسلاميا ينفعل مع التفكير الإسلامى الذى شاع فى العصر الأموى .

واذا بالفرق الدينية التى ظهرت فى ذلك العصر مثل الشيعة أو الخوارج تنتقل هى الأخرى إلى المغرب بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعايتهم مرعى خصيباً بين القبائل .

وكان ظهور حركات الخوارج سريعاً فى المغرب واندلعت نيران ثورتهم سنة ١٢٢ هـ (٢) . وهذا يدل على تفاعل البربر تفاعلا كاملا مع الحياة الإسلامية ، بل كان دعاة الشيعة وثوار الخوارج عاملا هاماً فى نشر الإسلام بين أهل البلاد .

وقد شهد نفس هذا العصر تطورا مماثلا صحب انتشار الإسلام وهو انتشار اللغة العربية .

ويخيل للمتأمل أن اللغة العربية كانت أوسع انتشارا فى بلاد المغرب منها فى مصر ، لأن العربية وجدت فى مصر لغات عريقة ذات اصالة وحضارة مثل اللغة القبطية

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤ .
(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠ .

بتقاليدها العريقة وماضيها المشرق ، وهي لم تكن لغة الثقافة وحدها ، بل اتخذت تعبيرا دينياً فأصبحت لغة الكنيسة والتمسك بها يحمل في مفهوم المصري معنى دينياً ووطنياً ، إلى جانب الاغريقية لغة الوثائق والمصطلح الديواني والثقافة الإغريقية .

أما في بلاد المغرب فان الإغريقية أو اللاتينية لم تكن واسعة الانتشار بل كانت لغة الحكومة ولغة سكان المناطق الساحلية ، أما غالبية البربر فكانت أبعد من أن تتأثر بهذه اللغة ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية ، ولم تكن لغات البربر غير المكتوبة تقوى على مغالبة اللغة العربية .

وكما أقبل البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجدوا فيها أداة طيعة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم ، فقد تعددت لهجاتهم وكانت اللغة العربية لغة مكتوبة يستطيعون عن طريقها أن يسجلوا تراثهم (١) .

وكان إقبالهم على اللغة العربية شديدا يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم في القرن الثاني الهجري إلى الشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة .

وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها ، وبدراسة ماورد من تراجم في كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا في ثقافة العرب وفهموها حق الفهم (٢) .

وفي نفس الوقت الذي انتشر فيه الإسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الوافدة إلى مدارس القيروان وغيرها من مدن إفريقية تسير في طريقها المرسوم نحو التفوق والازدهار .

كما أظلت المغرب وحدة سياسية شاملة في ظل عمال خلفاء بني أمية .

دور الازدهار :

لكن هذه الوحدة السياسية التي أظلت أقطار المغرب جميعها وتبعية هـذه البلاد كلها للخلافة الإسلامية في الشرق لم يكن من المعقول أن تستمر طويلا .

---

(١) انظر . الدباغ : معالم الإيمان والمالكي رياض النفوس .

(٢) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية .

ذلك أن المغرب سيكون ميداناً للحركات القومية التي ظهرت في محيط الدولة الإسلامية منذ قيام الخلافة العباسية . غير أن القومية المغربية كانت أسبق ظهوراً من نظيرتها في الشرق ، أسبق بنحو قرن من الزمان .

ويرجع السبب في ظهور هذة القومية المغربية مبكرة نوعا ما إلى طبيعة البلاد ، وعدم استطاعة العرب أن يقهروا أهل البلاد قهرا مطلقاً في وقائع حاسمة ، الأمر الذي اضطرهم إلى المهادنة والمصانعة ، على عكس الحال في العراق وإيران ومصر حيث قهرت القوميات قهراً عسكرياً بعد نصر حاسم .

وكان على هذه القوميات أن تظل مستكينة فترة طويلة ريثما تسترد أنفاسها ، فنمت شخصية المغرب المستقلة في ثورة الخوارج التي اشتعلت بالبلاد قبل سقوط الخلافة الأموية بنحو عشر سنوات ، أعني سنة ١٢٢هـ (١) فانتشر مذهب الخوارج الذي ينادي بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب ، بل يشترك فيها المسلمون على السواء ، فهي ثورة على الإمامة القرشية .

وقد تلقفت القومية المغربية المتربصة هذه المبادىء واعتنقتها معارضة للحكم الإسلامي ووقوفاً في وجه الخلافة الإسلامية .

وانبعثت شرارة الثورة في مدينة طنجة وبايع الثوار رجلا سقاء يسمى ميسرة ، ثم عمت الثورة بلاد السوس الأدنى ، ثم سائر جهات المغرب الأقصى .

ولم يستطع جند الأندلس العبور إلى المغرب وإخماد الفتنة ، وامتد لهب الثورة إلى إفريقية وسقطت القيروان ، وكاد سلطان العرب في المغرب أن يقضى عليه .

وعلى الرغم من أن الدولة الإسلامية قد استردت افريقية إلا أن البلاد انقسمت على نفسها انقساما واضحاً . وبدأت القوميات تظهر في المغرب ، وبدأت الأقاليم الجغرافية تتضح وتظهر (٢) .

انفصلت بلاد الأندلس عن الخلافة الإسلامية في عهد عبد الرحمن الداخل ، وبدأت تنشأ في مدينة قرطبة حاضرة هذه الإمارة مدرسة جديدة للثقافة العربية ، وبدأت رغم اعتمادها على القيروان والشرق تظهر شخصيتها الأندلسية .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : حـ ١ ص ٣٨ .

(٢) حسين أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٦٥ .

الثقافة الإسلامية فى المغرب فهى زعيمة هذه المدارس ، وهى التى ظلت توجه ثقافة المغرب فترة طويلة ، ولم تظهر المدارس الأخرى إلا حينما ضعفت مدرسة القيروان ثم انهارت آخر الأمر .

مدرسة القيروان :

رأينا الجهود التى بذلها الولاة العرب منذ عهد حسان بن النعمان لإقرار السكينة فى البلاد ، ونشر الطمأنينة بين ربوعها ، غير أن هذه الجهود أثمرت فى عهد الأغالبة ، فقد أظل البلاد عهد من السلام الحقيقى والطمأنينة غير المشوبة بقلق أو اضطراب .

ولعل هذا يفسر بأن إسلام البربر وإقبالهم على الثقافة العربية قد حببهم فى العرب وفى ثقافتهم ، وهذب من طبيعتهم النزاعة إلى الثورة والخروج على السلطان .

إلا أن الأغالبة استطاعوا أن يوجدوا نوعا من التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم : بين الجند العرب الذين كانوا يؤلفون طبقة أرستقراطية عسكرية ، وبين البربر أهل البلاد الأصليين ، أو بين الأفارقة وهم عنصر خليط من البربر وبقايا الرومان القدماء .

وضح هذا التعاون المثمر فى المدن على وجه الخصوص وفى مدينة القيروان حاضرة البلاد حيث عاشت هذه العناصر جنبا إلى جنب . ولعل هذا التعاون قد هيأ للأغالبة أن يستغلوا موارد البلاد خير استغلال ، فعظمت ثروة البلاد ، وأقبل هؤلاء الأمراء على الترف والرفاهية ، وكونوا لأنفسهم بلاطا يتشبه بالبلاط العباسى البغدادى فى حياته واتجاهاته .

واطمئنان الأغالبة من ناحية ووفرة مواردهم من ناحية أخرى قد أغراهم بفتح ميدان الجهاد فى جزيرة صقلية ، وبدأت المحاولة الأولى سنة ٨٢٧ م ، وبذلك فتحوا للحضارة الإسلامية نهرا تتدفق فيه لتتخذ طريقها إلى إيطاليا فيما بعد .

وقد ظهر أثر هذه السياسة وأثر هذا السلام وأثر هذا الثراء فى ميدان الحضارة ، ففى الفن الإسلامى تنوعت الآثار المنسوبة إلى الأغالبة ، وجورج مارسيه يقسمها إلى آثار دينية مثل المساجد وآثار مدنية مثل القصور وآثار حربية مثل الحصون ، ومرافق عامة مثل خزانات المياه التى انتشرت فى تونس فى عهدهم .

واستقلت إفريقية أو كادت في عهد عبد الرحمن بن حبيب الذى نشر السلام والطمأنينة فى ربوع البلاد ، وامتد سلطانه غربا حتى تلمسان ، بل حاول غزو صقلية وسردانية . وبذلك عبد الطريق أمام الأغالبة فوجدوا إمارة ممهدة وشعبا مستقرا وحضارة زاهرة . فاستقلوا بحكم إفريقية فى ظل النفوذ العباسى ، ونمت مدرسة القيروان فى عهدهم نموا واضحا(١) .

وفى المغرب الأقصى قامت دويلات صغيرة مستقلة تبسط كل نفوذها على منطقة معينة محاولة أن تقر السكينة فى ربوعها . وأن تؤمن أهلها حتى يعيشوا فى سلام .

استقل بنو واسول فى سجلماسة(٢) . واستقلت برغواطة بطنجة وما حولها . ومهدوا الطريق أمام الأدارسة ليعتمدوا على بربر المغرب فى إقامة إمارة مستقلة توحد المغرب الأقصى كله تحت لوائها .

وكان لانتساب الأدارسة للرسول أثر كبير فى توحيد القبائل المتنافرة . وظفروا بتأييد السكان على اختلاف طبقاتهم . ووحدوا بين إقليم الساحل وإقليم المراعى . فاطمأن أهل السهول والبدو وازدهرت الحياة الاقتصادية ونجحوا فى إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنبا لجنب . واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة إحياء حركة الجهاد ، وعملوا على نشر الإسلام فى البلاد(٣) .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد فى تاريخ البلاد ، فقد أصبحت حاضرة المغرب الأقصى يقصدها العلماء والتجار من كل صوب (٤) .

وبدأت مدرسة فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من القيروان ، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة وتنشر العلم فى ربوع البلاد . وكان الأدارسة أنفسهم يؤيدون هذه الحركة العلمية ولهم الفضل فى نشر الثقافة العربية فى البلاد .

إذن بدت فى بيئة المغرب الإسلامى ثلاث مدارس إسلامية : مدرسة القيروان فى إفريقية ، ومدرسة قرطبة فى الأندلس ، ثم مدرسة فى فاس المغرب الأقصى . وسوف يستمر التنافس بينها نحو سبعة قرون متصلة . غير أن تاريخ مدرسة القيروان هو تاريخ

---

(١) ابن خلدون جـ٦ ص ١١١ . (٢) نفس المصدر جـ ٦ ص ١٠٥ .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ١٣ . (٤) الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٢

وظهرت هذه الآثار من ناحية أخرى فى الثقافة العربية الإسلامية التى رأيناها فى العهود السابقة على عهد الأغالبة تنمو ويشتد ساعدها . غير أن عهد الأغالبة بظروفها التى أشرنا إليها دفعها إلى الأمام فى طريق التطور والنمو(١) .

ومؤرخو هذا العصر يذكرون كيف أنهم أنشأوا بمساجد القيروان حلقات للتدريس ، وأنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم « دور الحكمة » واستخدموا لها الأساتذة من الشرق . فكانت هذه المدارس وماقترن به إنشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما فى رفع شأن لغة العرب وثقافتهم .

غير أن أهم تطور ثقافى شهدته إفريقية فى العصور الوسطى هو انتشار مذهب مالك من مدرسة القيروان ، وتفشيه فى القسم الغربى من العالم الإسلامى كله ، بما فيه بلاد الأندلس ، ثم عبوره إلى غرب إفريقية ، حيث لا يزال حتى اليوم المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد ، والعامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية .

ظهور مذهب مالك ثم انتشاره لم يكن وليـــد عصر الأغالبة ، فقد انتشر فى البلاد قبل الأغالبة ، غير أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب ، وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها .

وفد مذهب مالك إلى القيروان قادما من مصر كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى ، ورحل كثير من فقهاء البلاد إلى مصر أو الحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة (٢) .

ثم عادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا ، غير أن هؤلاء لم يكن لهم أثر يذكر حتى جاء أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ إفريقية(٣) ، ورحل إلى مصر ، وسمع من على بن القاسم ، إمام المالــكية فى مصر ، فتأثر به رغم أن أسد هذا كان على مذهب العراقيين ، أعنى حنفى المذهب ، ودون خلاصة مشاهداته وتجاربه ، فى كتاب مشهور فى تاريخ الفقـــه الإسلامى فى المغرب اسمه

---

(١) George Marcats ; Faschitesinss & oeeilenr p. 5.

(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ١٨١ .

« الأسدية » (١) ، حاول فيه أن يوفق بين تقاليد مالك وأبي حنيفة ، فازداد الناس معرفة بفقه مالك عن ذى قبل .

ويظهر أن ماسمعه الإفريقيون من علمائهم الراحلين إلى مصر ، أو ما سمعوا من دروس أسد بن الفرات ، تحببهم فى هذا المذهب الذى يتمسك بسنة الرسول فى أضيق الحدود ، وبهذا الفقيه الذى اتخذ مقام الرسول مقراً لتعاليمه وفقهه فبدأوا يقبلون على هذا المذهب ، إقبالا أشد من ذى قبل ، ويطلبون المزيد من العلم به والمعرفة بخباياه .

هذه الرغبة فى الاستزادة من علم مالك دفعت فقيه المغرب المشهور سحنون ابن سعيد إلى الرحيل إلى مصر ليسمع على بن القاسم ، وأقام فى الفسطاط زمناً حتى تشرب مذهب مالك وملك عليه نفسه وعاد إلى بلده .

وجمع خلاصة دراساته وقراءته المالكية فى أول كتاب ظهر فى فقه مالك غير الموطأ وأسماه (المدونة) (٢) .

ويرجع إلى سحنون هذا وإلى تحمسه الغريب لهذا المذهب ، الفضل فى دخول الناس فيه جماعات ، وطار صيته إلى الأندلس فجاءه علماء قرطبة يسمعون منه ويتتلمذون عليه ، وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الأندلس وينتشر فيها .

وكان مذهب أبى حنيفة المذهب الرسمى للدولة وقد وفد إلى إفريقية بقيام الدولة العباسية غير أنه لم يلق إقبالا من المغاربة المتشبعين بحب الرسول والمخلصين للاسلام الصحيح .

وسبب كرههم لمذهب أبى حنيفة قلة اعتماده على الحديث ، واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر (٣) .

غير أن ظهور مذهب مالك خصوصاً فى عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب أبى حنيفة مسيطرا على قلوب الناس ومدارس الفقه ، حتى انتصر نهائياً منذ عهد سحنون . وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

---

(١) الدباغ : المعالم ج ٢ ص ٨ (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٥٠

(٣) المالكى : رياض النفوس ص ١٦٥

وبفضل مذهب مالك وتزمته اشتد كره أهل إفريقية لمذهب أبي حنيفة ، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكيين في الحياة الثقافية والدينية ، حتى أفتوا بتكفير الحنفية وبأنه لا يصلى عليهم ولا تشهد جنائزهم ، ولا يصلى خلفهم ، ولا يروى عنهم الحديث ، إنما يقاطعون سلبياً وإيجابيا ، وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الأمراء ، وعدم تولى القضاء ، والبعد عن مناصب الإفتاء(١).

وتمكنت تقاليد المالكية في نفوس المغاربة ، وفي مدارس القيروان وإفريقية ، ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد .

فلما انتشرت في مدارس إفريقية محنة خلق القرآن ، وآراء المعتزلة كان المالكيون أشد الناس لهم حرباً ، وأكثرهم عنفا في مقاومتهم ، وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة ، ولم يبق لهم بالقيروان رأى ولا أتباع ، ولم يجد الأمراء مفرا من النزول على رأى المالكية (٢) .

وفي هذا العصر تمكنت تقاليد المالكية من المغرب الأقصى ومن الأندلس ، وأصبح في البلاد مذهب الدولة الرسمي .

ومما يدل على مبلغ اقتناع الأندلسيين بمذهب مالك وتفضيلهم إياه ما رواه القاضي عياض ، عن الخليفة الأموي الحكم المستنصر : « نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا ، فلم نر في مذهب من المذاهب أسلم منه ، كان فيهم الجهمية والرافضة ، والخوارج والشيعة : إلا مذهب مالك رحمه الله ، فإنا ما سمعنا أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع »(٣).

انتصر المالكية انتصاراً عظيما في عهد الأغالبة ، وكانت مقاطعتهم للأمراء وعدم السير في ركابهم ، وأخذهم بالبأس والشدة ، أمرا محببا إلى المغاربة الذين عرفوا في طول تاريخهم بالنزعة الاستقلالية ، وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبي يفرض عليهم ، فوجدت دعوة المالكية في نفوسهم صدى محببا يرتاحون إليه .

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) حسن أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٩٤

وأصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ، ويستشهدون فى سبيل العقيدة .

بدأت تختفى الزعامة السياسية والحربية وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان ، وأمعن المغاربة فى تعصبهم لمذهبهم المحبب فمن كان مالكياً قبلوه وأحبوه ومالوا إليه ، ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة .

لا نستطيع أن نقول أن مدارس إفريقية قد أقفرت من ألوان الثقافة العربية الاخرى ، فكانت جميع أنواع العلوم الإسلامية تلقى فى مدارس القيروان ، وقد رأينا الآراء الجديدة ذات الطابع الحر فى التفكير والدراسة تتسرب إلى المغرب ، كما تسربت إلى البيئات الإسلامية الاخرى .

لكن المغاربة غلبت عليهم النزعة المالكية الدينية بوجه خاص ،فجعلتهم لايعرفون من الدراسات الإسلامية إلا هذه الناحية يقبلون عليها ويتعصبون لها .

وظل هذا حال الثقافة الإسلامية بوجه عام ، ومذهب مالك بوجه خاص حتى أقام الفاطميون دولتهم فى إفريقية ، ووجد الفاطميون فى بيئة إفريقية ثقافة إسلامية موطدة وثقافة دينية ثابتة الجذور ، ورأوا شعب إفريقية كله متكتلا خلف فقهائهم المالكين يهتدون بهديهم ، ويأتمرون بأمرهم ، فرأوا أنه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها إلا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية الدينية .

وقد رأينا الفاطميين فى كل مكان يتسامحون فى نشر دعوتهم بالدعاية والمناظرة والعلم . فنجأوا إلى مثل هـــذا فى القيروان ، توسلوا بالمناظرة وعقدوا المجالس وجلبوا أئمة المالكية ، وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم فلم يقتنعوا (١) . وأغدقوا المال والجاه فلم ينفع المال أو الجاه ، فانقلب الفاطميون إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة .

ضربوا الفقهاء بالسياط وقطعـــوا ألسنة البعض ، وضربوا الرقاب وصلبوا الفقهاء أحياء ، وصادروا الأموال ، وتفننوا فى بعض وسائل التعذيب ، وتصور كتب الطبقات هذه الوسائل تصويرا بشعاً ، فيذكر الدباغ (٢). أنهم كانوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون السودان بأن يدوسوهم بالأقدام .

---

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٩٤ (٢) معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٢

فلم تجد هذه الوسائل ، ووقفت المالكية فى وجه الفاطميين كرجل واحد ، واعتبروا الفاطميين زنادقة ونادوا بقتلهم حيث وجدوا وأعلنوا عليهم المقاطعة السلبية ، لا يصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الأموال ولا يتعاون معهم . وقد ألف أحد الفقهاء كتابا فى نسب الفاطميين فحاربه الناس حتى فر من القيروان بنفسه (١) .

وانتشرت المقاومة فى المغرب كله بفضل الفقهاء المالكية ، وقامت الثورات والفتن فى وجه الفاطميين - بل إن إخفاقهم فى فتح المغرب الأقصى ، وإقرار السكينة فى البلاد كان بسبب المالكية .

وكان هذا سببا فى محاولتهم فتح ميدان جديد بالاتجاه صوب مصر ، إذ تضافرت ضدهم جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب . الأمويون فى الأندلس ، والأدارسة والزناتيون فى المغرب الأقصى يظاهرهم المالكية فى كل مكان فكان رحيل الفاطميين إلى مصر انتصارا للمالكية ولسياسة المقاطعة السلبية والإيجابية (٢) .

رحيل الفاطميين إلى مصر معناه اختفاء النزعات المتحررة من الحياة الثقافية فى إفريقية ، لا محل لتشيع أو حنفية أو معتزلة أو خوارج أو ماشابه ذلك ، ومعناه اشتداد الصبغة الدينية المالكية الضيقة فى الثقافة العربية فى المغرب كله .

وقد اكتمل انتصار المالكية فى إفريقية سنة ٤٤٣ هـ ، حين أعلن أمراء إفريقية الخاضعون للفاطميين اسميا العصيان على هذه الدولة ، وقطعوا الخطبة لهم من البلاد ، واختفى نفوذ الشيعة نهائيا ، بل قتل من بقى منهم بالقيروان أو المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى .

وتغلب مذهب مالك نهائيا وطبع الثقافة العربية فى المغرب بطابعه الذى لا زال سائدا حتى اليوم (٣) .

حدث هذا كله فى القرن الخامس الهجرى ، وقد صحب انتصار المالكية على هذه الصورة توطن الثقافة العربية نهائياً فى البلاد بتفشى اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية فى نفوس الناس ، وظهور جيل من مثقفى البربر وفقهائهم وعلمائهم يطبعون الثقافة الإسلامية بطابعهم المتزمت المتعصب .

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام المرابطين ص ٦١ (٢) نفس المصدر ص ٥٨
(٣) ابن خلدون حـ ٦ ص ١٩٩

وساعدهم على هذا التغيير اختفاء النفوذ العربى أو الشرقى نهائياً برحيل الفاطميين وقيام أسرات من البربر الخلص مثل الزيريين فى تونس والحماديين فى الجزائر ، ثم المرابطين فى المغرب الأقصى .

وأصبحت الكلمة الأولى لأهل البلاد الأصليين . تسنموا مقاعد الملك وأصبحت لهم الوزارة والقيادة ومناصب الدولة ومظاهر العز والسلطان .

وكان هذا فى الواقع بداية الثقافة المغربية الإسلامية فى أجلى صورها ذات الطابع الخاص المتميز عن الطابع الشرقى فى كل ناحية ، فى الخط العربى قلم مغربى خاص ، وفى الفن الإسلامى طابع خاص ، وفى الثقافة الدينية المالكية المتزمته الضيقة ، وفى الناحية الفكرية التى تدور فى دائرة ضيقة جداً من التقـاليد الدينية ونزعة سلفية صرفة .

ويكاد النشاط الأدبى فى مدارس القيروان فى ذلك العهد أن يكون قاصراً على الوافدين إلى البلاد من الشرق أو الأندلس . وقراءة ما كتبه العماد الأصفهانى فى الخريدة وابن دحية فى المطرب تطلعك على أن الأدب العربى لم يجد له سوقا رائجة فى بلاد المغرب ، حتى التواليف التاريخية والجغرافية كلها تشف عن هذا الطابـع الدينى الضيق المتزمت .

وإذا كانت ثقافة المغرب العربية قد وصلت إلى هذا الحد من التفوق فى هـذا العصر . إلا أن الأحداث السياسية التى شهدها هذا العصر قد غيرت من مجرى هذه هذه الثقافة . وكتب عليها أن تبتدئ دوراً من أدوار الانحدار يبتدئ من غارات العرب الهلاليين ويستمر فترة طويلة .

وكانت أهم الأحداث المؤثرة فى تاريخ إفريقية (وتونس) السياسى بوجه عام والثقافى بوجه خاص والتى شهدها هذا العصر الطويل الممتد من القرن الثانى عشر الميلادى حتى القرن التاسع عشر هى :

١ — غارات العرب الهلاليين وانتقـالهم من مصر إلى إفريقيـة منذ سنة ٤٤٣ هـ .

٢ — اضمحلال البحرية الإسلامية ، وبداية ظهور القوى المسيحية الأوربية وإحرازها السيادة البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

٣ — نهضة أوربا وظهور قوى سياسية جديدة سيكون لها أثرها فى تاريخ المغرب الإسلامى .

٤ — تفوق الدول المسيحية فى شبه جزيرة أيبريا واستطاعة هذه القوى بعد أن توحدت أن تطرد المسلمين من البلاد نهائياً .

٥ — ظهور الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وامتداد نفوذهم نحو أوربا ونحو مصر ودخولهم ميدان السيادة البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتأسيسهم لبعض الإمارات التركية فى تونس والجزائر .

كانت بداية الانحدار فى تاريخ الثقافة العربية فى إفريقية على يد العرب الهلاليين الذين كانوا يقيمون بصعيد مصر فى العصر الفاطمى ، حتى ساءت العلاقات بين الفاطميين فى مصر وبين الإمارة التابعة لهم فى تونس ، فرأوا أن يدفعوا عرب بنى هلال لغزو هذه البلاد ، فيتخلصوا من عبثهم وإفسادهم فى مصر ، وقد يتخلصون أيضاً من أمراء إفريقية الخارجين عن طاعتهم ، وفى سنة ٤٤٣ هـ ظهرت طلائع قبائل البدو فى إفريقية بعد أن مرت ببرقة وطرابلس (١) .

وقد ظهروا بإفريقية فى وقت كانت الأحوال السياسية تمهد لنجاحهم وتوفيقهم ذلك أن القبائل الإفريقية صاحبة الدولة والأمر كانت قد أغرقت فى الترف ، واستمرأت الحضارة ، وفقدت روحها العسكرية ومقوماتها الحربية .

ولم يكن من المعقول أن تصمد أمام هذه القبائل البدوية الميالة إلى القوة النزاعة إلى العنف ، كما أن الإمارة التونسية انقسمت على نفسها ولم تستطع أن توحد صفوفها وتجمع كلمتها فى هذا الوقت العصيب ، لذلك انتصر العرب الهلاليون ، وهزمت الدولة الزيرية هزيمة ماحقة .

وكانت هذه الهزيمة عظيمة الأثر فى تاريخ إفريقية ، ذلك أن عرب القرن الخامس الهجرى كانوا يختلفون عن عرب القرن الأول أصحاب الرسالة والدعوة والإصلاح ، كان عرب القرن الخامس يغلب عليهم العنف والتمرد وعدم الخضوع لأى سلطان سياسى ، فما كادوا ينتصرون فى إفريقية حتى عاثوا فيها فسادا ، أفسدوا

---

(١) Marcais : Les Arabes pp, 55-56.

المزارع ، واقتلعوا أشجار الزيتون ونهبوا المدن وأحرقوها ، وأفسدوا الحقول المحيطة بها ، وحاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة فدخلوها عنوة وأعملوا فيها الدمار والخراب ، ثم أخذوا يزحفون غربا يهدمون مدن البلاد كما هدموا مدن إفريقية (١) .

وبعض الباحثين يشبه هذه الغارة الهلالية بغارات الجرمان على الدولة الرومانية فى القرن الخامس والسادس . وهذا التشابه فى النتائج التى ترتبت على كلا الغارتين ؛ قوض الهلاليون صرح الإمارة التونسية وأنشأوا إمارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضاً ، وتحيل البلاد إلى أتون ملتهب من الاضطرابات والفوضى ، ومن حيث أثر هؤلاء الأعراب الفاتحين فى حضارة البلاد .

وقد رأينا كيف أن ازدهار الثقافة العربية فى البلاد كان يستمد وجوده من عنصرين هامين : من الاستقرار والطمأنينة السياسية والاقتصادية ثم من الرخاء والترف وثراء الأمراء وإغداقهم على أهل العلم والأدب ، وتشجيعهم على المضى فى طريقهم المرسوم : وقد انهار العنصران ، عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى وتفرق شمل البلاد ، ونكبت إفريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر فى تاريخها كله .

وقراءة مصدر شبه معاصر لهذه الأحداث المفجعة مثل الدباغ (٢) صاحب كتاب معالم الإيمان يعطينا صورة صادقة لما تركته هذه الأحداث فى تاريخ الثقافة العربية فى البلاد .

فقد أصبحت القيروان ومدن إفريقية خرابا تلتهمها النيران وتحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة ، وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم ، فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة (٣) .

ولم يكن أمامهم إلا المغرب الأقصى فى ذلك الوقت ، فقد استقرت أموره السياسية ، وبدأت طلائع المرابطين فى صحراء المغرب تتأهب للوثبة الإصلاحية الكبرى .

بل إن بعض أهل إفريقية من المشتغلين بالعلم لجأوا إلى صقلية مثل أبى الحسن على ابن رشيق القيروانى صاحب كتاب زهر الآداب .

---

(١) Marcais : Les Arades p. 115.

(٢) معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٥٢

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩

كانت لهذه الأحـداث نتيجة واضحة كل الوضوح هي اضمحلال إفريقية (تونس) ثقافيا ورجحان كفة المغرب الأقصى ، فقد أصبح الملاذ الأخير للحركة العلمية في شمال إفريقيـة . ومن الغريب أن إفريقية لم تفق من هذه الصدمة التي ظلت آثارها ماثلة في البلاد طيلة العصور الوسطى وفي مطالع العصر الحديث .

وكأن الأحداث قد اصطلحت على أن تنال من إفريقية ومن ثقافتها العربية إلى أبعد حد :

ففي نفس الوقت تقريبا الذي كانت فيه جموع الهلاليين تطأ البلاد على الصورة التي عرضنا لها ، كان حوض البحر الأبيض المتوسط يشهد تطورا خطيرا سيكون له شأن عظيم في تاريخ الحياة الإسلامية ، ذلك أن السيادة البحرية التي أحرزتها الأساطيل الإسلامية ، في القرن الثالث والرابع الهجرى بدأت تنهار .

كان المسلمون قد وضعوا أيديهم على سلسلة من المواقع والجزائر التي لا بد منها لتتم لهم السيادة ، كانت لهم قبرص وكريت وصقلية ، وجزر البليار وسردانية :

وكانت ثغور المغرب والأندلس ، حافلة بالأساطيل المتحفزة للغزو ، واستطاع المسلمون دخول جنوة في سنتي ٩٣٥ و ١٠٠٤ م وأصبحت الأساطيل الإسلامية موضع رعب وفزع في كل مكان (١) .

غير أن سقوط الخلافة الأموية ، وتفرق أمراء الأندلس من ناحية ، ورحيل الأسطول الفاطمي إلى مصر ، من ناحية أخرى ، قد أضعف من قوة البحرية الإسلامية ، في الوقت الذي بدأت فيه معالم النهضة واتحاد الكلمة تلوح في سماء أوربا .

وبدأت جمهوريات إيطاليا مثل البندقية وجنوة وبيزة تطهر البحر من القراصنة المسلمين . وانتزعوا جزر البليار وسردانية من المسلمين ، بل ظهر النورمانديون في جنوب إيطاليا ، وتطلعوا إلى صقلية ثم وثبوا عليها وانتزعوها من المسلمين نهائيا (٢) .

وفقد المسلمون بفقدها معقلا من أمنع معاقلهم في البحر الأبيض .

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٥

(٢) Du Mas Latrie : Traités des paix et de Commerce p. 5.

أ - مدرسة فاس بالمغرب الأقصى :

وكانت أوضاع المغرب تهيئه فى هذا الوقت بالذات للزعامة السياسية والزعامة الثقافية ، ففى هذه البقعة من إفريقية تلتقى مؤثرات البحر الأبيض المتوسط القادمة من تونس والجزائر والأندلس بالمؤثرات الإفريقية الخالصة القادمة عن طريق ساحل المحيط الأطلسى . فى المنطقة الساحلية تسود المؤثرات الأوروبية وتنتشر المؤثرات الإفريقية فى الجنوب(١)

وفى الوقت الذى استنزفت فيه الأحداث موارد إفريقية وطاقتها البشرية والحضارية ادخرت ثروات المغرب الأقصى وشعوبه وطاقاته ليغلب على الأحداث منذ القرن الخامس الهجرى فصاعدا .

ومصداق ذلك أن القرن الخامس الهجرى الذى شهد مظاهر العنف التى خيمت على إفريقية شهد قبائل صحراوية كانت تنزل فى المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى ، كانت قد أسلمت حديثا وانبثقت من صفوفها حركة سلفية إصلاحية وحدت هذه القبائل ثم دفعتها نحو المغرب الأقصى تريد الإصلاح .

بل اندفعت فى تيار الجهاد وعبرت البحر إلى الأندلس ، وشاركت فى حروب الاسترداد ، وأوقفت عدوان الفرنجة ، وجمعت بين المغرب والأندلس فى دولة واحدة بزعامة مراكش .

وتزعم المغرب الأقصى الحياة السياسية فى بلاد المغرب كلها ، وكان لهذه الأحداث كلها أثرها الواضح فى تأكيد الزعامة الثقافية التى وضحت منذ اضمحلال مدارس إفريقية .

واستردت مدارس المغرب الأقصى مثل فاس وأغمات وسجلماسة(٢) قوتها ، بل ازدادت قوة عن ذى قبل .

ساعد على ذلك التوحيد بين المغرب والأندلس فتدفقت ثقافة الأندلس إلى المغرب طليقة من كل قيد ، بل تخطت هذه المؤثرات حدود المغرب إلى السودان الغربى ،

(١) Julien : Hist. de l'Afrique p. 17.

(٢) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف جـ ٢ ص ٢٦ .

واستقدم المرابطون العلماء والفنانين والفقهاء لحضور مجالسهم أو لتشييد عمائرهم أو لتأديب بنيهم .

وكتب الطبقات تصور(١) هذه العلاقات الوثيقة التى ربطت بين المغرب والأندلس فى عهد المرابطين ، فتتحدث عن أهل المغـــرب الذين وفدوا على الأندلس وألموا بمدارسه ، وجلسوا إلى فقهائه وعلمائه وأعلام أهل الفكر الأندلسيين الذين رحلوا إلى المغرب ، طافوا به ، أو أقاموا فيه يعلمون ويفقهون .

وقد أظلت بلاد المغرب والأندلس فى ذلك العصر نهضة علمية شاملة فى سماء الأدب ، فظهر ابن قزمان والأعمى التطيلى وابن زهر(٢) .

والأستاذ جورج مارسيه يعلق على هذه الوحدة التى تمت بين المغرب والأندلس بقوله « إن المغرب يقدم المقاتلة والأندلس يقدم العلم والفن الرفيع . المغرب أخضع الأندلس سياسيا لكن الأندلس أخضع المغرب ثقافيا(٣) » .

إذن اجتمعت فى بلاد المغرب الأقصى مؤثرات إفريقية التى فرت من غارات بنى هلال ، ومؤثرات الأندلس التى وفدت فى ظل المرابطين على نطاق واسع .

ومما يدل على أن تفوق المغرب الأقصى لم يكن واهى الدعائم أنه لم ينته بانتهاء المرابطين إنما زاد وضوحا فى عهد الموحدين .

والموحدون لم يكونوا أكثر من المرابطين حماسا ولا أكثر غلظة وبداوة ، لكنهم مضوا فى هذه النهضة الثقافية إلى غايتها .

فما كادوا يخلصون من حماسة ابن تومرت وعبد المؤمن حتى عملوا على تشجيع النهضة العلمية . ووصل هذا التشجيع إلى الذروة فى عهد أبى يعقوب يوسف الذى نشأ فى عاصمة الأمويين وتأثر بما شاع فيها من نهضة . وحينما عاد إلى مراكش اقتنى مكتبة لا تقل عن مكتبة الحكم المستنصر الأموى ، وقد أحاط نفسه بابن الطفيل وابن زهر وابن رشد ، وأعاد أمجاد الخلافة الأموية(٤) .

---

(١) انظر مثلا ابن الأبار : التكملة — ١ ص ٥٤ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩٦ ، ٢٥٠ ، ٢٩٠

(٢) المراكشى ص ١٥١ و ١٧٠ — ١٧١

(٣) Marcais : op. cit. p. 189.

(٤) المراكشى ص ١١٥

وإذا بزعامة المغرب الأقصى تبلغ الذروة ، فقد امتد نفوذ الموحدين إلى المغرب الأوسط ، وفتحوا إفريقية وطردوا النرمان من المهدية ، ووصل نفوذهم إلى طرابلس ، ولم يتخلفوا عن معركة الجهاد فى الأندلس ، وأصبحت مراكش عاصمة لامبراطورية شاسعة تضم الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط وإفريقية(١) .

وقد زادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية فقد أصبح قلب الحياة الإسلامية المغربية الخافق .

ولم ينتقص تفرق دولة الموحدين وانقسامها عام ١٢١٣ م من هذه الحقائق(٢) .

فإفريقية التى انفصلت عن دولة الموحدين واستقلت فى ظل بنى حفص لم تستطع أن تسترد مكانتها القديمة إطلاقا ، بل ظلت تبعيتها الثقافية للمغرب الأقصى واضحة طوال ذلك العصر .

والسبب فى ذلك أن جروح البلاد من الهلالية كانت لا تزال دامية . وكانت موجات عظيمة من هؤلاء البدو تتدفق على البلاد باستمرار .

وأصبح هؤلاء الأعراب فى البلاد قوة لا يمكن التغلب عليها ، والدمار الذى خلفوه فى الحياة الإقتصادية لم يمكن إصلاحه . يشهد بذلك الرحالة والجغرافيون الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر مثل العبدرى والدمشقى الذى يذكر أنه لم يبق من مدن إفريقية المأهولة إلا الدمار والخراب .

فى الوقت الذى كانت فيه المدن الساحلية لا تزال تهددها الأساطيل المسيحية ، بل تعرضت البلاد لحملة صليبية يقودها القديس لويس ، ولولا وفاته لخضعت البلاد للنفوذ الصليبى (٣) .

يدل على مبلغ اضطراب الحياة فى البلاد أن ابن خلدون فيلسوف الإسلام زارها فى القرن الرابع عشر . وهاله ما رآه من خراب ودمار فآوى إلى قلعته يفكر فى

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٣

(٢) G. Marcais : op. cit, p. 269.

(٣) Marcais : op. oit. p. 263.

ماضي الإسلام وحاضره ، وأنتج هذا التفكير مقدمته المشهورة . وهو لم يستطع الإقامة في قطر هذا حاله ، فرحل إلى مصر فعاش فيها ودفن بها .

حتى في ظل هـذا الاستقلال الذي نعمت به إفريقية في عهد الحفصيين ظلت تستلهم الوحي من المغرب الأقصى ، كان عمال بني حفص من المغرب الأقصى ، وأساليبهم في الحياة والحكم متأثرة بالتقاليد المغربية أو الأندلسية .

على حين ظلت الدول التي خلفت الموحـدين في حكم المغرب الأقصى أكثر إحساساً بهذا التفوق ، وأكثر حرصا على هذه الزعامة . فبنو مرين مثلا ما كادوا يخرجون من صحرائهم ويتم لهم الاستيلاء على البلاد . حتى خاضوا معركة الجهاد لنجدة ملوك غرناطة ، وأخـذوا يعملون بدورهم على بسط نفوذهم على المغرب الأوسط أحياناً وعلى إفريقية أحياناً أخرى (١) .

كما دافع الأشراف السعديون عن هذا التراث الإسلامي الذي أصبح يتركز في قاصية المغرب بعد سقوط غرناطة واستطاعوا بعد جهود متلاحقة أن ينظموا المقاومة الإسلامية ، وأن يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التي استولوا عليها (٢) ، وأن يؤدوا نفس الدور الذي أداه المماليك في مصر حينما صانوا تراثها الإسلامي من عدوان الصليبيين والمغول .

وكما حقق المماليك بهذا الدفاع المجيد زعامة مصر للعالم الإسلامي في الجناح الشرقي حافظ الأشراف السعديون على هذه الزعامة الثقافية التي توارثها دول المغرب الأقصى منذ أيام المرابطين .

كما استطاع خلفاؤهم الأشراف العلويون أن يجنبوا بلادهم الخطر الذي أصاب إفريقية في القرن السادس عشر خطر النفوذ التركي الذي تسرب إلى الجزائر ثم إلى تونس .

ذلك أن الساحل الإفريقي كله تعرض لعدوان الأسبان الذين أطمعهم انتصارهم على المسلمين في الأندلس ، فأرادوا أن يتبعوا هذا النصر بالإغارة على مراكز المقاومة الإسلامية نفسها ، فاستولوا على معظم ثغور طرابلس وتونس والجزائر .

---

(١) روض القرطاس ص ١٧٨

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc , vol, II, p. 158.

واستولى البرتغاليون على بعض ثغور المغرب الأقصى ، وتعرض أهل الجزائر على الخصوص فوق هذا العدوان لغارات القراصنة الأوروبيين ورأوا أنه لا معصم لهم من هذا العدوان إلا إذا استنجدوا بالقرطانين عروج وأخيه خير الدين بربروسة ، اللذين ذاع صيتهما وعلت منزلتهما بين أهل المغرب لما أظهراه من تفوق في مقاومة القراصنة الأوربيين . فدعوا الأخوين إلى إنقاذهم وتحرير بلادهم ، فانتقلوا من القرصنة إلى الاستقرار والتملك معتمدين على القوة البحرية ورضاء أهل الجزائر .

ولما مات عروج انفرد بالبطولة خير الدين فقام بمهاجمة فلول الأسبان التي تحصنت ببعض القلاع في الجزائر واستولى عليها ، وأخذ يمد ملكه شرقاً وغرباً .

ولكنه رأى تثبيتاً لسلطانه وإكسابه الصبغة الشرعية عرض هذا الملك على السلطان العثماني ، فقبل أن توضع الجزائر تحت سيادته ، كما عرض عليه الاستيلاء على تونس منتهزاً فرصة قيام فتن أهلية وحروب داخلية بين آخر أمراء بني حفص .

وقد لبى السلطان رغبة خير الدين ، وأمده ببعض السفن الحربية ، وتم فتح تونس سنة ١٥٣٤ ، وعاود الأسبان عدوانهم مرة أخرى ، غير أنهم ردوا على أعقابهم سنة ١٥٧٤ .

واستولى العثمانيون على تونس نهائيا ، كما امتد هذا النفوذ إلى برقة وطرابلس ، وأصبح النفوذ العثماني ممتدا من الجزائر غربا حتى مصر شرقا .

وقد وفدت إلى موطن الحضارة الإسلامية في المغرب المؤثرات التركية ، ورد الانكشارية والجند وظهر الأثر التركي في التنظيمات الإدارية والعسكرية وأصبحت التركية لغة الدواوين ولغة الحكومة (١) .

وأظل المغرب القرن التاسع عشر وقد تركزت ثقافة الإسلام وتراثه في بلاد المغرب الأقصى : ثقافة الأندلس التي طردت من أسبانيا ، وثقافة إفريقية التي أخذت تتجه غربا منذ غارات بني هلال .

---

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي جـ ١ ص ٧ وما بعدها .

الثقافة العربية في المغرب في القرن التاسع عشر

(دور الاصلاح)

وقد انفعلت بلاد المغرب مع أحداث العالم الإسلامى عامة والعالم العربى خاصة التى وضحت فى القرن التاسع عشر .

ولم يكن غريباً أن تتجاوب هذه البلاد مع هذه الأحداث وهى جزء من الوطن العربى الكبير .

تعرض المغرب لنفس الظروف وقاسى من نفس العلل واستجاب لنفس التطورات وكما أحس المشارقة بما أصابهم فى ظل الخلافة العثمانية . كان المغاربة أكثر إحساساً ، فقد عانت تونس والجزائر من النفوذ التركى ، وعانت ثقافتها الإسلامية كما عانت مصر .

فقد كانت تونس فى دائرة النفوذ التركى منـذ أن فتحها خير الدين ، وعند ما ضعفت الدولة العثمانية ازدادت سلطة الحامية الإنكشارية فانتقلت السلطة العليا إلى الداى الذى كان ينتخب من بينهم .

وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر انتخب العسكريون من بينهم حسن بن على الذى اتخذ لنفسه لقب باى .

ولم تكن حال الجزائر أحسن من حال تونس ، وتعرض المجتمع العربى للعدوان الاستعمارى ، تعرض لعـدوان البرتغـاليين والأسبان ثم تعرض لعـدوان الفرنسيين .

كانت أول محاولة لفرنسا عام ١٥٤٠ حين قام الإمبراطور شارل الخامس بحملة مكونة من أسطول كبير لا يقل عدده عن خمسماية سفينـة حربية وأربعة آلاف مقاتل .

وتجددت أطماع فرنسا فى الجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر إلى أن حدث النزاع المشهور بين الداى وبين قنصل فرنسا فى ٢٩ إبريل سنة ١٨٢٧ .

وأرسلت الحكومة الفرنسية أسطولا حاصر ميناء الجزائر وأنزلت قوات فرنسا

عام ١٨٣٠ ، وثبتت فرنسا أقدامها فى البلاد بعد القضاء على ثورة عبد القادر سنة ١٨٤٧ ، ثم زحف النفوذ الفرنسي نحو الجنوب متصـلا بالنفوذ الفرنسى فى غرب إفريقية .

ورأى المغاربة كما رأى المشارقة من قبلهم نفوذاً عثمانياً متداعياً لا يمكن أن يقيهم هذا الشر المستطير ، وفساداً عثمانياً يتطرق إلى صميم حياتهم ثم ثقافة غربية وافدة فى ركاب الاستعمار تختلف عن ثقافتهم الإسلامية .

فنشأت حركات للإصلاح تصب فى نفس المجرى الذى صبت فيه حركات الشرق بل تكاد أن تتفق معها فى وسائلها وأهدافها ، فظهرت مدارس تختلف فى منهجها من حيث النهوض بالدين الإسلامى ، مدرسة تريد أن تحيى القـديم وأن تعيد إلى الإسلام قوته الأولى وأمجاده الأولى ، وتقف من الغرب موقف العداء ، ومدرسة أخرى تريد أن تجدد فى الحياة الإسلامية وأن تلائم بين تقاليد الإسلام وبين حضارة الغرب وتقاليده .

المدرسة الأولى تمثلت فى السنوسية التى أسسها السيد محمد بن على السنوسى فى بنغازى (١) عام ١٨٥١ .

وقد استلهم — كما قلنا — أفكاره من الوهابيين فدعا إلى بعث العقيدة الإسلامية وتجديدها بالعودة إلى إيمان أصيل فى بساطته ونقائه وقوته .

قلد السنوسيون الوهابية فى عملهم على توطين البـدو وتحويلهم إلى زراع مستقرين .

كانت الزاوية نواة هذا الاستقرار ، كل زاوية تمثل وحدة اقتصادية مكتفية بذاتها حيث يفلح أعضاء الطريقـة الأرض ويعيشون على ما تغله ، ثم هى مركز للتعليم والدعوة يخرج منها الدعاة إلى مختلف الجهات لنشر الطريقة وإذاعتهـا بين الناس .

---

(١) ولد أبوه سنة أربع أو خمس بعد المائتين والألف بصحراء مستغانم من أعـمال الجزائر ونشأ فيها وطلب العلم بمدينة فاس واشتغل بالطريقة الدرقاوية ثم رحل إلى مكة فلقى بها الأستاذ أحمد بن أدريس الشريف الفاسى المشهور وأخذ عنه الطريقة الصوفية من فرع الشاذلية تبرع فيها فأحبه أستاذه المذكور واستخلفه وأذن له فى إعطاء العهود فبنى زاوية بجبل أبى قبيس بمكة ، ثم رحـل إلى الجبل الأخضر من طرابلس سنة ١٢٥٠ هـ .

فكانت محاولة القضاء على بدع العصر بالدراسة العميقة للأصول ، والعودة إلى الإسلام الأول ، ثم محاربة التخاذل واليأس الذى ران على قلوب المعاصرين بالدعوة إلى العمل الجاد المخلص ، ثم هى رفع لمستوى المعرفة الدينية بالتعليم الدينى الصحيح ، ثم هى دعوة إلى الإسلام وإذكاء الرغبة فى الجهاد .

وقد كان لهذه الدعوة صدى عميق فى الأوطان التى تسربت إليها ، فأغلب هذه الزوايا كانت تقع على طرق القوافل فكانت تقوم بواجب الضيافة بلا مقابل لمدة ثلاثة أيام ، فأصبحت ملتقى التجار والمسافرين من أنحاء بعيدة فى إفريقية .

وكان الطلاب يفدون إلى مدارس الزوايا لتلقى العلوم الدينية ، ثم يعودون من حيث أتوا لنشر المبادىء التى تعلموها ، فهى أشبه بحركات المرابطة التى شهدها تاريخ المغرب فى القرن الخامس الهجرى .

ولما مات السيد محمد السنوسى خلفه ابنه السيد المهدى سنة ١٨٥٩ . وانتشرت الدعوة فى عهده فى برقة وطرابلس ، وامتدت نحو الصحراء الغربية ، وأصبح لها أتباع ومريدون فى مصر وتركيا والهند .

ولم ترض تركيا عن حركة مخلصة تهدف إلى الإصلاح ، فبدأت تحاربها وتعمل على إخمادها ولما شعر المهدى السنوسى بذلك انتقل إلى واحة جغبوب ثم غادرها سنة ١٨٩٤ إلى الكفرة وزادت الحركة السنوسية انتشاراً ، واصطدمت بالاستعمار الفرنسى سنة ١٩٠٠ .

أما المدرسة الأخرى فقد ظهرت فى تونس ، فكان صاحبها الوزير الشهير خير الدين باشا ، الذى ظهر فى تونس فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى عهد الباى أحمد ، والذى عرف فيه اخلاصه وصدق بصيرته ، فأوفده إلى إلى أوربا للدفاع عن مصالح بلاده ، ولما عاد عينه وزيراً للحربية ، فبدأ يطبق مبادئه فى الإصلاح .

وكان أشد تأثراً بمبادىء مدحت باشا ومدرسته ، التى ترى أن الخطوة الأولى فى أى إصلاح هى وضع دستور ، أساسه الشورى فى الحكم ، تمكن الدولة من أن تبنى قواعدها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية على أسس طيبة تحفظ كيان الدولة وتجعلها تقف على المستوى الذى تقف عليه الأمم الأخرى .

كان منهج خير الدين فى الإصلاح يقوم على الأسس الآتية : العدالة ، والحرية والمساواة ، والعلم .

عمل على تحقيق الأساس الأول بمحاولة النظر شخصيا فى شكايات الناس ، وروى أنه أقام صندوقا فى الساحة العامة فى تونس ليضع فيه كل مظلوم شكواه .

كما نجح فى معالجة الانهيار الاقتصادى الذى كانت تعانيه البلاد ، وعالج مشاكل الفلاحين الذين يفرون من مزارعهم فزعا من جباة الضرائب .

أما الحرية فقد عمل على تحقيقها بإدخال نظام الشورى ووضع دستور مجلس الدولة التونسى : هذا الدستور الذى علق عليه نابليون الثالث بقوله « إذا تعود العرب على الحرية والعدالة ، فلن يكون بيننا وبينهم سلام فى الجزائر » .

أما العلم فكان فيه مجددا إلى أبعد مما ذهب إليه المجددون فى مصر ، كان يريد أن يجمع العلوم الإسلامية والحديثة فى صعيد واحد ، فأنشأ مدرسة تدرس فيها العلوم الإسلامية إلى جانب العلوم الحديثة واللغات الأوربية ، وأصلح جامع الزيتونة وجمع له مكتبة عظيمة من مختلف مساجد البلاد كما أهداه مكتبته الخاصة .

وكان لا يؤمن بالطفرة أو الانتقال المفاجىء ، إنما يؤمن بأنه من الممكن أن تخطو تونس فى طريق الإصلاح جامعة بين ثقافتها وعروبتها وبين موارد العلم الحديث .

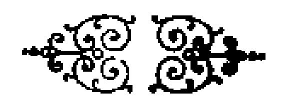
ولكن هذه المحاولة المخلصة فى الإصلاح لم يقدر لها أن تستمر ، فقد عزل خير الدين باشا ، وترك تونس ، لكنه ترك منهجا فى الإصلاح والنهوض بالمجتمع الإسلامى لا يزال يلهم الوطنيين من أهل البلاد .

هذه المبادىء ضمنها كتابه المشهور « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » بحث فى مقدمته حال البلاد الإسلامية ، وأسباب انحطاطها ، وكيفية إصلاحها .

وهو يقول « بأن المعرفة هى أساس التقدم ، وأن العلم والمعرفة لا يمكن تحقيقهما إلا فى مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وليس هناك ضمان لبقاء حكم العدالة والحرية إلا بواسطة المؤسسات التمثيلية ، وألح على إدخال النظم النيابية ، واعتبر ذلك حجر الزاوية فى إصلاح البلاد الإسلامية . وكان من الممكن أن تبقى مبادئه

بعد رحيله ، وأن ينفذها غيره ، لولا الاحتلال الذى دهم تونس فقضى على هــذه المحاولة المخلصة فى الإصلاح .

والمغرب الأقصى ، رغم العزلة التى ضربت نطاقها حوله منذ القرن السادس عشر الميلادى ، امتد إليه بصيص من هذه التيارات التى كانت تجتاح العالم الإسلامى المعاصر ، فقد بذل سلاطين مراكش محاولات للانتفاع بنظم الغرب العسكرية على الأقل ، فاستعانوا بالبعثات الفرنسية لإصلاح أحوال البلاد ، وتدريب جيشها ، خصوصا فى عهد السلطان مولاى الحسن (١٨٧٣ — ١٨٩٤) الذى عين عددا من الضباط الفرنسيين لتدريب الجيش على النظم الحربية الحديثة .



٤ – دور مصر وبلاد المغرب فى انتشار الاسلام فى إفريقية

عرضنا لانتشار الإسلام وتفوق الثقافة العربية فى مصر وبلاد المغرب فى الفترة التى حددناها فى الباب الأول من الكتاب ، وهى الفترة الممتدة من تمام الفتح حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ونحن لا ننكر أن بلاد شمال إفريقية كانت ولاتزال تتفاعل مع دنيا البحر الأبيض المتوسط ، وتتأثر بما يشيع فيه من حضارات ، وأن تاريخ مصر والمغرب يعتبر من هذه الوجهة جزء من تاريخ حوض البحر الأبيض .

ولا ننكر أن الصحراء الكبرى تضرب حول هذا الإقليم نطاقاً وتكاد تجعله دنيا منفصلة .

غير أن مصر وبلاد المغرب لم تكن أبداً فى عزلة عن بقية القارة ، إنما كانت تتأثر بها وتؤثر فيها وهذا الأثر المتبادل وضح فى العصور الوسطى والحديثة ، وهو أشد وضوحاً بين الجماعات الإسلامية التى تعيش فيها .

فمصر مثلا تتصل بوادى النيل الواقع جنوباً منذ القدم ، عبر الطريق الذى يتجه جنوباً بشرق من أسوان وكورسكو عبر أوطان البجة الموازية للبحر الأحمر ، غير أن أهمية هذا الطريق محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى .

إنما أكثر هذا الاتصال كان عبر الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة ثم يتشعب غرباً من كورتى على طول وادى مقدم وعبر الدبة على طول وادى الملك إلى كردفان ، ثم يمضى إلى دارفور وما يليها غرباً وجنوباً ، أو يسير جنوباً مشاطئاً للنيل حتى الأتبرة والنيل الأزرق .

كما تتصـــل مصر ببلاد السودان عن طريق درب الاربعين ، بل اتصالها يجاوز السودان غرباً إلى منطقة بحيرة شاد وشمال نيجيريا (١) .

---

(١) مصطفى مسعد : ممالك النوبة ص ٣٠٢ – ٣٠٤ .

وبلاد المغرب تتصل اتصالا مماثلا ووثيقاً بغرب إفريقية - كما أشرنا - عن ثلاثة طرق : طريقان فى الغرب وواحد فى الشرق ٠

الطريقان الاولان يخترقان المنطقة الواقعة إلى الغرب من النيجر ، وهما يبدآن من تافللت جنوب مراكش ثم يفترقان عند الحريب ، فيمضى الطريق الاول إلى مناجم الملح فى تغزة ، ومنها إلى غانة مساحلا للمحيط ، ويمضى الآخر إلى أودغست ومنها إلى تنبكت .

أما الطريق الشرقى فيبدأ من أوجلة بطرابلس ماراً بمنطقة التبو ، ويتشعب شعبتين واحدة تمضى إلى بحيرة شاد ، والاخرى إلى منطقة النيجر (١) .

إذن فقد كان اتصال كل من مصر وبلاد المغرب بما وراءها من البلاد حقيقياً وواضحاً .

ونحن نريد هنا أن نبين فى إيجاز الدور الذى قامت به مصر والمغرب فى انتشار الثقافة الإسلامية إلى ما وراء حدودها .

وإن كان هذا الدور سيتضح بصورة أوفى وبمزيد من التفصيل فى الأبواب القادمة المخصصة لغرب إفريقية وشرقها .

وكل مانريد أن نمضى إليه هو أن نثبت أن الوطن الإسلامى كان ولا يزال متصل الحلقات يؤثر بعضه فى بعض ويتأثر بعضه ببعض .

علاقة مصر ببلاد النوبة والسودان :

أما مصر فإن أثرها الثقافى فى المناطق الواقعة إلى الجنوب منها قديم العهد ، قديم قدم الحضارة المصرية نفسها .

فقد اتصلت ببلادالنوبة والسودان وبشرق إفريقية ، بل إن الاستاذ ميك Meek (٢) يرى أن أثر مصر الفرعونية قد جاوز بلاد السودان الشرقى إلى شمال نيجيريا نفسها ،

---

(١) Hogben : op. oit. p. 25.

(٢) Meek : op. cit. vol, I, pp. 59-60.

وأن شعوب هذا الجزء من إفريقية قد تأثرت بالحضارة المصرية القديمة فى عادات الدفن وبعض العقائد وفى بعض ألوان من فن البناء .

بل يرى أن مصر إتصلت بغرب إفريقية عن طريق البحر ، فقد شارك نحاو الفينيقيين فى الرحلات البحرية التى قاموا بها فى هذا الجزء من العالم، بل إن بعض التأثيرات الفارسية قد انتقلت من مصر إلى بعض جهات إفريقية (١) .

وعندما انتشرت المسيحية فى مصر وتأكد انتشارها دخلت بلاد النوبة وشرق إفريقية ، وقد رأينا كيف أن بصيصاً من هذه التأثيرات المسيحية قد وصل إلى منطقة بحيرة شاد وشمال نيجيريا (٢) .

فلم يكن من المعقول أن يقطع الإسلام هذه الصلات القديمة ، بل كان المعقول أن يتسرب الإسلام عبر هذه المسالك التى تربط مصر بإفريقية كما تسربت عبرها الثقافات القديمة .

وقد كان لمصر دور بارز وأثر واضح فى انتشار الإســلام فى بلاد النوبة والسودان وشرق إفريقية وغربها فى الفترة التى حددتها .

وهو دور كانت تختلط فيه العوامل السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية .

أما عن علاقات مصر ببلاد النوبة والسودان وأثر هذه العلاقات فى انتشار الاسلام فإننا فى الفترة الممتدة من القرن السابع إلى آخر التاسع عشر نستطيع أن نميز فى هذه العلاقة بين عهدين لكل منها طابعه ونتائجه فى انتشار الإسلام والثقافة العربية .

العهد الأول يمتد من الفتح العربى لمصر حتى الفتح المصرى للسودان . والعهــد الثانى يمتد من الفتح المصرى للسودان حتى اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا .

فى العهد الأول كانت علاقة مصر الرسمية لاتتعدى حدود النوبة جنوبا على طول وادى النيل ، أو نشر نفوذ مصر فى الصحراء الشرقية حتى منطقة سواكن .

---

(١) Meek : vol. I, pp. 39–60.

(٢) Palmer : pp. 4, 110, 131, 148, 170, 176, etc.

والدول التي تعاقبت على حكم مصر لم تتخذ سياسة مرسومة للتوسع صوب الجنوب ، أو نشر الإسلام فى ربوع النوبة أومجاوزة هذا النطاق إلى الجنوب .

فعبد الله بن سعد الوالى العربى فى مصر فى فورة التوسع والاندفاع يمضى نحو الجنوب ، وينتصر على ملك النوبة ولكنه لايريد أن يتوغل نحو الجنوب إنما يعود من حيث ذهب .

كانت علاقة مصر ببلاد النوبة بعد عبد الله يتحكم فيها عاملان . معاهدة البقط التى عقدها عبد الله بن سعد مع ملك النوبة والتى نظمت العلاقات السلمية والتبادل التجارى بين البلدين وضمنت لمصر موردا منتظما من الرقيق والتى ضمنت لأهل النوبة سوقا لتجارتهم وموردا منتظما من القمح وسلع مصر الأخرى . وأصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدول الإسلامية فى مصر سوقا كبيرا أو منطقة نفوذ إسلامية .

كانت العلاقات تجنح إلى الهدوء والمسالمة كلما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية .

ويمكننا أن نعزو ما نقلته المراجع من سوء للعلاقات بين الطرفين إلى نقض اتفاقية البقط هذه من أى الطرفين .

وكان نقضها فى الغالب يجىء من ناحية ملوك النوبة ، فبعضهم لم يرض عن هذة المعاهدة ، وإن رضوا بها فقد رضوا كرها أو خوفاً . كما وجد بعضهم فى ما تشترطه المعاهدة من توريد الرقيق نوعاً من المهانة ، فكانوا يمتنعون عن الوفاء بهذا الشرط .

وكانت الدول الإسلامية فى مصر لا تتردد فى إرسال الحملات التأديبية المتعاقبة . ويمكننا أن نسرد أغلب الحملات التى أرسلتها مصر منذ الفتح حتى العصر المملوكى لهذا السبب ، حملات الأخشيديين والفاطميين ثم حملة صلاح الدين المشهورة حينما أرسل أخاه توران شاه سنة ٥٦٨ هـ على رأس جيش توغل حتى بلدة إبريم (١) . وكان ملوك النوبة يردون على هذه الحملات كلما واتتهم الفرصة .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٧٦ .

والعامل الثانى الذى كان يتحكم فى هذه العلاقات ويوجهها الصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر .

فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبى، فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية فى الإسكندرية ، وكان بطريرك مصر يشمل تلك البلاد برعايته الدينيــة ، ويرسل الأساقفة أو يتوسط لإعادة الطمأنينة والمحبة بين ممالك النوبة .

وكانت كنيسة مصر خاضعة للنفوذ الإسلامى طوال هذا العهد ، فكانت علاقة الدولة بالكنيسة تتأثر إلى حد كبير بعلاقة مصر بالدول المسيحية فى بلاد النوبة . فكلما ساءت العلاقات رد الولاة هذا السوء إلى البطريرك وحملوه المسئولية وطلبوا إليه إصلاح ذات البين (١) .

ويبدو أن الكنيسة القبطية فى مصر كلما تعرضت لحملة من الاضطهادات أو المضايقة استنجدت بملوك الحبشة أحياناً أو ملوك النوبة أحياناً أخرى .

وكانت اضطهادات الأحباش للمسلمين أو غارات ملوك النوبة هى من قبيل الثأر لما توهموه من اضطهاد الأقباط فى مصر .

لــكن علاقات مصر ببلاد النوبة فى العصر المملوكى جدت عليها عوامل أخرى بالإضافة إلى العوامل السابقة جعلت الحملات العدوانية بين الطرفين تتخذ طابعاً عنيفاً مما سيكون له أثر واضح فى تاريخ انتشار الإسلام فى بلاد النوبة والسودان .

إذ يبدو أن ملوك النوبة أرادوا أن يحاربوا مصر فى العصر المملوكى حربا اقتصادية عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب ، هذه التجارة التى ازدهرت فى العصر المملوكى .

وكان هذا التحدى بالنسبة للمماليك بالغ الخطورة إذا عرفنا ما أصبح للتجارة من مكانة فى الحياة الاقتصادية لمصر فى العصر المملوكى .

كما أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة قد اتخذت طابعا صليبيا أو كانت جزءا من الحملة الصليبية العامة التى تبناها المماليك بعد الأيوبيين .

---

(١) Lane – Poole : Hist. of Egypt p. 197.

وتلوح من المراجع اتجاهات ملك النوبة إلى التعاون مع القوى الصليبية فى الشام فقد انتهز ملك النوبة فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه فى مملكة أرمينية الصغرى سنة ١٣٧٢(١) وهاجم أسوان وعيذاب وأحدث من الأفعال المتكررة ما يدل على الرغبة فى التشفى من المسلمين ، الأمر الذى يخرج بهذه الحملات عن طابعها القديم .

وقد أدرك المماليك هذا الخطر الصليبى الكامن فى الجنوب وأدركوا احتمال طعن النوبيين للمصريين من الخلف وهم منصرفين إلى دك مابقى من قلاع الصليبيين بالشام .

ومن هنا ازداد الاهتمام المملوكى بالنوبة كمظهر لسياسة الدفاع عن حدود مصر وحماية ظهرها . وبدأت الحملات المملوكية تتخذ الطابع العسكرى العنيف .

وسعى المماليك فى نفس الوقت إلى بسط نفوذهم على قبائل البجة الضاربة فى منطقة الصحراء الشرقية الممتدة من القصير إلى سواكن .

وكان اهتمامهم بهذه تجاريا ، فإن هذه البعثة فضلا عن غناها بالمناجم إلا أنها كانت معبراً من معابر التجارة بين مصر والحبشة .

تنقل المتاجر بالبحر حتى عيذاب • ثم تحمل منها إلى قوص ، فأصبحت هذه المنطقة من أهم المناطق فى طريق تجارة التوابل .

وكان ملوك النوبة كثيرا ما يحرضون ملوك البجة ويدفعونهم إلى مضايقة الحكومة القائمة بمصر عن طريق التعرض للقوافل المارة ببلادهم .

وهذا هو الذى اضطر بيبرس إلى بسط سلطانه الفعلى على هذه البلاد ، حين أرسل الحملة المشهورة إلى عيذاب وسواكن .

كما أرسل المماليك حملات أخرى سنة ٧١٥و٧١٦ هـ ، وخضع صاحب سواكن وأصبح نائبا عن السلطان المملوكى ، ويقال إن الحملات المملوكية وصلت إلى وادى أتبرة .

هذه الحملات كلها تمخضت عن نتائج خطيرة فى تاريخ الإسلام فى النوبة والسودان ، عن إضعاف مملكة دنقلة المسيحية ، وفى القضاء عليها وما أعقب ذلك من تدفق العرب صوب الجنوب .

---

(١) السلوك : جـ ١ ص ١٢٦ .

بل شهد العصر المملوكى الأخير تطوراً آخر ، ففى سنة ١٥٠٤ سقطت مملكة علوة نهائياً بسبب التحالف الذى تم بين القواسمة وهم من رفاعة مع قبائل الفنج الذين ظهروا من الجنوب فجأة .

على كل حال نستطيع أن نقول إن العهد المملوكى فى مصر بوجه خاص قد أسهم بطريق غير مباشر فى انتشار الإسلام فى بلاد النوبة ثم فى السودان .

لقد أدت حملاتهم المتعاقبة إلى إضعاف مملكة دنقلة ثم القضاء عليها ، وكان القضاء على دنقلة يفتح الطريق أمام القبائل العربية التى بدأت تطرق باب النوبة منذ العصر الفاطمى لتساهم بدورها فى القضاء على مابقى من نفوذ بدنقلة ، ثم لتمضى فى طريقها نحو الجنوب .

ثم أدت سياستهم إلى اضطهاد القبائل العربية فى صعيد مصر ، ثم دفعها إلى بلاد النوبة .

كما أدت السياسة الداخلية والدينية للدول الإسلامية فى مصر إلى هجرة كثيرين من الفارين أمام الضغط السياسى أو الدينى صوب الجنوب بحثا عن المرعى وجريا وراء الرزق ، وانتشرت فى سهول السودان ، ومضت جنوبا نحو سنار ، ودخل بعضها كردفان ودارفور (١) .

هذه الهجرات العربية التى تدفقت من مصر استطاعت أن تفتح طريق الاتصال المباشر بين مصر والسودان عبر بلاد النوبة بعد أن سقطت الممالك المسيحية ، فى الوقت الذى شهد السودان قيام ممالك إسلامية فى سنار ودارفور .

فانفسح المجال أمام الثقافة الإسلامية التى كانت قد بلغت الغاية فى مصر فى أواخر القرن الخامس عشر لتتسرب إلى السودان طليقة من كل قيد ، فتطلع ملوك الفونج إلى الأزهر وعلمائه ورجاله .

وكان بعض السودانيين يذهبون إلى الأزهر ويعودون بعد تحصيل العلم وكان لهذا كله أثر واضح فى انتشار الثقافة العربية فى السودان .

وفى طبقات ود ضيف الله تفاصيل كثيرة عن العلماء المصريين الذاهبين إلى السودان أو رجال السودان الراحلين إلى مصر .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٣١ - ١٣٢ .

وقد أثرت مصر في السودان في ميدان المذاهب والفقه (١) ، فمثلا محمد بن قدم الكيمياني المصرى هو الذى أدخل المذهب الشافعي (٢) . حتى مذهب مالك نفسه رغم أنه دخل السودان من الغرب إلى دارفور ومنها إلى بلاد الفونج ، إلا أن دراسة المذهب ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى ، وقد انتقلت إلى السودان على أيدى رجال الأزهر .

ويلاحظ أن الأثر المصرى تميز بالطابع العلمى لأن الذين تأثروا بالثقافة المصرية فى ذلك العهد اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم .

وكما اتصلت مصر بالفونج اتصلت بدارفور اتصالا وضح فى عهد السلطان عبد الرحمن ، وليس ببعيد أن يكون قد رحل بعض علماء مصر إلى هذه البلاد كما رحلوا إلى سنار (٣) .

غير أن القرن التاسع عشر شهد تطوراً هاماً فى تاريخ العلاقات بين مصر وبلاد السودان وفى أثر ثقافة مصر فى وادى النيل كله ، فقد بدأت حكومة مصر لا تنظر إلى بلاد النوبة فحسب ، إنما تنظر إلى ما هو أبعد من النوبة نظرة غير سلبية كما كانت أيام المماليك إنما نظرة إيجابية .

فقد أخذت جيوش محمد على تدخل السودان للفتح والتوسع : ففتحت بلاد النوبة وقضت على الإمارات والمشيخات التى قامت بالبلاد ، إما مستقلة بشئونها أو خاضعة لنفوذ الفونج .

ثم دخل المصريون بربر ، وبدأوا يغزون الفونج فى معاقلهم وأوغل الفتح حتى سنار جنوباً ، وفتحت هذه المدينة فى ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ .

بل بدا أن المصريين يريدون مجاوزة سنار فى طريقهم إلى الجنوب . فابراهيم ابن محمد على كان يعد نفسه القيام بحملة فى بلاد الدنكا لولا أن مرضه عاقه عن مواصلة الزحف (٤) .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد : التعليم فى السودان ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ .
(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٠ .

وأوغل الفتح المصرى فى كردفان ، وبدأ يصطدم بسلاطين دارفور . وامتد نفوذ محمد على صوب الشرق إلى منطقة كسلا وخضع السودان للحكم المصرى المباشر منذ تمام الفتح حتى قامت الثورة المهدية فى ١٢ أغسطس عام ١٨٨١ .

وأول ما حققه هذا الفتح أنه قضى على العزلة التى كان السودان يعيش فيها وأعاد صلته بدنيا البحر الأبيض المتوسط وبقية العالم الإسلامى والعالم الأوربى ، وأهم من هذا أن هذا الفتح بقضائه على الإمارات والمشيخات والممالك كتل القوى الإسلامية فى البلاد ، وجمع بين التيارات الإسلامية الوافدة من الشرق والغرب فى نظام سياسى موحد .

وكان الفتح المصرى بعثا للقومية السودانية الحديثة حين استطاع أن يجمع بين مناطق مختلفة مناخياً وطبيعياً وبشرياً ، وأدخلها فى إطار سياسى موحد ، واستطاعت القبائل العربية أن تنتقل فى حرية مطلقة .

فكأن الفتح المصرى أتاح للنفوذ العربى أن ينتشر على مدى أوسع ، على حين كانت الحواجز السياسية قبل الفتح تحد من هذا التجوال ، واستطاعت هذه القبائل أن تتعاون وتقترب وتمتزج ، فساعد الحكم المصرى على وحدة الدم العربى فى السودان ، بل استطاع بوسائله المتواضعة أن ينشر فى البلاد نوعاً من الأمن والطمأنينة Pax Aegyptiana وأن ييسر بقدر المواصلات بين أرجاء السودان وأن يقضى على المنازعات الداخلية بين القبائل وأن يهيء السودان ليظهر كقوة كبرى فى تاريخ الإسلام .

وكسب الحكم المصرى للإسلام منطقة جديدة لم يكن يتيسر له أن ينفذ إليها ؛ فقد بدأ النفوذ المصرى يتجاوز سنار نحو الجنوب متجها إلى أعالى النيل والمناطق الاستوائية ، خصوصاً فى عهد الخديوى إسماعيل بمعاونة صمويل بيكر وغردون ، وضمت مصر المديريات الاستوائية وأعالى النيل ، وفتحت هذه المناطق أمام الجهود المنظمة لنشر الإسلام (١) .

ووقوع الفتح المصرى فى القرن التاسع عشر عصر التجديد والإصلاح كان معناه

---

(١) نعوم شقير جـ ٣ ص ٣٧ – ٣٨ .

إعادة صلة السودان بالمجتمع العالمي الدولي ، وظهر هذا الاهتمام بتدفق الرحالة والمكتشفين بعد الفتح المصرى .

وحمل الفتح إلى السودان الظاهرة التى شاعت فى العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، ظاهرة الالتقاء بين الثقافة العربية والثقافة الغربية .

نقد حمل المصريون إلى السودان تجاربهم فى الإصلاح والإفادة من علوم الغرب .

وأصبحت الصلات الثقافية بين القطرين أشد وثوقاً ، وتدفقت الثقافة الإسلامية طليقة من كل قيد . . يتمثل ذلك فى رحيل كثيرين من العلماء المصريين وإقامتهم فى السودان ؛ واشتد رحيل السودانيين عن ذى قبل طلبا للعلم فى الأزهر وأصبحت الأروقة فى هذا العهد تحفل بالقادمين من سنار وبربر ودنقله ودارفور وقدمت مصر المنح المالية للطلاب ؛ وأنشأت رواق السنارية وأروقة أخرى للتكارنة والبرناوية والدناقلة وأهل دارفور(١) .

وأثرت هذه الصلات القوية فى التعليم الدينى ، وأنشئت مدارس للعلم لتدريس العلوم العربية يغذيها علماء السودان الذين تعلموا فى مصر ، وأصبحت مدينة الخرطوم مركز الحركة العلمية .

وبدت فى السودان طلائع حركة علمية جديدة يصورها ما حفلت به أخبار ذلك العهد من مناقشة بين الفقهاء فى المشاكل الاجتماعية المعاصرة .

بل امتد أثر مصر إلى الطرق الصوفية ، ساعدت بعض الفرق على دخول السودان كما شجعت فرقا أخرى على الانتشار .

وامتد الأثر المصرى إلى التعليم المدنى الحديث الذى شهدته مصر فى عهد محمد على ، هذا النوع من التعليم دخل إلى السودان لأول مرة فى تاريخه (٢)

علاقة مصر ببلاد الحبشة وشرق إفريقية :

اتصال مصر ببلاد الحبشة وشرق إفريقية لم ينقطع منذ القدم غير أن صلة مصر بهذه البلاد ستترثق إلى أبعد الحدود ؛ ابتداء من القرن الرابع الميلادى

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد : حـ ١ ص ١١٣ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : التعليم فى السودان حـ ١ صـ ١٣ — ٢١ .

على وجه الخصوص ، فقد انتشرت المسيحية فى بلاد الحبشة ، وانتشرت فى مصر فى نفس الوقت .

بل أصبحت كل من كنيسة الحبشة ومصر متصلتين أشد الاتصال ، فكلاهما تستوحى تعاليمها من المذهب اليعقوبى ، وكانت كنيسة الحبشة فى الحقيقة تابعة للكنيسة اليعقوبية فى مصر .

غير أن القرن السابع الميلادى وما شهده من أحداث هامة سيؤثر فى مصر ، وفى شرق إفريقية ؛ ويكتب لهذه الصلات أن تتخذ شكلا آخر ؛ فقد ظهر الإسلام ، وبدأت الدولة العربية تتوسع فى الشرق الأدنى ؛ واستولت على الشام ، وفتحت مصر . وأصبحت هذه البلاد ولاية إسلامية وخضعت كنيستها اليعقوبية للنفوذ الإسلامى . وامتد هذا النفوذ إلى شمال إفريقية ؛ ووصل الزحف الإسلامى إلى حدود مصر الجنوبية .

وكما تأثرت مصر بهذه الأحداث الهامة تأثرت بها الحبشة وغيرها من بلاد شرق إفريقية .

بل كانت هذه التطورات نقطة تحول فى تاريخ الحبشة على وجه الخصوص ، فقد كانت هذه البلاد قبل ظهور الإسلام وانتشاره على هذا النحو (رغم بعدها) على اتصال بالعالم المتحضر ؛ ببلاد البحر الأبيض المتوسط وبالدولة البيزنطية .

فتسبب الفتح العربى فى عزل بلاد الحبشة عن هذه المناطق التى كانت على اتصال وثيق فى الناحية الثقافية .

بل بدأت أحوال الحبشة الاقتصادية تتأثر بهذه الحوادث ، ذلك أن مدن شرق إفريقية الساحلية كانت تنزل بها جاليات من اليمنيين والمصريين والإغريق ، الذين كانوا يسيطرون على تجارة الحبشة ، وقد بدأ هؤلاء الناس يهجرون مدن الحبشة وأسواقها وبذلك عزلت الحبشة اقتصادياً ، كما عزلت ثقافياً من قبل .

هذه التطورات التى خضعت لها مصر وتأثرت بها الحبشة ستؤثر فى طبيعة العلاقات بين القطرين .

فقد استجدت عوامل جديدة وجهت هذه العلاقات وأثرت فيها .

فمصر استجابت للتأثيرات الإسلامية وبدأ أغلب المصريين يدخلون فى الإسلام ، وأصبح المسيحيون فى مصر أقلية فى البلاد إبتداء من القرن الثالث الهجرى .

وخضعت الكنيسة اليعقوبية للدولة الإسلامية ، وأصبحت هذه الدولة هى التى تعين بطريركها وتتحكم فى أملاكها وفى علاقاتها بالعالم الخارجى .

وفى بلاد الحبشة وشرق إفريقية ، بدأ الإسلام ينتشر وتكونت جاليات إسلامية ليست قليلة العدد ، وامتدت التأثيرات الإسلامية إلى قلب الحبشة نفسها .

وأصبحت هذه الجاليات الإسلامية على صلات روحية بمصر الإسلامية ، على الخصوص ، حينما أصبحت لمصر مكانة طبيعية فى العالم الإسلامى وستشتد هذه الصلات منذ القرن الرابع الهجرى فصاعداً .

وكما أن صلات المسلمين فى الحبشة وشرق إفريقية لم تنقطع فكذلك اتصال المسيحيين الأحباش بكنيسة مصر لم ينقطع أبداً ، وكما كان مسلمو الحبشة وشرق إفريقية يتطلعون إلى مصر كان أقباط مصر يتطلعون إلى الحبشة باعتبارها دولة مسيحية تحرس حرياتهم الدينية . وتوقف من عدوان السلطات فى مصر ، إذ أرادت هذه السلطات أن تنال من حريات المسيحيين الدينية والمدنية .

هذه الأوضاع كلها كانت عاملا حاسما فى تاريخ العلاقات بين كل من مصر والحبشة . صلة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية وعلاقة المسيحيين بمصر بإخوانهم فى شرق إفريقية ثم انتشار الإسلام المطرد فى شرق إفريقية واهتمام الدولة الإسلامية فى مصر بإخوانهم فى الدين فى هذه المنطقة النائية .

فلنعرض هذه التطورات ولنر أثرها فى العلاقات بين القطرين .

لقد بدأ الإسلام ينتشر على سواحل البحر الأحمر بعد أن اضطر العرب لحماية تجارة البحر الأحمر وأن يتخذوا لهم مراسى آمنة على ساحل هذا البحر المقابل ، فاحتلوا جزر دهلك تجاه مصوع .

وبذلك أقام الإسلام أول رأس جسر سيؤدى إلى احتلال مراكز أخرى ثم تسرب الإسلام إلى شرق إفريقية .

وكانت أولى الشعوب استجابة للإسلام شعوب البجة ، المنتشرين بين النيل

والبحر الأحمر ، واستمر انتشار الإسلام فى الساحل الشرقى طوال القرن العاشر وبعض الحادى عشر .

بل بدأ الإسلام يدخل أرض الحبشة نفسها ابتداء من النصف الأول من القرن العاشر الميلادى ، ممتداً من المناطق الساحلية مخترقاً النطاق الجنوبى للبلاد ، وكان هذا التسرب سلمياً بطيئاً يتم عن طريق التجار أو الدعاة انتشاراً لا تكاد تحس به الحبشة أو ترى فيه عدواناً على استقلالها .

وإذا بهذا الانتشار يؤدى فى الفترة الواقعة بين القرن العاشر والثالث عشر إلى قيام سلسلة من الإمارات الإسلامية فى المنطقة الممتدة من جنوب الحبشة حتى منطقة البحيرات ، كما انتشرت على طول ساحل الصومال وبلاد الجلا مستعمرات إسلامية تشتغل بالتجارة مثل مقدشيو وغيرها .

هذا هو الوضع فى شرق إفريقية وبلاد الحبشة ، عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر ، إمارات إسلامية كبرى تقوم فى صميم الوطن الحبشى نفسه ، وانتشار للإسلام على نطاق واسع فى المنطقة الساحلية الممتدة حتى جنوب موزمبيق جنوباً بل امتد التيار الإسلامى إلى قلب المنطقة الحبشية .

فما هو أثر هذه الأوضاع على العلاقات بين مصر وبلاد الحبشة ؟ .

كان تسرب الإسلام كما رأينا تسربا سلمياً الى أبعد الحدود كما أن العلاقات بين هذه الإمارات الإسلامية وبين دولة الحبشة كانت علاقات سلمية أيضاً .

وساد نوع من التسامح والتفاهم المتبادل بين الأقلية المسلمة فى بلاد الحبشة وبين الكثرة المسيحية ، فكان من الطبيعى أن تساعد هذه الأمور بدورها على حسن العلاقات بين مصر وبلاد الحبشة .

والملاحظ أن هذه العلاقات ظلت منذ الفتح العربى حتى أوائل القرن الثالث عشر يغلب عليها جو الود والتفاهم ، ولم تنقطع العلاقات الدينية بين كنيسة الحبشة والكنيسة المصرية ، بل ظلت متواترة فى عهد الولاة وعهد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ، بل لم يغير قيام الدولة الأيوبية من طبيعة هذه الصلات .

وقد جرت التقاليد المتبعة فى اختيار مطران الحبشة فى هذه الفترة بأن يرسل ملك

الحبشة رسالتين : واحـــدة إلى صاحب الأمر فى مصر والأخرى إلى بطريرك الإسكندرية مشفوعة بمبلغ كبير من المال وهدية من العاج والمسك والرقيق لأمير مصر ثم ينتهى الأمر باختيار المطران المطلوب .

لاننكر أن هذه العـــلاقات ساءت فى بعض المناسبات حينما كان بعض أمراء مصر يعتدون على الأقلية المسيحية ويرد ملوك الحبشة فيعاملون الأقلية المسلمة بالمثل ، إلا أنه غالباً ما كان يصفو الجو فيتدخل بطريرك الأقباط فى مصر لدى الأحباش فتهدأ الأحوال وتعود العلاقات إلى سيرتها الطبيعية .

لكن هذه العلاقات ابتداء من القرن الثالث عشر فصاعدا ستدخـــل فى دور جديد وتتسم بطابع القسوة والعنف فيخرج الأحباش عن تسامحهم القديم ، ويغير المماليك فى مصر من التسامح التقليـــدى الذى عرفت به الحكومات الإسلامية المتعاقبة (١) .

فقد شهد القرن الثالث عشر ذلك الصراع الرهيب بين الإسلام والمسيحيين ، وكان لابد أن يستجيب الأحباش ويستجيب المماليك لما تمليه هـــذه الأحداث ؛ فيدخل الأحباش هذه المعركة الصليبية ضد المسلمين فى شرق إفريقية ، كما يهب المسلمون فى شرق إفريقية للدفاع عن أنفسهم متعاونين مع القوى الإسلامية المناضلة فى مصر وبلاد الشام .

دخل الأحباش المعركة الصليبية فى شرق إفريقية فى القرن الثالث عشر فى عهد الأسرة السليمانية ، وبدأ النضال العنيف بين ملوك الحبشة وبين هذه الإمارات الإسلامية التى رأيناها تقوم فى هذه المنطقة .

وكان المماليك سلبيين كعادتهم فى علاقتهم بالمسلمين فى شرق إفريقية فقد تركوا إخوانهم فى الدين يدخلون معركة الجهاد اعتماداً على مواردهم المحدودة ، دون أن يتدخلوا تدخلا إيجابياً لنصرتهم .

ولعلهم لم يدركوا أن الجبهة الصليبية جبهة واحدة ، اكتفوا بمدافعة الصليبيين عن بلاد الشام ، وتركوا الجبهة الإسلامية فى شرق إفريقية تتصدع أمام التقدم الحبشى .

---

(١) حامد عمار ص ١٧ .

حتى العثمانيون أنفسهم الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامى منذ القرن السادس عشر فصاعداً لم يدركوا خطورة هذا الصراع الدائر فى شرق إفريقية ولم يتجاوز نفوذهم سواحل البحر الأحمر ، ورغم ما توافر لهم من إمكانيات ورغم أساطيلهم التى وصلت إلى سواكن ومصوع وعدن فانهم لم يؤيدوا القوى الإسلامية التى تصارع الأحباش تأييداً مجدياً .

وقد أسهم البرتغاليون بنصيب موفور فى مساعدة الأحباش والقضاء على التوسع الإسلامى (١) الذى قام به أحمد بن إبراهيم الغازى الملقب بأحمد القرين (١٥٠٦ — ١٥٤٣) .

وخرجت الحبشة من هذا الصراع ظافرة منتصرة بعد أن أخضعت هذه القوى الاسلامية لسلطانها .

وقل الاهتمام المصرى الرسمى بشرق إفريقية والحبشة أو انقطع بسبب الأحداث التى تعرضت لها مصر منذ القرن السادس عشر فصاعدا ، فقد سقطت دولة المماليك وخضعت مصر للنفوذ العثمانى وظلت طوال القرن السابع عشر والثامن عشر ترزح تحت نير السيادة العثمانية ، وإن كان أثرها الثقافى لم ينقطع طوال هذه الفترة وبقى الأزهر وبقيت مدارس مصر تؤدى دورها المعتاد .

ثم برزت قوة مصر مرة أخرى فى القرن التاسع عشر ، وكما أكدت نفوذها فى السودان ، كذلك بدا الاهتمام المصرى واضحا بالحبشة ، وشرق إفريقية ، فقد دخلت جيوش محمد على بلاد السودان وأصبحت تتاخم أرض الحبشة .

ويبدو أن محمد على كان يفكر فى غزو الحبشة بعد تمام الفتح ، فقد أطلع صولت القنصل الإنجليزى فى مصر على هذه الرغبة . ولا نشك فى أن الاعتبارات التى وجهته نحو أرض الحبشة منبعثة من فرار أنصار الملك نمر ، واعتصامهم بأرض الحبشة وتمتعهم بتأييد الأحباش ورعايتهم .

لكنه كانت هنالك اعتبارات إسلامية تنطوى عليها هذه الرغبـــة . فهى استمرار لجهاد مصر للصليبيين ، ثم وضحت مشروعات محمد على سافرة فقد طلب من الباب العالى أن يمكنه من بسط نفوذه فى البحر الأحمر بإعطائه سواكن ومصوع ،

---

(١) Triminham Islam in Ethiopia, p. 76.

وقد رأى الباب العالى إزاء نشاط الأحباش فى منطقة مصوع أنه يتعذر الاحتفاظ بهذين الميناءين ، وأن حقوق السيادة العثمانية معرضة للضياع ، فالملك وافق على تأجير سواكن ومصوع لمحمد على مدى حياته ، وبدأ مندوب مصر الذى أوفد إلى هذه الجهات بعد إحصاء تقريبياً للقبائل المنتشرة على طول الساحل بين سواكن ومصوع وبربر ، للاستيلاء على كل الساحل الافريقى حتى رأس غوردافوى (١).

وكان المصريون قبل ذلك قد استطاعوا تهديد الحبشة من ثلاث جهات : من القلابات وتاكا ومصوع ، وقد حدث أول اشتباك جدى سنة ١٨٣٨ ، حينما غزا المصريون حدود الحبشة ، فى منطقة القلابات ، وأوقعوا الذعر فى منطقة جندار ، وقيل أن اتفاقاً تم بين مسلمى الجلا ، وبين جنود مصريين متخفين فى زى التجار للتمهيد للغزو المصرى .

ولم تتمكن مصر بسبب أحداثها السياسية منذ عام ١٨٤٠ ، أن تحقق ما أراده محمد على ، غير أن النفوذ المصرى ، بدأ يتسرب إلى السهول الإريترية حينما أعلن بنو عامر خضوعهم لمحمد على ، وأنشئت كسلا واتخذت مستقراً تخرج منه الغزوات لتهديد بلاد الحبشة (٢) .

وفى سنة ١٨٦٢ عاودت مصر غزو الحبشة عن طريق السوادن بقيادة موسى باشا حمدى . غير أن تفشى الجدرى أجبر المصريين على الارتداد وأرسل تيودور ملك الحبشة إلى الملكة فيكتوريا يستنجد بها .

وقد ساعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٢ على تجديد فكرة الغزو عن طريق البحر الأحمر ؛ وقد شجع مصر على سلوك هذا الطريق النجاح السريع الذى حققته حملة نابييه الانجليزية فى قهر تيودور .

وقد جددت تركيا إعطاء مصر مصوع وسواكن (٣) . وقد أتى إسماعيل ترحيباً من البدو المقيمين على ساحل البحر الأحمر الذين طلبوا الحماية من إسماعيل . وقد عين إسماعيل منزنجر حاكما على مصوع ، واحتل المصريون الصومال من

---

(١) حراز ص ٦٢ .
(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٢ ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) نعوم شقير جـ ٣ ص ٩٠ .

زيلع حتى رأس غور دافوى ، ودخل المصريون هرر فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٧٧ دون مقاومة (١) .

وكان لإستيلاء المصريين على هرر أثر عظيم فى انتشار الإسلام وأرسلت مصر الفقهاء لنشر الثقافة الإسلامية .

وفى سنة ١٨٧٥ أصبح فى مقدور إسماعيل أن يعاود فكرة غزو الحبشة ، وكانت خططه تعتمد على استغلال فرصة انقسام الحبشة على نفسها ، غير أن الامبراطور يوحنا وحد الصفوف فأخفقت مشروعات إسماعيل .

وعاود الكرة سنة ١٨٧٦ فلم يفلح (٢) ، وأهملت مصر مشروعات غزو الحبشة محتفظة بأملاكها فى شرق إفريقية ، وسوف تفقدها فى غمرة الأحداث التى تلت الثورة المهدية .

ومن الخطأ الزعم بأن علاقة مصر أو اهتمامها بشرق إفريقيـــة كانت تحدوها المشروعات السياسية ، إنما اهتمت بهذه البلاد تأميناً لمسلك تجارة البحر الأحمر .

وقد رأينا فى الباب الأول كيف لعبت الـكانمية وكيف لعبت عيذاب وقوص دورا عظيما فى نشر الاسلام فى بلاد الحبشة وفى شرق إفريقية (٣) .

وقد اتصلت مصر بشرق إفريقية ثقافياً كما اتصلت اقتصادياً ، وكان المسلمون من أهل تلك البلاد يرحلون إلى مصر طلباً للعلم فى الأزهر ، فأهل زيلع مثلا كان لهم رواق بالأزهر (٤) ، وكذلك طائفة الجبرت الذين كانوا كثيرى الوفود إلى مصر يقيمون فيها ويتعلمون ، واشتهر منهم فى مصر كثيرون (٥) ، ولعل وفود مسلمى الحبشة إلى مصر قد اشتد أثناء التوسع المصرى العظيم فى عهد إسماعيل .

وقد امتد أثر مصر الثقافى إلى قلب الحبشة نفسها ، ذلك أن أقباط مصر منذ القرن الرابع الهجرى فصاعدا كانوا قد أتقنوا اللغة العربية ، واتخذوها لغة يكتبون بها

---

(١) Trimingham ; Islam in Ethiopia.

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ﺟ ٣ ص ٨٩ — ٩٠ .

(٣) عرب فقيه ص ٣١

(٤) Trimingham : Islam in Ethiopia.

(٥) عابدين : تاريخ الحبشة ص ٢٣٣ — ٢٣٨

إنتاجهم الثقافى . بعض هؤلاء المصريين كانوا يرحلون إلى الحبشة ويشيعون فيها ما تعلموا من ثقافات فى مصر (١) .

وقد استطاع الأحباش عن هذا الطريق أن ينقلوا إلى اللغة الحبشية كثيرا من التواليف التى كتبها المسيحيون باللغة العربية . فتاريخ يوحنا النقيوسى كانت له نسخة عربية ترجمت إلى الحبشية فى عهد الملك يعقوب سجد ، وقد ترجمه أحد أساقفة قليوب ، كما نقلوا إلى الحبشة تاريخ ابن شاكر بطرس بن الراهب . ولما كان الأحباش قد ظلوا قروناً عديدة يترجمون من اللغة العربية إلى الحبشية فقد دخلت لغتهم ألفاظ عربية كثيرة (٢) .

صلة مصر بغرب إفريقيا :

وقد اتصلت مصر فوق هذا كله بغرب إفريقية . اتصلت بهذه البلاد اقتصادياً ، غير أن هذه الصلات الاقتصادية قد وضحت تماماً فى العصر المملوكى ، هذا العصر الذى شهد تطور العلاقة بين مصر وغرب إفريقية تطورا بعيد المدى ، إذ كانت القوافل تنتقل من مصر إلى غرب إفريقية (٣) .

وكانت محاصيل إفريقية الوسطى والسودان الغربى مادة من مواد التجارة التى ارتكزت عليها عظمة الدولة المملوكية ، إذ كانت تبيعها التجار الأوربيين من الجنويين والبنادقة وغيرهم بأثمان مرتفعة ، وكان العاج أهم صادرات تلك الجهات إلى مصر كما ذهب التجار المصريون بمتاجرهم إلى بلاد الكانم والتكرور (٤) .

وكان الحج من أهم عوامل تدعيم العلاقات بين مصر وبين هذه البلاد إذ يبدو أن حجاج غرب أفريقية كانوا يمرون بمصر فى طريقهم إلى الحج وبعد عودتهم منه .

قد حج إلى مكة كثير من مشاهير سلاطين المسلمين فى هذه الجهات واتصلوا أثناء مرورهم بمصر بالسلاطين ووجوه الناس والعلماء وكانت لهم مع مصر مراسلات سجلها ديوان الإنشاء .

---

(١) المقريزى : الإلمام ص ٦ - ٧

(٢) عابدين : تاريخ الحبشة ص ٢٣٣ - ٢٢٨

(٣) Fsge : West africa pp. pp. 26-27.

(٤) حامد عمار ص ٥٧ - ٥٨ Meek : op. cit, vol I, p. 62.

وممن زار مصر في طريقه إلى الحج منسى موسى سلطان مالى واسكى محمد سلطان سنغى ، وقد تأثر الأخير بهذه الزيارة إلى أبعد الحدود ، تأثر بما رآه في مصر من أسباب الحضارة وما سمعه في مصر من علم وما لمسه من تقدم حتى إذا عاد إلى بلاده عمد إلى تطبيق ما اقتبسه من نظام الحكم في بلاده (١) ، وتشبه بالخليفة العباسى في ملبسه ومطعمه .

وقد زار الخليفة العباسى أثناء مروره بمصر وتلقى منه التقليد والخلعة (٢) واعترف به حاكما شرعيا على بلاده ، وعندما عاد إلى عاصمته سنغى أرسل إليه رسولا خاصا من قبله ، وكما وفد هؤلاء الملوك فقد وفد كثيرون من وجوه القوم من العلماء والتجار وغيرهم .

وكانت الصلات الثقافية أهم هذه الصلات وأقواها فقد غدت مصر في القرن الخامس عشر موئل التفكير الإسلامى في الشرق ، وكان الأزهر كعبة المسلمين في كافة أرجاء إفريقية ، فليس بغريب أن يقصده الطلاب من غرب إفريقية ، شأنهم شأن غيرهم من المسلمين .

وكان أهل التكرور أسبق طوائف غرب إفريقية اتصالا بمصر في هذه الناحية ، استقرت منهم طوائف بمصر لتشهد حلقات العلم في الجامع الأزهر ؛ ولتسمع من شيوخه المبرزين (٣) .

وابتنى تجار التكاررة بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، وأصبحت مثابة لطلاب العلم من بلاد التكرور ؛ وبعضهم وفد على مصر بقصد الانقطاع والعبادة والانتظام في سلك الطرق الصوفية (٤) .

وقد اتصلت تنبكت عاصمة السودان الغربى بالقاهرة ؛ ورحل علماؤها إلى مصر واتصلوا برجال الأزهر (٥) وكانت لهم صلات بإمام مصر جلال الدين السيوطى (٦) .

---

(١) Dubois : Tombouctou pp. 134-135.

(٢) محمود كعت : الفتاش ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨ – ٢٢

(٤) حامد عمار ص ٧٩ .

(٥) السعدى : تاريخ السودان ص ٣٢

(٦) نفس المصدر ص ٣٧

كما يحدث السعدى عن علماء من مصر زاروا مدينة تنبكت وقعدوا للتدريس بها . ولم يكن الرحيل قاصراً على التكرور ؛ إنما رحل كثيرون من بلاد برنو إلى مصر للتعلم بالجامع الأزهر ، وعادوا إلى البلاد بعد إتمام تعليمهم لمتابعة نشاطهم العلمى (١)

ولا نعرف بالضبط مصير هذه العلاقات فى القرن التاسع عشر وإن كنا نرجح أنها تضاعفت عن ذى قبل ؛ خصوصاً بعد أن توسع المصريون فى السودان ؛ ووصلوا إلى دارفور وباتوا أقرب اتصالا بغرب إفريقية .

أثر بلاد المغرب فى غرب إفريقية :

وكما تركت مصر وثقافتها الإسلامية أثرها الواضح فى سودان وادى النيل وشرق إفريقية بل وغربها ؛ كذلك كان شأن بلاد المغرب أثرت أثراً واضحاً باقياً فى تاريخ الإسلام فى غرب إفريقية ، هذا التاريخ الذى لا يمكن فهمه إلا فى ضـــوء تاريخ المغرب وأحداثه .

وبلاد المغرب كما قلنا تتصل اتصالا طبيعيا بغرب إفريقية ، والطبيعة حـــددت وسيلة هذا الاتصال وطريقته ، فاقليم فزان بطرابلس مثلا لا يبعد عن بلاد برنو أكثر من مسيرة أربعين يوماً .

وفى الغرب ينحنى النيجر انحناءة عظيمة صوب الشمال ليقرب من شقة الصحراء ، هذه الصحراء التى لا تتصل بساحل المحيط الأطلسى اتصالا مباشراً ، ولكنها تترك سهلا ساحلياً يجعل الاتصال عبره ممكننا بين الجنوب والشمال (٢) .

عبر هذه الطرق ، اتصل المغرب بالسهل الخصيب ، الواقع جنوب الصحراء الكبرى اتصالا قديما متصلا ، وكانت التجارات لاتفتا تتبادل بين الإقليمين هذه التجارة التى كان لها شأن كبير فى تاريخ غرب إفريقية ، كانت الأوطان الزنجية فى حاجة ملحة ومستمرة إلى ملح الطعام ، الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب المغرب الأقصى .

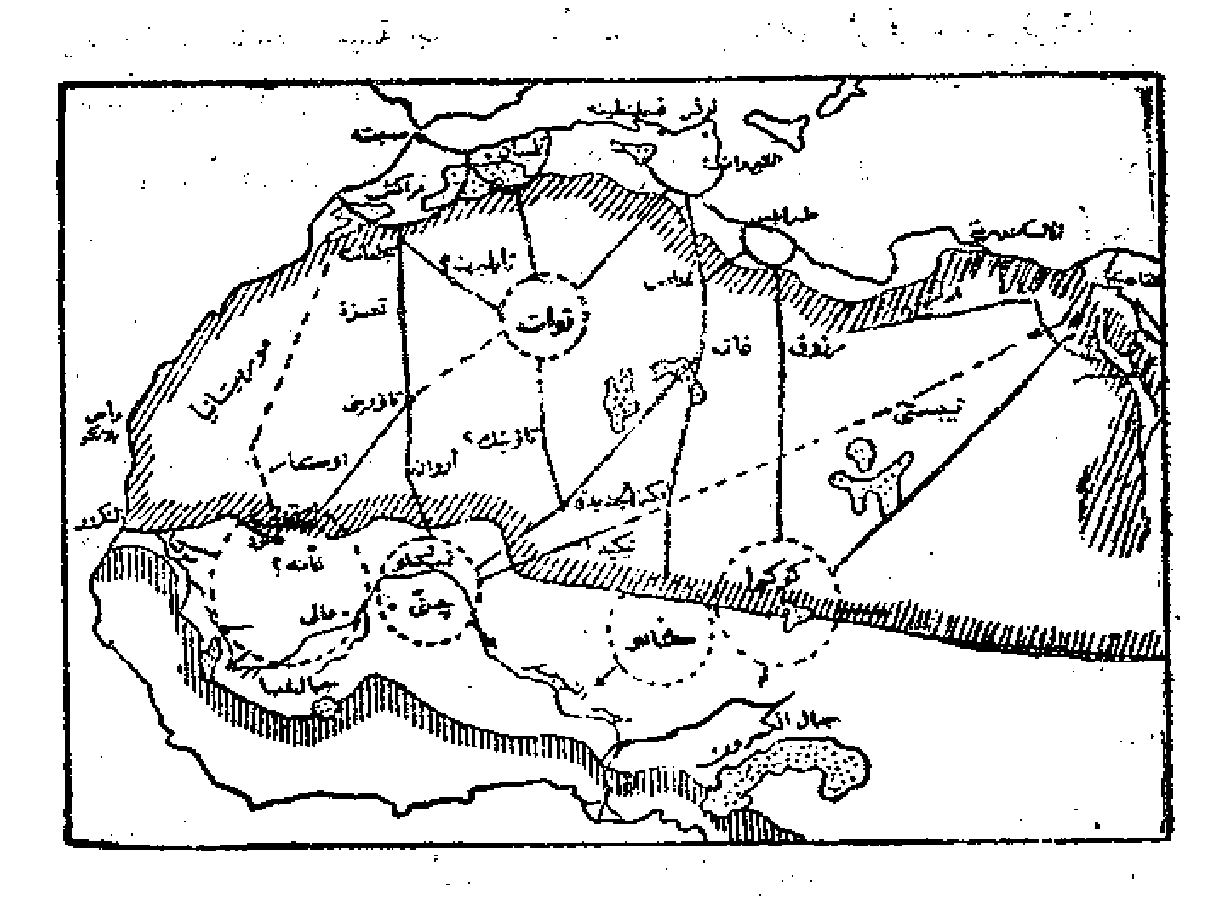
وقد احتكر المغاربة هذه التجارة منذ فجر التاريخ .

---

(١) Palmer : op, cit pp, 33-91.

(٢) Cooley : Negroland pp, 1-2,

كان الزنوج أو غيرهم من شعوب المنطقة الواقعة جنوب الصحراء يبادلون هذه السلعة بالذهب والعبيد ، وقد تحمل القوافل المنحدرة من الشمال ، النحاس والمنسوجات والتمر والماشية والعقود والحلى .



العلاقات بين شمال إفريقية وغربها

وعلى جانبي هذه الصحراء قامت مدن تجارية هامة فى جنوب المغرب الأقصى وفى شمال منطقة السهول فى السودان الغربى ، وعملت هذه المدن على تنظيم القوافل وتصريف المنتجات .

وبذلك نفذت المحاصيل الإفريقية الرعوية أو الاستوائية الى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ومنه كانت تحمل إلى أوربا ، كما كانت سلع البحر الأبيض المتوسط ، تحمل جنوبا إلى قلب الوطن الزنجى الصميم (١) .

---

(١) Fage : West Africa pp. 9-10

هذه الصلة القديمة القوية لم يكن من المعقول أن يقطعها الإسلام ، بل كان المعقول أن ينميها ويضاعفها ، وأن يقيد منها إلى أبعد الحدود .

فقد أصلح المسلمون طرق الواحات ونظموا القوافل ، وأمنوا التجارة ، وأفادوا منها فائدة عظيمة جداً ، وبدأ المغرب الإسلامى يؤثر فى غرب إفريقية ؛ بثقافته وشعوبه وسياسته .

وقد بدأ هذا الاتصال منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها النفوذ الإسـلامى بلاد المغرب . فالمعروف أن عقبـة بن نافع الفهرى أوغل بقواته حتى ساحل المحيط الأطلسى ، وسار موسى بن نصير فى نفس الطريق فكان هذا أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب وبين إقليم غرب إفريقية (١) .

ولكن العامل الحاسم المؤثر فى غرب إفريقية لم يكن سياسة الدول التى تعاقبت على حـكم المغرب . إنما هجرات البربر التى كانت تندفع فى موجات متعاقبة نحو الجنوب متأثرة بالأحداث السياسية التى وقعت فى بلاد المغرب .

وكان إسلام البربر عاملا حاسماً فى انتشار الإسلام فى هذا الجزء من إفريقية . ويهمنا من شـعوب البربر على وجه الخصوص أولئك الذين كانت تمتد مضاربهم جنوب المغرب الأقصى ، ثم تمتد ديارهم على ساحل المحيط جنوباً حتى مشارف السنغال . هذه الشعوب بدأت المحاولات الأولى لإدخالها فى الإسلام منذ عهد موسى بن نصير ، ولكن الجهود الحقيقية تمت فى عهد الأدارسة ، إذ فى عهدهم وعن طريقهم نفذ الإسلام إلى هذه الجهات .

وتأكد إسلام هذه القبائل على وجه الخصوص منذ القرن الخامس الهجرى فصاعدا .

ومن غريب الصدف أن تدهم غارات بنى هلال بلاد المغرب فى الوقت الذى تم فيه إسلام هذه القبائل . لأن العرب المغيرين سيدفعون بطونا كثيرة من البربر إلى الفرار نحو الجنوب .

---

(١) De la chapelle : Hesperis. 1930, T. XI, p. 24.

هاجر بعضها إلى بلاد برنو أو كانم ، ثم اندفع بعضها عبر الطريق الساحلى نحو بلاد السنغال (١) .

ومن أدلة تمام إسلام هذه القبائل ، وصيرورتها عاملاً حاسماً فى انتشار الإسلام فى السودان الغربى ، أن انبعثت من صفوفها حركة إصلاحية كبرى تزعمها عبدالله ابن ياسين من رباطه فى مصب السنغال .

واستطاع عن طريقها أن يوحد قبائل الملثمين وأن يدفع بها نحو بلاد المغرب فى حركة يزجيها التحمس الشديد من أجل الإسلام والرغبة الملحة فى الجهاد، فقامت دولة المرابطين موحدة بين شـطر كبير من غرب إفريقيـة وبين المغرب والأندلس(٢) .

وفى خلال هذه الوحدة نفذت المؤثرات الإسلامية إلى السودان الغربى على نطاق واسع ، وعمل المرابطون على نشر الإسلام هناك ، ويكفى للتنويه بهذه الجهود أن نذكر أن أبا بكر بن عمر أمير المرابطين مات هناك مجاهداً فى سبيل الإسلام ، ويظهر أن القرن الحادى عشر الميلادى كان عصر الانتشار الواسع المتدفق من المغرب إلى هذه الجهات .

فقد قامت جماعات مسلمة من أهل البلاد الأصليين ، وأنشئت مدن ما زال لها شأن كبير فى تاريخ الإسلام فى إفريقية ؛ مثل تنبكت مثلا ؛ والدور الذى قامت به هذه المدينة كمركز للثقافة الإسلامية سنعرض له بالتفصيل فيما بعد .

ونهاية عهد المرابطين وبداية حكم الموحدين ليس معناه القضاء على هذه الجهود ، أو الانتقاص من هذه الوحدة ؛ فقد خلف المرابطون فى هذا الجزء من إفريقية جماعات من المسلمين ، تتطلع باستمرار إلى الوطن الأكبر الواقع عبر الصحراء تستمد منه التأييد ، وتنهل من ثقافته .

---

(١) Fage 15، Palmer. 7.

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ٢٤٥ – ٢٥٥ .

ومصداق ذلك كله أن الامبراطوريات الإسلامية الكبرى (١) التى قامت فى غرب إفريقية من القرن الثانى عشر فصاعدا كانت أحرص ما تكون على أن لا تتصل بالمغرب الإسلامى فقط بل بالعالم الإسلامى كله . وإذا كان منسى موسى سلطان ملى أو اسكى محمد سلطان سنغى قد تطلعا إلى مصر وتأثرا بما شاع فيها من ثقافة ، فلا بد أنهما اتصلا أيضاً بالمغرب الإسلامى ، بملوكه وفقهائه وعلمائه ومدارسه الكبرى فى القيروان أو فاس .

يدل على هذا كله الصلات العلمية التى توطدت بين كعبتى العلم فى غرب إفريقية تنبكت وجنى . هاتان المدينتان كانتا جزءا من الوطن المغربى فى قلب السودان الغربى ، وردها العلماء المغاربة ، وسار أهلها إلى المغرب ، وتبادلوا الكتب والدراسات والأفكار .

وبلغ هذا الاتصال مداه فى القرن السادس عشر حينما عمل سلاطين مراكش على التطلع نحو الجنوب ، بل دخلوا تنبكت ، وقضوا على دولة سنغى ، وأعادوا الوحدة القديمة بين السودان وبلاد المغرب ، التى حققها المرابطون من قبل .

بدأت الحملة فى سنة ١٥٩٠ (٢) ، واستطاعت دخول تنبكت ، ولم يترك المغاربة هذه البلاد إلا عام ١٦١٨ .

وفى ظل هـــذه الوحدة انطلقت المؤثرات الثقافية بين القطرين طليقة من كل قيد . انتقل كثيرون من علماء السودان إلى المغرب الأقصى ، ومنهم الفقيه المعروف أحمد بابا التنبكتى (٣) .

ومؤرخو السودان ينسبون إلى هذا الاحتلال المراكشى كل رذيلة وينسبون إليه أسباب تأخر الثقافة العربية ثم اضمحلالها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (٤) .

وإن كنا نعتقد أن هذه الصلة لو قدر لها أن تطول لتركت آثاراً هامة فى مجرى

---

(١) Hogben pp. 4-54, Fage ; pp. 40-33.

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ١٣٧ — ١٤٢ Dubois : pp. 347-351.

(٣) Dubois : op. cit. p. 347.

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص ١٦٩ . الفتاش ص ١٧٥ .

الثقافة العربية فى غرب إفريقية ، وانسحاب المراكشيين كان لمواجهة التوسع الاستعمارى الذى ظهر فى غارات الأسبان والبرتغاليين واحتلالهم مدنا بالساحل المغربى ، وانصراف المغاربة إلى مدافعة هذا الخطر الذى تعرضوا له .

ثم تتابعت الأحداث فى بلاد المغرب ، توغل النفوذ العثمانى ثم استشراء عدوان الدول الأوربية ، ووهت العلاقات بين المغرب والسودان .

وعاش السودان فى شبه عزلة(١) ، ولم يتمخض تاريخ المغرب فى القرن التاسع عشر عن محاولات للإصلاح والتوسع شبيهة بمحاولات محمد على فى مصر ، بل تعرضت الجزائر للغزو الفرنسى ، وبدأ السودان الغربى يتعرض بدوره لعدوان مماثل .

والحياة الثقافية فى غرب إفريقية طابعها مغربى خالص بسبب الاتصال الوثيق بين تنبكت ، وبين جامعات المغرب مثل فاس والقيروان (٢) . فالقلم العربى الذى استخدم فى هذه البلاد ، هو القلم المغربى المشهور ، والمذهب الغالب هو مذهب مالك الذى انتشر فى المغرب والأندلس ، ودخل إلى غرب إفريقية وغلب عليها .

---

(١) Hmgben : Muhammedan Emirates pp. 50-57.

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٣١ ، ... ، ٥٧ .

الباب الثالث

انتشار الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا



المقصود بغرب إفريقية هنا ، المنطقة الفسيحة التى تمتد من المحيط الأطلسى فى الغرب حتى سودان وادى النيل فى الشرق والتى تقع بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية فى الشمال وبين نطاق الغابات الاستوائية فى الجنوب .

أو بمعنى آخر نفس المفهوم الجغرافى الذى عرفه الرحالة والجغرافيون المسلمون فى العصور الوسطى باسم بلاد السودان ، فقد كانوا فى الحقيقة يطلقون اسم بلاد السودان على هذه المناطق التى حددناها .

ومن الغريب أن هذه المنطقة التى تقاسمتها اليوم المصالح والأهواء كانت تنعم فى الفترة التى حددناها للدراسة ، بوحدة بشرية وثقافية عميقة الجذور ، كانت فى الحقيقة تخضع لمؤثرات بشرية وثقافية واحدة .

وكانت التأثيرات عادة تنطلق إما من الغرب متجهة صوب الشرق ، وإما منطلقة من مصب السنغال أو من منحنى النيجر أو من المراكز الثقافية الهامة فى المنطقة مثل تنبكت وجنى وكانو وغيرها .

وقل أن تجد تأثيرات بشرية ذات أثر واضح ، تخطت حدود سودان وادى النيل ، متجهة صوب الغرب لتترك أثراً واضحاً فى تكوين المنطقة البشرى والحضارى ، والقبائل العربية التى دخلت دار فور ، وقفت عند حدود السودان الغربية ، بل تعرضت دار فور نفسها لتأثيرات قادمة من الغرب ، حتى العناصر العربية التى تدفقت إلى غرب إفريقية ، إنما جاءت من بلاد المغرب ، منطلقة إلى مصب السنغال ثم متجهة صوب الشرق .

وكانت مناطق الساڤانا الفسيحة التى يحدها النطاق الصحراوى من الشمال والنطاق الغابى من الجنوب قلب الإقليم النابض ، مراكزها الثقافية حملت مشعل العروبة والإسلام وشعوبها تبنت الدعوة ولعبت الدور الأول فى تاريخ الإسلام فى هذه

---

(1) Trimingham : Islam in West Africa. pp. 1–4.

المنطقة . فى الحق كانت بيئة السافانا هذه على حد تعبير ترمنجهام ، بيئة تسهل الهجرات وتتيح الاحتكاك الثقافى وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية (١) :

١ - دور التكوين

تاريخ غرب إفريقية فى العصور الوسطى والحديثة حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم فيه وتوجهه ظاهرتان عظيمتا الأثر : الهجرات أو الغارات المتصلة لبعض قبائل البربر وطرقها المستمر للوطن الزنجى فى الجنوب ، ثم شعوب بدائية من أهل البلاد ، تتعرض لهذه الهجرات ، وتحتك بها وتقتبس الكثير من نظمها الاجتماعية والعسكرية والدينية كما تمنح من معين ثقافتها .

هذه الاتصالات أو هذه الهجرات كان ظاهرة واضحة ربما منذ القرن الأول الميلادى ، غير أنها لم تتجاوز أبداً مجرد الانتقالات الموسمية لقبائل المغرب عند أطراف الصحراء ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية . أو مجرد إغارات خاطفة على أوطان الزنوج لاقتناص العبيد ثم العودة بهم إلى أسواق المغرب .

هذا فضلا عن الاتصال التجارى الحتمى الذى كان يتم بين المغرب وبين أسواق إفريقية .

غير أن هذه الهجرات بدأت تتخذ طابعاً آخر منذ بدأ العرب يبسطون سيادتهم على بلاد المغرب كلها . هذا الطابع هو توغل هذه القبائل صوب الجنوب فى حركات مستمرة متدافعة ملحة ، ليس بقصد الإغارة ثم العودة أو اقتناص العبيد ، إنما للإقامة الدائمة .

وتفسير هذا التحول ليس عسيراً ، فالرومان لم يتوغل نفوذهم إلى أبعد كثيراً من السهل الساحلى ، وأقاموا خطاً من الثغور Limes ، يحمى حدود منطقة نفوذهم من عدوان القبائل البدوية ، على حين توغل العرب ، وهم من البدو فى صميم الوطن المغربى ، وجاوزوا النطاق الرومانى ، وأخضعوا قبائل البدو لسلطانهم ، ربما للمرة الأولى فى تاريخ المغرب فى العصور الوسطى .

(١) Fage ; West Africa pp. 10-16.

وأصبح هؤلاء البدو جزءاً من عالم المغرب الإسلامى ، ينفعلون بانفعالاته ويتأثرون بأحداثه ، وكانت كلما اجتاحت المغرب ضائقات أو أزمات سياسية تمعن هذه القبائل فى هجرتها نحو الجنوب .

وبدأت فى أواخر القرن العاشر الميلادى تستقر فى منطقة أدرار ، وتستولى على مناجم الملح فى تغزة ، وتديرها مستعينة بطائفة من الزنوج ، حتى كانت غارات بنى هلال التى ظلت عاملا هاماً فى تاريخ المغرب حتى القرن السادس عشر (١) .

هذه القبائل العربية كانت كلما أمعنت فى تقدمها كلما احتكت بقبائل البربر وأرغمت الكثير منها على الهجرة ، من يشأ البقاء والخضوع للعرب والاندماج فى حياتهم يترك وشأنه ، ومن لم يشأ البقاء أجبر على الفرار بنفسه (٢) .

استمرت غارات العرب حتى دخلت مشارف السنغال نفسه (٣) كما ذكرنا فى الباب السابق ، واستمر بدوره تطواف البربر يؤثر فى أحوال غرب إفريقية حتى القرن الثانى عشر ، إذ يذكر ديبوا (٤) أن الطوارق أغاروا على مدينة جاو سنة ١٧٧٠ .

هذه القبائل المهاجرة كانت تحيا حياة مستقلة ، واتخذت الطابع الحربى محافظة على كيانها .

وكان اعتمادها على الخيل من ناحية ، والإبل من ناحية أخرى يؤكد هذا الطابع من نطاق أعمالها العسكرية .

وينتهى أمرهم بأن يفرضوا نفوذهم بالقوة على طوائف مسالمة من الزنوج المستقرين . ثم ينتشر نفوذهم انتشارا سريعاً فى إقليم السفانا المكشوف الواقع شمال نطاق الغابات .

وتكتفى باخضاع الشعوب الزنجية بقوة السلاح ، ثم تفرض عليهم الجزية ثم

(١) Palmer, op.cit. p. 7.

(٢) De la chapelle : Hesperis 1930, T, XI, p. 49.

(٣) Dubois : op. cit. p. 152.

(٤) Annuaire du Monde Musulman ، Fage pp. 15-16.

يتم الاختلاط التدريجي بين الغالب والمغلوب عن طريق التزاوج ؛ وتنشأ طبقة جديدة من المولدين تغتصب الحكم لنفسها وتقضي على الحكم الذي أقامته قبائل البربر .

ثم ينتهي أمر هؤلاء المولدين ويتولى الشعب نفسه تقليد البربر سادة الأمس في التوسع وإقامة الامبراطوريات بعد أن يتم إسلامه ويتعلم من سادة الأمس فنونهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية والثقافية (١) .

ويعنينا من قبائل المغرب هذه التي كان لها هذا الشأن في تاريخ غرب إفريقية فريق بعينه هو فريق الطوارق أو الملثمين ، الذين قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى من ناحية ، وبين أقاليم غرب إفريقية من ناحية أخرى ؛ وهم الذين حملوا الاسلام إلى هذه الجهات ، وكانوا العامل الموجه لتاريخه وثقافته .

ونريد أن نبين الأوطان التي كانوا ينزلون بها قبل بداية الانتشار للإسلام في هذه الجهات .

هذه القبائل كانت تنتشر في وطن فسيح الرقعة يمتد جنوب النطاق الجبلي ، الذي يخترق شمال إفريقية من الشرق إلى الغرب ، يمتد وطنهم من غدامس جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسي ، في المناطق الصحراوية التي تلي سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن .

كما يمتد هذا الوطن من جبال أطلس الكبرى (درن) في الشمال حتى مصب نهر السنغال ، بل يمتد إلى مقربة من منحنى النيجر ، بل هذا الوطن يتخطى هذا النهر الى الشرق الى مدينة تادمكة في قلب الصحراء الكبرى(٢) .

ورغم اتساع هذا الوطن فإن كل قبيلة كان لها وطنها الخاص ومجالها الحيوي ، الذي تعيش فيه ، فجنوب المغرب الأقصى مباشرة يقع موطن قبيلة لمطة (٣) وجزولة . أما قبيلة لمتونة فمضاربها تقع إلى الجنوب ، وتمتد على المحيط الأطلسي حتى رأس بوجادور الحالية . وتمتد شرقاً حتى الطريق الذي يصل منحنى النيجر

---

(١) Fage : op, cit. pp. 16-10.

(٢) البكري : المغرب ص ١٦٤ .

(٣) البكري ص ١٦٢ .

بمدينة سجلماسة (٣) ولكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ، كما يقول البعض (٤) ، ولا يبعد أن تكون بعض بطونها قد رحلت ، حتى أصبحت على مقربة من غانة . بدليل أن الإدريسي يذكر أن تكرور من بلاد لمتونة ، مع أن تكرور هذه في وادى النيجر في الجنوب(١) .

فكانت بذلك تحتل موقعاً ممتازاً وتسيطر على ذلك الطريق التجارى الهام الذى يسير بجوار البحر .

وإلى الجنوب من ذلك تقع ديار جدالة وتمتد جنوباً حتى تقترب من حوض السنغال ، وهذه القبيلة أوفر مالا وأكثر استقراراً ، فهى تسيطر على النهايات الجنوبية للطرق التجارية الهامة بين الشمال والجنوب ، فهى من ناحية قريبة من غانة وشعب صنغانة الواقع على الضفة اليسرى من منحنى النيجر ، وقريبة من أودغشت وطريق سجلماسة .

لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق وأن تجنى من وراء ذلك مالا وفيراً(٢) . كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل الملثمين من بلاد السودان(٥) .

أما قبيلة مسوفة فتمتد ديارها فى منطقة قاحلة مجدبة تقع بين سجلماسة فى الشمال ، وأودغشت فى الجنوب ، وكانت بعض بطونها تمتد شرقاً حتى تصل إلى تادمكة وكوكو فى الجنوب(١) .

وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوى للتجارة حتى زمن ابن بطوطة (٥) .

كما أن ابن حوقل وهو يسبق ابن بطوطة بعدة قرون ، وجد هذه القبائل فى مضاربها تلك تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب وسجلماسة فى الشمال (٦) .

---

(١) Cooley : The Negroland of the arabs p. 19,

(٢) Ibip. p. 29.

(٣) البكرى ص ١٧٢ .

(٤) الدمشقى ص ٧٨ .

(٥) الرحلة ج ٤ ص ٣٧٨ ، ٣٤٠ .

(٦) المسالك ص ٧٨ .

هذه القبائل تمسك بمفتاح الطريق إلى السودان الغربي ، وكانت حلقة الاتصال بين المغرب بشعوبه وحضارته وثقافته ، وبين المحيط الزنجي الواقع إلى الجنوب ، والذى يمتد شرقاً حتى بحيرة تشاد .

ولكى تكمل الصورة نعرض للجانب الآخر من شعوب غرب إفريقية ، للشعوب الزنجية فى هذا الجزء من القارة ، توزيعها الجغرافى ، وضعها شمال نطاق الغابات ، وفى أقصى الغرب ، وعلى الخصوص فى بلاد فوتا .

على طول ضفتى السنغال نزل شعب التكرور Tucoror والسرير Serer والولوف Woloff . أما فى الشرق على طول الضفة اليسرى للنيجر فى المنطقة التى تقع بين مدينتى تلابرى Tellabery وبوسا Bussa نزل شعب سنغى ، وهم عشائر من الزراع أو صيادى الأسماك .

بين هؤلاء السنغى والتكرور فى المنطقة الواسعة الممتدة بين أعالى السنغال فى الغرب بحيرات النيجر فى الشرق ونطاق الغابات فى الجنوب تقع ديار الشعوب المتكلمة بلغة الماندى . وتشمل المانكة فى الجنوب والسوننكة فى الشمال (مؤسسى دولة غانا) .

إلى الشرق من الماندجو أعنى بين السنغى فى الشمال ونطاق الغابات فى الجنوب عاش أجداد الشعوب الحالية المتكلمة بلغة الجور ، وهم شعوب الموسى Mossi والداجومبا وسنوفو والبوبو والكونكومبا وغيرهم .

وقبل أن تؤدى هجرات البربر إلى قيام إمارات الحوصة فى القرن العاشر الميلادى ، كانت المنطقة الممتدة من النيجر فى الغرب إلى بحيرة تشاد فى الشرق ونهر بنوا Benue فى الجنوب قد تسربت إليها عناصر حامية قليلة انحدرت من الشرق متدفقة من هضبة الحبشة عبر أعالى النيل ، وامتدت تأثيراتها فى الغرب حتى مواطن اليوربا فى جنوب نيجيريا (١) .

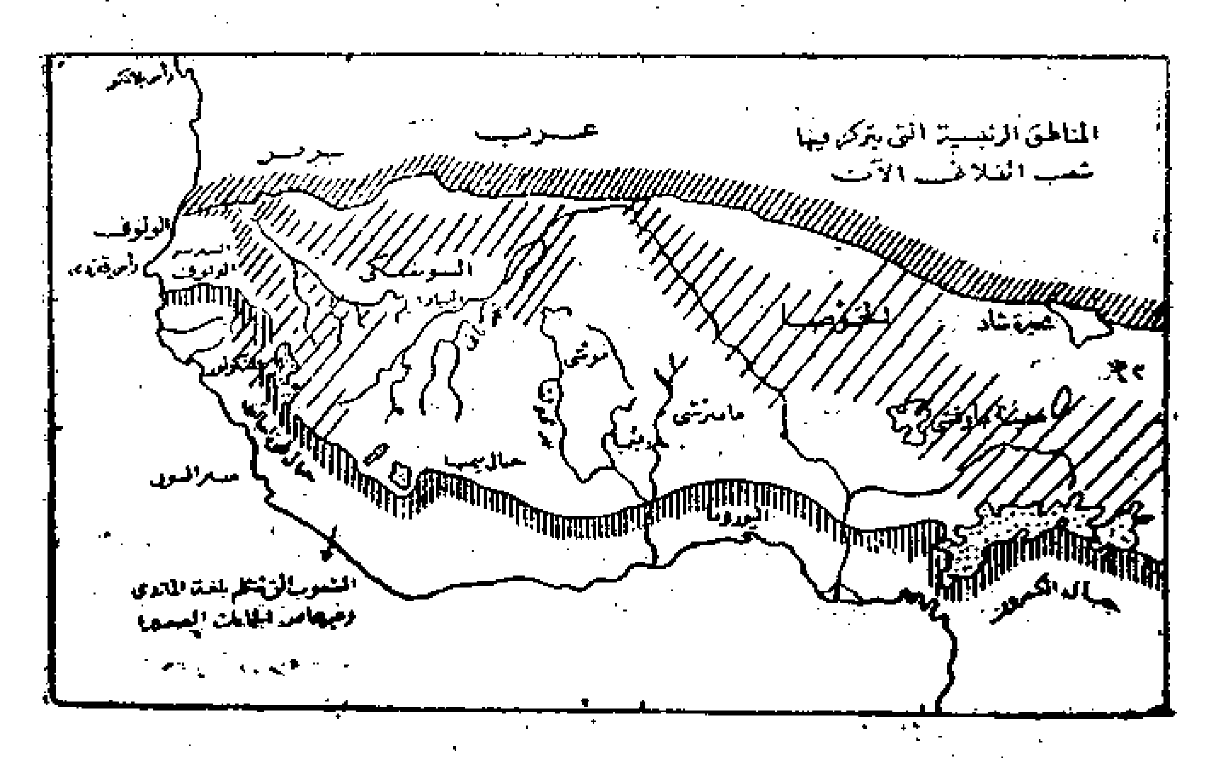
كانت هذه الشعوب الزنجية تعيش على هيئة جماعات مسالمة برأسها أكبر الرجال سناً . ولكل منها كهنوته ، إذ كانت تعتقد بوجود الله مع تقديسها لطائفة

---

(١) Fage, op. cit. p. 6.

لا حصر لها من الطواطم كانت قراهم تنتشر حول القرية الكبرى التى ينزل فيها الزعيم الأكبر .

هؤلاء جميعهم وصلهم بصيص من الحضارة عبر الصحراء ، عرفوا صناعة الذهب والحديد وبناء الزوارق[1] ، وقطعوا مساحات واسعة من الغابات وهيئوها للزراعة بوسائلهم البدائية .



غرب إفريقية : الأجناس الشهيرة

استطاع واحد من هذه الشعوب قبل تدفق الإسلام إلى المغرب بوقت طويل أن يؤسس دولة ، هذا الشعب هو شعب الماندى بصفة عامة ، ثم فرع السوننكة أحياناً أخرى ، واتخذت هذه الدولة اسم غانة ، ولا يدل هذا الاسم على الشعب ، إنما يطلق على الطبقة الحاكمة أحياناً أو على العاصمة التى أقاموها أحياناً أخرى .

بارت ودى لافوس يتفقان على أن قيام هـــذه الدولة كان عام ٣٠٠ ميلادية(١) .

---

(١) انظر مادة غانة : دائرة المعارف الاسلامية .

وتأسيس هذه الدولة فى رأى هذين الباحثين لا يرد إلى جهود الماندى إنما ينسب إلى تأثيرات وفدت عليهم من الخارج ، أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة ، وأصهرت إلى الوطنيين .

ويختلف الباحثون فى كنه هذه الطبقة الحاكمة فالأستاذ بارث « Barth » يرى أنها من الفولبة ، ودى لافوس يرى أنهم يمثلون هجرة أتت من الغرب متخذة الطابع المسالم . هجرة لعلها على اليهودية أو غير اليهودية ، إلا أنها استغلت خبرتها وثقافتها فى تكوين هذه الدولة .

وكان أول ملوكهم يدعى كان . واتخذ مدينة أوكار قرب تنبكت الحالية عاصمة له .

واستطاعت هذه الدولة (هذه الأسرة الأولى تتألف من ٤٤ ملكا) فى الفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادى حتى القرن الثامن أن تمتد من أوكار(١) .

وفى آخر القرن الثامن استطاع شعب آخر من شعوب الماندى وهو شعب السوننكة أن يرث هذه الدولة .

فقد استنفد المهاجرة أغراضهم واندمجوا فى السكان ، وعلموا الناس نظمهم وتجاربهم ، واستطاع السوننكة استغلال هذه المواهب للاستيلاء على الحكم فى غانة سنة ٧٧٠م(٢) .

وقد امتدت هذه الدولة امتداداً متصلا فى هذا القرن ، أخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسرير ، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى ، وصلت دولتهم شرقاً إلى أحوار مدينة تنبكت الحالية وإلى النيجر الأعلا فى الجنوب الشرقى ، وإلى أعالى السنغال ونهر Bawle فى الجنوب الغربى ، وفى الغرب صاقبوا بلاد التكرور . أما فى الشمال فقد امتدت إلى أحواز المغرب الأقصى .

كان تدفق الإسلام عند دخوله المغرب الأقصى المرة الأولى ونفوذه إلى غرب

---

(١) Cooley : op. cit. p.ç , 8, 44-45. Hogben ; p, 27.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة غانة .

إفريقية يتوقف على أمرين : إسلام شعب الطوارق وتبنيه للدعوة والجهاد ثم ضعف مقاومة دولة غانة وتسرب الإسلام إليها آخر الأمر لتفسح الطريق الى التيار الإسلامي ليتدفق في وفرة على هذا الجزء من إفريقية .

فلنر كيف أسلم هؤلاء البربر وكيف ضعفت غانة ثم تلاشت وكيف تدفق الإسلام الى هذه الجهات ؟

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين ديار الملثمين فى غمرة صراع العرب من أجل السيطرة على المغرب . بدأت فى ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية حين استطاع أن يقضى على المقاومة المغربية فى المغرب الأوسط ، فلما فرت القبائل أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى متهيئة لرد العدوان لم يجد مفراً من أن يجاوز مدينة تلمسان ، وتدفق بقواته إلى المغرب الأقصى . توغل فى اقليم الساحل حتى طنجة ، ثم انحدر بعد هذا إلى إقليم السوس الأدنى (١) ، وانقض على مصمودة الســاحل واستطاع بفضل معاونة زناته أن يقضى على مقاومتهم ثم واصل تقدمه حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى وأشرف على مدينة أغمات .

بل تذهب بعض الروايات إلى أنه وصل فى هذا الزحف إلى مدينة نول على ساحل المحيط فى أقصى الغرب (٢) . بمعنى أنه توغل فى موطن الملثمــين الذى حددناه تحديداً جغرافياً .

ولم يذعن هؤلاء الملثمون للإسلام منذ اللحظة الأولى ، فقد قاومت قبيلة مسوفة ولمتونة دفاعاً عن كيانها .

ويبدو أن عقبة لم ترهبه هذه المحاولات فهزم المسوفين وواصل الزحف حتى مدينة تاروادنت(٣) ، فاستكانت هذه القبائل ولم تعد إلى المقاومة كما عمد عقبة بدوره إلى بناء مسجد فى مدينة (٤) ماسة . وبناء هذا المسجد يدل على أن ثمة تحولا إلى الإسلام ظهر بين الملثمين . ويبدو أنه عند ما قرر العودة ترك من يعلم هؤلاء الناس مبادىء الإسلام ، كما لا يبعد أن يكون قد أقر شيوخهم على ما بيدهم من سلطان .

---

(١) Fage : West Africa p, 18.

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٠ .

(٣) الإدريسى ص ٦١ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ .

وهنالك روايات أخرى تذهب مذهب المغالاة فى هذا الزحف الإسلامى الأول حين ترى أن عقبة دخل بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة(١).

والرحالة بارت(٢) يمضى مؤيداً هذه الأخبار بقوله إن بعض الروايات المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد.

ونحن عرفنا كيف أن غانة تقع عند منحنى النيجر أو بمعنى أدق فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال.

هل من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ومصب السنغال ومنحنى النيجر ؟.

ويمكن – تفسيراً للرأى السابق – أن نقول أن ديار السود كانت أكثر امتداداً نحو الشمال(٣). وأنه لايبعد أن تكون غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالا حتى المغرب الأقصى.

وقد بقيت ذكرى الفاتح عقبة تنبعث عبر الأجيال ممثلة فى إدعاء بعض الشعوب الانتساب إلى عقبة، وقد لاحظ بارت هذه الحقيقة أثناء رحلته الشهيرة. كما ذكر ميك Meek أن بعض قبائل الفولانى فى شمال نيجيريا تدعى مثل هذا النسب(٤).

مهما يكن الأمر، فإن عقبة كان أول من حمل الملثمين على الإسلام وأول عربى يرتاد هذه الأقاصى، ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا ينفذون إلى هذه الجهات واتخذوا مدينة «أزقى» قاعدة لهم (٥). وبدأوا يخترقون الصحراء إلى مدينة أودغشت حاضرة مسوفة.

لكن عقبة ماكاد يدرك جهوده فى طريق عودته حتى انقض عليه البربر فقتلوه وارتدت القبائل، وكادت جهود العرب كلها تتلاشى...

---

(١) De la Chape le : Héspéris 1930.XI,p.24.

(٢) Berth. op cit vol IV, p, 579.

(٣) R. Basset : Mission au Sengal p. 446.

(٤) Meek : op. cit, vol I, p, 61.

(٥) De la chapelle : op. cit, d. 24.

إلى أن استقامت الأحوال لبنى أمية واستأنفت فتوح المغرب وجاء موسى بن نصير يتم ما بدأه عقبة .

فعاد إلى المغرب الأقصى سالكاً نفس الطريق الذى سلكه عقبة ووصل إلى طنجة ثم سبتة . وانحدر إلى السوس الأدنى ، ثم أدرك ساحل المحيط ، وبلغ وادى درعة وتافللت(١) .

وراح يعمل على إخضاع القبائل التى تنكرت للإسلام بعد مصرع عقبة ، وقد نجح موسى متوسلا بالسياسة التى عرضنا لها فى الباب الأول ، فانتشر الإسلام بين قبائل المغرب الأقصى على أسس جديدة أكثر توطداً من الأسس السابقة . ومن شارات نجاح سياسة موسى اشتراك هذه القبائل فى فتح الأندلس .

وأدرك موسى مواطن الملثمين واتصل بهم ، وردهم إلى الإسلام ، وأنشأ مسجداً فى مدينة أغمات هذه المدينة التى ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية فى المغرب الأقصى .

ولا يبعد أن يكون موسى قد ولى زعماء الملثمين أعمالا فى ديارهم ، فأقبلوا على الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً فى المشاركة فيما ينعم به العرب الفاتحون ، بدليل اشتراك فرق من هؤلاء القوم فى جيش الفتح الذاهب إلى الأندلس(٢) . ومن هنا نؤكد أن إسلام الملثمين تم فى هذا الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نفس السياسة بنشر الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر ، خصوصاً فى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذى عمل على نشر الإسلام فى المغرب الأقصى بإرساله طائفة من التابعين ، انتشروا فى البلاد يعلمون الناس أمور دينهم(٣) .

ثم قامت ثورة الخوارج التى عمت المغرب بأسره . ولم تكن هذه الثورة ارتداداً عن إسلام تأصل ، إنما كانت ثورة على السلطان ، ومنعاً لمظالم وجدها أهل البلاد .

---

(١) ابن عذارى : جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٠٩ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٠٤ .

وتأسيس هذه الدولة في رأي هذين الباحثين لا يرد إلى جهود الماندي إنما ينسب إلى تأثيرات وفدت عليهم من الخارج ، أو على الأقل إلى طبقة حاكمة وافدة احتكرت الزعامة ، وأصهرت إلى الوطنيين .

ويختلف الباحثون في كنه هذه الطبقة الحاكمة فالأستاذ بارت « Barth » يرى أنها من الفولبة ، ودى لافوس يرى أنهم يمثلون هجرة أتت من الغرب متخذة الطابع المسالم . هجرة لعلها على اليهودية أو غير اليهودية ، إلا أنها استغلت خبرتها وثقافتها في تكوين هذه الدولة .

وكان أول ملوكهم يدعى كان . واتخذ مدينة أوكار قرب تنبكت الحالية عاصمة له .

واستطاعت هذه الدولة (هذه الأسرة الأولى تتألف من ٤٤ ملكا) في الفترة الممتدة من القرن الرابع الميلادي حتى القرن الثامن أن تمتد من أوكار(١) .

وفي آخر القرن الثامن استطاع شعب آخر من شعوب الماندي وهو شعب السوننكة أن يرث هذه الدولة .

فقد استنفد المهاجرة أغراضهم واندمجوا في السكان ، وعلموا الناس نظمهم وتجاربهم ، واستطاع السوننكة استغلال هذه المواهب للاستيلاء على الحكم في غانة سنة ٧٧٠م(٢) .

وقد امتدت هذه الدولة امتداداً متصلا في هذا القرن ، أخضعت بلاد فوتا حيث التكرور والولوف والسرير ، ووصل هذا التوسع إلى نهايته القصوى في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي ، وصلت دولتهم شرقاً إلى أحوار مدينة تنبكت الحالية وإلى النيجر الأعلا في الجنوب الشرقي ، وإلى أعالي السنغال ونهر Bawle في الجنوب الغربي ، وفي الغرب صاقبوا بلاد التكرور . أما في الشمال فقد امتدت إلى أحواز المغرب الأقصى .

كان تدفق الإسلام عند دخوله المغرب الأقصى المرة الأولى ونفوذه إلى غرب

---

(١) Cooley : op. cit. p.ς , 8, 44–45. Hogben ; p, 27.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة غانة .

إفريقية يتوقف على أمرين : إسلام شعب الطوارق وتبنيه للدعوة والجهاد ثم ضعف مقاومة دولة غانة وتسرب الإسلام اليها آخر الأمر لتفسح الطريق الى التيار الإسلامى ليتدفق في وفرة على هذا الجزء من إفريقية .

فلنر كيف أسلم هؤلاء البربر وكيف ضعفت غانة ثم تلاشت وكيف تدفق الإسلام الى هذه الجهات ؟ .

بدأت المحاولات الأولى لانتشار الإسلام بين ديار الملثمين فى غمرة صراع العرب من أجل السيطرة على المغرب . بدأت فى ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية حين استطاع أن يقضى على المقاومة المغربية فى المغرب الأوسط ، فلما فرت القبائل أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى متهيئة لرد العدوان لم يجد مفراً من أن يجاوز مدينة تلمسان ، وتدفق بقواته إلى المغرب الأقصى . توغل فى اقليم الساحل حتى طنجة ، ثم انحدر بعد هذا إلى إقليم السوس الأدنى (١) ، وانقض على مصمودة الساحل واستطاع بفضل معاونة زناته أن يقضى على مقاومتهم ثم واصل تقدمه حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى وأشرف على مدينة أغمات .

بل تذهب بعض الروايات إلى أنه وصل فى هذا الزحف إلى مدينة نول على ساحل المحيط فى أقصى الغرب (٢) . بمعنى أنه توغل فى موطن الملثمين الذى حددناه تحديداً جغرافياً .

ولم يذعن هؤلاء الملثمون للإسلام منذ اللحظة الأولى ، فقد قاومت قبيلة مسوفة ولمتونة دفاعاً عن كيانها .

ويبدو أن عقبة لم ترهبه هذه المحاولات فهزم المسوفيين وواصل الزحف حتى مدينة تاروادنت(٣) ، فاستكانت هذه القبائل ولم تعد إلى المقاومة كما عمد عقبة بدوره إلى بناء مسجد فى مدينة (٤) ماسة . وبناء هذا المسجد يدل على أن ثمة تحولا إلى الإسلام ظهر بين الملثمين . ويبدو أنه عند ما قرر العودة ترك من يعلم هؤلاء الناس مبادىء الإسلام ، كما لا يبعد أن يكون قد أقر شيوخهم على ما بيدهم من سلطان .

---

(١) Fage : West Africa p, 18,

(٢) البكرى : المغرب ص ١٦٠ .

(٣) الإدريسى ص ٦١ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ .

وهنالك روايات أخرى تذهب مذهب المغالاة فى هذا الزحف الإسلامى الأول حين ترى أن عقبة دخل بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة(١).

والرحالة بارت(٢) يمضى مؤيداً هذه الأخبار بقوله إن بعض الروايات المحلية تدعى أنه كانت بغانة جالية إسلامية سنة ٦٠ هجرية وأنه قد بنى بها عدد من المساجد.

ونحن عرفنا كيف أن غانة تقع عند منحنى النيجر أو بمعنى أدق فى المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال.

هل من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ومصب السنغال ومنحنى النيجر ؟.

ويمكن — تفسيراً للرأى السابق — أن نقول أن ديار السود كانت أكثر امتداداً نحو الشمال(٣). وأنه لايبعد أن تكون غانة الزنجية قد مدت نفوذها شمالا حتى المغرب الأقصى.

وقد بقيت ذكرى الفاتح عقبة تنبعث عبر الأجيال ممثلة فى إدعاء بعض الشعوب الانتساب إلى عقبة، وقد لاحظ بارت هذه الحقيقة أثناء رحلته الشهيرة. كما ذكر ميك Meek أن بعض قبائل الفولانى فى شمال نيجيريا تدعى مثل هذا النسب(٤).

مهما يكن الأمر، فإن عقبة كان أول من حمل الملثمين على الإسلام وأول عربى يرتاد هذه الأقاصى، ففتح الطريق أمام تجار العرب الذين بدأوا ينفذون إلى هذه الجهات واتخذوا مدينة «أزقى» قاعدة لهم (٥). وبدأوا يخترقون الصحراء إلى مدينة أودغشت حاضرة مسوفة.

لكن عقبة ماكاد يدرك نهوده فى طريق عودته حتى انقض عليه البربر فقتلوه وارتدت القبائل، وكادت جهود العرب كلها تتلاشى.

---

(١) De la Chape le : Héspéris 1930.XI,p.24.

(٢) Berth. op cit vol IV, p, 579.

(٣) R. Basset : Mission au Sengal p. 446.

(٤) Meek : op. cit, vol I, p, 61.

(٥) De la chapelle : op. cit, d. 24.

إلى أن استقامت الأحوال لبنى أمية واستأنفت فتوح المغرب وجاء موسى بن نصير يتم ما بدأه عقبة.

فعاد إلى المغرب الأقصى سالكاً نفس الطريق الذى سلكه عقبة ووصل إلى طنجة ثم سبتة. وانحدر إلى السوس الأدنى ، ثم أدرك ساحل المحيط وبلغ وادى درعة وتافللت(١).

وراح يعمل على إخضاع القبائل التى تنكرت للإسلام بعد مصرع عقبة ، وقد نجح موسى متوسلا بالسياسة التى عرضنا لها فى الباب الأول ، فانتشر الإسلام بين قبائل المغرب الأقصى على أسس جديدة أكثر توطداً من الأسس السابقة . ومن شارات نجاح سياسة موسى اشتراك هذه القبائل فى فتح الأندلس .

وأدرك موسى مواطن الملثمين واتصل بهم ، وردهم إلى الإسلام ، وأنشأ مسجداً فى مدينة أغمات هذه المدينة التى ستغدو من أهم مراكز الإسلام والثقافة العربية فى المغرب الأقصى .

ولا يبعد أن يكون موسى قد ولى زعماء الملثمين أعمالا فى ديارهم ، فأقبلوا على الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً فى المشاركة فيما ينعم به العرب الفاتحون ، بدليل اشتراك فرق من هؤلاء القوم فى جيش الفتح الذاهب إلى الأندلس(٢) ، ومن هنا نؤكد أن إسلام الملثمين تم فى هذا الوقت .

وقد تابع خلفاء موسى نفس السياسة بنشر الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر ، خصوصاً فى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذى عمل على نشر الإسلام فى المغرب الأقصى بإرساله طائفة من التابعين ، انتشروا فى البلاد يعلمون الناس أمور دينهم(٣).

ثم قامت ثورة الخوارج التى عمت المغرب بأسره . ولم تكن هذه الثورة ارتداداً عن إسلام تأصل ، إنما كانت ثورة على السلطان ، ومنعاً لمظالم وجدها أهل البلاد

(١) ابن عذارى : جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٥٩ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٠٤ .

وقد شارك الملثمون فى هذه الفتنة واستكانوا حين هدأت ، واسترد المغرب الأقصى مزيداً من الحرية الداخلية . حينما قامت به إمارات محلية إسلامية ، مثل إمارة سجلماسة(١) ، التى ظفرت بتأييد الملثمين .

ولم يعدل ولاة القيروان عن الاهتمام بالمغرب الأقصى ، بل عملوا على إبقاء الصلات التى تربطه بإفريقية ، فعمل عبد الرحمن بن حبيب مثلا على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين أو دغشت بصحراء المغرب العربى (٢) .

واستطاع جنوده عبور الصحراء وأمعنوا فى نشر الإسلام فى أقاصى أوطان الملثمين . واستطاع تجار العرب أن يتنقلوا بديار الملثمين وبلاد السودان ، وأصبحت القوافل أوفر جرأة على ارتياد هذا الطريق .

ثم قامت دولة الأدارسة العلويين فى المغرب الأقصى . وقامت بنفس الدور الذى قام به الأغالبة فى تونس ، بتوحيد البلاد وإقرار السكينة بعد فتن الخوارج ، وكان نسبهم العلوى سبباً فى توحيد القبائل المختلفة .

وقد نجح الأدارسة فى إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر(٣) ، واستأنفوا الجهاد لإتمام إسلام البلاد ، فعملوا على رد المصامدة إلى الإسلام وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان ، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف ومكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى .

ولم يتخلف الملثمون عن المشاركة فى بيعة الأدارسة الإفادة من جهودهم الصادقة فى نشر الإسلام .

ولعل الثقافة العربية التى كانت تنبعث من مدينة فاس قد وصلت أيضاً إلى مواطن الملثمين ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها ، وكذلك على النواحى الشمالية من ديار الملثمين وتخطى نفوذهم جبال درن ، وانتشر فى إقليم الواحات .

---

(١) ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٠٥ .

(٢) De la chapelle : op. cit, pp, 56–57.

(٣) Terrasse : Hist, de Marco .p, 11.

وروى المؤرخون أن عبد الله بن إدريس أخضع قبيلة لمطة على ساحل المحيط وتولى أغمات والسوس الأقصى ، وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال(١).

من ذلك يتبين أن مضارب الملثمين القريبة من جبال أطلس قد خضعت للأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، لذلك لن نتردد فى القول بأن إسلام صنهاجة الذى بدأ فى عهد عقبة قد تأكد فى عهد الأدارسة خصوصاً فى القرن الثالث الهجرى(٢).

كان إسلام قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ذا أثر بالغ فى تاريخ المغرب والسودان ، إذ أدى إلى قيام حلف قوى يجمع الملثمين جميعهم بزعامة لمتونة .

وكان هذا التوحيد فى ظل الإسلام نذيراً بموجة من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بغرب إفريقية (٣) .

فكان لا بد لها أن تواجه مملكة غانة التى وصلت فى هذا الوقت إلى أوج قوتها وتوسعها .

ورغم هذا نجح الملثمون فى منازلة غانة ،وأمنعوا فى زحفهم حتى دخلوا أودغشت، واتخذوها حاضرة لهم ، وفرضوا الجزية على الشعب المغلوب .

ولم يدم هذا النصر ، فقد تفرق الحلف مرة أخرى سنة ٣٠٦ هجرية ، واستطاعت غانة من خلال هذه الفرقة أن تستعيد مدينة أودغشت ، وبدت وكأنها لم تصب بسوء ، بل كانت طوال الخمسين سنة التالية أعظم قوة فى غرب إفريقية .

غير أنه ترتب على هذا الاحتكاك المتصل عن طريق المتاجرة أو الحرب أن تسرب الإسلام إلى بلاد غانة نفسها .

وضحت هذه الحقيقة على الخصوص خلال القرن الحادى عشر . يتبين هذا من رواية البكرى الذى زار هذه البلاد سنة ٤٦٠هـ سنة ١٠٦٧ م . وذكر أن بمدينة غانة حين واحد للمسلمين به اثنا عشر مسجداً وعدد من الفقهاء وأهل العلم . وهذا يوضح لنا نتيجة هذا النضال الذى استمر أكثر من مائتى سنة . أما الحى الآخر فهو

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧١ .

(٢) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ .

(٣) Terrasse : op, cli, p, 222,

بمقر الملك تحيط به طائفة من الأكواخ المستديرة يضمها سور واحد . وإلى جانب القصر أنشىء مسجد آخر يؤدى فيه زوار الملك من المسلمين صلاتهم، الأمر الذى يشهد بظهور رعية مسلمة وفيرة العدد تعمر هذا العدد الوفير من المساجد ، هذا الحى الملكى يسمى بالغابة لكثرة ما يحيط به من أشجار ، وبهذه الغابة ينزل الكهنة والسحرة وعبدة الأصنام . ورغم وجود الوثنية على هذا النحو فإن حاشية الملك نفسه ووزراءه كانوا من المسلمين .

وكان مضى الإسلام إلى أبعد من هذا يتوقف على استئناف الملثمين للجهاد بإتمام وحدتهم من جديد ثم على مدى مقاومة مملكة غانة لهذا التيار الإسلامى المنحدر من الشمال .

ويبدو أن الملثمين كانوا قد اتخذوا هذا الجهاد سياسة مرسومة يتوارثونها ، كما اتخذوا هذا التوسع نحو الجنوب غايتهم التى يسعون إلى تحقيقها . وكانت الحرب تستأنف كلما تمت الوحدة ، ثم تهدأ إذا تفرقت القبائل .

وقد شهد القرن الخامس الهجرى محاولة للتوحيد من هذا النوع تمت فى سنة ٤٢٩ هـ(١) ، ثم تمت فى أعقابها محاولة جادة لاستئناف الجهاد أو محاربة أهل غانة .

ولم يستطع الملثمون للمرة الثانية أن يمضوا إلى أبعد مما مضوا ، فقد هزموا وقتل زعيمهم ، وأخفقوا فى انتزاع مدينة أودغشت والسيطرة بالتالى على تجارة السودان (٢)

ويبدو أن هذا الإخفاق المتصل قد أثر فى نفسية الملثمين وفى مصيرهم كانت قبيلة لمتونة هى التى تزعمت هذا الزحف الإسلامى طيلة السنين الماضية فانتقلت الزعامة إلى قبيلة جدالة . ولعل انتقالها على هذا النحو يغير من مصير هذه الحرب التى لا تهدأ (٣). ثم رأى الواعون من زعمائها أنه لا تتم الوحدة المنشودة ولا يتحقق الجهاد ، إلا فى ظل إسلام جديد يضم الملثمين فى وحدة تنيلهم أغراضهم وتحقق أهدافهم .

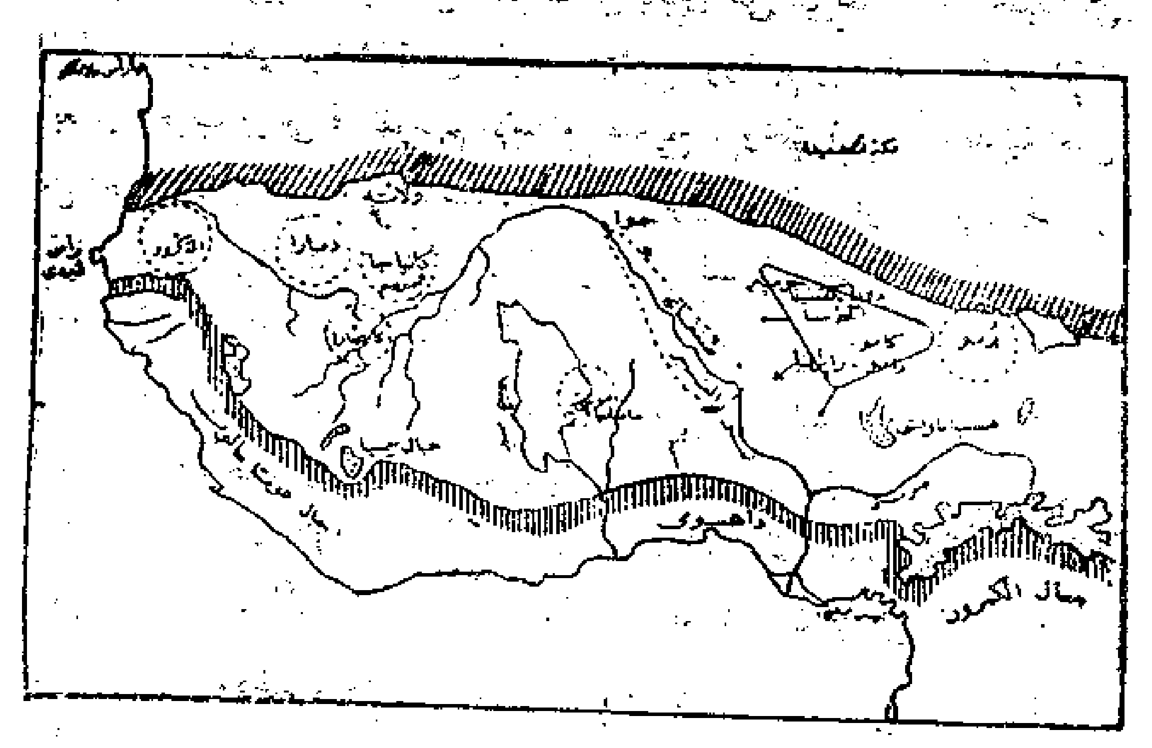
كان زعماء جدالة فى القرن الخامس الهجرى يرون أن سر البلاء والإخفاق يرجع إلى عدم عمق الشعور بالوحدة وسرعة تفرق الجماعة وأن أحسن وسيلة لتحقيق النجاح

---

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

(٢) البكرى : المغرب ص ١٧٠ .   (٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٢ .

أن يلتمس وسيلة أخرى لتحقيق وحدة جديدة أطول عمراً ، وأن أحسن وسيلة أن يوحد هذا الحلف بدعوة دينية تنبثق فى صفوفهم ، فتوحد الناس وتذكى فى نفوسهم الرغبة فى الجهاد .



ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن الثالث عشر الميلادى

فاستقدم زعيم جدالة فقيهاً مالكياً من فقهاء المغرب الأقصى يدعى عبد الله بن ياسين ليمكن للإسلام الصحيح من نفوس الناس ، ويدعو للوحدة على أسس جديدة . وهذا الاختيار كان معناه بداية امتداد نفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى ، ثم تخطيه حدود هذا الإقليم نحو الجنوب وانتشاره فى بلاد السودان .

ارتحل عبد الله بن ياسين إلى ديار الملثمين ، وأخذ يدعو الناس إلى التمسك بأسباب الدين ، ويمهد للوحدة السياسية ، فلم يستطع ، وآثر أن يسلك فى تحقيق هذه الغاية سبيلا آخر .

هاجر نحو الجنوب مع بعض صحبه إلى جزيرة نائية فى مصب السنغال الأدنى(١) ،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

وأخذ يحيا حياة التصوف والتقشف والزهد والمرابطة ، وكان الناس يسمعون بأخباره فيرحلون إليه وينضمون لرباطه ، ومن هنا اتخذ أتباعه اسم المرابطين .

فى هذه الجزيرة النائية عمل عبد الله بن ياسين على أن يخلق جيلا جديداً من المسلمين ، ويعدهم لحياة شاقة من الجهاد ، وشرع يروضهم رياضة روحية وبدنية ، ويعدهم للحرب وينمى فى نفوسهم الإسلام الصحيح ، ويخلق فيهم طبقة فدائية تعمل على إحياء السنة والقضاء على المفاسد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد ، وتحقيق الوحدة بين الملثمين على هذا الأساس الدينى الصرف وإشعال الحمية فى نفوس هذه القبائل واستخدامها فى معركة الجهاد .

فلما زاد عدد أنصاره من المرابطين خرج من رباطه لينفذ السياسة التى رسمها لنفسه ، فبدأ بالجهاد فى ميدان غرب إفريقية ، فسار إلى الشرق إلى منحنى النيجر ، ودخل مدينة أودغشت(١) ، وانتزعها من ملوك غانة ونجح نظامه الجديد فى هذه المعارك نجاحاً بعيد الأثر . استبسلوا استبسالا لم يعرفه الملثمون من قبل .

ثم جاوز أودغشت جنوباً بدليل ما يذكره المؤرخون من أن رئيس التكرور حالف المرابطين ، وحارب إلى جوارهم .

وكان هذا النجاح بعيد الأثر فى نفوس الملثمين ، فانضمت إليه قبيلة لمتونة ، ثم سار صوب الشمال ووحد القبائل بزعامته مرة أخرى .

وفى الوقت الذى اندفع فيه المرابطون صوب المغرب الأقصى ثم الأندلس انغماساً فى الجهاد ومدافعة للمسيحيين فى الأندلس ، كانت جموعهم تتابع جهود عبد الله بن ياسين .

ففى الوقت الذى كان فيه يوسف بن تاشفين يقود معركة الجهاد فى ميادين المغرب والأندلس ، كان الأمير الشرعى أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين فى الجنوب .

وقد استطاع بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يستولى على القسم الأكبر

---

(١) البكرى ص ١٦٨ .

من غانة(١)، وأن يضمه إلى دولة المرابطين النامية . ورغم أنه مات فى ميدان المعركة، إلا أن الأثر الذى تركه لم يذهب بوفاته . فقد انكمش سلطان غانة واستقلت بعض أقاليمها ، كما التهم ملوك صوصو أقاليم أخرى وانتهى أمر من بقى باعتناق الإسلام (٢) .

وكان إضعاف ملك غانة على هذا النحو بمثابة انفساح المجال أمام الإسلام ليتدفق إلى غرب إفريقية فى قوة وعنف .

فقد أسلم ملوك غانة وأخلصوا فى إسلامهم . وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم ، وتحولت غالبية الشعب الغانى إلى الإسلام .

ويبدو أن هذه الدفعة التى دفعها المرابطون للإسلام كانت قوية ، بل أقوى مما يظن ؛ إذ تركت فى تاريخ الإسلام فى غرب إفريقية آثاراً عميقة . ذلك أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام فى المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر ، بل نشروا الإسلام على ضفاف السنغال (٣) .

وتمخضت هذه الجهود عن إسلام شعب التكرور فعمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين .

أما القبائل التى لم تذعن لهذه الدعوة الإسلامية فقد بحثت لها عن أوطان أخرى : هاجر السيرير مثلا صوب الجنوب ، وهاجرت قبائل أخرى صوب الغرب(٤) ، وهاجر الفولبة إلى منطقة فوتاتورو(٥) .

وفى ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس المغرب ومدارس الأندلس ؛ فقد وحد المرابطون بين السودان والمغرب والأندلس فى دولة واحدة(٦) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة غانة .

(٢) Fage : op. cit, p. 21.

(٣) L'Islam noir, p. 28.

(٤) Meek : op. cit. vol I. p. 16.

(٥) L'Islam noir, p. 28, Dubois. p. 261.

(٦) Meek : op. cit. vol I. p. 61.

وقد تم فى عهدهم أعظم أثر فى الميدان الثقافى فى تاريخ السودان ، حينما أسست مدينة تنبكت التى أصبحت حاضرة للثقافة العربية فى غرب إفريقية .

تأسست هذه المدينة فى آخر القرن الخامس الهجرى ، فيذكر السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان ، أن قوماً من طوارق مقشرن اختطوا هذه المدينة ، وهم قوم من البدو ، قدموا هذه البلاد لرعى أغنامهم ، فكانوا يصيفون على ضفاف النيجر فى موقع هذه المدينة ، ثم يرحلون فى الخريف إلى أوطانهم(١) ، ثم استقر بهم المقام بسبب استقرار الحياة فى عهد المرابطين ، فأنشئت هذه المدينة ، وأضحت سوقاً هامة يؤمها الرحالة ويفد عليها التجار بطريق النهر أو تأتيها القوافل عن طريق مراكش .

وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فأخذوا يشخصون إليها من المغرب الأقصى والأندلس ، بل من مصر وغدامس وتوات وتافلات وفاس وغيرها(٢) « ما دنسها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والصالحين(٣) » وبنى بها مسجد جامع ، ومسجد آخر يسمى مسجد سنكرى .

وكانت فى المدينة عمائر حسنة وبنيت من حولها الأسوار وحلت المساكن المبنية من اللبن محل الأكواخ .

كما امتد الإسلام إلى مدينة أخرى كان لها فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتنبكت . وهى مدينة جنى ، أسلم أهلها آخر القرن السادس الهجرى ، وأمها العلماء والفقهاء ، والسعدى يذكر أنه كان بها أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم .

انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام على نطاق واسع وتوطن الثقافة العربية فى مركزين مشهورين فى تنبكت وفى جنى وبتفرق غانة وضعفها ثم تلاشيها آخر الأمر .

---

(١) L'Islam noir, p. 28, Dobois, p. 261.

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ٢١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦ .

٢ — دور الازدهار

يمتاز هذا الدور بطابع خاص وسمات واضحة تختلف من وجوه كثيرة عما ألفناه في العصر السابق .

إذ يمثل انتقال السلطان إلى أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا في الإسلام وتشربوا الثقافة وتأثروا بتقاليده ، واقتبسوا من نظمه وأفادوا من خبرات البربر الذين خالطوهم واتصلوا بهم .

وهذا تطور طبيعي في تاريخ الإسلام في أي مجتمع من المجتمعات . هو نفس التطور الذي شهدناه في المغرب حين انتقل السلطان إلى أهل البلاد أنفسهم بعد ضعف العرب ، وتفرق نفوذهم ودمائهم . بل شهده كل قطر دخله الإسلام وتغلغل فيه .

فتأسست دول إسلامية ملوكها من أهل البلاد الأصليين ذوى الدم الزنجي الخالص أو الذين اختلطت دماؤهم بدماء البربر . فدولة ملي مثلا أسسها شعب الماندجو . ودولة سنغى أسستها أسرة من شعب سنغى اختلطت بدماء البربر .

وليس معنى هذا استبعاد نفوذ البربر نهائياً ولم يكن من المعقول أن يستبعدوا ، وقد كانوا العامل المؤثر الفعال في تاريخ البلاد ، إذ لا يبعد أن يكون مستشارو الملك ووزراؤه وربما بعض قواده من البربر الخلص أو ممن اختلطوا بدماء البربر .

وقد عرض فيدج Fage (١) لهذه الامبراطوريات محاولا أن يفلسف أسباب قيامها واتساعها ثم اضمحلالها . ولعله تأثر بنظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ الإسلامي .

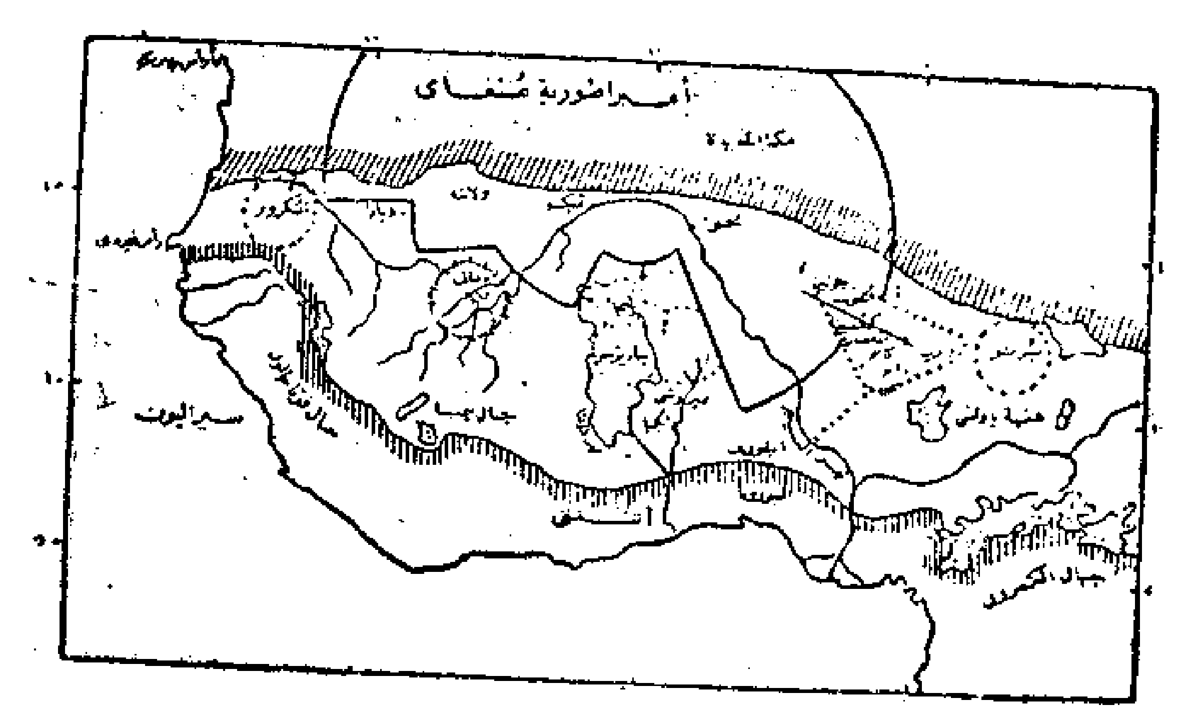
وهو يرى — وهذا صحيح — أن هذه الامبراطوريات تعتمد في تكوينها على قوات راكبة من الخيالة أو الأبالة . فتكتسب عنفاً وسرعة في الانتشار في منطقة السافانا الممتدة من الغرب إلى الشرق .

وقد يصل نفوذها إلى مشارف الغابات ثم يتوقف لأن الخيل أو الإبل لا تقوى على اختراق هذا النطاق .

والشعوب التي تدين لهذه الدولة بالطاعة تحتفظ بتقاليدها المحلية وبلغاتها لأن الحاكمين

(١) Fage : West Africa pp. 17-18.

لا يعنيهم إلا مجرد دفع الجزية المقررة فلم تنجح دولة من هذه الدول فى خلق أمة موحدة السمات لذلك تبقى هذه الدولة ويطول حكمها إذا استطاعت الاحتفاظ بجهازها العسكرى فعالا سليماً .



(ولايات السودان الغربى فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى)

لكن ثمار النصر وتكدس الأموال والإغراق فى الترف يضعف هذه الروح العسكرية إلى جانب تزوجهم من أهل البلاد المغلوبة ، فتضعف فيهم روح العصبية ، وسرعان ما تتعرض هذه الامبراطوريات التى تضعف على هذا النحو لغارات جديدة من البربر ، أو غارات أخرى لشعب زنجى فتى يريد أن يقوم بنفس الدور .

والنشاط الإدارى لمثل هذه الدول لم يتجاوز مجرد تحصيل الجزية وهذا الأمر بدوره يتوقف على قوة الدولة ، فإن ضعفت قلت حصيلتها من الجزية . وهذا المجال الواسع الذى تنتشر فيه هذه الامبراطوريات يتطلب من الحاكم الاستبداد بالسلطة ، ثم التجوال المستمر عبر البلاد بصحبة الجيش للقضاء على الفتن ، فإذا تراخى وريثه ساءت الحال .

والحكم فى الولايات النائية ومناطق الأطراف يعهد به عادة إلى فريق من النواب أو القواد قد يغريهم البعد بالطمع فى الاستقلال أو الثورة ؛ وفى بعض الأحيان يولى أهل البلاد فيؤسسون بدورهم دولا تستقل عن الدولة الكبرى . وهذه الدول الكبرى كلما اتسعت فى الرقعة كلما تناهت فى السوء ، وباتت أشد تعرضاً للتفكك ثم الانهيار .

هذه الدول بعد قيامها تشتغل بالحياة الإسلامية ، وتتخذ مظهراً إسلامياً واضح المعالم يتمثل فى أمور معينة . يتمثل فى خروج الملوك المسلمين إلى الحج فى مواكب حافلة ، ثم اتصالهم بالقوى الإسلامية المختلفة المعاصرة فى المغرب أو مصر تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية التى يفرضها هذا الدين ، يتمثل هذا فى خروج سلاطين ملى وسنغى وبرنو وكانم للحج ، ثم عملهم على الاتصال بمراكز القوة فى العالم الإسلامى .

ومن المظاهر أيضاً التشبه بالقوى الإسلامية فى نظم الحكم ، فيقلدون هذه النظم ويطبقونها فى بلادهم ، مثل ما فعله بعض ملوك سنغى فى تطبيق بعض مظاهر النظم الإدارية التى شاهدوها فى مصر .

ثم تتخذ هذه الدول اللغة العربية وسيلة للأداء والتعبير الرسمى ، فيتخذون الكتاب من أصحاب العلم والمعرفة ، ومراسلات أمثال هؤلاء مع ديوان الإنشاء فى مصر أوضح مثل لذلك .

ومن مظاهر هذا التعبير الإسلامى إحاطتهم ببطانة من العلماء والفقهاء وأهل الفتيا ، وإنشاء المساجد ، وتشجيع الحركة العلمية ، وإيفاد الطلاب لمراكز العلم فى البلاد الإسلامية .

ثم يتبنون سياسة الجهاد توكيداً للروح الإسلامية التى غلبت عليهم . ويكون ميدان الجهاد فى المناطق المصاقبة التى تنزل فيها الشعوب الوثنية .

وهذا الدور تتضح فيه مظاهر الالتقاء الحضارى بين الإسلام وتقاليده وأنظمته ، وبين التقاليد والنظم المحلية ، وهى تشبه عملية التقاء الثقافة العربية بالثقافات القديمة فى الشرق الأدنى ، ثم ظهور أنماط جديدة جامعة بين هذا وذاك . فظهرت فى هذا الدور أنماط من نظم الحكم جامعة بين المؤثرات الإسلامية والمؤثرات الزنجية .

فلنعرض لهذه الدول التى ظهرت فى هذا الدور مطبقين الأسس التى عرضنا لها فنبين مدى انفعالها مع الحياة الإسلامية ومدى تحقيقها للمظاهر السابقة .

سلطنة ملي :

مظاهر قيام هذه السلطنة ثم توسعها وانحدارها ثم سقوطها بعد ذلك تتمثل فيه الظروف التي سبق أن أشرنا إليها في معرض كلامنا عن قيام هذه الامبراطوريات الإسلامية والتطورات التي مرت بها والظروف التي خضعت لها .

فقد أسسها شعب زنجي أصيل(١) هو شعب الماندنجو(٢) ، واسم هذه السلطنة يؤيد هذا القول ، فكلمة ملي تحريف لكلمة ماندنجو ومعناها المتكلمين بلغة الماندى . فالفولانيون يطلقون عليهم اسم مالى ، والبربر اسم ملي أو مليت . والمؤرخون العرب يخلعون عليهم لقب مليل ، على حين نجد الحوصة يسمونهم بالونجارة .

هذا الشعب الزنجي الخالص اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادى عشر في الحركة الدافعة الكبرى التي صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربي .

وكان بعض هؤلاء الناس قد أنشأوا دويلة صغيرة انفصلت عن غانة ، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتي يطلق عليها المؤرخون اسم مملكة كانجابا kangaba .

هذه الدويلة التي أسلمت أرادت أن تشارك بنصيب في الحياة الإسلامية وأن تؤسس لها ملكاً إسلامياً خالصاً .

وكان توسع هذه الدولة يستجيب للأحداث السياسية المعاصرة ، ولنه يب الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف .

مصداق ذلك أن توسعها واستهلالها لحركة دافعة من الفتح أو التوسع وقع في القرن الثالث عشر ، في الوقت الذى تفكك فيه ملك غانة بعد صراعها مع المرابطين(٣) . وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفوفها على نطاق واسع .

وفي نفس الوقت كانت دول المغرب الإسلامي قد شغلت بشئونها الخاصة وبأحداثها فامبراطورية الموحدين كانت قد دهمها الانحلال والتفكك وانقسمت إلى دول صغرى متصارعة من أجل القوة والنفوذ .

---

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ٩ .

(٢) Cooley, pp. 46–47.

(٣) Fage, p. 24.

وقد توفرت لهذه الدولة النامية القوة بامتلاكها ناصية القوة العسكرية وتعرفها على أساليب القتال وتجنيدها جيشاً قائماً من الخيالة والأبالة ثم تبنيها لحركة الجهاد في في سبيل الإسلام .

وضح هذا التطور في عهد ملكها اسندياتا ، وكان مظهر هذا التطور استطاعة هذا الملك عام ١٢٣٧ م أن يقهر مملكة صوصو القوية ، وأن يصرع صاحبها في ميدان المعركة ثم التهامه ما بقى من شبح ملك غانة القديم (١) ؛ فانفسح المجال أمام هذه الدول المتطلعة إلى النفوذ والقوة بعد تغلبها على غانة من ناحية وعلى صوصو من ناحية أخرى .

ومن مظاهر بروز هذه الدولة في سماء الحياة السياسية ، وتطورها على هذا النحو ، اتخاذها حاضرة جديدة ترمز إلى الدولة وإلى قوتها النامية ونفوذها المطرد .

ويستفاد مما كتبه محمود كعت في كتابه « الفتاش » أن هؤلاء الملوك كانت لهم عاصمة قديمة تسمى جريبة جاوزها إلى عاصمة جديدة اتخذت اسم « نياني » .

وقد أدت الحفريات التي أجريت في منطقة النيجر في السنوات الأخيرة إلى تأييد ما ذكره هذا المؤرخ ، إذ تم الكشف عن موقع هذه المدن عند ملتقى النيجر بفرعه Sankaran (٢) .

واستمرت هذه الحركة التوسعية في عهد سندياتا ، واستمر هذا القصور الذاتي بعد وفاته في عهد خليفته منسى ولى (٣) (١٢٥٥ — ١٢٧٠) ، فاستولى على مناجم الذهب في ونجارة ، كما استولى على بمبوك وبوندة .

ولم تتوقف الفتوح بعد منسى ولى ، وإنما استمرت في عهد خلفائه حتى وصلت الغاية في عهد ملك مالى الشهير منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٢٢) .

فقد استولت جيوشه على ولاتة . ودخلت تنبكت ومنطقة جاو في النيجر الأوسط ، وامتدت هذه الدولة في آخر العهد به إلى بلاد التكرور في الغرب ثم إلى دندى

---

(١) Hoghben, pp. 30-34.

(٢) Hoghben, pp. 20-34.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة مالى .

فى الشرق ، بل امتد نفوذها شمالا إلى ولاتة ، وأروان وتادمكة فى قلب الصحراء(١) ، وأوغل نفوذها جنوباً حتى فوتا جالون .

وقد عدد القلقشندى الأقاليم التى انضوت تحت لواء هذا الملك الواسع وذكر منها : ملى وصوصو وغانا وكوكو تكرور .

بل يستفاد من رواية القلقشندى أن آمال منسى موسى لم تقف عند حدود البحر بل امتدت إلى ما وراءه ، وكأن هذا السلطان أراد أن يتبع توسعه البرى بتوسع بحرى باكتشاف معالم المحيط الأطلسى ، فأعد حملة مكونة من مائتى سفينة شحنها بالرجال والأزواد وأمرهم ألا يعودوا حتى يبلغوا نهاية البحر ، ولما لم يعودوا جهز حملة أخرى فكان نصيبها الإخفاق(٢) .

إذن استطاع هؤلاء السلاطين أن يبسطوا سلطانهم على سهل السفانة الفسيح من منطقة السنغال فى الغرب حتى منطقة شاد فى الشرق بعد امتلاكهم أعنة الخيل والإبل ،

وقد نجم عن هذا كله تدفق الجزية فى مبالغ ضخمة إلى خزانة الدولة . ثم احتكارها لسلع الملح والذهب وغيره من المعادن ، ثم سيطرتها على التجارة العالمية الرائجة المنطلقة من مدن السودان إلى مدن المغرب وما صحب هذا من الغنى الفاحش والثراء الجم الذى يلوح من وصف كل من ابن بطوطة(٣) وليو الأفريقى ، ثم إنشاء العلاقات التجارية مع بلاد المغرب ومع مصر .

وما كادت الدولة تبلغ الغاية من التوسع حتى بدت مظاهر الضعف فأغرق الملوك فى الترف .

والقلقشندى(٤) يضرب لذلك مثلا بالسلطان مارى جاطة بن منسى مغا ، الذى بدد الثروات فى ملذاته ونزواته ، وفقد الملوك المتعاقبون روحهم العسكرية ، فبدأت الأقاليم الخاضعة تستقل الواحدة بعد الأخرى : استقلت جاو وأروان وولاتة (٥) .

---

(١) Fage, p. 24.

(٢) Fage, p. 26.

(٣) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٩٤ .

(٤) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٠٤ .

(٥) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٧ .

وبدأ الولوف والتكرور يغيرون من الغرب ، ودولة الكانم من الشرق واستقلت إمارة سيكون لها شأن عظيم ، وهي إمارة سنغي ، وانفسح المجال أمام شعب جديد سيظهر على مسرح الحوادث (١) .

ولا يعنينا من سيرة هذه الدولة إلا أن نبين كيف انفعلت انفعالا إسلامياً ، وكيف استطاعت أن تحقق من المظاهر الإسلامية ما سبق أن نوهنا عنه :

أول هذه المظاهر اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية . ظهر هذا من اتجاه هؤلاء السلاطين إلى الحج إلى مكة ثم زيارة مصر في الطريق .

وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر قيام الدولة ، إذ أشار القلقشندى لخروج منسى ولى بن ماري جاطة (٢) للحج في عهد السلطان بيبرس .

وكان هؤلاء الحجاج يجتازون الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات ، والذى يمتد من هذ المدينة وينتهى عند أهرام مصر .

لكن هذه الصلات ظهرت في صورة واضحة قوية في عهد السلطان منسى موسى (٣) ، الذى يعتبر موكبه من أروع مشاهد مواكب الحاج التى وفدت على مصر في القرن الثامن الهجرى .

إذ بلغت عدة من جاء في ذلك الركب أكثر من عشرة آلاف شخص(٤) وبرغم ما في هذا العدد من مبالغة إلا أن مجيء ذلك الوفد الضخم أتاح للمصريين فرصة طيبة لمعرفة الكثير من أحوال تلك البلاد .

فالعمرى في كتابه مسالك الأبصار يستمد معظم معلوماته عن الأمير أبي العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ، الذى ندبه السلطان الناصر محمد للاشراف على ضيافة هذا الملك . وقد ظهر ثراؤه الواسع ، فقد بعث إلى الخزانة السلطانية بهدايا من بينها حمل كبير من الذهب الخام .

---

(١) Fage : op. cit. p. 26.

(٢) القلقشندى جـ ٥ ص ٢٩٤ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) السعدى : تاريخ السودان ص ٧ .

ولم يدع أميراً أو رب وظيفة إلا ونفحه من هذا الذهب ، كما أفاض على الحجيج وأهل الحرم بمكة وتصدق بكثير من الأموال هناك ، وأكرمه سلطان مصر ، وبعث إليه بالخلع ، كما كفل له جميع وسائل الراحة للحج ، فزوده بالدراهم وأعد له الجمال والهجن ووفر له المؤونة .

ويبدو أن هذا الحج كان هدفه إظهار مظاهر البذخ ، وإكساب شخصيته من الهيبة والاحترام ما يمكن لملكه من البلاد ، ويبعث رعيته على الطاعة له وقد مهد لمجيئه إلى مصر ، وتقربه من سلطانها ، بكتاب أمسك فيه ناموساً لنفسه ، مع مراعاة قوانين الآداب .. وخاطب فيه الناصر محمد بآيات التقدير والإخاء وبعث إليه بهدية مقدارها خمسة آلاف مثقال ذهب » .

وفي هذا الكتاب ، وفي هذه العلاقات ما يدل على روح الأخوة الإسلامية بين مصر عاصمة الإسلام وبين السلطات الإسلامية الناشئة في غرب إفريقية .

وقد راسل ديوان الإنشاء بمصر ملوك تلك الجهات بدليل مابوجد في التعريف وصبح الأعشى من نماذج لمكاتباتهم (١) .

وكان هذا استهلالا لعلاقات ثقافية وتجارية واسعة (٢) ، فقد انتهز هذا السلطان فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل مملكته طرفاً من مناهل الثقافة المصرية .

وتبع هذا رحيل كثيرين من علماء مصر إلى تنبكت ، ورحيل علماء تنبكت إلى مصر . بل إن ابن بطوطة رأى هناك طبيباً مصرياً ، واشتملت حاشية السلطان منسى سليمان على ثلاثين مملوكا من مماليك القاهرة .

كما وفد التجار المصريون إلى هذه البلاد ، ورحل تجار التكارنة إلى القاهرة بل استقرت طوائف من هؤلاء في مصر تشتغل بالتجارة أو العلم أو التصوف ، وهذا كله من مظاهر الأخوة الإسلامية الحقة .

وكما اتصل سلاطين مالي بمصر اتصلوا بملوك المغرب ، خصوصاً بالسلطان

---

(١) حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الأفريقية ص ٥ .

(٢) Meek, vol I, p. 62.

أبى الحسن على المرينى ، وانتهز منسى موسى فرصة استيلائه على تلمسان وبعث إليه بالتهنئة (١) ، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة فاس .

وتوطد العلاقات الثقافية مع المغرب ، ليس فى حاجة إلى إيضاح ، ويكفى أن عرى هذه الصلات لم تنفصم بحكم وحدة اتباع مذهب مالك (٢) . فقد كان فقهاء هذه المذاهب دائمى الاتصال بفقهاء السودان يتبادلون الفتاوى والتواليف والرحلات .

بل امتدت هذه العلاقات إلى الأندلس ، يدل على هذا ما يروى من استعانة منسى موسى بأحد أهل الأندلس (٣) لبناء القصور والمساجد ، وبذلك شاع الفن العربى الأندلسى فى هذه البلاد .

ومن المظاهر الإسلامية فوق الحج وتوطيد صلات الأخوة إحاطة سلاطين ملى أنفسهم بالفقهاء والعلماء (٤) خصوصاً فى عهد منسى سليمان الذى بنى المساجد والجوامع والمنارات ، وأقام بها الجمع والجماعات والاذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك (٥) .

وقد اكتملت الحركة الإسلامية فى عهدهم بسبب حركات الجهاد المتتابعة من ناحية ورحيل الفقهاء من ناحية أخرى .

حدث هذا كله فى القرن الرابع عشر حينما زار ابن بطوطة هذه البلاد ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة عريقة وعلماء من مصر ومراكش ، وطلبة للعلم وحفاظا للقرآن .

وقد زارها ليو الإفريقى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد الحياة الإسلامية فى غاية الازدهار بفضل الجهود المتصلة التى بذلها هؤلاء الملوك لخدمة الاسلام ، ونشر الثقافة الإسلامية (٦) .

---

(١) ابن خلدون جـ ٧ ص ٢٦٦ .
(٢) القلقشندى جـ ٧ ص ٢٩٧ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى .
(٤) Dubois, p. 265.
(٥) القلقشندى جـ ٧ ص ٢٩٧ .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية : مادة ملى .

سلطنة سنغى :

ثم قدر لشعب فى آخر أن يؤدى نفس الدور الذى أداه شعب الماندنجو وأن يؤسس دولة تشبه الدولة السابقة فى كثير من مظاهر قيامها ، ثم توسعها ثم انحدارها ، وتشبهها أيضاً فى مشاركتها فى الحياة الإسلامية العامة .

فقد بدأت دولة صغيرة لا تكاد تختلف فى ظروف قيامها عن دولة غانا هجرة من بربر لمطة تدفقت على منطقة النيجر فى القرن السابع الميلادى واستطاعت أن تبسط نفوذها على الفلاحين من أهل سنغى الذين ينتشرون على ضفة النيجر الأوسط .

ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مطرداً فى ظل أسرة حاكمة من هؤلاء البربر (أسرة زار أودبا) التى اختلطت دماؤهم بدماء أهل البلاد الأصليين وقد أفادت من علاقتها التجارية مع غانه وتونس وبرقه ومصر ومن طرق القوافل المارة بتادمكة .

ثم بدأت المرحلة الحاسمة فى تاريخ هذه الدولة فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين اعتنق ملوكها الإسلام وبدأ هذا الدين يتسرب بين صفوف أهلها .

اعتنق شعب سنغى الإسلام فى ظروف مشابهة لاعتناق أهل ملى اعتنقه فى الحركة الإسلامية الضخمة التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت .

وليس ببعيد أن نكون قد تلقت بعض التأثيرات الإسلامية الضخمة عن طريق هذه العلاقات التجارية التى نشأت بينها وبين المغرب الإسلامى(١) .

ولعل انتشار الإسلام على هذا النحو أو إفادتها من التجار هى التى دفعت سنغى إلى التماس حاضرة جديدة ... إذ انتقلت الدولة إلى مدينة جاو على مقربة من طرق القوافل الرئيسية التى تصل المغرب بالسودان .

ولم تستطع هذه الدولة الناشئة أن تقاوم الحركة التوسعية الكبرى التى تمت فى عهد منسى موسى سلطان ملى ، فخضعت لدولة ملى ودانت لها بالطاعة وظلت على هذا الولاء حتى بدأت مظاهر الضعف تدهم ملك ملى مؤذنة بتفككه وانهياره .

---

(١) Fage, p. 29.

وكان استرداد هذه الدولة لاستقلالها مؤذناً باندفاعة توسعية لاتقل عن اندفاعة ملي من قبل .

وقد وضح هذا التطور في عهد ملكها سني علي (١٤٦٤ — ١٤٦٢) . الذى هيأ لدولته جيشاً قائماً منظما ، ثم بدأ الزحف فاستولى على مدينة تنبكت ، وبدأ يبسط نفوذ دولته الناشئة في سهول غرب إفريقية (١) .

غير أن هذه الحركة التوسعية تظهر في صورة قوية واضحة في عهد اسكي محمد ، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكرى الموفور . وأفادت من الخبرات السابقة واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهراً إسلامياً واضحاً حين اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موسى الزنجية فأعلن الجهاد واستشار أهل العلم والورع (٢) .

بدأ بأن طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام أو دفع الجزية فلما أبو حاربهم في ديارهم ، قتل رجالهم وخرب ارضهم وسبا نساءهم .

ثم انساح فوق السهول لايكاد يعوقه عائق . فانبسط نفـــوذه غرباً إلى بلاد الماندنجو والفولاني وشمالا حتى مواطن الطوارق . وامتد نفوذه جنوباً بعـــد إخضاعة مملكة موسى Mossi الوثنية .

وتجاوز سعى سنغى الآفاق التي وصل إليهـــا سلاطين ملي ، إذ تسرب نفوذهم إلى شمال نيجريا .

فهوجمت إمارات الحوصة . كشن (كتسينا) ، وغوبر وكانو ، وزنفره وزاريا وخضعت كلها سنة ١٥١٣ .

وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذه الجهات . فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا .

وفي تاريخ السعدى أكثر من إشارة إلى علماء من تنبكت رحلوا إلى هـــذه الجهات في ظل نفوذ سنغي ، فأقاموا هناك يتفقهون في الدين ، وينشرون الثقافة الإسلامية . فالحاج أحمد التنبكتي عند عودته من الحج أقام بكانو زمنا يعلم الفقه

---

(١) Fage, p. 27.

(٢) السعدى ص ٧٤-٧٧ .

كما زارها مخلوف بن على ورجل آخر اسمه محمد بن أحمد تولى قضاء كتسينا سنة ١٥٢٠ م .

وأشرف النفوذ الإسلامي المنتشر في ركاب سلاطين سنغى على منطقة بحيرة شاد(١) .

لهذا كله نرى السعدى ومحمود كعت التنبكتي وغيرهم يلونون هذا العهد بلون زاه ، ويكاد وصفهم لإسكى محمد لفضائله وجهاده في سبيل الدين يرق به إلى مصاف الأولياء ، فنسبوا إليه الكرامات والخوارق ، ونسجوا حوله الأساطير .

ويحق لهم أن يفعلوا هذا ، فلم تصل دولة من دول غرب إفريقية إلى هذا القدر من سرعة الزحف وامتداد السلطان .

فقد شمل نفوذ هذه الدولة منطقة السفانا كلها في امتدادها من الشرق إلى الغرب .

ومما أكسب هذه الفتوحات صفة القوة والدوام أن إسكى محمد وضع نظما إدارية صالحة ، تمكنه من السيطرة على هذه الرقعة من الأرض .

فقد اتخذ أربعة من نواب الملك عهد إليهم بحكم الولايات مع منحهم السلطان المطلق : حاكم دندى ويشرف على المناطق الممتدة شرقاً حتى بحيرة شاد ، وحاكم بانكو الذى يتولى المنطقة الواقعة بين العاصمة جاو وبين مدينة تنبكت ، ثم حاكم بال ويسيطر على الأقاليم الشمالية الغربية ومواطن الطوارق . أما الحاكم الرابع فيتولى النطاق الغربى الممتد إلى بلاد التكرور .

وجعل من قوات الجيش القائم المنظم عدته فى الغزو والفتح والجهاد ، ضم إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق ، وفرقاً من المشاة .

ولم تستطع دولة أخرى أن تبلغ هذا المبلغ من تنظيم الجيوش والتحكم فى هذه القوى الهائلة . ولعل هذا القدر من القوة يفسر لنا سر هذا التوسع العظيم الذى لم تألفه من قبل (٢) .

---

(١) Meek, vol. I, p. 66.

(٢) Dubois, pp, 131-134.

ثم ينقضي عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ويأتي جيل من الخلفاء الذين ينقصهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد بل يجنحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعيم .

والفترة التي تلت عزل إسكي محمد ثم وفاته لم تخل من بعض السلاطين الذين توفرت لهم بعض مواهب هذا الرجل الفذ إلا أنها حفلت بالمنازعات على العرش ، فهو صراع متصل بين الأخوة وأعمال تتسم بالعنف ومؤامرات واغتيالات وخوف متصل من المنافسين على العرش (١) ، فجاءت النهاية على يد جيوش المغرب الأقصى التي تقدمت لفتح السودان سنة ١٥٩٠ (٢) .

وقد اتصل النزاع بين سلاطين سنغي وسلاطين مراكش على مناجم الملح الغنية الواقعة عند تغزة .

وتطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح ، ورأى المنصور سلطان مراكش الذي كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغي مستغلا ما أصابها من ضعف وتفرق .

فأعد حملة مؤلفة من نحو أربعة آلاف من خيرة جند مراكش بقيادة جودة باشا ، وعبروا الصحراء وهزموا قوات سنغي قرب عاصمتهم جاو ، ثم قضوا على آخر رمق في مقاومة سلاطين سنغي .

ولكنهم تبينوا أن هذه الحملة كلفتهم غاليا : فقد توهموا أن ما حازته دولة سنغي من ثراء عريض ليس مرده إلى ما ملكوه من مناجم غنية بالذهب .إنما تبينوا أن هذا الثراء كان سببه استغلال هذه الدولة للتجارة العالمية المتصلة بين الشمال والجنوب . وهذه التجارة لاتنمو ولا تدر الربح إلا إذا هدأت الأحوال ، وساد السلام واستتب الأمن .

وقد قضى الفتح المراكشي على هذا الأمن الذي استظلت به دولة سنغي ، فبارت التجارة وساء الحال .

---

(١) Ibid, p. 136.

(٢) Fage, p. 30.

ولم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية ، جنى وتنبكت وجاو . وكفوا بعد حين عن إرسال الجند أو المؤنة .

وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها فنشأت أسرة محليـــة من باشوات تنبكت تدين بالتبعية الإسمية لسلطان مراكش ، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد .

وقد تعاقب منهم على حكم تنبكت فى المدة من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٧٥٠ مائة وثمانية وعشرون من هؤلاء الباشوات (١) .

وإذا كانت دولة سنغى قد شابهت دولة ملى من حيث تطورها العام ، فإنها قد شابهتها فى اتخاذ مظاهر إسلامى واضح . بل فاقتها فى هـــذه الناحية وهذا تطور طبيعى فقد امتد سلطان سنغى إلى القرن السادس عشر . واستطاع الإسلام بعد نحو أكثر من ثلاثة قرون أن يقطع خطوات واسعة فى سبيل النمو والانتشار .

وقد سعى ملوك سنغى كما سعى ملوك ملى من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة تحقيقاً لروح الأخوة الإسلامية .

فقد خرج إسكى محمد إلى الحج ومر بمصر سنة ٨٩٩ ﻫ فى موكب حافل لا يقل عن موكب منسى فى روعته وأبهته وفخامته .

وأغدق أكثر مما أغدق سلفه . فقد روى السعدى مثلا أنه تصدق فى الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب واشترى بساتين فى المدينة المنورة حبسها على أهل تكرور .

واجتمع فى موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه فى مصر من نظم فى الحكم راقية ومن ثقافة عربية مزدهرة . فاتصل بالإمام السيوطى وغيره من علماء العصر وتلقى تقليداً من الخليفة العباسى .

وعاد إلى بلاده متأثراً بما رآه من روح إسلامية خالصة . وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب . ويقال إنه استهدى فى تنظيماته الإدارية بالنظم التى شهدها فى مصر (٢) .

---

(١) **Fage** : op. cit. pp. 30–32.

(٢) السعدى ص ٧٢ .

وامعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء . وروى صاحب تاريخ السودان وصاحب تاريخ الفتاش تفاصيل كثيرة عن تقدير هذا السلطان للعلم وأهله ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم . ولا يفتأ يسأل عن سنة الله ورسوله (١) .

ويشير صاحب الفتاش إلى بعض الآراء الإصلاحية التي تنسب إلى هذا السلطان فقال : « وأبطل البدع والمنكر وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام وجدد الدين وأقام العقائد (٢) » وأولى جامعة تنبكت المزيد من عنايته فتفوقت في عهده ووصلت إلى مالم تصل إليه من قبل .

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه ، فاسكى اسحق يسير في نفس الطريق من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم (٣) ، وهذا إسكي داود يتخذ خزائن الكتب « وله نساخ ينسخون وكتبة » . وربما (٤) هادى العلماء . وقيل انه حافظ للقرآن وقرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها ويأتيه الشيخ بعد الزوال ويقرئه إلى الظهر (٥) .

فكأن دولة سنغى شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب إفريقية وازدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود .

انتشار الاسلام صوب الشرق

واضح إذن أن التيار الإسلامي كان يتدفق من بلاد المغرب ويتجمع في منطقة السنغال والبلاد الواقعة بين منحنى النيجر في الشرق ونهر السنغال في الغرب ، ويتركز على الخصوص في المراكز الإسلامية التي ظهرت في هذا الجزء من القارة .

---

(١) الفتاش ص ٥٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٤ .

من هذه المراكز كان الإسلام يتقدم صوب الشرق في حركات ملحة مطردة : إما على يد التجار الذين يوسعون أفق نشاطهم صوب الشرق أو في ركاب الفاتحين من سلاطين ملى وسنغى .

إمارات الحوصة :

وقد جاوز الإسلام منحنى النيجر متجهاً صوب الشرق إلى المنطقة الواقعة شمال نيجريا الحالية إلى حيث شعب الحوصة .

وهذا الشعب يمثل هجرة من هجرات البربر الذين كانوا لا يكفون عن المضى صوب الجنوب كلما أتيحت لهم الفرص .

ذلك أن غارات الهلاليين منذ القرن الحادى عشر فصاعدا دفعت فريقاً من الملثمين إلى الهجرة إلى واحة أير ، كما دفعوا إلى الهجرة أيضاً بعض قبائل من البربر من غير الملثمين وقد عاش الفريقان جنباً لجنب فترة طويلة ، وتزاوجا ثم اندمجا(١) ، ومن هذا الإندماج نشأت شعوب الحوصة ولم تعد واحة أير تكفى هـذا العدد من السكان ، فبدأ الحوصة يبحثون عن مهاجر جديدة ، فانطلقوا صوب الجنوب إلى شمال نيجريا ، وكونوا لأنفسهم إمارات صغيرة بلغ عددها سبعا أقدمها إمارة برم . وإمارة غوبير وكانوا وكاتسينا وزاريا وزنفرة (٢) .

حتى جاء القرن الرابع عشر ، فإذا بالحوصة لايزالون على وثنيتهم . يستفاد هذا من رواية ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد سنة ١٣٥٣م ، وعجب لأن أهلها لازالوا على الوثنية .

ثم بدأ الإسلام يتدفق إلى هذه الإمارات من الغرب ، يدل على هذا ما يرويه تاريخ مدينة كانو من أن فريقاً من الفقهاء يزيدون على الأربعين رجلا ، قد وفدوا على هذه المدينة فعلموا ملكها الإسلام ، وأسسوا مسجداً ، وأقاموا فيها يعلمون الإسلام ، ويطبقون الشريعة الإسلامية .

وليس ببعيد أن يكون سلاطين ملى قد بسطوا على الأقل نفوذهم الروحى فى هذه البلاد .

---

(١) Hogben, p. 69.

(٢) Fage, p. 54.

ويبدو أن ثمة تأثيرات إسلامية أخرى دخلت البلاد من الشرق ، ويبدو أن فقهاء المغرب قد شاركوا فى هذه الجهود السلمية لنشر الإسلام بين شعب الحوصة ، مثل الجهود التي بذلها فقيه توات الشهير محمد بن عبد القادر المغيلى(١) .

وقام أهل برنو بجهود مماثلة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٤٣٨ و ١٤٥٠(٢) ومضى الإسلام قدماً فى البلاد ، حتى كان آخر القرن الخامس عشر حين بدأت كانوا وكنسينا تبرزان فى ميدان الثقافة الإسلامية .

وقد رأينا كيف أن علماء من تنبكت وجنى قد رحلوا إلى هذه المدن وأقاموا بها يعلمون فقه مالك .

ومضت الحركة الإسلامية حينما استطاع إسكي محمد سلطان سنغى أن يبسط نفوذه على هذه الإمارات فى القرن السادس عشر .

وبدأت مدن الحوصة تزداد تألقاً وسعة فى النفوذ عن ذى قبل خصوصاً بعد سقوط سنغى واحتلال المراكشيين لبعض بلادهم .

وتعرض علماء تنبكت وجنى للكثير من المظالم والمحن ، فاضطروا إلى الهجرة صوب الشرق التماساً لأوطان أكثر أمناً وطمأنينة .

ورغم هذه الجهود التى اتصلت منذ القرن الرابع عشر فإن الإسلام لم يغلب على البلاد ، تماماً فقد بقيت جاليات وثنية كبيرة حتى القرن التاسع عشر(٣) .

سلطنة كانم وبرنو :

ولم يقف الإسلام عند حدود نيجريا بل عاود انطلاقه صوب الشرق فنفذ إلى منطقة بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية مثل سلطنة كانم وبرنو تشبه من وجوه كثيرة السلطنات التى حفل بها تاريخ ذلك العصر فى السودان الغربى : مثل ملى وسنغى .

وقد اتخذ تاريخها نفس المجرى ، وتعرضت لنفس الظروف ، ومرت بنفس

---

(١) Meek, vol. I, p. 89 .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة حوصة .

الأدوار ، ومثلت دورها المرسوم فى ميدان الحياة الإسلامية بنفس العمق والاصالة التى شهدناها فى السلطنات السابقة .

تشابه حتى فى البداية الأولى التى شغلت الفترة الواقعة بين سنتى ٨٠٠ و ١٢٥٠ م ، هجرات من البربر تتدفق إلى شرق بحيرة شاد وغربها ، كما تدفقت هجرات مماثلة إلى جميع أرجاء غرب إفريقية .

فى هذه الفترة هاجر الزغاوة وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية ، وانتشروا فى مستهل هذه الفترة فى مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة شاد (٢) .

ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، فالبكرى الذى كتب عن هـــذه البلاد فى هذه الفترة يذكر أنهم لازالوا على الوثنية .

حتى إذا مضى القرن الحادى عشر وبدأ القرن الثانى عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق . . هجرة من التبو والتدا .

هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التى نتوقعها ، إنما كانت على هيئة أرستوقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ ، وتستطيع عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها .

هذه الارسقراطية الحاكمة أنجبت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق البحيرة ، وتؤسس سلطنة كانم التى كان لها شأن فى تاريخ السودان .

ومما يلفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم بنى سيف يدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذى يزن .

وهذا النسب يؤكد لنا صحة انحدارهم من أصل ملثمى ، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينتسبون إلى الحميريين .

---

(١) Fage, p. 54.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة حوصة .

(٣) Plamer, p. .5

وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة . وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدى(١) .

ويبدو أن ظهور هذه السلطنة فى ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام إلى أرض كانم ، والذين عرضوا لتاريخ هذه السلطنة يختلفون فى الوسيلة التى دخل بها الإسلام هذه النواحى ، فبالمر مثلا(٢) يرى أن هجرة أموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر ، ويشير فى مواضع أخرى إلى أن فريقاً من فقهاء المالكية فروا من مصر فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله ، والتجأوا إلى بلاد كانم وعملوا على نشر الإسلام بين أهلها .

ونعتقد أن الإسلام دخل فى ركاب هذه الأسرة الحاكمة ، وأن إدخال هذا الدين هو الذى مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب إلى كراسى الحكم .

ورواياتهم المحلية تؤيد هذا بقولها إن الهادى العثمانى(٣) جد الأسرة الحاكمة هو الذى أدخل الاسلام إلى البلاد ، وإن كان صاحب كتاب الاستبصار يرد انتشار الإسلام فى البلاد على نطاق واسع إلى سنة ٥٥٠ هـ (سنة ١١٠٦ م) . وبعض الروايات الأخرى ترجع إدخال الإسلام إلى حكم الملك أومى(٤) .

إذن دخل الإسلام فى ظل الأسرة الحاكمة فى آخر القرن الحادى عشر ثم ثبتت أقدامه وتوطد فى القرن الثانى عشر . وهذا لاينفى تدفق تيارات إسلامية أخرى من مصر أو المغرب (٥) .

وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذاناً بانطلاقهم نحو العلاقات الدولية والتوسع والغنى والشهرة .

ومن الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر على مسرح الأحداث ، ويدخل تاريخها فى عهد من النور والوضوح(٦) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٩ . Palmer. p. 6.

(٢) Palmer, p. 6.

(٣) القلقشندى جـ ٥ ص ٢٨١ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مادة كانم Palmer, p. 14.

(٥) القلقشندى جـ ٥ ص ٢٨١ .

(٦) Barth, vol. II, p. 72.

وقد انطلقت هذه الأسرة تتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملكها دونامة الأول وسليمان وخليفته ، فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس ونيجيريا في الغرب(١) .

واتسعت تجارتها ، وتدفقت الثروات إلى خزائنها . وفي نفس الوقت تقريباً رسخت الحركة العلمية في البلاد ، وتوطدت اتصالاتها الثقافية بمصر والمغرب وغرب إفريقية .

ثم جدت ظروف أدت إلى انتقال السلطان إلى فرع آخر من هذه السلالة ثم انتقال مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث بلاد كانم ، إلى غربها حيث بلاد برنو .

فقامت سلطنة برنو في حجر نفس الأسرة . ذلك أن قبائل البلالة(٢) من أهل البلاد الأصليين ثارت على استبداد الأسرة الحاكمة ، وأعلنت الحرب واقتحمت عاصمتهم جيمى(٣) ، وطردت الملوك من بلاد كانم ففروا إلى غرب البحيرة على النحو الذى ذكرناه ، تمت هذه النقلة فى عهد السلطان عمر بن إدريس (١٣٩٤ — ١٣٩٨) .

ثم عاودت سلطنة برنو ظهورها فى سماء الحياة الإسلامية فقد استطاعت فى عهد ملكها ماى على أن تخضع البلالة الثائرين وأن تبسط نفوذها على شرق البحيرة وأن تجمع كانم وبرنو فى سلطنة موحدة (٤) .

ثم بلغت أوج توسعها فى القرن السادس عشر ، فقد تخلصت من متاعب البلالة ، ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع فالمغرب شهد تسرب النفوذ العثمانى إلى الجزائر وتونس وانشغل المغاربة بمدافعة الخطر الأسبانى والبرتغالى .

ثم سقطت مملكة سنغى ووقعت هذه البلاد نهباً للفوضى والاضطراب فى ظل الحكم المراكشى .

---

(١) Barth, vol. II. p. 372 .

(٢) Hogben : op. cit. p. 37.

(٣) القلقشندى جـ ٥ ص ٢٨١ .

(٤) Meek, vol, p. 80.

وقد نمت مراكز برنو الثقافية مزدهرة فى ظل الأمن والطمأنينة ، والرحالة ليو الإفريقى زار هذه البلاد فى ذلك العصر ، ورأى مبلغ ما نعمت به من شهرة واسعة ، ومن أدلة هذه الشهرة ظهور هذه السلطنة على الخرائط البرتغالية المعاصرة (١) .

وامتد نفوذ برنو غرباً فى عهد ماى على . فناضل بقايا نفوذ سنغى وبسط نفوذه على إمارات الحوصة .

وبلغت هذه السلطنة أوج قوتها فى عهد إدريس ألوما الذى استطاع بعد حصوله على الأسلحة النارية أن يقهر الشعوب الوثنية فى الجنوب وأن يبسط نفوذه شمالا حتى واحة أيز (أهير) ومناطق التدا والتبو (٢) ، وهو يشبه من وجوه كثيرة إسكى محمد سلطان سنغى الشهير .

وقد مرت سلطنة برنو بفترات من الضعف والانحلال فى القرن السابع عشر ، ولكنها بقيت حتى القرن التاسع عشر . وساعدها على البقاء اضطراب أحوال العالم الإسلامى ، وتفرق شعوب غرب السودان والمغرب .

وقد قامت سلطنة كانم وبرنو فى الحياة الإسلامية بنفس الدور الذى قامت به سلطنة ملى وسنغى من حيث اتصالها بالبيئات الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة ، تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية ، وإفادة من الخبرات الثقافية والعلمية .

فقد سعى هؤلاء السلاطين إلى مواسم الحج ، ومروا فى طريقهم بمصر شأنهم شأن السلطنات الأخرى ، فالسلطان دوناما سلطان كانم خرج حاجاً فى القرن الحادى عشر ، ومر بمصر فى طريق السفر والعودة ، ويقال إنه ترك بمصر نحواً من ثلاثمائة من العبيد (٣) .

ولا بد أن أمثال هذه الزيارات قد تكررت ، ولا بد أن صلة كانم قد توطدت بمصر ، فقد كانت أقرب هذه السلطنات من الطرق التى تسلك الصحراء الغربية فى طريقها إلى واحات مصر .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو .

(٢) Hogben, p. 40.

(٣) Palmer : Bornu, Sabara and Sudan, p. 91.

وقد حفظ لنا ديوان الإنشاء رسالة طريفة تبودلت بين سلطان برنو سنة ١٣٩١ م وبين سلطان مصر برقوق ، وردت هذه الرسالة في كتاب القلقشندي وجاء فيها « من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأنام الملك المقدام القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله المنصور فى كل حين وأوان ودهر وزمان ، الملك العادل الزاهد بن عمرو وعثمان الملك بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم كرم الله ضريحه ، إلى ملك مصر الجليل أرض الله المباركة أم الدنيا » .

ثم مضى فى هذه الرسالة يشكو من الأعراب الذين « يسمون جذاماً وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وصغار الرجال فقاموا على المسلمين فقتلوهم قتلا شديداً . وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين أو يبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ، ويصطدمون بعضهم . . . فإن حكم مصر قد جعله الله فى أيديكم من البحر إلى أسوان فإنهم قد اتخذوا متجراً فنبعث الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضائكم وعلمائكم وصواحب أسواقكم ينظرون ويبحثون ويكشفون ، فإذا وجدوهم فلينتزعوهم من أيديهم »(١) .

وأبلغ دليل على اتصال العلاقات الودية بين كانم وبين مصر ، أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر ، وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور فى تجارتها الخارجية .

واشتغلت هذه الطائفة بتصريف المحاصيل السودانية ، وبتجارة الرقيق ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين .

وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها فأصبحت سوقاً تجارياً حافلا بمنتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند .

وكونوا لهم نقابة قوية هيمنت على التجارة واحتكرتها ، وأقاموا على نقابتهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة .

وقد نمت ثروة بعضهم نمواً عظيماً بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة مما

---

(١) القلقشندى ج ٨ ص ١٠٦ — ١١٧ .

تقوم به البنوك الحديثة ، ويقرضون السلاطين فى مصر والبلاد المجاورة (١) .

ولم يرحل الكانميون إلى مصر تجاراً إنما رحلوا إليها طلاب علم ، التحقوا بالأزهر ، وأنشأوا فى مصر مدرسة لتعليم مذهب مالك(٢) بالفسطاط ، وعادوا إلى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافى .

وقد اتصلوا بالمراكز الإسلامية الأخرى . اتصلوا بتونس(٣) فى عهد بنى حفص اتصالات تجارية وثقافية مختلفة ، واتصلوا بكانو وتنبكت وجنى وجاو ، وعملوا على تشجيع الحركة العلمية فى بلادهم بتقريب العلماء والفقهاء والإغداق عليهم ؛ وأنشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبة العلم(٤) .

كما عملوا على نشر الإسلام والجهاد فى سبيله ، واستخدموا الأسلحة النارية فى السيطرة على القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منهم ، وأدخلوا الكثير منهم فى الإسلام .

وإليهم يرجع الفضل فى بسط لواء الإسلام فى منطقة بحيرة شاد كلها ، وأسهموا فى نشر الإسلام فى بلاد الحوصة .

طابع الإسلام والثقافة العربية فى دور الازدهار

هذا الدور من تاريخ الإسلام فى غرب إفريقية يمتاز بطابع واضح كل الوضوح ، فقد تم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة وبين التقاليد الزنجية المحلية ، وتمت الملاءمة بين هذين العنصرين بعد انتهاء مرحلة الانتقال السابقة ، وظهرت تقاليد إسلامية إفريقية ، إسلامية الشكل والطابع ، إفريقية الروح .

تتضح هذه الحقيقة من دراسة ما رواه الرحالة والجغرافيون الذين زاروا هذا الجزء من إفريقية مثل ابن بطوطة ، أو ما ذكره القلقشندى الذى عرض لنماذج من

---

(١) حامد عمار ص ٥٨ .

(٢) أسست هذه المدرسة بين سنتى (١٢٤٢ - ١٢٥٣) م . دائرة المعارف الاسلامية كانم . القلقشندى جـ ٥ ص ٢٨١ .

(٣) Hogben : op. cit. p. 36.

(٤) Palmer, p. 48.

الحياة ولصور من نظم الحكم اقتبسها من الكتاب الذين سبقوه ، أو من أهل تلك البلاد الذين عاصروه .

وتتضح هذه الصور أيضاً من إشارات كثيرة وردت فى ما كتبه مؤرخو السودان مثل السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان أو محمود كعت صاحب كتاب الفتاش ، وصاحب تذكرة النسيان أو تاريخ كانو .

هذه الروايات والأخبار المتعلقة بنظم الحكم وبعض أوجه الحياة الاجتماعية المعاصرة ، تشعر بأننا فى مجتمع إفريقى صميم اكتسب الثوب الإسلامى أو الصبغة الإسلامية .

وهذه طبيعة الإسلام فى أى بلد حل فيه ، يبقى من التقاليد ومن النظم ومن مظاهر الحياة مالا يتعارض مع تقاليد الإسلام أو روحه .

فالقلقشندى يتحدث عن تقاليد البلاط فى سلطنة ملى فيشير إلى جلوس السلطان على (مصطبة) كبيرة عليها دكة من أبنوس تحيط بها أسنان الفيلة من كل صوب ، وعن رجل مهمته أن يكون سفيراً بين السلطان والناس اسمه الشاعر ، وعن المحيطين بالسلطان وبيدهم طبول يدقون عليها ويرقصون ، وعن تقاليد السلطان بأن لا يدخل عليه أحد منتعلا . وعن تقاليد السلطان حينما يعود من سفر يحمل على رأسه الجتر ، وينشر علماً ، وتضرب أمامه الطبول والطنابير والبوقات(١) .

ثم وصف ابن بطوطة لبلاط نفس هذه السلطنة لا ينقلك من هذا الجو الإفريقى الخالص ، داره المرتفعة التى تطل على المشور (دار الشورى) ولها طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة ، وما تحتها من طيقان أخرى مغطاة بالذهب وعليها الستائر .

فإذا تهيأ للجلوس رفعت الستائر إيذاناً بذلك ، فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات « شرابة حرير » قد ربط فيها منديل(٢) .

فإذا رأى الناس المنديل ضربت الطبول والأبواق ، فإذا خرج من باب القصر

---

(١) القلقشندى حـ ٥ ص ٢٨١ .

(٢) ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٩٢ .

يخرج أمامه نحو ثلاثمائة من العبيد بأيديهم القسي والرماح والدرق ، ويصطف أصحاب الرماح يمنة ويسرة ، ويجلس أصحاب القسي ثم يؤتى بفرسين مسرجين .

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون نائبه ، ثم يحضر الفرارية وهم الأمراء ثم الخطيب والفقهاء ، ويقف الترجمان على باب المشور فى ثياب فاخرة متقلداً سيفه و غمده من الذهب ، وفى رجله الخف والمهاميز (١) .

والرحالة الغريب مثل ابن بطوطة تسترعي انتباهه الأمور الغريبة التى لم يألفها فى بلاده ، فهو يلاحظ أن السودانيين من أعظم الناس تواضعاً لملوكهم ، وأشدهم تذللا ، وأن من تقاليدهم التمرغ فى التراب إظهاراً للخضوع وإذا تكلم السلطان وضع الحاضرون عمائمهم من رؤوسهم وأنصتوا .

وروى ابن بطوطة أن رسول سلطان ملى إلى بنى مرين «كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة من تراب فيترب مهما قال له السلطان كلاماً حسناً»(٢)

ثم يسترسل ابن بطوطة فى وصف هذه المشاهد الغريبة فيتحدث عن الترجمان الذى يغنى بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله . ويغنى النساء والجوارى معه يلعبن بالقسى ، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف الحمر ، وفى رؤوسهم الشواشى البيض ، وكل واحد منهم تقلد طبلة(٣) . ثم بعض الشعراء الذين يرتدون الملابس التنكرية صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، ولها رأس من الخشب له منقار أحمر ويقفون بين يدى السلطان بهذه الهيئة «المضحكة» فينشدون أشعارهم (٤) . وابن بطوطة يفسر هذا معلقاً بقوله «إن هذا الفعل لم يزل قديماً عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه» ! ! (٥) .

ولم يتفرد سلاطين ملى بهذا اللون الفريد من الحياة ، إنما كانت ظاهرة شاعت فى هذه البيئة الزنجية كلها ، فنلمح من رواية السعدى عن سلاطين سنغى وحياتهم

---

(١) ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٩٢ .

(٥) السعدى : تاريخ السودان ص ٨١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢٢٥ .

ومواكبهم وعاداتهم واحتفالاتهم واحترام الناس لهم ما يوحى بأن ما رواه ابن بطوطة عن أهل ملى شاع عند أهل سنغى وعند غيرهم من شعوب غرب إفريقية (١) .

نلحظ نفس هذا النمط من التقاليد الإسلامية المختلطة بالتقاليد الإفريقية فيما يروى عن حياة الأمراء فى إمارات الحوصة السبع فى شمال نيجيريا .

وفى بلاد كانم وبرنو كتب القلقشندى مسجلا صورة من هذه التقاليد المحلية غير المألوفة ، فذكر « أن ملك كانم لايراه أحد إلا فى يوم العيدين . أما فى سائر السنة فلا يظهر لأحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب » الأمر الذى يدل على تأثر هؤلاء الملوك بالمألوف من حياة الطوارق الملثمين فى الصحراء .

ومع هذا كله تحس من حياة الملوك والرعية أن ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية خالصة .

كما نلمح فى هذا المجتمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من التزمت والشدة فى الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان وتولى الوظائف ، ثم تغلغلهم فى صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية ، نفس الصورة التى نلحظها فى المغرب الإسلامى .

ثم تقدير السلاطين لهؤلاء الفقهاء واحترامهم ، يزورونهم فى بيوتهم ويستفتونهم ويأتمرون بأمرهم ، وجرت العادة على أن من يلجأ للمسجد أو دار الفقيه أو الخطيب أمن العقاب ، ولم يجرؤ أحد على التعرض له بسوء(٢) .

هذه الروح المالكية تظهر من التشدد فى الدين إلى أبعد الحدود . فقد لاحظ ابن بطوطة هذا الطابع فى سلطنة ملى حينما استحسن منهم قلة الظلم « فهم أبعد الناس عنه والسلطان لا يسامح أحداً فى شىء منه وعدم تعرضه لمال من يموت فى بلادهم ومواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها فى الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها وازدحام المساجد بالمصلين حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد لم يجد موضعاً(٣) » وفى حرصهم الشديد على حفظ القرآن وتعليم الدين .

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨٣ . (٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

هذا الطابع من الحياة الدينية المطبوعة بطابع مذهب مالك نلحظها فى تقاليد سلاطين سنغى ، وفى حرصهم على التقاليد وتمسكهم بالدين إلى أبعد الحدود .

وقد شاعت هذه التقاليد فى غرب إفريقية كلها حيث يسود مذهب مالك ، وعلق القلقشندى على هذه الظاهرة عند أهل كانم بقوله « يتمذهبون بمذهب مالك الإمام ذوو اختصار فى اللباس ، يابسون فى الدين » (١) .

ولا نكاد نجد أسرة حاكمة فى هذا العصر إلا وقد اصطنعت لنفسها نسباً عربياً فسلاطين ملى يدعون الانتساب إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن على ، وانتسب سلاطين كانم وبرنو إلى حمير ، واتخذ سلاطين سنغى مثل هذا النسب العربى ، هذا كله ليكتسبوا صبغة إسلامية كاملة وليفوزوا برضا الرعية وتقدير المعاصرين ، وليفسحوا لأنفسهم مجالا فى الحياة الإسلامية الدولية .

ولم يعدم الأمر أن يقتبسوا من التقاليد الشائعة فى الحياة الإسلامية المعاصرة ، فهم فى لباسهم يتشبهون بأهل المغرب يرتدون عمائم بحناك مثل المغرب وملبسهم شبيه بلبس المغاربة : جباب ودراريع بلا تفريج وهم فى ركوبهم كأنهم العرب » (٢) .

وتأثر كل من منسى موسى وإسكى محمد بأساليب الحياة فى مصر المملوكية ، فاقتبسوا منها ما وافق طبيعة بلادهم ، فسلطان ملى مثلا يتخذ حاشية من ثلاثين مملوكاً من الترك اشتراهم من مصر ، وكانت وثائقهم ومكاتباتهم الرسمية تكتب كلها باللغة العربية(٣) .

هذا عن بعض ألوان من نظم الحكم والحياة الاجتماعية .

أما عن الثقافة الإسلامية ، فإنه يمكننا أن نقول فى اطمئنان أن هذه الثقافة كان طابعها عربياً صرفاً لم تداخله أية تأثيرات أخرى ، لسبب واضح هو أن هذه الشعوب الزنجية التى اعتنقت الإسلام وتشربت ثقافته العربية لم تكن لها تقاليد ثقافية مثل تقاليد

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٢٨١ .

(٢) القلقشندى ج ٥ ص ٢٩٨ .

(٣) مراسلات سلاطين برنو مع مصر وكذلك وثائق برنو التى نشرها .

Palmer : Bornu, Sahara and Sudan.

الإيرانيين أو الإغريق التي أثرت في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدنى . حملت هذه الثقافة إلى بلادهم وتقبلوها كما هي .

هذه الثقافة ذات طابع مغربي بحت واضح كل الوضوح ، وهذا طبيعي لأن الإسلام دخل هذه البلاد من المغرب فحمل معه إلى غرب إفريقية تقاليد المغرب وثقافته . وقد تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى غرب إفريقية على نطاق واسع منذ القرن الخامس الهجري فصاعدا .

وكانت ثقافته منذ القرن الخامس الهجري قد غلبت عليها التقاليد المالكية الدينية ، وكانت كلها تقريباً تدور حول فقه مالك والعلوم المساعدة الأخرى التي تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التي وضحت في القيروان ، وانتقلت منها إلى المغرب الأقصى والأندلس ، حملها البربر معهم إلى غرب إفريقية ، فغلبت على الثقافة فيها . وقل أن تجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب مالك وفقهاً إلا فقه مالك .

الفقهاء مالكيون في حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم والشعوب مالكية تتأثر بهؤلاء الفقهاء وتستهدى بهم . وتراجم العلماء والفقهاء التي وردت في كتاب نيل الابتهاج أو في تاريخ السعدي أو الفتاش تعطينا هذه الصور المالكية الصرفة .

وكادت مدارس الثقافة الإسلامية في غرب إفريقية أن تكون مدارس مغربية بحتة . فكأننا في فاس أو أودغشت أو مراكش أو القيروان ، نفس الأسلوب ونفس الحياة . نفس المثل ونفس الوسائل ، حتى طريقة الكتاب نفسها تأثرت بالطابع المغربي ، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي .

ونفس المناهج والكتب المتداولة هي المناهج والكتب المالكية المغربية : كتب عياض . وكتب سحنون وشروح ابن القاسم وخليل وكتب المغيلي والونشريشي ، وموطأ مالك ، والمدونة والخزرجية ، وتحفة الحكام والعباد (١) .

كل هذه الكتب كانت تدرس في مدارس غرب إفريقية في جني وتنبكت وكانو وكتسينا وبرنو وفي أي مكان تسرب إليه الإسلام أو فقه مالك .

---

(١) السعدي صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ .

حتى التأثيرات الأندلسية دخلت إلى مدارس المغرب من قبل فى ظل المرابطين والموحدين ، وعلماء الأندلس الذين بارحوا هذه البلاد بعد سقوطها فى يد الفرنجة رحلوا إلى غرب إفريقية ، وأقام كثير منهم فى تنبكت(١) ، كما أقاموا فى فاس ومراكش وتونس والقيروان .

ونماذج التآليف التى ظهرت ونشرت نماذج مغربية الصورة ، وعنوان ذلك الفقيه المشهور أحمد بابا التنبكتى الذى ولد بوهران سنة ١٥٥٦ م من أصل صنهاجى ثم رحل إلى تنبكت ، وأقام فيها وشهد الاحتلال المراكشى ، وقد ظهرت مواهبه وارتفعت مكانته العلمية ، وانتشر ذكره حتى أدرك مراكش وبجاية . وقد حمل إلى مراكش أسيراً ولكنه عاد إلى تنبكت مرة أخرى حيث توفى بها سنة ١٦٢٧ ، وهو رجل واسع التأليف جم المعرفة ألف فى كل ألوان الثقافة المألوفة فى عصره ، وقد ذيل لابن فرحون فى كتابه نيل الابتهاج ، بدأ من حيث انتهى ابن فرحون ، وعرض لتراجم من أغفلهم وأتم هذا الكتاب سنة ١٥٩٧ . وهو يعطينا صورة طريفة لتاريخ الحركة الفكرية ، ليس فى مدينة تنبكت فقط ، بل فى السودان الغربى كله .

وكذلك المؤرخ السعدى من رجال القرن السابع عشر ، فقد بلغ مبلغ الرجال سنة ١٦٣٥ ، فى الوقت الذى خضع فيه السودان الغربى للنفوذ المراكشى ، وتجول فى بلاد النيجر ، وأقام بتنبكت وجنى ورحل للمغرب(٢) وهو فى أسلوبه وطريقة تناوله للموضوعات يشعر بأنه مغربى الثقافة مع كونه سودانى الموطن .

وكذلك شأن محمود كعت التنبكتى صاحب كتاب الفتاش فقد كان فقيهاً من فقهاء تنبكت صحب إسكى محمد الكبير(٣) ، وألف كتابه بنفس الأسلوب المغربى المألوف .

كانت الثقافة فى غرب إفريقية ثقافة مغربية فى أرض سودانية . ولا يعنى هذا أن مدارس السودان الغربى لم تتأثر بإنتاج المدارس الإسلامية الأخرى . تأثرت على الخصوص بمدارس مصر المملوكية . ورحل أهل السودان إلى مصر وتعلموا فيها ،

---

(١) **Dubois : op. cit. p. 353.**

(٢) **Dubois : op. cit. p. 352.**

(٣) **Dubois. p. 342.**

ورحل بعضهم إلى الشام والحجاز ، ووصلت تآليف المصريين إلى السودان الغربى .

وقد عرفنا كيف ابتاع منسى موسى الكتب وحملها معه ، كما أن مؤلفات السيوطى وغيره من علماء مصر شاعت فى هذه البلاد . لكن هذا كله لاينتقص من الحقيقة التى وضحناها ، فكان الوافدون إلى الأزهر يتعلمون فقه المالكية ، وأنشأوا بمصر مدارس مالكية ، وتأثرهم بمصر لا يختلف عن تأثر المغاربة أنفسهم .

وتأثر الثقافة الإسلامية فى غرب إفريقية بثقافة بلاد المغرب لا يعنى أن هذه الثقافة أقل غزارة وعمقاً ، فنماذج العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم لايقلون فى مستواهم واستعدادهم وتحصيلهم عن إخوانهم المغاربة : تلقوا نفس التعليم وقرأوا نفس الكتب ، وعاشوا نفس الحياة(١) ، وعرفوا بالإخلاص الشديد والحرص على التعليم واقتنوا المكتبات العظيمة ووقفوها على المتعلمين .

وكانت مدينة تنبكت نفسها سوقاً عظيمة للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع فى البلاد .

وفى رواية السعدى أن فقيهاً يدعى محمد محمود بن أبى بكر « اقتنى نفائس الكتب الغريبة العزيزة وربما يأتى لبابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له من غير معرفة » .

ووصل علماء غرب إفريقية فى علمهم إلى مستوى لايقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى . إن لم يكن يزيد عنها فى بعض النواحى . فقد روى السعدى أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن التميمى جاء من الحجاز بصحبة السلطان موسى صاحب ملى حين عاد من الحج « فأقام بتنبكت زمناً ، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس » (٢) .

كما رحل كثيرون من أهل هذه البلاد ومن علمائها إلى المغرب ودرسوا فى مدارسه ، ووصل بعضهم إلى مصر وبرز فى ميدان الثقافة .

وقد أورد ابن حجر ترجمة لفقيه تكرورى اسمه صبح بن عبد الله ، اشتراه سيده عقب مجيئه إلى مصر من بلاده ، ولشغفه بالعلم أقبل مع أبناء هذا السيد على

---

(١) السعدى صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٦ .

(٢) السعدى تاريخ السودان ص ٥١ ، ٦٢ .

دروس النجيب وشمس الدين وغيرهما من علماء ذلك العصر ثم اشتغل بالصناعة حتى ادخر خمسمائة درهم اشترى بها حريته ، ثم برع فى العلم واشتغل بعلم الحديث وتدريسه فى دمشق (١) .

ولاندرى بالضبط مدى انتشار الثقافة العربية بين عامة الناس فى ذلك العصر ، وإن كنا نلاحظ أن مكاتب تحفيظ القرآن قد انتشرت فى كل مكان دخله الإسلام .

ونلمح فى روايات الرحالة والمؤرخين حرص أهل البلاد جميعهم على حفظ القرآن والتزامهم للشدة فى ذلك ، فقد روى ابن بطوطة أن أهل ملى يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون(٢) .

ولكنهم رغم هذا كانوا لايتخذون اللغة العربية فى حياتهم الخاصة ، إنما كانوا يستخدمون لغاتهم الأصلية ، ثم يصطنعون العربية فى تعبيرهم الثقافى ، وفى صلواتهم ، فقد حضر ابن بطوطة صلاة الجمعة بأحدمساجد ملى ، فرأى رجلا بيده رمح يقف(٣) ، ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب .

حدث هذا فى القرن الرابع عشر ، ولا زال يحدث حتى اليوم . فقد سمعنا خطبة الجمعة بأحد المساجد بمدينة لاجوس عاصمة نيجريا الاتحادية تلقى بلغة اليوروبا مع اقتباسات من القرآن والحديث باللغة العربية (٤) .

هذا عن قيام الثقافة العربية فى غرب إفريقية ، أما عن المراكز التى استقرت بها هذه الثقافة ، فإن أهمها مدينة تنبكت نفسها التى أصبحت مكانتها من هذه الثقافة لاتقل عن مكانة القيروان فى إفريقية أو فاس فى المغرب الأقصى أو قرطبة فى الأندلس أو القاهرة فى مصر .

فقد ارتبط تاريخ الثقافة فى هذا العالم الافريقى بتاريخ هذه المدينة نفسها . بدأت يوم ولدت المدينة ، واشتدساعدها باتساع أفق المدينة وتطورها . ثم خضعت لما تعرضت

---

(١) حامد عمار ص ٥٩ .

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٣) أثناء رحلة عام ١٩٥٦ .

(٤) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩٣ .

له هذه العاصمة الروحية من مظالم الاحتلال المراكشي ، ولما أعقبه من اضطرابات وتطورات ، حتى دخلت في النفوذ الفرنسي آخر الأمر .

كانت بحق مركز الحياة الثقافية ، وقلب الحركة الفكرية النابض ، اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون : المغاربة والأندلسيون والمصريون والحجازيون ووفد إليها الناس من كافة بقاع غرب إفريقية من السنغال والنيجر ، ومن إمارات الحوصة وبرنو وكانم والسودان .

كل هذه الطوائف كانت تحج إلى هذه المدينة ، فتقيم بها زمناً ثم ترحل أو تقيم بها إقامة دائمة ، وقل ان نجد كتاباً لم يؤلف في تنبكت ، أو فقيهاً لم يتعلم فيها أو يقيم بها .

أقام بهذه المدينة واشتغل بالتدريس في جامعها الشهير بجامع (سنكرى) الذى يشبه من وجوه كثيرة الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية ، أقام بها حشد كبير من العلماء والفقهاء .

وبرزت منهم طائفة وصلوا إلى مرتبة الإمامة أشار إليهم السعدى في كتابه تاريخ السودان : منهم الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر الذى تولى القضاء في أواخر دولة ملي ، ثم عمر الساكن تنديغ الذى تولى القضاء في عهد إسكي محمد ، وأبو عبد الله أندغمحمد بن عثمان ، وأبو جعفر عمر بن محمد أقيت الذى ترك أكثر من سبعمائة مجلد ، ومخلوف بن علي بن صالح(١) .

كان هؤلاء العلماء يشتغلون بالتدريس في جامعة تنبكت الشهيرة وكانوا في الحقيقة بمثابة طبقة خاصة من سكان هذه المدينة ، لهم ظروفهم الخاصة وحياتهم الخاصة ، وكانوا يتوارثون حرفة العلم ويحتكرونها في أسرهم .

وكان الطلاب يفدون إلى هذه المدينة بعد أن يكونوا قد حفظوا أجزاء من القرآن في مدارسهم المحلية ، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية شدوا الرحال إلى تنبكت وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم هؤلاء الطلاب كانت حياتهم ميسرة يستضيفهم سراة المدينة وتجارها ووجهاؤها ، كما أن مسجد سنكرى كانت له أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم(٢) .

---

(١) السعدى ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ .

(٢) Dubois p. 328.

ولم تكن الدراسة فى عهد هذه الجامعة محدودة بزمن إنما كانت رهناً بفراغ الطالب من قراءة عدد معلوم من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو وعلوم اللغة.

وقد حدثنا السعدي أن بعض الطلبة ينفقون أكثر من ثلاث سنوات فى قراءة موطأ الإمام مالك وحده .

كما أشار السعدى إلى نماذج من الكتب التى كانت تدرس فى جامعة تنبكت منها : الشفاء للقاضى عياض . والصحيحين وعلم الحديث ، والسير ، والتواريخ ، وأيام الناس ، والمدونة ، والرسالة ومختصر خليل والألفية والموطأ ورجز المغيلى فى المنطق والخزرجية فى العروض ، وشرح الشريف السبتى ، وتحفة الحكام لابن عاصم وكتاب المعيار(١) للونشريشى .

فإذا أتم الطالب هذه الدراسة المتنوعة حصل على الإجازة المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالإقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء :

وكانت مدينة تنبكت مركزاً لإشعاع فكرى بعيد المدى فى بلاد السودان فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامى ثم تنسخ وتباع فى أسواق المدينة ، وكانت تلقى إقبالا منقطع النظير من الطلبة والمشتغلين بالعلم والسلاطين والأمراء .

وكان علماء المدينة يقبلون فى شغف على إنشاء المكتبات الخاصة وبعضهم نيفت كتبه على الألفين(٢) كما اقتنى بعض السلاطين مثل هذه المكتبات مثل ماروى عن إسكى داود سلطان سنغى المعروف(٣) .

والأمر الذى كان يزيد الحركة الفكرية توقداً فى تنبكت أنها لم تكن محلية الطابع ، إنما كانت عالمية اتصلت بالبيئات العالمية المعاصرة .

اتصلت بالأزهر فى العصر المملوكى ، ولا غرابة فى هذا فقد أصبحت مصر موئل التفكير الإسلامى فى الشرق والغرب بعد أن أصبحت مستقر الخلافة العباسية ، وتألقت ثقافتها الإسلامية تألقاً عظيماً .

---

(١) السعدى : تاريخ السودان صفحات ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٥ .

(٢) Dubois, p. 337.

(٣) الفتاش ص ٩٤ .

ونلمح فيما كتبه السعدى هذه العلاقات التى توطدت بين الأزهر وتنبكت إلى أبعد الحدود . فهذا محمد بن أحمد التازختى رحل إلى الشرق واتصل بعلماء مصر مثل شيخ الإسلام زكريا والبرهانين والقلقشندى ، وابن أبى شريف ، وعبد الحق السنباطى وحضر دروس الأخوين اللقانيين ، ثم رحل للحجاز(١) ، وعاد إلى تنبكت يذيع ما حصله من علم (٢) ومعرفة .

وهنالك أمثلة كثيرة تؤيد هذه العلاقة الوثيقة وممن ذاعت شهرته فى السودان على وجه الخصوص الإمام السيوطى ، اتصل به طلاب العلم من تنبكت ، وكانت له صلات معروفة بسلطان سنغى إسكى محمد ، بل أشار السعدى إلى علماء من مصر جاءوا تنبكت(٣) .

ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى الصلة الوثيقة التى قامت بين تنبكت وبين جامعات المغرب الإسلامى ، فمدينة تنبكت مدينة فى ثقافتها ونشأتها وفى تراثها كله إلى المغرب ، وكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش وتونس والجزائر وغدامس وطرابلس . كان علماء المغرب دائبى الرحلة إلى تنبكت ، كما كان علماء تنبكت كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون أو يتعلمون (٤) .

ومن المراكز الأخرى التى تلى تنبكت فى الأهمية أو تدانيها مدينة جنى .

وهى مدينة أسست قبل تنبكت بوقت بعيد ، غير أنها بدأت تدخل فى دائرة النفوذ الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى ، أسلم أميرها سنة ١٠٥٠ م وبنا مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام فى مكة(٥) .

ويبدو أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها فى الإسلام . إذ يستفاد من رواية السعدى أن أميرها عندما تهيأ للدخول فى الإسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا فى أرض المدينة ، فجمع منهم أربعة آلاف ونيف ، وأسلم على يدهم(٦) . وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال ،

(١) السعدى : ١ ، ١٢ ، ٥٧ — Dubois, pp. 134–235.

(٢) السعدى ص ٣٧ .

(٣) السعدى ص ٢١ .

(٤) السعدى ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦١ .

(٥) Dubois, p.175 ,

فقد كانت سوقاً عظيماً لتجارة الملح والذهب وجنى أهلها من هـذه التجارة أرباحاً طائلة .

وارتبطت تجارياً بتنبكت وبالواحات الواقعة على طريق القوافل ، ثم خضعت لدولة سنغى كما خضعت تنبكت ، فنعمت بالطمأنينة والأمن ، وتضاعف نشاطها التجارى كما رسخت قدمها فى الثقافة الإسلامية عن ذى قبل . وكان إسكى محمد أول من عين القضاة بهذه المدينة للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية .

ثم تتابعت وثبتها من بعد ذلك . فنجد السعدى فى تاريخه يتحدث بالتفصيل عمن أقام بها من العلماء والقضاة ورجال الدين (١) .

ولكن رغم رسوخ قدمها فى الثقافة الإسلامية على هذا النحو لم تستطع أن تبلغ ما بلغته تنبكت بسبب قرب هذه المدينة من الطريق المؤدية إلى بلاد المغرب وصلاتها المستمرة بمراكز الثقافة فيما وراء الصحراء .

ثم امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق فى المنطقة الواقعة شمال نيجريا فى إمارات الحوصة . بعد أن دخلت هذه الإمارات فى الإسلام وخضعت لنفوذ سنغى ، فظهرت مدن كانوا وكتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى فصاعدا .

وقد سبق أن أشرنا إلى رحيل بعض علماء تنبكت إلى مدينة كانو سنة ١٤٨٥ ، واتصال الرحلة إليها بعد ذلك ، كما نشطت كتسينا كذلك(٢) .

وقد رأينا الجهود التى قام بها الإمام المغيلى فى هذه المدينة حين أقام بها زمناً يعلم الناس الفقه ويقضى بينهم . والرحالة بارث(٣) فى حديثه عن إمارات الحوصة يشير إلى علاقة نشأت بين جلال الدين السيوطى وبين أمير كاتسينا . ولا نستبعد نمو مثل هذه العلاقة فقد اتصل رجالات غرب إفريقية بهذا الإمام العظيم منذ رجوع إسكى

(١) السعدى ص ١١ — ١٢ .

(٢) السعدى ص ١١ — ٢٠ .

(٣) Meek, vol I, p. 66.

(٤) Barth : vol II, p. 74. Arberry Islam to day, p. 36.

محمد من الحج بعد زيارته الشهيرة لمصر . بل هنالك ما يدل على أن السيوطى(١) رحل إلى شمال نيجريا وأقام فى هذه المدينة زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ .

لكن مدينتى كانو وكتسينا تضاعفت شهرتهما العلمية بعد الأحداث التى أصابت مدينة تنبكت منذ القرن السادس عشر فضاعدا . ولا زالت مدينة كانو إلى اليوم ربما أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى غرب إفريقية وبها مدرسة للعلوم العربية ومدرسة للقضاء الشرعى .

ولم تقف الثقافة العربية عند حدود نيجريا ، بل نفذت إلى منطقة بحيرة شاد ، وتوطدت فى بلاد كانم وبرنو .

وقد كشفت الوثائق التى نشرها بالمر وترجمها إلى اللغة الإنجليزية عن علاقات هذه البلاد الثقافية بمصر ، وعن رحيل بعض العلماء إلى الجامع الأزهر ، وحجهم إلى مكة وزيارتهم بغداد ثم عودتهم إلى بلادهم واشتغالهم بتعليم الحديث والتفسير ، ومن هؤلاء عمر بن عثمان(٢) .

وتشير هذه الوثائق إلى تشجيع السلاطين للحركة العلمية وبنائهم المساجد .

وتكشف هذه الوثائق أيضاً عن تمتع رجال العلم فى البلاد بمكانة ممتازة ، فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لا تمس بسوء طيلة حياته(٣) .

وامتدت هذه الهبات إلى المهاجرين من علماء المسلمين من الشمال أو الشرق ، وقد ظلت أسرهم محتفظة بها مئات السنين(٤) وأشارت بعض هذه الوثائق من ناحية أخرى إلى علماء ارتفع شأنهم مثل القاضى محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن إمام الحاج . وعبد القادر بن الحاج وغيرهم . وتفوقت مراكز الثقافة فى برنو فى القرن الثانى عشر على وجه الخصوص (٥) .

---

(١) آدم عبد الله الالورى : الإسلام فى نيجريا ص ١٠ .

(٢) Palmer : op. cit. p. 33.

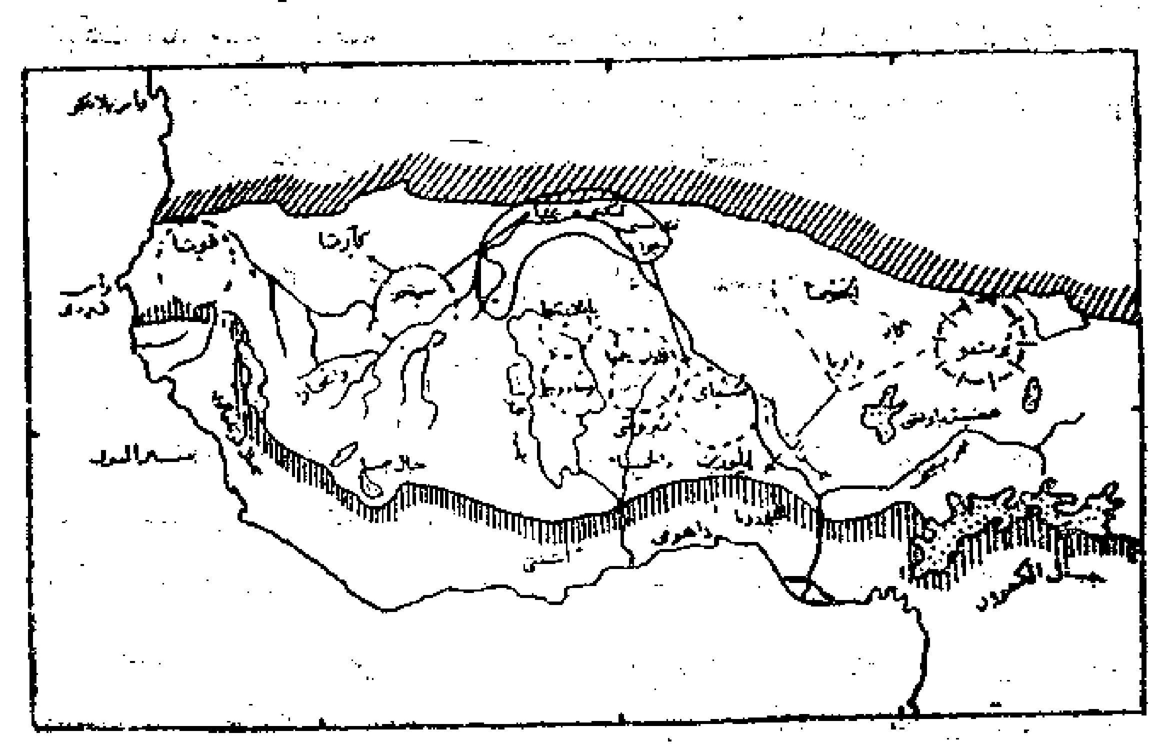
(٣) Ibid : p. 44.

(٤) Idem.

(٥) Islam to day, p. 137.

هذه المراكز الثقافية كانت تتأثر إلى حد بعيد بسياسة الدول الإسلامية التي قامت في السودان الغربي ، فكانت الدولة كلما بسطت ظل الطمأنينة وسودت الأمن والرخاء ومدت يد العون إلى المشتغلين بالعلم كلما عملت على الأخذ بين هذه الثقافة

هذا القول يصدق على مدينة تنبكيت بصفة خاصة ، فقد ظفرت من عناية منسى موسى (١) ما دفعها فى طريق الظهورة ، فهو الذى بنى بها دار السلطنة ، وبنا صومعة الجامع الكبير .



ولايات السودان الغربى فى القرن السابع عشر الميلادى

وتدفق إليها رجال العلم لينعموا بهذه الطمأنينة ، ثم تأثرت تنبكت وثقافتها الإسلامية بما ذاقته فى عهد سلطان سنغى سن على الذى غزا هذه المدينة سنة ٨٧٣هـ(٢) .

وفر منها العلماء بالآلاف خوفاً من بطشه وانتقامه . ثم عاودت هذه المدينة حياة الهدوء والطمأنينة والإنتاج فى عهـــد إسكى محمد ، ولعل هذا يفسر المديح

(١) السعدى ص ٧ ، ٩ .
(٢) السعدى ص ٧٥ ، ٧٧ .

الذى كاله السعدى لهذا السلطان كيلا ، ونعمت بهذه العناية فى عهد إسكى داود اسحق (١) .

ثم ذاقت من المراكشيين أكثر مما ذاقت من سن على من قبل ، وهذا أمر يؤسف له حقاً . فقد كان أخلق بهذا الفتح أن يزيد من عمق الصلة بين المغرب وغرب إفريقية ، وأن يدفع الثقافة الإسلامية فى طريقها نحو التفوق والازدهار(٢) .

وكانت أوضاع المراكز الثقافية الأخرى تتأثر بالأحوال السياسية كما تأثرت بها تنبكت فقد امتدت النهضة إلى جنى فى ظل نفوذ سنغى ، كما تفوقت كانو وكاتسينا بسبب اضمحلال تنبكت من ناحية ، وتشجيع أمراء الحوصة من ناحية أخرى . وقد رأينا كيف عمل سلاطين برنو على تشجيع الحركة العلمية فى بلادهم .

٣ — غرب إفريقية فى القرن التاسع عشر
(عصر الاصلاح)

كأن الأحداث قد اصطلحت على أن تجعل الوطن الإسلامى كله فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر نهبا للفوضى والضعف والانقسام ، العثمانيون الذين تزعموا معركة الجهاد منذ القرن السادس عشر ضعف أمرهم وطمع فيهم الطامعون .

المسلمون انقسموا على أنفسهم فى كل مكان وتعرضوا لموجة طاغية من التخاذل والتفكك . والاستعمار الغربى يتربص بالوطن الإسلامى الدوائر ، ويتهيأ لأن يقتطع ما طاب له من أراضيه .

وغرب إفريقية باعتباره جزءا هاما من الوطن الإسلامى امتدت إليه هذه الآثار ، ووقع فى نفس المصير . وسادته نفس الظروف .

وأصبحت أحواله فى أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع عشر لاتكاد تختلف فى دقائق تفصيلاتها عن أحوال الوطن الإسلامى الكبير (٣) .

---

(١) تعشار ص ٩٤ ، ١١٣ .

(٢) Dubois, p. 351.

(٣) Arberry : Islam to day p. 137.

وكما عاني الشرق العربي من العثمانيين وماشاب نظمهم وتقاليدهم من ألوان من الفساد ، تعرضت بلاد غرب إفريقية للاحتلال المراكشي . هذا الاحتلال الذي قضى على دولة سنغي التي كانت توحد بين أقاليم السودان وتبسط عليها ظل الأمن والطمأنينة .

فتح المراكشيون السودان — كما رأينا — في أكتوبر سنة ١٥٨٠ وقد أدى هذا الفتح إلى انكماش دولة سنغي ، ثم إلى القضاء عليها آخر الأمر .

وظلت مراكش تحتفظ بنفوذها في هذه البلاد ، ترسل الأمداد وتعين الولاة . أرسلت نحواً من ثلاثة وعشرين ألف مقاتل في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٩١ و ١٦١٠ . ثم أصبح هذا الاحتلال الذي لم يحقق أحلام المراكشيين أو أهدافهم عبئا ثقيلا . حتى إذا توفي السلطان المنصور صاحب الفكرة وئدت بوفاته ، فتخلى المراكشيون عن أحلامهم هذه .

وتركوا السودان يواجه مصيره ، ويحل مشاكله بنفسه ، وبقي جيش الاحتلال . ولما انقطع عنه سبل المدد اضطر إلى تدبير شئونه بنفسه وسد الفراغ في صفوفه بعناصر من الزنوج من أهل البلاد لايبلغون مبلغ جند مراكش في التدريب والكفاية ، وتزوج الجند من نساء البلاد وأنجبن عنصراً مولداً خليطاً ، هذا الجيش المختلط الذي جمع بين البربر والزنوج أطلق عليه اسم « الرماة »(١) .

وكان هؤلاء الجند ينتخبون الباشوات الحكام الذين اتخذوا تنبكت مقرا لحكومتهم ، كما عينوا بعض الولاة في تمبا وجاو وجني ، وغدا هؤلاء الباشوات ألعوبة في أيدي الجند يخلعونهم إذا شاءوا ، ويولونهم إذا أرادوا . حتى لقد تولى منهم في الفترة من سنة ١٦٦٥ إلى ١٧٥٠ نحواً من مائة وثمانية وعشرين منهم . فما أقرب الشبه بين هذه الأوضاع وتلك التي سادت العالم الإسلامي الخاضع للنفوذ العثماني . أحوال مصر وتونس والجزائر والشام والعراق واليمن .

وأصبح لا هم لهذه الطائفة من الجند وهذه الطغمة من الباشوات إلا الإثراء بأية

---

(١) السعدي : تاريخ السودان ص ٢٢٠ — ٣٠٢ .

وسيلة والمغالاة فى فرض الرسوم والمكوس والضرائب ، وشاركهم الرماة فى هذا النهب والسلب .

وقد ساءت أحوال البلاد بسبب اضطراب الأمن وعزل الباشوات وانحلال الجيش وانحطاط مستواه . وبلغ ضعف هؤلاء الباشوات حداً جعلهم يدفعون الجزية لملوك « سجو » الوثنيين . ثم استقلت حامية جاو وجنّى وتمبا ولم تبق للباشوات إلا مدينة تنبكت . ثم لم تخلص لهم هذه المدينة آخر الأمر فقد اغتصب قواد الفرق السلطان لأنفسهم . وظلوا على اغتصابهم هذا حتى آخر القرن الثامن عشر(١) .

وكانت هذه المأساة ذات آثار بعيدة المدى فى أحوال البلاد الاقتصادية فقد أصابت تجارة السودان فى الصميم . هذه التجارة التى وصلت إلى قمة تطورها فى أول القرن السادس عشر . ودرت على السودانيين والمغاربة الأرباح الطائلة .

وكانت القوافل تخرج فى سيل مطرد من مدن السودان تحمل الذهب والعاج والمسك وريش النعام وخام النحاس وتبيعه بأسعار مرتفعة تعود على ملوك سنغى بالربح الوفير . هذه التجارة الرابحة التى أطمعت البرتغاليين وأغرتهم باحتلال مدن المغرب الإسلامى ، كما أغرتهم بالانحدار نحو الجنوب مساحلين لإفريقية الغربية .

والاحتلال المراكشى بدلا من أن يضاعف هذه التجارة وينميها ، أساء إليها ، وأضعفها . ثم قضى عليها بسبب المغالاة فى فرض المكوس والرسوم .

ومنذ أن استقل جنود الاحتلال بتنبكت وما جاورها كادت هذه التجارة تنقطع وتتوقف بسبب اضطراب الأمن فى مسالك التجارة وسوء الحال .

وعاش السودان فى عزلة اقتصادية حتى قدر للغرب أن يعيد صلته بالعالم ليس عن الطريق الصحراوى . وإنما عن طريق البحر ، عن طريق موانى الساحل الغربى والجنوب الغربى (٢) .

والفتح المراكشى وما أعقبه من احتلال ، وما صحبه من فوضى لم يسىء إلى الناحية الاقتصادية فحسب ، بل أساء إلى الناحية الثقافية . وما نكاد نقرأ ما كتبه مؤرخو

---

(١) Fage, pp. 30 – 34.

(٢) انظر بفناش ص ١٧ والسعدى ١٣٧ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ٦٩ ، ١٥ ، ١٢٠ .

السودان منذ القرن السادس عشر فصاعداً حتى نحس بأن احتلال المراكشيين لتنبكت ولغيرها من المراكز الثقافية لايكاد يختلف من حيث آثاره ونتائجه عن غزو المغول لبغداد .

فكتاب تاريخ السودان للسعدى وتاريخ الفتاش(١) حافل بأنباء نفى العلماء وتشريدهم ، وأحمد بابا فقيه السودان المعروف عاش شطراً من حياته فى مراكش ، بل ذكروا أخبارا أخرى تتحدث عن حبس أهل العلم ومصادرة أموالهم وقتلهم فى أغلب الأحيان .

ولعل تفسير ذلك أن فقهاء المالكية فى السودان كان شأنهم شأن فقهاء المالكية فى المغرب يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس ويثورون على الظلم ويجهرون بنقد الحكام وتجريحهم ، فكان ولاة مراكش وباشواتها كلما سمعوا نقداً أو تجريحاً أو رأوا خروجاً حتى عن طاعتهم تكلوا بالعلماء والفقهاء .

وقد فر أغلب المشتغلين بالعلم إلى الشرق أو الغرب . والرحالة الفرنسى ديبوا الذى زار تنبكت فى القرن التاسع عشر رأى المدينة الخالدة تعيش على ذكريات مجيدة من تراث تليد ، تعيش على مؤلفات أحمد بابا والسعدى والرعيل الأول من المفكرين . ووجد مكتباتها الشهيرة مقفرة . وجامعتها الكبيرة قد تضاءلت عدداً فى الأساتذة والطلاب والكتب(٢) .

هذا المجتمع الذى ضعف اقتصادياً وثقافياً وسياسياً أصبح نهباً لغارات البدو من الطوارق ، الذين كانوا يريدون أن يستبدلوا أوطانهم الصحراوية بالمراعى الخصيبة فى منطقة النيجر . فأغاروا عليها واستولوا على جاو سنة ١٧٧٠ ، وهددوا تنبكت وعاشوا فى منحنى النيجر حتى سنة ١٨٠٠(٣) .

بل تعرض السودان الغربى لهجرات أخرى غير هجرات الطوارق تعرض لهجرات

---

(١) Dubois, p. 152.

(٢) Dubois, p. 152.

(٣) Dubois, pp. 358–359.

قوم من البدو الرعاة يطلقون على أنفسهم اسم الفولبة ، على حين يسميهم الحوصة اسم الفولاني ويخلع عليهم العرب اسم الفلاتة (١) .

وقد اختلف الباحثون فى أصلهم فولر مثلا يربطهم لغوياً بالنوبة فى السودان ، ودى لافرس يرى أنهم عنصر من البربر استقر فى منطقة أدرار وأعالى السنغال منذ القرن الثالث الميلادى ، وقد خضعوا لدولة غانة ثم للمرابطين ، كما دانوا بالطاعة لسلاطين ملى وسنغى (٢) .

ثم بدأوا يغادرون مواطنهم متجهين صوب الشرق منذ القرن الثالث عشر فصاعدا ، وكانت هجرتهم تمثل تسرباً سلمياً بطيئاً ، فهم يلتمسون الإذن بالرعى ، ثم يقيمون بقطعانهم فى أرض المرعى ، ثم يترقبون الفرص السانحة ، فإذا ضعف القائمون بالأمر اغتصبوا هذه الأرض لأنفسهم وأقاموا إمارات محلية (٣) .

منذ القرن الرابع عشر فصاعدا استقرت طائفة منهم بين مزارعى الماندى فى منطقة ماسنة وهى جزيرة خصبة يرويها نهر النيجر (٤) .

ويبدو أن فريقاً منهم كان قد تسرب تسرباً بطيئاً صوب الشرق إلى شمال نيجريا وأقاموا بين الحوصة : فريق منهم يشتغل بالرعى وبعضهم ينزل المدن ويشتغل بالتجارة ، وقد امتدت هذه الهجرة شرقاً حتى وصلت إلى بلاد برنو .

هؤلاء الرعاة من الفولانى سيستغلون مظاهر الضعف التى أصابت بلاد السودان فى ظل الاحتلال المراكشى فيوسعون أفق هجراتهم ، ويزيدون من نشاطهم السياسى (٥) ، وسيكونون عدة عثمان بن فودى فى الحركة الإسلامية الكبرى التى اضطلع بها فى القرن التاسع عشر .

هذا الانقسام الذى أصاب المناطق التى كانت مسرحاً لنشاط سلاطين سنغى كان ظاهرة شاعت فى غرب إفريقية فى هذه الفترة ، فإلى الغرب من منحنى النيجر استقل

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة : فولبة .

(٢) Fage : op. cit. pp. 30–34, Dubois, p. 153.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة : فولبة ؛ Meek. I, p. 97.

(٤) Fage, pp. 30–34.

(٥) Dubois, p. 152.

شعب التكرور فى منطقة فوتا السنغالية بشأنه متهزاً نوبات الضعف التى أصابت مراكز القوة فى السودان(١) .

بل شهد هذا العصر ظاهرة أخرى لم تكن مألوفة من قبل . فقد ظهرت فى المنطقة الواقعة إلى الغرب من النيجر دولا وثنية تعلمت من المسلمين فنهم فى الحرب وأساليبهم فى الحكم ، ونجت من الغزو الإسلامى محتفظة بدينها وتقاليدها ، ثم أخذ نجمها يعلو فى سماء الحياة السياسية بعد ذلك الضعف الذى غلب على مناطق النفوذ الإسلامى ، فظهرت إمارة البمبارة فى سيجو(٢) .

والبمبارة هؤلاء من شعوب الماندى انضووا تحت لواء سلاطين ملى ثم ظفروا باستقلالهم فى القرن السابع عشر ، واستقلوا تماماً عن باشوات تنبكت المراكشيين ، بل اندفعوا يتوسعون فى القرن الثامن عشر ، واضطروا أصحاب تنبكت إلى دفع الجزية(٣) . واندفع بعض هؤلاء صوب الشمال الغربى وأسسوا إمارة أخرى فى منطقة كارتا احتفظت باستقلالها طوال القرن الثامن عشر .

ولم يسلم قطر من أقطار السودان من هذه الأدواء التى أصابت المجتمع اسلامى .

فإمارات الحوصة كانت تجد نصباً ومشقة فى نشر الإسلام بين القبائل الوثنية الواقعة إلى الجنوب منها ، بل كانت فى حروب متصلة مع هذه القوى الوثنية ، فضلا عن انقسامها على أنفسها ، ومحاربة بعضها البعض ، فقاتلت كانو مدينة كاتسينا ، وتقاتلت الإمارات الأخريات(٤) .

ويبدو أن الإسلام لم يكن قد تمكن من شمال نيجريا على نحو مرض.. يتبين هذا من الرسائل التى وجهها الفقيه المشهور محمد بن عبد الكريم المغيلى إلى سلطان كانو يعرض فيها لألوان الفساد التى سادت مجتمع الحوصة ، من انتشار المفاسد الدينية والدنيوية ، ويطلب إليه « أن يمنع (٥) جميع أهل بلاده عن جميع أنواع الشرك وكشف

---

(١) Fage : op. cit. p. 144.
(٢) Fage : op.cit. p. 144.
(٣) Idem,
(٤) Hogben : op. cit. p. 68-159.
(٥) Hogben : op. cit. p. 68-184.

العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم » ، ولأن « كفار بلادكم بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها ، فإن لم يتركوا اظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في رمضان . لكان ذلك ذريعة لأن يفعل كفعلهم ضعفة العقول من العامة والنساء(١) » . وكتاب السيوطى (٢) إلى بعض أمراء الحوصة يشير إلى مثل هذا كله .

ولم تستطع إمارات الحوصة المنقسمة على نفسها أن تغالب الوثنية أو تجنب الدين الشر الذى أشار إليه المغيلى والسيوطى » وسلطنة برنو كذلك أظلها القرن الثامن عشر وهى ضعيفة منقسمة على نفسها(٣) .

والعالم الإسلامى كما انتفض فى القرن التاسع عشر وقامت فى أكثر أقطاره محاولات مخلصة لإخراج المسلمين من رقدتهم وإيقاظ وعيهم ، وبعث النشاط فيهم ، إما عن طريق الدعوات السلفية أو الحركات التجديدية امتدت هذه اليقظة إلى غرب إفريقية . وشهدت محاولات من هذا القبيل للأخذ بيد المسلمين ، وإصلاح عقائدهم وأمورهم . وما كان لهذه البلاد أن تبقى بعيداً عما اعتمل فى الأقطار الإسلامية الأخرى . فقد كانت صلاتها بالعالم الإسلامى صلات وثيقة ، تفكر كما يفكر ويتجاوب كما يتجاوب .

وكانت حركات الإصلاح التى شهدها غرب إفريقية فى القرن التاسع عشر حركات سلفية كلها . تدعو إلى العودة بالإسلام إلى ماضيه المشرق ، وتكوين مجتمع إسلامى صرف فى نظمه وتقاليده وعاداته . هذه الحركات يمكن أن نعددها على النحو الآتى :

١ — الدعوة الوهابية ممثلة فى حركة عثمان بن فودى فى نيجريا .

٢ — تجدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت إليها يد البعث والإصلاح ، ممثلة فى نشاط السنوسية والقادرية والتيجانية .

٣ — حركات مهدوية تمثلها حركة أحمدو لوبو وولده أحمدو شيخو .

قامت المحاولة الأولى فى شمال نيجريا بين إمارات الحوصة قام بها رجل من أفذاذ أهل البلاد فى هذا العصر هو عثمان بن محمد فودى .

---

(١) كتب هذه الرسالة سنة ٨٩٧ هـ . انظر آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجريا ٢١-٢٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥ — ٢٧ .

(٣) Hogben : op. cit. p. 40.

ومن حق هذا المصلح أن نترجم له وأن نعرف مبادئه وأن نعرض لجهاده وللمكانة التي أحرزها بين مصلحي العالم الإسلامي ومفكريه .

ينتسب هذا المصلح إلى شعوب الفولانية التي رأيناها تخرج من أوطانها في منطقة السنغال ، وتتسرب تسرباً بطيئاً نحو الشرق منسابة في سهول السودان .

وهو ينحدر من أسرة من هؤلاء كان وطنها الأول في منطقة فوتاتورو ، ثم انطلقت في ركاب المهاجرين حتى دخلت سهول نيجريا ، وأقامت في بلاد الحوصة .

في هذه البيئة ولد عثمان بن محمد فودى في قرية طفل بإمارة غوبير سنة ١١٦٩ هـ وكان بيته بيت علم وفتوى ، أسلم أجداده منذ دهر طويل وتفقه أبوه في الدين ، واشتغل بالعلم(١) ، واشتغل به بيته كله زوجه وبناته وأولاده .

شب في هذه البيئة المتدينة فأولع بالعبادة والذكر ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، ثم بدأ يخطو خطواته الأولى في طريق العلم والثقافة ، تلقى دروسه الأولى على يد أبيه محمد فودى وجدته رقية وأمه حواء(٢) . ثم أقبل على علوم العربية يستزيد منها . أخذ الإعراب عن الشيخ عبد الرحمن بن حمداء ، وسمع الفقه من محمد تبو بن عبد الله . ثم ارتحل إلى الشيخ جبريل بن عمر ولازمه ثم عاد إلى بلاده ، وسمع التفسير في زنفر ثم درس الصحيحين(٣) .

ولما بلغ مبلغ الشباب وأوتى حظه من النضوج العقلى والفكرى هاله حال المسلمين في بلاد الحوصة ، فهم يخالطون الوثنيين دون تحرج ، ويقلدهم العامة ويتشبهون بهم(٤) ، وظهر الدين تشوبه البدعة وتجلله الخرافة ويقتله الجهل .

ثم رحل إلى بلاد الحجاز وذهب إلى مكة . وكانت الوهابية قد انتشرت في الحجاز ، ذاعت مبادؤها في الإصلاح وحققت قدراً كبيراً من النجاح بالتحالف الذى تم بينها وبين آل سعود . وقد خالط عثمان دعاة الوهابيين واستمع إليهم ، وتشرب مبادئهم وتحمس لها ، فأيقظت في نفسه الرغبة الملحة في أن يحارب البدع في بلاده كما

---

(١) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥ .

(٢) نساء الطوارق والفولا يتمتعن بنصيب وافر من الحرية ويتعلمن كما يتعلم الرجال سواء بسواء .

(٣) آدم عبد الله الألورى ص ٣٥ .

(٤) Hogben, p. 73.

حاربها الوهابيون في بلادهم ، وأن يعلنها ثورة على أولى الأمر كما كانت الوهابية ثورة على السلطان والمفاسد . وقويت في نفسه الرغبة في إيقاظ مسلمي إفريقية من خمولهم ورقدتهم وحياتهم الدينية المقفرة(١) .

حبه للوهابية واتخاذها ديناً وعقيدة يتبين من الخطة التي انتهجها في الإصلاح ، والمبادىء التي أعلنها .

هذه المبادىء تظهر واضحة جلية في مؤلفاته التي بلغت اثنا عشر مؤلفاً ، وفي مؤلفات أخيه عبد الله وابنه محمد بل . كلاهما ألف في العقائد ، وفصل وشرح . كما تظهر هذه المبادىء مما رواه المعاصرون أو من في حكمهم عن أفعاله وخطواته ، ومنهجه — خصوصاً صاحب كتاب تذكرة النسيان — فقد أفرد ذيلا في كتابه للتأريخ للسلطان محمد بل بن عثمان ولبعض خلفائه .

فقد عرف عنه إنكاره للصلاة على روح الميت ، وتعظيم من مات من الأولياء ، واستنكاره المبالغة في مدح الرسول وتمجيده . وهاجم في نفس الوقت رذيلتين شاعتا في بلاده هما شرب الخمر وفساد الخلق (٢) .

وقد بدأ رسالته كما بدأها الوهابيون أول الأمر ، دعوة إلى الدين بالحسنى والموعظة فأخذ يدعو إلى الإسلام ويحض الناس على اعتناق مبادئه . وبدأت حلقات الطلاب الملتفين حوله تتسع بالتدريج . ثم حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتاب على يديه خلق كثير ، وتزايد عدد أنصاره ومريديه . ثم بدأ بالاتصال بالأمراء المعاصرين يريد أن يحضهم على إصلاح الأحوال ومحاربة البدع والاتحاد لنشر الإسلام بين من لم يسلم من الوثنيين .

وتتضح من تعاليمه الرغبة السلفية الملحة في إعادة المجتمع الإسلامي إلى بساطته الأولى ونقائه الأول أيام الراشدين(٣) .

كما نفى عن نفسه في قوة وصرامة عمله من أجل ملك أو أي عرض من أعراض الدنيا .

---

(١) أرنولد ص ٣٦٠ .

(٢) Arberry, p. 138.

(٣) Arberry, p. 138.

وكان يذكر دائماً أن العناية قد اختارته لإصلاح الدين وإعادة حكم الأمة والجماعة (١) فكان يشاور أصحابه فى أعماله كلها ، والتزم خلفاؤه نظام البيعة الإسلامية .

وصاحب تذكرة النسيان (٢) فى حديثه عن بيعة محمد بل بن عثمان بن فودى روى أن خطيب المسجد قرأ على الناس وثيقة الشيخ فى استخلاف ولده ، وأتاه أهل الآفاق وبايعوه .

وكانت جيوش الفتح والجهاد قبل الزحف تقرأ آيات الجهاد وسورة براءة لتقوى الروح المعنوية (٣) . وظهر طابعهم فى التقشف والزهد منذ اللحظة الأولى ، فقد كان محمد بل الذى ولى السلطنة بعد أبيه يأكل من كسب يده ، ويأبى أن يقتات من أموال المسلمين (٤) ، وكان عثمان وخلفاؤه لايكفون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحطيم دنان الخمر ، وكسر آلات الطرب ، ذهب أحد هؤلاء السلاطين إلى حد قتل ضارب الدف (٥) .

وبعد أن كثر اتباعه وذاعت شهرته انتقل إلى المرحلة التالية من دعوته ، وهى وعظ الأمراء وإرشادهم ، ولعله كان يريد أن يحقق ما حققه ابن عبد الوهاب من قبل ، وأن يتم تحالف بينه وبين أحد أمراء الحوصة كما تم التحالف بين الوهابية وآل سعود .

فاتجه إلى أمير غوبير وبين له الحق والباطل ، وشرح الإسلام الصحيح وطلب إليه أن يعاونه فى إحياء الدين وإقامة العدل ، ويبدو أن هذا الأمير استجاب أول الأمر ، فعهد إليه بالفتوى والإرشاد فى مجلسه ، يفسر القرآن ويروى الحديث ، ويشرح آراءه الإصلاحية . ويحاور العلماء ويناظرهم ويرد عليهم بالحجة ، فسعى العلماء الحاقدون إلى الوقيعة بينه وبين الأمير . واتهموه أنه إنما اتصل بالأمير رياء ومنافقة وطلباً للرئاسة ، وحباً فى عرض الدنيا (٦) .

---

(١) Barth : vol. II, p. 80.

(٢) تذكرة النسيان ص ١٨٩ .

(٣) تذكرة النسيان ص ١٩٢ .

(٤) تذكرة النسيان ص ١٩٢ .

(٥) تذكرة النسيان ص ٢٠١ .

(٦) آدم عبد الله الألورى ص ٣٦ .

فاتجه إلى إمارة أخرى هي إمارتي زنفر وكبي ، ينشر دعوته ومبادئه فأسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين ، وزاد الناس له اتباعاً ، ورأى الأمراء فيه خطراً ملحاً يريد أن ينتقص من سيادتهم ، وأن يحد من نزواتهم ويؤلب عليهم رعيتهم فأمروه بالخروج من بلادهم ، وهددوه بإيذائه وإيذاء أعوانه والقضاء على دعوته .

فلما لم يستطع أن يحقق هدفه وأن يفوز بمعاونة أمير من أمراء الحوصة خرج فى ٢١ فبراير سنة ١٨٠٦ (١) مهاجراً ومعه طائفة من أنصاره المخلصين إلى أطراف الصحراء فإذا بأمراء الحوصة يتعقبونه أينما ذهب ، يقطعون الطريق الموصل إليه ، وينهبون أمواله ويتهيأون لحربه .

فلم يجد أتباعه بداً من أن يبايعوه على الجهاد أو الموت وطاعة الله ورسوله وبايعوه بإمرة المؤمنين . واستعدوا للحرب واستجاب له أنصاره فى كل أنحاء نيجيريا ...

ووجدت دعوته استجابة قوية سريعة بين عشائر الفولانى المنتشرين فى البلاد إذ رأوا فى انتصاره إعلاء لكلمتهم ، وارتفاعاً لشأنهم ومجداً لجنسهم فاتحدوا خلفه . بعد أن كانوا قبائل مبعثرة تحيا حياة رعوية ، وقدموا إلى مهجره ينضمون لجيشه ويؤيدون دعوته (٢) .

هذا التأييد الذى ظفر به عثمان بن فودى من أبناء جنسه يرى فيه هو جبن Hogben حركة قومية لقبائل الفولانى موجهة ضد أمير غوبير الذى أراد طردهم والقضاء عليهم وأن الوثنيين منهم (فى زعمه) عادوا إلى حياتهم العادية بعد انتهاء الجهاد ، على حين تقاسم أصحابه المناصب والنفوذ (٣).

وهذا القول لايستقيم مع مارأيناه من بداية دعوة عثمان . فقد رأيناها محاولة مخلصة للإصلاح مجردة من شبهة الجنس أو الرغبة فى الملك ، وأنه اضطر حين أعوزه الجند وحق الجهاد أن يستعين ببني جنسه فى هذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن كنا لا ننكر أيضاً أن الحركة كانت إلى حد ما قومية ودينية إصلاحية فى نفس الوقت(٤).

---

(١) Meek, vol. I. p. 78.

(٢) Hogben, p, 110.

(٣) أرنولد ص ٣٦٠ .

(٤) Hogben, p. 75.

ولما تزعم ملك غوبير المعارضين له وسار لحربة أعلن الجهاد رسمياً سنة ١٨٠٦ وابتدأ دوراً جديداً في حركته الإصلاحية هو دور الفتح والجهاد ، فبدأ بمدينة كانو ، هاجمها وهزم أميرها هزيمة ساحقة(١) وولى واحداً من الفقهاء من أتباعه أميراً عليها ثم هاجم أمارة زاريا . وتم له فتحها سنة ١٨٠٧ ، واستولى على منطقة سكت(٢) ، واتخذ هذه المدينة حاضرته لدعوته ، وقد أعيد بناؤها فيما بعد في عهد السلطان محمد بل سنة ١٨١١ ، واستولى على إمارات زنفر وغوبير وكب .

وكان الحماس يوحد بين صفوف أنصاره ، والرغبة الملحة في رفع لواء الدين تدفعهم إلى طلب الشهادة ، فاستطاع سنة ١٨١٠ أن يخضع إمارات الحوصة كلها لنفوذه ، بل أراد أن يمد رواق حركته الإصلاحية نحو بلاد برنو ، وفي سنة ١٨٠٨ قسم الدولة بين ابنه محمد بل وأخيه عبد الله ، ولى ابنه على المنطقة الشرقية وأخاه على القسم الغربي ، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذاً مدينة سكت مركزه الروحي(٣).

وحركته الإصلاحية هذه كان شأنها شأن الوهابية لقيت تشجيعاً وتعضيداً من المخلصين الراغبين في الإصلاح ، كما لقيت معارضة ومحاربة من المحافظين الرجعيين.

فمن عارض هذه الدعوة محمد أمين الكانمي(٤) صاحب برنو ، واتهم الشيخ عثمان بأنه يسعى لعرض الدنيا في الوقت الذي سعى فيه هذا الكانمي لعرض الدنيا حين تولى سلطنة برنو فيما بعد .

ولكن هذه الرغبة المخلصة صادفت إعجاباً واستجابة في نيجريا وفي خارج نيجريا ، وممن أعجبهم منهجه في الإصلاح سلطان المغرب فكتب إليه يقول «بسم الله الرحمن الرحيم صلوات الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وأصحابه الذين انتهجوا نهجه القويم ، إلى السيد الذي فشا في أقطار السودانيين عدله واشتهر في الآفاق المغربية ديانته وفضله ، العلامة النبيه ، العديم في زمانه الشبيه ، ذي النورين العلم والعمل ، اللذين هما منتهى الأمر . السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني نفع الله بعلومه

(١) تذكرة النسيان ص ١٨٥ .

(٢) Hogben, p. 113.

(٣) Fage, p. 35.

(٤) Fage, p. 35.

القاضى والقانى ، وسلام جميلا عالية ما اشتد شوقنا إليه ، والرحمة من الله تغشاه ، حتى لا يخشى إلا الله والله أحق أن نخشاه ، وبعد فقد بلغنا مزج الثناء عليك ، والتعريف بأحوالك وأفعالك ذلك ما نحب محبتنا وتسليمنا إليك ، وذلك لسان سلطان ناحيتكم أمير الطوائف الإسلامية بساحتكم المقرى فى كتابه إلينا بفضلكم ، وإنك ناصح الله فى ذلك السلطان محمد الباقر بن محمد العدل سلطان أهير ، فإنه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى له نصب الرسول الأمين والوزير والحاجب حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً وترادفت عليك وفود الإسلام أفواجاً وصار بلطف شمائلك إنسان العين عين إنسان :

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ما لم يروا عنده آثار إحسان

وهذا من أعظم المنح وأتم النعم ، لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم ، فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيراً ، ويبقيكم خيراً ويديم دولتكم محفوفة محفوظة ، وبعين العناية ملحوظة . وفى حصن الله الحريز تاليه . قال الله تعالى : (ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) . والسلام منا على جنابكم الذى صار للإسلام بخصوص نصيحتكم كالبيت المعمور . والسلام عليكم ورحمة الله(١) » .

ولما توفى الشيخ عثمان سنة ١٨١٧ بويع ابنه محمد أميراً للمؤمنين وبقيت الإدارة مزدوجة فى عهده : القسم الشرقى يدفع الجزية لسكت والقسم الغربى يدفعها لعبد الله ابن فودى ، ثم توفى محمد بل سنة ١٨٣٧ ، والرحالة كلبرتون الذى زار هذه البلاد فى عهد هذا السلطان يتحدث عن الاستقرار والرواج والرخاء ، ولا تزال هذه السلطنة باقية حتى اليوم(٢) .

وقد ترك ظهور هذه الحركة الإصلاحية أثراً عظيماً فى أحوال المسلمين فى نيجريا ، وفى غرب إفريقية كله .

---

(١) آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجريا ص ٣٦ – ٣٧ .

(٢) تذكرة النسيان ص ١٨٩ .

فلم يعتمد الفولانيون في نشر الإسلام على الجهاد وحده ، إنما قاموا بجهود مشكورة لنشر الإسلام بالطرق السلمية . فالرحالة Landet رأى في إحدى جزر النيجر المعلمين الفولانيين ، أرسلهم أمير نوب لتعليم الوثنيين مبادئ الإسلام(١) .

كما عمل السلاطين أنفسهم على دفع الحركة الإسلامية إلى الأمام(٢) . إذ بفضلهم انتشر الإسلام في جنوب نيجريا ، وبهذه البلاد اليوم ملايين من المسلمين دخلوا في الدين على نطاق واسع بفضل هذه الحركة الإصلاحية العظمى .

وكانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية في غربي إفريقية ، فلم تكن دعوة في الدين مبنية على صوفية إنما مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة فإمامهم عثمان ابن فودي نفسه ألف نحو عشرين كتاباً(٣) .

أصول الولاية — إحياء السنة — بيان البدع — ترغيب العباد — التصوف — تميز المسلمين — الجهاد — دالية المديح — سوق الصادقين — شفاء الغليل — علوم المعاملة — عمدة العلماء — عمدة البيان — العمل الأول — كف الطالبين — المهدى المنتظر — المسائل المهمة — نصائح الأمة — نور الألباب — الهجرة .

وكان أخوه عبد الله بن فودى يبارى العلماء في مقابلته لصحيح البخارى(٤) ، وعرف من مؤلفاته نحو ثمانية عشر كتاباً : ألفية الأصول — بحر المحيط في النحو — تزيين الورقات — تخميس العشريات — تفسير ضياء التأويل — تفسير كفاية الضعفاء — الحصن الرصين في الصرف — دواء الوسواس — سبيل النجاة — ضوء المصلى — ضياء السياسة — ضياء الحكام — كتاب النبات — مصالح الإنسان — مفتاح التفسير — مفتاح الأصول — نيل المرام — نظم النقابة(٥) .

ولم يكن ابنه السلطان محمد بل أقل منهما شأناً في هذا الميدان ، فقد خمس في غزواته همزية البوصيرى ، وقصيدة بانت سعاد ، والبردية للبوصيرى . وروى صاحب

---

(١) Meek, vol. II, p. 12.

(٢) تذكرة النسيان ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) الألورى ص ٤١ .

(٤) تذكرة النسيان ص ١٩١ .

(٥) الألورى ص ٤١ .

تذكرة النسيان (١) أنه كان كثير الاشتغال بالتأليف وكلما ألف تأليفاً أخرجه إلى الناس فيقرأه لهم ثم يشتغل بتأليف آخر ، وقد انتقلت زعامة الحركة الفكرية من مدينة تنبكت وجنى إلى مدن كانو وشمال نيجريا .

ثم شهدت غرب إفريقية محاولات أخرى للأخذ بيد المجتمع الإسلامى والعمل فى عزم وإصرار على نشر التقاليد الإسلامية :

وكما انبعثت حركة عثمان بن فودى فى أوساط الفولانى النازلين فى إمارات الحوصة ، كذلك قامت حركة أخرى فى فرع آخر من هذا الشعب الذى انتشر فى بلاد غرب إفريقية على نطاق واسع .

وقد رأينا أن طائفة من الفولانى هاجرت إلى منطقة ماسنة بين السنغال والنيجر وخالطوا شعب البمبارة وعاشوا فى كنفه ، وظلت غالبيتهم على الوثنية .

فى هذا الوسط الوثنى الخالص إلا من بصيص من التأثيرات الإسلامية نشأ فتى فولانى اسمه أحمدو لوبو فى أسرة مسلمة متمسكة بالتقاليد الاسلامية ، وما كاد يبلغ سن الشباب حتى دفع به أهله إلى مدينة جنى (٢) . التى كانت من أهم مراكز الثقافة الاسلامية فى حوض النيجر . حيث تعلم التفسير والفقه وتفقه فى الدين . وعاش فى هذه المدينة زمناً وغادرها بعد أن اكتملت ثقافته وفى ذهنه فكرة واضحة لبعث القوى الإسلامية ومحاربة الوثنية ، والقضاء على البدع وتحرير عشيرته من أهل ماسنة الفولانيين من أوهامهم ووثنيتهم .

ثم ظهر عثمان بن فودى فى شمال نيجريا يدعو إلى الإسلام ، ويمهد الأذهان لإعلان الجهاد على النحو الذى رأيناه .

وقد اجتذبت هذه الدعوة الإصلاحية الفولانية أحمد ولوبو واستجابت لها رغبته الخالصة فى الإصلاح وسخطه الشديد على الضعف والتخاذل الذى ساد المجتمع الاسلامى المعاصر وشارك فى الجهاد فى بلاد الحوصة حتى إذا ما انتهى الجهاد وحقق آمال المصلحين أراد أن يمضى إلى وطنه . ماسنة وأن يصلح من شئونه كما أصلح عثمان من شئون إمارات الحوصة ، ولكنه اتخذ له منهجاً يخالف عن منهج عثمان .

---

(١) ص ١٩٦ .

(٢) Dubois, p. 184.

كان عثمان صاحب رأى فى الإصلاح خيله إلى مقعد الإمامة فى المجتمع ولكن أحمدو لوبو اختط لنفسه طريقاً آخر، فقد ادعى المهدية(١) وأنه مبعوث العناية لإنقاذ المجتمع الإسلامى فى هذا الجزء من إفريقية ثم مجاهدة الوثنية بكل ما علك من قوة .

فادعى الانتساب إلى البيت النبوى الكريم(٢) وأشاع تنبؤات تبشر بظهور المهدى، وتهيء له الأذهان وتذكر صفته ونسبه واسمه ، فساق على لسان السيوطى الإمام أحاديث دارت بينه وبين إسكى محمد الكبير يتنبأ فيها بظهور هذا المهدى بعد نحو أربعة قرون ، « ثم سأل الشيخ السيوطى هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره . فقال له الشيخ لا ولكن يأتى صالح عالم جليل تابع السنة اسمه أحمد يظهر فى بعض جزائر ماسنة ، ولكن من قبل علماء سنقر (سنكرى) وهو الذى يرثك فى الخلافة والعدالة والصلاح والجود والتقى والزهد ويكون كثير التبسم دائم التحرك فى جلوسه ويسبقك بكونه متبحراً فى العلوم وأنت لاتعلم إلا أحكام الصلاة والزكاة والاعتقادات . وهو آخر الخلفاء المذكورين . ثم سأل إسكى الشيخ هل هذا الخليفة يجد الدين فيجدده أو يجده خامداً فيوقده . فقال له الشيخ بل يجد الدين خامداً فيكون كشرارة جمر وضعت فى يابس الحشيش فينصره الله على جميع الكفار والمخالفين حتى تعم بركته الآفاق والأقطار ، فمن رآه وتبعه كان كمن تبع النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خالفه فكأنما خالف النبى صلى الله عليه وسلم . فتوسط الأدلاء فى زمانه لكنهم لايزالون على الجهاد إلى فنائهم(٣) .

وقد انتشرت دعوته فى ماسنة وصادفت قبولا عظيماً ووجد فيها الفولانيون فرصة لتوحيد صفوفهم وارتفاع شأنهم كما ارتفع شأن إخوانهم فى شمال نيجريا .

ثم تجاوز تفكيره حدود وطنه وتطلع إلى الوطن الإسلامى الكبير فيما وراء الصحراء الكبرى . كما تطلع محمد أحمد المهدى إلى هذه الآفاق فيما بعد(٤) .

---

(١) Dubois, p. 154.

(٢) Fage, p. 146

(٣) تاريخ الفتاش ص ١٤ .

(٤) Fage, p. 146.

فوجه أحمدو لوبو الكتب إلى المسلمين فى إفريقية كلها ، إلى سلطان مراكش وإلى مسلمى الجزائر وتونس ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية بأنه الإمام الثانى عشر وأنه المهدى الذى يبعث لإنقاذ الدين والجهاد فى سبيل الله ، ثم أعلن الجهاد سنة ١٨١٣ فهزم البمبارة الوثنيين(١) .

ثم دخل مدينة تنبكت سنة ١٨٢٧ وأنقذها من ظلم الرماة المراكشيين ، ثم دخل مدينة جنى وطهرها من البدع والمنكرات ، واتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها (حمد الله) ، ونشأت إمارة إسلامية عظيمة الشأن فى منطقة ماسنة وقد توفى شيخو أحمدو هذا سنة ١٨٤٤(٢) .

وخلفه ابنه أحمدو شيخو ، ولم تعمر دولته طويلا فقد توفى سنة ١٨٥٢ ، وأصبحت ماسنة هدفاً لحركة إصلاحية أخرى تنبعث من بلاد التكرور ورغم أن هذه الحركة كانت قصيرة إلا أنها أتمت إسلام الفرع المغربى من الفولانيين ، ونشر الإسلام بين شعوب البمبارة .

ومن الغريب أن كلا الحركتين ، حركة عثمان بن فودى وأحمدو لوبو قد حالفتا طريقة القادرية وأيدتاها إلى أبعد الحدود هذه الطريقة التى نفذت إلى إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر على يد أحد مهاجرى توات . ثم اتخذت من منطقة ولاته مركزاً لها ، ثم تدفقت إلى تنبكت(٣) . وفى مستهل القرن التاسع عشر امتدت إليها النهضة الروحية الكبرى التى انتشرت فى العالم الإسلامى كله فاندفع القادرية إلى غربى إفريقية ، وأفادوا من حركات ابن فودى ، وأحمدو لوبو . وانتشرت انتشاراً واسعاً من برنو شرقاً حتى منحنى النيجر غرباً ، وقاموا بنشاط عظيم فى إنشاء الزوايا والربط والمدارس ، وإرسال البعوث والتبشير بين الوثنيين فكأنها اضطلعت بالجهود السامية فى نشر الدين تاركة أمر الجهاد لمن هو أقدر عليه(٤) .

ثم امتدت الحركات الإصلاحية التى استهلها عثمان بن فودى امتداداً سريعاً صوب الغرب فى سرعة وعنف ، ووجدت استجابة عميقة وسريعة فى جميع أرجاء غرب

---

(١) Dubois, p. 155.

(٢) Dubois, p. 150.

(٣) أرنولد ص ٢٦٢ .

(٤) L'Islam Noir, p. 49.

إفريقية ، مما يدل على أن هذه البلاد كانت مفتحة الأذهان لنداء الجهاد ، مهيئة لتقبل هذه الدعوات الإصلاحية المنطلقة من شمال نيجيريا .

وقد رأينا امتداد هذه الحركات إلى منطقة ماسنى على يد أحمدو لوبو ، ولكنها انطلقت صوبة المغرب إلى حوض السنغال نفسه ، ومنها إلى منطقة فوتا الواقعة إلى الجنوب من السنغال الأدنى هذه المنطقة التي نزلها التكرور ، واستطاعوا قبل غزوات المرابطين أن يتخطوا السنغال ويتوسعوا شمالا صوب المغرب . كما خضعت هذه المنطقة لملوك غانة أو صوصو أو ملى . ومنها انبعثت هجرات الفولانى متجهة صوب الشرق فوق سهول السودان(١) .

كان الإسلام قد تأصل فى بلاد التكرور ربما أكثر من تأصله فى أية بيئة إفريقية أخرى . أسلموا منذ أيام عبد الله بن ياسين واشتركوا فى جهاده وتشربوا الثقافة الإسلامية ، وتعمقوا فى فهمها ، وأخلصوا لها كل الإخلاص وكانوا ألزم أهل السودان لأحكام الدين وشعائره .

فى هذه البيئة ولد عمر الفوتى التكرورى سنة ١٧٨٨ فى قرية حلوار من بلاد دمار ، بأرض فوتة (٢) .

وكان أبوه من المرابطين المتفقهين فى الدين شأنه شأن غالبية أهل البلاد ، فرباه تربية دينية(٣) وتعلم علوم العربية ، والفقه والحديث والتوحيد ، حتى إذا بلغ مبلغ الشباب ظهر كرمه وقوة شخصيته ووفرة مهابته .

ثم ارتحل صوب الشرق يطلب المزيد من العلم ، فنزل مصر سنة ١٨٢٠ ، وتلقى العلم بالأزهر ، ثم غادر مصر إلى البلاد المقدسة وتنقل بين مدنها وقتاً طويلا ، وكانت الحجاز فى ذلك الوقت مركز الحركات السلفية والثورات الدينية .

وليس تبعيد أن يكون الحاج عمر الفوتى قد لقى دعاة الوهابية وخالطهم وتشرب مبادئهم . وليس من المعقول أن تطول إقامته بالحجاز على هذا النحو ولا يتصل

---

(١) Dubois, p. 157.

(٢) أبو بكر خالد عريا : ص ١٧ .

(٣) أرنولد ص ٣٦٧ .

بالوهابية . كما اتصل بشيوخ التيجانية وأعجبته مبادئهم التى تدعو إلى الشدة ، بعكس مبادىء القادرية التى تدعو إلى التساهل والتسامح .

ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ، وغادرها إلى برنو ثم انتقل إلى بلاد الحوصة ، وكشف عن مبادئه ، فهو يبدو وهابياً متحمساً لمبادىء عثمان بن فودى محبذاً دعوته إلى الإصلاح (١) ، يدل على ذلك أنه أخذ يعظ الناس ويحضهم على الرجوع إلى عقيدة السلف .

ثم مضى إلى مدينة سكت الحاضرة الروحية للدعوة الوهابية التى بثها عثمان بن فودى . واتصل بالدعاة والزعماء وتزوج بنت السلطان محمد بل بن عثمان ، وجمعته بهم أواصر مودة وثيقة وتفاهم عميق(٢) .

وعاد إلى بلاد فوتا سنة ١٨٣١ وقد تشرب مبادىء الإصلاح واعتزم الجهاد . فلجأ إلى جبال فوتا جالون ، وأنشأ رباطاً للعبادة الروحية والتدريب على الحرب والاستعداد للجهاد مقلداً عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين .

وتوافد عليه المخلصون من أتباعه المستجيبين لدعوته ، وتسلح بأحدث الأسلحة ، التى اشتراها من التجار الأوربيين(٣) .

فلما شعر بقوته انحدر من رباطه سنة ١٨٤٨ ، وقد زاد أنصاره قوة فى الروح وقوة فى السلاح .

ولم تلق دعوته قبولا من المتزمتين من التكرور الذين لم يألفوا الوهابية ونزعتها العنيفة فى الإصلاح ، فهاجر كما هاجر عثمان بن فودى من قبل إلى مدينة دنكراى وبنى فيها قلعة حصينة ومنها أعلن الجهاد على الوثنية والبدعة والفساد .

استهل جهاده بغزو إمارة البمبارة فى كارتة مركز الوثنية ، وهزم جيشها سنة ١٨٥٤(٤) . واستولى على أهم مدنها وكان يريد أن تتعاون معه إمارة الفولانى فى ما سنة لشن هجوم مزدوج على مدينة سيجو (سيقو) .

---

(١) أبو بكر خالد عمريا : ص ١٨ .

(٢) Fage, p. 138.

(٣) أبو بكر خالد عمريا : قوته السنغالية ص ١٧ — ١٨ .

(٤) Fage, p. 148.

فلما رفض ملوك ماسنة استدارت عمر غرباً لمهاجمة مدن خاسو وجلام وهي إمارات صغيرة في السنغال الأوسط آوى إليها الفارون من جيش بكارثة [illegible]

ولكن الفرنسيين كانوا قد بدأوا يتدخلون ، والتحم عمر بأول قوة فرنسية سنة ١٨٥٧(١) فاتجه صوب الشرق واحتل مملكة سيقو سنة ١٨٦١ وماسنة في نفس السنة ، ودخل تنبكت سنة ١٨٦٣ وأقام دولة سلفية ممتدة من بلاد التكرور حتى تنبكت ولكنه فشل سنة ١٨٦٤ (٢) .

واستطاع ابنه أحمدو بن عمر (حفيد السلطان محمد بل) أن يعيد وحدة الدولة سنة ١٨٧٢ ، متخذاً مدينة سيقو عاصمة له .

وظل كذلك حتى تقدم الفرنسيون سنة ١٨٨١ ، فطردوه من ماسنة وهرب إلى بلاد الحوصة ومات بها سنة ١٨٩٨ .

فكانت دولته آخر الدول التي شهدها غربي إفريقية قبل خضوعه للفرنسيين . ولما كان عمر تيجانياً فقد انتشرت التيجانية في منطقة نفوذه كما انتشرت القادرية في منطقة نفوذ عثمان بن فودي وأحمدو لوبو(٣) .

وكانت سلطنة برنو بحكم ظروفها وموقعها هدفاً للحركات الإصلاحية التي ظهرت بين إمارات الحوصة أو في طرابلس أو في سودان وادي النيل .

فقد سعت إليها مظاهر الضعف منذ القرن السابع عشر بسبب ضعف السلاطين ، وقلة انصرافهم لأمور البلاد ، وإغراقهم في اللهو والترف ، وتعرضت البلاد لغارات متصلة من الطوارق القادمين من الشمال أو الغرب المتقدمين عبر دار فورد وكرفان واضطربت أمور الزراعة واجتاحت البلاد المجاعات والأوبئة(٤) ، وأظلها القرن التاسع عشر وهي غير مهيئة لمقاومة التيارات الوافدة إليها .

وامتدت إليها بحكم موقعها حركات الإصلاح ، امتدت إليها حركة الإصلاح

---

(١) Dubois, p. 157.

(٢) Fage : op. cit. p. 148.

(٣) أرنولد ص ٤٦٦ .

(٤) Hogben, p. 391.

التي اضطلع بها عثمان بن فودي لها فغزت قوات الفولاني والحوطة بلاد برنو في عهد سلطانها محمد بن علي ، فهزمت جيوشه وسقطت العاصمة سنة ١٨١٨ .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت مصلح من أهل برنو يدعى محمد الأمين الكانمي(١) . رحل هذا الرجل إلى مراكز الثقافة الإسلامية ، رحل إلى الحجاز وأقام بالمدينة عامين ثم رحل إلى مصر وفاس وعاد إلى بلاده ينشر الحركة العلمية وذاع صيته لعلمه وتقواه ،

وقد استنجد به ملوك برنو ، فتزعم حركة مضادة للفولانيين وطردهم من البلاد(٢) بعد قتال طويل ثم بايع لنفسه بالسلطنة سنة ١٨٢٦ متخذاً مدينة كوكو عاصمة له ، وظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى خضعت للاحتلال البريطاني(٣) .

وتعرضت برنو لغارات رابح بن الزبير سنة ١٨٩٣ بعد طرده من وادي ، فاستولى على بلاد باجرمي وغزا برنو واستولى على عاصمتها وبقي فيها حتى طرده الفرنسيون منها سنة ١٩٠٠ ، وخضعت برنو لحركات الإصلاح السنوسية ، فانتشرت بها زواياهم ، وكثر نشاطهم ، كما تعرضت للدعاية المهدية المنطلقة من سودان وادي النيل(٤) ، وكان من الممكن أن تثمر هذه الحركات الإصلاحية التي اجتاحت غربي إفريقية ؛ فترد للإسلام نقاءه وقوته وروحه المبدعة ، وتوطد أواصر الوحدة بين المسلمين ، لولا تعرض هذه البلاد لغارات الاستعمار ، ودخولها في دائرة النفوذ الفرنسي والبريطاني(٥) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة برنو — Palmer, p. 19.

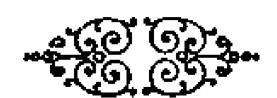
(٢) تذكرة النسيان ص ١٩٥ .

(٣) نعوم شقير ص ١٢٧ .

(٤) نعوم شقير ص ١٢٧ .

(٥) Hogben, p. 194.

الباب الرابع



انتشار الإسلام والثقافة العربية في سودان وادي النيل

١ — دور التكوين

المتأمل فى تاريخ انتشار الإسلام فى غرب إفريقية وسودان وادى النيل يجد الكثير من أوجه التشابه بين الأسباب والتطورات والنتائج .

فاتصال غرب إفريقية الوثيق ببلاد المغرب كان من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الاسلام وفى تطور الثقافة الاسلامية ونموها واتخاذها طابعاً خاصاً .

وسودان وادى النيل كان لاتصاله الوثيق بمصر مثل الأثر الذى تركه اتصال المغرب بالقسم الآخر من السودان . دخلت المؤثرات الاسلامية من مصر عبر بلاد النوبة وتركت فى تاريخ السودان وتطور ثقافته الاسلامية أثراً واضحاً .

وثمة تشابه آخر هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثراً واضحاً فى انتشار الإسلام فى كليهما . كان الملثمون من بدو المغرب أصحاب الفضل الأول فى حمل الإسلام إلى غرب إفريقية ، وفى إذاعة المؤثرات الإسلامية ، ورأينا كيف وجهوا هذه الثقافة وأثروا فيها ، وسودان وادى النيل لعبت هجرات العرب إليه دوراً مماثلا للدور الذى لعبه الطوارق فى إسلام غرب إفريقية . هذه الهجرات هى التى حملت الإسلام إلى بلاد السودان وحملت الثقافة العربية وطبعت البلاد بطابع لايزال مستمراً حتى اليوم .

دخلت هذه الهجرات إلى السودان من بابين : الباب الأول هو الباب الشمالى الذى يفضى إلى مجرى النيل ، متابعاً النهر ، من جنوب أسوان إلى كرسكو ، ثم مخترقاً صحراء العتمور مباشرة إلى أبى حمد . ثم متابعاً النهر مرة أخرى ، منتهياً إلى الجنوب .

والباب الثانى هو الشرقى ، المنحدر من ساحل البحر الأحمر عبرته الهجرات من جزيرة العرب فى طريقها صوب الغرب إلى السودن الأوسط (١) .

(١) محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٥٩ — ١٦٠ .

كان انتشار الإسلام من بلاد المغرب وتدفقه إلى غرب إفريقية رهنا بالصراع بين الملثمين وبين مملكة زنجية ذات تاريخ وذات حضارة عريقة وهى مملكة غانة .

وكان نجاح الإسلام فى التسرب صوب الجنوب وقفاً على مقاومة هذه المملكة للتيار الإسلامى الدافق ، ولم ينفسح المجال أمام المهجرات وما تحمله من ثقافات إلا بضعف هذه المملكة واختفائها آخر الأمر .

وكذلك الحال فى سودان وادى النيل ، كانت ممالك النوبة المسيحية تقف فى وجه التيار الذى يريد أن يتدفق من مصر عبر الباب الأول وكان انفساح المجال أمام هجرات العرب المنحدرة عبره لتطرق أرض السودان يتوقف على مدى مقاومة هذه الممالك .

فلما ضعفت ممالك النوبة ثم تهاوت آخر الأمر ، انفسح المجال وانفتح الباب على مصراعيه لتدفق التيارات الإسلامية طليقة من كل قيد .

ثم كانت النتائج متشابهة أيضاً إلى حد بعيد ، فالهجرات حملت الإسلام وثقافته العربية ونشرته فى الأوطان التى نزحت إليها ، وعملت على إسلام أهل البلاد الأصليين ، ونشر الثقافة الإسلامية بينهم ، ثم ما تمخض عنه انتشار الإسلام من انتقال الزعامة إلى أهل البلاد الأصليين ، وتكوينهم سلطنات إسلامية محلية تتخذ الإسلام ديناً وتتشرب ثقافته الإسلامية .

وتكاد أن تكون البداية واحدة فى القطرين : رأينا كيف أن حملة عقبة ابن نافع الفهرى وتوغله فى المغرب الأقصى هى أول اتصال بين غرب إفريقية وبين الفتح العربى .

كذلك كانت بداية اتصال سودان وادى النيل بالفاتحين العرب عبر الباب الأول على يد عمرو بن العاص ، فقد أتم فتح مصر وبدأ أول اتصاله ببلاد النوبة كما يذكر ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر ، حين أرسل عقبة بن نافع الفهرى نفسه على رأس كتيبة من الخيالة (١) أغارت على حدود مصر الجنوبية ، وعلى أطراف بلاد النوبة .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٨٨ .

والبلاذرى (١) يصور هذا اللقاء الأول تصويراً أوضح من تصوير ابن عبد الحكم ، فهو يتحدث عن قتال نشب بين الزاحفين العرب وبين المدافعين من أهل البلاد قتال غلب عليه الإستبسال من جانب العرب وعنف المقاومة من جانب أهل النوبة الذين أظهروا من البراعة فى المراوغة والمهارة فى إطلاق السهام وإصابة الهدف ، وكانت أهدافهم عيون المقاتلة وحدقاتهم يصيبونها فى دقة ومهارة فلا يكادون يخطئون ، والبلاذرى يروى له شيخ حميرى ممن شهد ملاقاة النوبيين فيقول :

« لقد شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمرو بن العاص فلم أر قوماً أحدق فى حرب منهم ، لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم . أين تحب أن أضع سهمى منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذا ، فلا يخطئه » . فلم يستطع العرب أن يتغلبوا على هذه المقاومة العنيفة فعادوا من حيث أتوا .

ثم عاود العرب الكرة سنة ٣١ ﻫ فى ولاية عبد الله بن سعد أبى سرح ، الذى يبدو أنه أفاد من الاخفاق الذى صادفه جيش عمرو . فأعد حملته أتم إعداد ، وأوغلت فى بلاد النوبة جنوباً وأمعنت فى زحفها حتى مدينة دنقلة عاصمة البلاد فحاصرتها حصاراً عنيفاً ، وضربت كنيستها الكبرى ، ثم توقف هذا الزحف مرة أخرى واقتنع المسلمون بالمصالحة ثم عادوا أدراجهم(٢) .

ونحن نريد أن نتعرف على طبيعة هذا اللقاء الأول وآثاره ونتائجه فى انتشار الإسلام فى بلاد النوبة .

هل كانت عودة العرب من حيث أتوا مردها إلى عنف المقاومة التى صادفوها ؟

كانت هذه المقاومة عنيفة ما فى ذلك شك . كانت تختفى من ورائها ممالك مسيحية عريقة وكنيسة يعقوبية عريقة أيضاً . وقفت هذه الممالك أمام الزحف العربى فى سودان وادى النيل ، كما وقفت مملكة غانة أمام الزحف الذى قام به الملثمون فى غرب إفريقية .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٣٧ .

(٢) البلاذرى ص ٢٣٧ .

وقد دخلت المسيحية إلى بلاد النوبة متدفقة من مصر على يد المبشرين المصريين الذين انحدروا إلى هذه البلاد في القرنين الأول والثاني للميلاد .

ثم أخذ ساعد المسيحية يشتد باشتداد تيار المهاجرين من أهل مصر الذين فروا إلى بلاد النوبة معتصمين بها من موجات الاضطهاد والتعذيب والإرهاب ، التي تعرضت لها المسيحية في مصر ، وباتصال العلاقات التجارية بين القطرين .

ثم اشتد اعتناق أهل النوبة المسيحية في القرن الخامس الميلادي ، وإن كانت الوثنية قد بدت غالبة على البلاد سنة ٤٥٣ م . كما يتبين مما رواه القائد الروماني Maximinus ، الذي بعثه الامبراطور مرقيانوس على رأس حملة تأديبية إلى هذه البلاد(١) .

غير أن القرن السادس الميلادي شهد انتصار المسيحية تماما وغلبتها على أهل النوبة شعبا وحكومة بسبب الجهود التي بذلها الامبراطور جستنيان والمبشرون من الملكانيين ثم الجهود التي بذلها اليعاقبة فيما بعد (٢) .

وجدت المسيحية الوافدة إلى البلاد ممالك ثلاثة قديمة : مملكة نباتة ومملكة مقره ومملكة علوة ، ويبدو أن مملكة نباتة في العهد المسيحي قد انضمت إلى مملكة مقرة واتحدتا في ظل أسرة حاكمة واحدة تدين بالمسيحية (٣) فوثائق العصور الوسطى لاتتحدث إلا عن مملكتين مسيحيتين : مملكة مقرة ومملكة علوة .

امتدت المملكة الأولى من حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الثالث جنوبا حيث جزيرة ساي ومدينة كورتي وكانت العاصمة مدينة دنقلة . وتتميز عن دنقلة الحالية التي تقع إلى الشمال منها بنحو مائة ميل ، والتي يطلق عليها اسم دنقلة العجوز ، وتعرف مملكة مقرة في أكثر الأحايين باسم مملكة دنقلة ، وكانت مقسمة إلى ولايات صغرى يحكمها نواب من قبل الملك .

أهم هذه الولايات وأهم هؤلاء الولاة صاحب الجبل ، وهو يختار عادة ممن يتوافر فيهم البأس والحزم . إذ أن مهمته مراقبة الحدود الشمالية ، وضبط

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٨ — ٩ .

(٢) Trimingham ; Islam in the Sudan. p. 59.

(٣) Idem.

شئونها الإدارية والحربية والتجارية ، فلا يستطيع قادم إلى تلك البلاد أن يدخلها دون استئذان (١) .



ممالك النوبة المسيحية

والمملكة الثانية هي مملكة علوة ، وهي أكثر اتساعاً وأوفر قوة وأشد غنى لأنها كانت تضم الأراضي الخصيبة الواقعة بين النيل الأزرق والأبيض ، فضلا عن اتساع وادي النيل في تلك الجهات ، وكثرة عدد السكان. وعاصمتها مدينة سوبة التي تقع إلى الشرق من الخرطوم بنحو خمسة عشر ميلا ، وهي تنقسم

---

(١) حامد عمار - ص ١٠ - ١١

بدورها إلى ولايات يحكمها نواب عن الملك أهمهم والى الأبواب وله من المكانة مثل ما لصاحب الجبل فى مملكة مقرة (١).

هذه الممالك إذن هى التى وقفت فى سبيل الفتح العربى، ونظمت هذه المقاومة العنيدة التى صادفتها حملة عقبة بن نافع من قبل عمرو، والتى صادفتها حملة عبدالله ابن سعد رغم حصارها دنقلة، فقد نظم الملوك المقاومة وأوقعوا بالعرب من حصونهم ومعاقلهم الجبلية، وكبدوهم خسائر فادحة، واضطروهم إلى الكف عن التقدم والعودة من حيث جاءوا.

ولعل عنف المقاومة هذا كان نابعاً من طبيعة البلاد وأحوالها الجغرافية، فكانت تضاريسها تتيح للملوك ولعناصر المقاومة أن تعتصم بمواقع حصينة، وأن تختفى حينا وتعاود الظهور أحيانا من حيث لا يتوقع المهاجمون.

ولعل هذا يفسر إخفاق التجريدات العسكرية التى كانت مصر تسيرها صوب الجنوب فى إلحاح منذ القرن الثالث عشر فصاعدا، ولولا ذلك لتمكنت الجيوش المملوكية من سحق مقاومة النوبيين وإخضاعهم لنفوذ مصر إخضاعاً تاما.

ثم أحوالها المناخية لا تكاد تختلف عن أحوالها التضاريسية، مظهرها العام الشدة والقحط وحاجة المهاجمين إلى الزاد والمؤنة، ومقاساتهم فى سبيل ذلك ألوانا من الشدة والبأس. لذلك كانت الحملات المصرية سريعة خاطفة لم تستطع أن تمكث طويلا فى البلاد. ولو طال مكثها لحققت ما تبغيه من أهداف (٢).

ولم تكن هذه الحملات العربية الأولى تريد زحفاً جاداً نحو البلاد النوبية، فعمرو بن العاص لم يكن يطمع فى أكثر من تأمين حدود مصر الجنوبية، أو تعقب بعض الفارين من الجنوب أو القواد البيزنطيين، ولعلها كانت حملة استكشاف تريد أن تستطلع الأحوال فى أقصى الصعيد.

وكانت حملة عبد الله بن سعد مجرد رد على عدوان مسلح قام به أهل النوبة على حدود مصر الجنوبية.

---

(١) Trimingaham : Islam inthe suan . p, 64

(٢) حامد عمار ، ص ٧٩.

ولا يبعد أن يكون البيزنطيون من وراء هذه الأحداث ، فقد حاولوا استرداد الإسكندرية ولعلهم دفعوا ملوك النوبة إلى مهاجمة مصر من الجنوب لشغل العرب عن مدافعة المهاجمين البيزنطيين (١).

وكان العرب أشوق إلى القضاء على معاقل المقاومة البيزنطية فى بلاد المغرب فقد كانوا يحسون بالخطر جاثماً فى هذه البلاد يريد أن يتهددهم فى كل حين ، فلما عاود الأمويون الهجوم كان انصرافهم تجاه نحو بلاد المغرب وليس نحو بلاد النوبة .

إذن عنف المقاومة مقترناً بطبيعة البلاد الجرداء التى لاتغرى بفتح أو احتلال ثم الرغبة فى حماية ظهر القوات العربية فى مصر وتأمين الحدود الجنوبية ، هى التى أملت على الطرفين أن يتفقا .

وكان النوبيون بدورهم ليسوا أقل من العرب رغبة فى الاتفاق ، فقد كانت الكنيسة الأم فى قبضة العرب ، وكذلك مسارب التجارة ومسالكها ، ومن ثم تبلورت هذه الرغبات المتبادلة فى معاهدة البقط الشهيرة التى عقدها عبد الله بن سعد مع ملك مقرة النوبى (٢) .

وهى تقضى بأن يدفع ملك النوبة إلى بيت المال فى مصر ٣٦٢ رأساً من الرقيق كل عام ، يدفع للوالى بمصر أربعين رأساً ، وحاكم كورة أسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرين رأساً ومبعوث الوالى الذى يجىء إلى أسوان خمسة ، وللشهود العدول عن معاهدة البقط وعددهم اثنا عشر رأساً واحداً أيضاً .

وفى مقابل ذلك يقوم المسلمون بإمداد النوبة بألف أردب من الغلال ، وبهادى السفراء بثلثمائة أردب ، كما يرسل المسلمون حبوبا أخرى كالعدس إلى جانب الأقمشة(٣) .

وتعهد النوبيون أن يحفظوا المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقلة لايهدموه (٤) وقد أغفلت النصوص التى وردت فى المقريزى وغيره من المراجع نصاً مقابل

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١٧ .
(٢) البلاذرى ص ٢٣٧ .
(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٢ .
(٤) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١٨ .

تعهد أهل النوبة بحماية المسجد ، نص ينظم التعاون الديني بين كنيسة النوبة وكنيسة الاسكندرية ووفود البطارقة والكهنة إلى مصر أو رحيلهم إلى النوبة ، لأن هذه المعاهدة أخذ وعطاء وليس بمعقول أن يعطى أهل النوبة ولا يأخذون .

ولم تكن المعاهدة معاهدة تبعية يفرضها غالب على مغلوب ، فالروايات التاريخية تجمع على أن البقط ليس بجزية ولا خراج (١) .

وقد أورد المدائنى مسألة البقط تحت عنوان كتاب « موادعة النوبة » ونص عبارة البلاذرى تفيد هذا المعنى ، ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق إنما هى هدنة بيننا (٢) .

إذن هى معاهدة مصالح مشتركة ، تأمين النواحى الاقتصادية والتجارية والدينية ، وتشجيع للتبادل التجارى ، وتنظيم طبيعى للعلاقات وإقرار السلام على الحدود المشتركة .

وهى نابعة من مصالح متبادلة ، لذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة ، وهى تحدد لنا طبيعة انتشار الإسلام فى النوبة فلن يكون فتحاً إنما إذا قدر له أن يتسرب فليتسرب سلمياً فى بطء ومن غير عنف .

وكانت هذه المعاهدة بمثابة فتح الباب أمام المؤثرات الإسلامية لتنفذ إلى البلاد فى هدوء وطمأنينة ، وكأنى بملوك النوبة قد دقوا أول مسمار فى نعشهم حين فتحوا الباب أمام التيار الإسلامى ليغمر بلادهم ، وليغير مصيرها الاجتماعى والدينى ، ويؤذن بنهاية المسيحية ونهاية مملكة مقرة نفسها .

كانت هذه المعاهدة استهلالا لتسرب الإسلام إلى بلاد النوبة تسرباً سلمياً فى فترة استمرت حتى بداية العصر المملوكى فى مصر ، تسرباً تشجعه وتقويه وتشد من أزره عوامل عديدة : سياسة الدولة الإسلامية فى مصر ، وموقفها من بلاد النوبة ، واتصال العلاقات التجارية بين القطرين فى ظل هذا السلام ، وهجرات الأفراد أو هجرات الجماعات .

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٢ .

(٢) البلاذرى ص ٢٣٧ .

وظلت علاقات الدول الإسلامية بمصر ببلاد النوبة يغلب عليها طابع المسالمة وكانت هذه العلاقات في الحقيقة يتحكم فيها عاملان. (١)

أولهما : معاهدة البقط ، التي نظمت العلاقات السلمية والتبادل التجاري بين القطرين وضمنت لمصر مورداً منتظماً من القمح والسلع المصرية الأخرى .

وأصبحت بلاد النوبة من وجهة نظر الدول الإسلامية في مصر سوقاً كبيراً أو منطقة نفوذ إسلامية ، كانت العلاقات تجنح إلى الهدوء والمسالمة ، كما عملت ممالك النوبة على تنفيذ هذه الاتفاقية ومد مصر مما تحتاجه .

ويمكننا أن نعزو ما نقلته المراجع أحياناً من سوء العلاقات بين الطرفين إلى نقض اتفاقية البقط :

وكان نقض هذه الاتفاقية في الغالب يجيء من ملوك النوبة ، فكانوا أحياناً يمتنعون عن الوفاء بهذه الشروط ، وكانت الدولة الإسلامية في مصر تضطر إلى إرسال الحملات التأديبية لإجبارهم على الوفاء بالعقد .

ويمكننا أن نرد أغلب الحملات التي أرسلتها مصر منذ الفتح حتى العصر المملوكي لهذا السبب ، حملات الإخشيديين والفاطميين ، ثم حملة صلاح الدين المشهورة سنة ٥٦٨ هـ ، حينما أرسل أخاه توران شاه على رأس جيش توغل في بلاد النوبة حتى بلدة إبريم .

وكان ملوك النوبة يردون على هذه الحملات كلما واتتهم الفرصة ، ففي سنة ٧٣٧ م غزا ملك النوبة صعيد مصر في عهد والي مصر عبيد الله بن الحبحاب ثم يسود السلام إذا زالت أسباب هذا الجفاء .

والعامل الثاني الذي كان يتحكم في هذه العلاقات ويوجهها ، الصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر ، فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبي ، فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية في الإسكندرية ، وكان بطريرك مصر يشمل تلك البلاد برعايته الدينية ، يرسل الأساقفة ، أو يتوسط لإعادة الطمأنينة والمحبة بين ممالك النوبة .

---

(١) انظر ما ذكرناه بالباب الثاني .

وكانت كنيسة مصر خاضعة للنفوذ الإسلامى طوال هذا العهد . فكانت علاقة الدولة بالكنيسة تتأثر إلى حد كبير بعلاقة مصر بالدول المسيحية فى النوبة .

فكلما ساءت هذه العلاقة رد الولاة هذا السوء إلى البطريرك وحملوه المسئولية، وطلبوا إليه إصلاح ذات البين ، وإن لم يفعل اضطهدوه أو عزلوه . مثلما حدث فى العصر الفاطمى حينما قبض الوزير اليازورى على البطريرك واتهمه بتحريض ملك النوبة على منع البقط عن الخليفة المستنصر الفاطمى .

ويبدو أن الكنيسة القبطيـــة فى مصر كلما تعرضت لحملة من الاضطهاد أو المضايقة استنجدت بملوك الحبشة أحياناً أو بملوك النوبة أحياناً أخرى ، وكانت اضطهادات الأحباش للمسلمين أو غارات ملوك النوبة هى من قبيـــل الثأر لما توهموا من اضطهاد الأقباط فى مصر .

وكانت هذه الغزوات تزداد على مصر الفترة التى يستشرى فيها الفسادوالوهن فى الحكومة الإسلامية فى مصر ، أو تتعرض الأقلية المسيحية لبعض المضايقات.

على كل حال لم تتخذ هذة العلاقات الطابع القوى العنيف الذى اتخذته فى العصر المملوكى .

وكان هذا بدوره يؤدى إلى مزيد من العلاقات التجارية ومزيد من الرحلات والهجرات . وكأن الدول الإسلامية بمصر كانت تشد أزر هذا التسرب السلمى دون أن تدرى .

والعامل الثالث الذى كان يشد من أزر التسرب السلمى للإسلام هو التبادل التجارى بين البلدين ، هذا التبادل الذى نظمته معاهدة البقط ، ووضعت له القواعد والأصول ، فقد اعترفت هذه المعاهدة بحرية المرور التجارى بين القطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم (١) » .

---

(١) انظر نص معاهدة البقط .

ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان باستطاعتهم أن ينفذوا إلى بلاد النوبة وأن يقيموا فيها متاجرين غير مستقرين فيها، وأن يأمنوا على أموالهم وأنفسهم .

ويبدو أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدأوا يدخلون النوبة ربما قبل إبرام المعاهدة، وأن هذه المعاهدة لم تكن تشرع للمستقبل بقدر ما تقرر حقيقة واقعة ، يدل على هذا نصها على صيانة مسجد المسلمين والمحافظة عليه ومعنى هذا أن التجار المسلمين كان يسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية فى حرية كاملة (١) .

وكان هؤلاء التجار يخالطون أهل البلاد ويتحدثون إليهم ، ولا ننسى أن التجار المسلمين عادة كانوا من خير الدعاة إلى الإسلام ، وكانت أعداد التجار الوافدين على بلاد النوبة تتزايد ويزيد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العلاقات وتطورت بين البلدين ، هذه العلاقات التى بلغت الغاية من النمو فى القرن الثالث عشر (٢) .

والتجار النوبيون المنحدرون إلى بلادهم من مصر كانوا يتحدثون عن أحوال البلاد الدينية والثقافية ويتأثرون بما يشاهدون من معالم الحضارة والرقى .

وكانت أكثر السلع رواجاً فى أسواق مصر تجارة الرقيق ، وكان تجار الرقيق أوفر التجار مالا وأكثرهم ربحاً . واشتد طلب مصر على الرقيق منذ درج الولاة على تجنيدهم فى جيش مصر الإسلامية بعد الاستغناء عن القبائل العربية . وضحت الحاجة إلى الجنود النوبيين منذ أيام الطولونيين واستمرت هذه الحاجة فى عهد الأخشيديين وخاصة فى عهد كافور ، ثم تضاعفت أعدادهم فى عهد الفاطميين لاسيما عهد المستنصر بالله ، فقد كانت أمة سودانية الأصل وشارك هؤلاء السودانيون فى حوادث العصر الفاطمى ، واستعان بهم الخلفاء فى القضاء على الفتن والثورات(٣)

هؤلاء الجند كانوا يعتنقون الإسلام ، وكان بعضهم يقيم فى مصر بعد تسريحه من الخدمة . ولا بد أن كثيرين منهم كانوا يعودون إلى أوطانهم لإنفاق

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١٨ .

(٢) Trimingham : Islam in the Sudan, p, 4.

(٣) مصطفى مسعد ص ١٤٨ .

ما جمعوا من ثروات ، وكانوا أحسن مثل لما يمكن أن يفعله الإسلام بالنوبي من حيث الارتفاع بمكانته الاجتماعية والاقتصادية .

ولا نستبعد أن يكون هؤلاء الجند العائدون إلى الوطن من أحسن الدعاة إلى الإسلام بين ذويهم ، بل لعلهم كانوا يستحثون الناس على استبدال وطنهم الأجرد بوادى النيل الخصيب والرحيل إلى القاهرة للمشاركة في المغامرات السياسية .

أما العامل الرابع المؤثر في التسرب السلمي للإسلام في بلاد النوبة ، فكان هجرة الأفراد والجماعات :

فقد كانت هذه البلاد معقلا للفارين من مصر بعد تغير الدول ، هؤلاء كانوا يعتصمون ببلاد النوبة ، ويقيمون فيها ، ويتزوجون من أهلها .

وهناك من الشواهد مايدل على أن سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية قد صحبه فرار كثيرين من بنى أمية (١) ، وإقامتهم ببلاد النوبة .

ولعل هذه الهجرات الفردية قد تتابعت بعد هذا في أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين ، وكان هؤلاء اللاجئون عاملا هاماً في نشر الإسلام بين أهل هذه البلاد (٢) .

ثم بدأت الهجرات العربيـــة تطرق باب النوبة ثم تنتشر فيها ، كانت القبائل العربية كما رأينا تفد إلى مصر ، ثم تتجه نحو صعيد مصر متجهة نحو أسوان ، لأن منطقة أسوان وبلاد النوبة وشمال السودان تشبه إلى حد كبير بلاد العرب في ظروفها المناخية ، بعكس بيئة القطر المصرى التى لا تلائم طبيعة البدو ، ولا يبعد أن تكون بعض البطون العربية التى وفدت على مصر طوال القرنين الأول والثانى الهجرى قد استهوتها المناطق الجنوبية فأقامت في أطراف الصعيد أو نفذت إلى القسم الشمالى من بلاد النوبة (٣) .

ولكن هذا التيار المهاجر المنصرف صوب الجنوب بدأ يزداد عمقاً وشدة بعد

---

(١) نعوم شقير ــ ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ــ ١ ص ٢٠ . (٣) مصطفى مسعد ص ١٦٩ .

أن أصبحت أحوال مصر خاصة والعالم الإسلامى عامة لا تشجع العرب على الإقامة إنما تدفعهم صوب الجنوب .

فقد أسقط العرب من العطاء ، وبدأت الدولة الإسلامية تقصيهم من الجيش مستعينة بعناصر أخرى من الفرس أو الترك أو العبيد السودانيين فى العهدين الطولونى والاخشيدى ، أو البربر فى العصر الفاطمى .

وبدأت الدولة فى مصر ترى فيهم عنصراً لا تلين قناته لاحتفاظه بمقومات العسكرية ، فهو أميل إلى الشغب والعصيان .

بدأ هذا العنصر العربى الوافد يظهر فى بلاد النوبة منذ القرن الثالث الهجرى فقد أثبتت الأبحاث الأثرية فى منطقة مريس أن جاليات عربية قد استقرت فيها ووضح أثرها فى القرن الثالث الهجرى .

وقد عثر فى بعض الأماكن بأرض مريس على كثير من الكتابات العربية ، يرجع تاريخ أقدمها إلى هذا العصر ، كما عثر على شواهد قبور تحمل أسماء عربية بتاريخ ٢١٧هـ/٨١٣ ميلادية ، وفى منطقة كلابشة سنة ٣١٧ هـ/٩٢٧ ميلادية(١) .

هذه العناصر العربية التى هاجرت ، ثم أقامت على هذا النحو سرعان ماتركت أثراً واضحاً فى تاريخ البلاد وحياة السكان فقد أصهرت إلى أهل البلاد واختلطت بهم ، وعاشرتهم .

ولم يخل هذا الاختلاط من أن يترك أثراً فى الوافدين وأهل البلاد على حد سواء ، والوافدون تسربت إليهم الدماء النوبية وغلبت السمرة على سلائلهم ، وأهل البلاد خالطتهم الدماء العربية واعتنقوا الإسلام وتعلموا اللغة العربية .

هذا التطور عظيم الأثر فى تاريخ البلاد تنهض الأبحاث الأثرية لتثبته إثباتاً لا يدع مجالا للشك .

فالأبحاث التى قام بها دى فيلار فى جهة مريس تؤيد هذا القول . وقد عثر فى مقابر نوبية على كتابات باللغة القبطية تحمل تاريخاً مزدوجاً من التقويمين القبطى

(١) مصطفى مسعد ص ١٣٨ .

والهجرى . وترجع معظم هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى ، بل تظهر بعدها كتابات لا تحمل سوى التاريخ الهجرى ، وهى ترجع إلى نفس القرن(١).

وهذا التطور منطقى وواضح فالجماعات النوبية إذا أسلمت وتأثرت بالعرب احتفظت بتقاليدها القديمة ، وأضافت إليها بعض التأثيرات الجديدة ، فإذا مضى الوقت واشتد إسلامها تخلت عن التقاليد القديمة نهائياً متخذة تقاليد إسلامية صرفة .

واشتد تيار الهجرة على نحو أشد فى العصر الفاطمى ، فاستقدم الفاطميون بنى هلال وبنى سليم ووطنوهم فى صعيد مصر ، ثم دفعوهم إلى بلاد المغرب وساءت علاقتهم بالقبائل العربية إلى حد بعيد .

وشهد عصر المستنصر على وجه الخصوص هذا العداء المتبادل العنيف بين حكومة مصر وبين البدو النازحين إلى الصعيد ، فاندفعت بعض البطون إلى بلاد النوبة يغريها النجاح الذى حققه المهاجرون الأولون ، وتحفزها أنباء النجاح والاستقرار الذى أحرزه إخوانهم بالأمس ، وانطلاقهم بعيداً عن تضييق سلطات مصر واستبدادها .

فاشتد تيار المهاجرين إلى النوبة ، ووضح نفوذهم فى صورة أقوى ، ودليلنا ابن سليم الأسوانى الذى زار بلاد النوبة آخر القرن العاشر . فقد ذكر أن المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث ، يتصرف فيها المسلمون لا تصرف المهاجرين اللاجئين ، إنما تصرف الملاك وأصحاب البلاد ، وأن اضطراب العلاقات السياسية بين مصر والنوبة لم يحل دون هذه الهجرات . بل رأى المسلمين متمتعين بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة ، وقد اندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا عاداتهم وتقاليدهم (٢) .

ومصداق ذلك كله أن العصر الفاطمى شهد قيام إمارة عربية نوبية اتخذت مدينة أسوان مركزاً لها وامتد نفوذها جنوباً فى أرض مريس .

هذه الإمارات أسسها عرب ربيعة بزعامة أبى مروان بشر بن إسحاق ،

---

(١) مصطفى مسعد ص ١٤٠ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٨ .

وقد خلفه على زعامة القبيلة ابن عمه أبو عبد الله بن على المعروف باسم أبى يزيد ابن إسحق ، واختلط عرب ربيعة بالنوبيين ، وتزوجوا من بنات رؤسائهم .

والراجح أن هذه العشيرة ، كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحى ، لاسيا بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام .

وقد اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية النوبية ، واستعان الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة (١) فى القبض على أبى ركوة الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوذ بالفرار من مصر ناحية الجنوب . ونجح أبو المكارم فى القبض على أبى ركوة سنة ١٠٠٦م . فكوفىء بلقب كنز الدولة .

وتوارث أبناؤه هذا اللقب ، وعرف بنو ربيعة ببنى كنز ، وقصدهم الشعراء والكتاب ومدحوهم ، وكان أحد زعماء هذه الإمارة من الرءوس المدبرة للمؤامرة التى قصد بها إعادة الدولة الفاطمية وإقامة الأمير داود بن العاضد خليفة ، وهى المؤامرة التى استطاع صلاح الدين قمعها وقتل زعيمها من بنى كنز وآلاف من أتباعه سنة ١١٧٦ م .

ومع ذلك استعاد بنو كنز نفوذهم ، ومدوا سلطانهم على القسم الشمالى من بلاد النوبة ، وعملوا على إشاعة النفوذ الإسلامى ، ونشره فى البلاد وتشجيعه واستمر نفوذهم هذا حتى العصر المملوكى ، وهو صورة واضحة للحياة التى كان المهاجرون العرب يحيونها فى مهجرهم الجديد .

ولم يكن المهاجرون الأوائل من ربيعة وحدها ، لايبعد أن تكون المجموعة الجعلية قد بدأت هجراتها من مصر فى نفس القرن العاشر ، سالكة طريق العتمور لتجنب مملكة مقرة (٢) ، وما لبث أن لحق بهم عدد كبير فيما بعد .

كانت هذه الهجرات تدخل النوبة دون أن يستشعر الملوك أى خطر . كانت هجرات مسالمة لاتعدو جماعات بريئة تتلمس الإذن بالمقام وتخالط السكان ولا ولاتسىء إليهم ولا تقلق بال الحاكمين .

---

(١) المقريزى : الخطط ص ١٩٩ ، ابن خلدون جـ ٥ ص ٢٨٨ .
نعوم شقير جـ ٢ ص ٥١ .
(٢) مصطفى مسعد ٢١٨ .

وكانوا يتركونها وشأنها لايتعرضون لها بسوء، وتتابع حياتها في حرية وهدوء وطمأنينة (١) .

وكأن بلاد النوبة إسفنجة كبيرة تمتص هذه العناصر الزائدة وتتشربها ولايظهر نفوذ العرب أو نعلو كلمتهم إلا حين تكثر أعدادهم ، وتضعف رقابة السلطة الحاكمة . فتعجز عن كبح جماحهم ، وهى أقرب شبهاً بتسلل الفولانى ، وانتشارهم فى غرب إفريقية على النحو الذى رأيناه .

ثم قامت الدولة المملوكية فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر وكان لقيامها أثر عظيم فى تاريخ النوبة وفى تسرب العناصر العربية إليها ، وفى انتشار الإسلام بين أهلها .

فقد كان قيام هذه الدولة إيذاناً بتغيير السياسة السلبية القديمة ، وبداية عهد جديد من الاهتمام الإيجابى بشئون النوبة وبدأت العلاقات بين البلدين تتخذ المظهر العسكرى العنيف .

هذا التغيير مظهره أن ملوك النوبة انغمسوا فى المعركة الصليبيـة التى شهد المماليك بقاياها فى بلاد الشام .

وكان اشتراكهم فى هذه المعركة عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب ، هذه التجارة التى نمت وازدهرت فى العصر المملوكى .

وكان هذا التحدى بالنسبة للمماليك خطيراً جداً إذا عرفنا ما أصبح للتجارة الدولية من مكانة فى الحياة الاقتصادية لمصر فى العصر المملوكى . كما اتخذت هذه العلاقات طابعاً صليبياً .

وتلوح من المراجع اتجاهات ملوك النوبة إلى التعاون مع القوى الصليبية فى الشام حين هاجموا أسوان وعيذاب سنة ١٢٧٢ هجوماً يشف عن الرغبة فى التشفى من المسلمين . الأمر الذى لم يكن مألوفاً فى الحملات السابقة (٢) .

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan, p. 67.

(٢) القلقشندى ج ٨ ص ٤٢ .

وقد أدرك المماليك هذا الخطر الصليبي الكامن في الجنوب ، وأدركوا احتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف وهي منصرفة إلى دك ما تبقى من قلاع الصليبيين بالشام .

فتتابعت حملات المماليك في عنف فأنفذ الظاهر بيبرس في يناير سنة ١٢٧٦ حملة تحمل طابع هذه السياسة الجديدة منتهزاً فرصة استنجاد ابن أخي ملك النوبة عصر طالباً المساعدة وتوغلت الحملة جنوباً وأكرهت الملك داود على الهرب ، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين البلدين(١) .

وترسم قلاوون نفس الخطى فأرسل حملة التقت بملك النوبة فلاذ بالفرار وظل القائد المصري يتعقبه حتى جنوب دنقلة . والجديد هنا أن مصر أبقت حامية عسكرية في البلاد لتأمين الحدود الجنوبية وضمان البقط .

ثم أرسل قلاوون حملة أخرى سنة ٦٨٨ هـ ، وتكررت الحملات المملوكية بعد ذلك في أيام الناصر محمد بن قلاوون سنتي ٧٠٥ و ٧١٦ هـ . واستمرت حتى بعد انتهاء الخطر الصليبي .

وقد تسببت الحملات المملوكية المتكررة في رضوخ النوبيين لمشيئة المماليك . يتمثل هذا الوضع الجديد في المعاهدة التي عقدت زمن الظاهر بيبرس بين مصر وملوك دنقلة ، وما ورد فيها من نصوص تبيح للمماليك الاستيلاء على أملاك الملك داود وفرض السيادة المملوكية الفعلية على الجزء الشمالي من البلاد ، وما ترتب على ذلك من امتداد السيادة المصرية على جزء كبير من بلاد النوبة امتداداً فعلياً .

بل نصت هذه المعاهدة على أن ما بقي من ملك دنقلة يصبح مناصفة بين المماليك وبين ملوك هذه البلاد . كما عرضت على ملك النوبة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة المغلوب ، وهي الإسلام أو الجزية فاختار دفع الجزية . وأنشأ سلطان مصر ديواناً للنوبة لمراجعة جمع الجزية والخراج(٢) .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٢) القلقشندي جـ ٨ ص ٤٢ .

وكانت الحملات المملوكية فى عهد قلاوون وولده الناصر محمد كلها محافظة على هذا الكسب الحربى .

وخضوع ملوك دنقلة واعترافهم بالسيادة المصرية فى ذلك العصر أمر تؤيده الوثائق المملوكية . فالقلقشندى ذكر أن تعريف صاحب دنقلة هو النائب بدنقلة ، وكانت المكاتبات إليه على هذا النحو « إلى النائب الجليل المبجل مجد المملكة المسيحية وكبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين(١) » . وفى هذه الصيغة وفى تعريف صاحب دنقلة باسم النائب ما يدل على هذه التبعية ، وعلى تدخل سلاطين المماليك تدخلا فعلياً فى شئونها .

وقد جاء فى كتاب مسالك الأبصار أن صاحب النوبة رعية من رعايا مصر يخطب ببلاده لخليفة العصر وصاحب مصر . إذن ساهم المماليك عن طريق هذه الحملات العديدة وعن طريق التدخل فى شئون دنقلة فى إضعاف هذه المملكة النوبية الشهيرة .

وإذا كان المماليك قد أسهموا فى إضعاف مملكة النوبة على هذا النحو فإنهم قد أسهموا أيضاً فى دفع القبائل العربية صوب الجنوب ، وعملوا على زيادة تيار الهجرة إلى البلاد .

فقد ساء حال العرب فى العصر المملوكى ، وكثرت اضطراباتهم ، واشتد قمع المماليك وتنكيلهم . فقد عمد المماليك إلى جانب الحملات التأديبية إلى مضاعفة الضرائب المفروضة عليهم ، فلم يجد العرب متنفساً لهم إلا الاندفاع إلى الجنوب مهاجرين وسرعان ما وجد المماليك فى العرب أعداء الأمس خير من يعينهم على إخضاع ملوك النوبة . استخدمهم بيبرس وقلاوون فى حملاتهم إلى بلاد النوبة ، وبعض هذه القبائل كان يدل المهاجمين على مسالك البلاد ، ويقدم المؤن ووسائل المواصلات . وكثيرون من هؤلاء كانوا يفضلون البقاء فى البلاد بعد انسحاب المماليك ، مثل ما فعله بنو عمر وبنو شيبان وغيرهم . وكان المماليك يسرهم أن يستعينوا بالعرب فى النوبة وأن يتخلصوا منهم فى مصر(٢) .

---

(١) مسالك الأبصار ص ١٢٦ .

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ١٣٢ .

الهجرات :

ومن الهجرات العربية التى اندفعت إلى النوبة فى العصر المملوكى هجرة جهينة ، وهى واحدة من خليط من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة . تجمعوا أول الأمر فى شمال النوبة ، ومضت بطون منهم موغلة نحو الجنوب ، فلما طاب المقام والمرعى بعثوا يستدعون إخوانهم . فاندفعوا فى أثرهم ، وكذلك اشتركت قبيلة فزارة فى هذه الهجرات الضخمة ، التى شهدها العصر المملوكى (١) .

ووجد ملوك النوبة أنفسهم بين خطرين : عدوان المماليك وخطرهم الذى لم ينقطع ، ثم هجوم القبائل العربية من الداخل : هذه القبائل بعد أن كثرت أعدادها ، وانتشرت بطونها فى البلاد ، وأصهرت إلى أغلب الأسرات ذات النفوذ خلعت رداء المسالمة ، وتنمرت ونشرت الفتنة والقلق فى البلاد .

ولم يكن باستطاعة هؤلاء الملوك ، والمماليك بالمرصاد ، أن يقهروا العرب عسكرياً أو يكبحوا جماحهم ، فاضطروا إلى مصانعتهم بالإصهار إليهم ، ونتج عن ذلك أن أصبح لأبناء الكنوز وجهينة الحق فى اعتلاء عرش النوبة ، لأن النوبيين يورثون البنت ملكهم إذا عز الولد .

وعن طريق هذه المعاهدة تسرب الإسلام إلى صفوف الأسرة المالكة نفسها ، وقد اختار السلطان الناصر عبد الله برشمبو سنة ٧١٦ هـ ليكون ملكاً على بلاد النوبة(٢) . فعلت كلمة بنى كنز وزاد سلطانهم . فقد كانوا أصهار هؤلاء الملوك . وادعى هؤلاء العرب آخر الأمر الحق فى تولى هذا الملك ، ثم اغتصبوه ، وبذلك سقطت مملكة مقرة نهائياً ، واختفت من مسرح الأحداث فى تاريخ بلاد النوبة .

وسيطرة القبائل العربية فى بلاد النوبة واختفاء المالكية لم يكن معناه أن تقوم دول منظمة ، إنما اضطرب أمر البلاد بسبب التناقر بين زعماء القبائل العربية الذين لم يحسنوا سياسة الملك .

« ولم ينقد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعاً ولم يبق لبلادهم رسم للملك إنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادى الأعراب ولم يبق فى بلادهم رسم الملك (٣) .

---

(١) ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٢٩ .

(٢) ابن خلدون جـ ٥ ص ٤٢٩ .

(٣) نفس المصدر السابق .

ومن هذا يتبين أن الهجرات العربية هي صاحبة الفضل الأول فى انتشار الإسلام فى بلاد النوبة .

وكان انتشار الإسلام ظاهرة بطيئة استغرقت وقتاً طويلا منذ حملات عمرو وعبدالله بن سعد حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى .

وبطء انتشار الإسلام على هذا النحو سببه أنه كان يتوقف إلى حد كبير على عملية الاختلاط بين الوافدين وبين أهل النوبة الأصـليين ، وهى عملية بدأت منذ طليعة الهجرات الأولى واستمرت فى طريقها المرسوم فى بطء وأناة .

اختلط العرب بعامة أهل النوبة أولا ثم أصهروا بعد أن كثرت أعدادهم إلى الأسرات النبيلة ، ثم انتهى بهم المطاف إلى الإصهار إلى البيت المالك نفسه ، وما ترتب على هذا من اغتصاب الملك ، ودخول ملوك النوبة فى الإسلام ، وكانت هذه الحقيقة تتويجاً للجهود التى بذلت من قبل ، وخاتمة لعملية الامتزاج هذه .

والسر فى بطء انتشار الإسلام على هذا النحو أن الهجرات العربية لم تكن فتحاً عسكرياً يقارن بالجهاد الذى أعلنه عبد الله بن ياسين فى حوض السنغال ، إنما كانت هجرات سلمية تتسرب إلى الحياة فى هدوء ، وتحتاج إلى عنصر الزمن لتحقق غاياتها وأهدافها .

ويمكن أن يفسر هذا البطء أيضاً بأن المهاجرين العرب لم يكونوا دعاة إلى الإسلام مخلصين فى دعوتهم ، فقد كان ينقصهم التحمس الدينى الذى دفع المرابطين إلى نشر الإسلام فى غرب إفريقية فى سرعة وقوة وكانت تنقصهم الثقافة الدينية العميقة ، كما أن أغلب المهاجرين كان ينتهى به المطاف إلى الاندماج فى الحياة النوبية ، وتعلم لغة البلاد الأصلية .

مهما يكن من شيء فإن ظاهرة انتشار الإسلام اكتملت نهائياً فى القرن الخامس عشر الميلادى بدخول جمهرة أهل البلاد فى هذا الدين .

وكان إسلام الملوك وسقوط مملكة مقرة المسيحية خطوة كبيرة فى هذا الاتجاه ،

إذ بسقوط هذه المملكة انتهت آخر حلقات المقاومة المسيحية وسيطر العرب على البلاد نهائياً .

ولا ندرى بالضبط هل وفدت الثقافة الإسلامية العربية على بلاد النوبة منحدرة فى ركاب المهاجرين العرب ، وإذا كانت قد وردت فعلى أى صورة حملت إلى البلاد ؟

يخيل إلينا أن وفود العلماء إلى بلاد النوبة يتوقف على موافقة ملوك دنقلة المسيحية ، لذلك بدأنا نسمع برحيل العلماء ابتداء من القرن الرابع عشر الذى شهد إسلام الملوك ، ثم اغتصاب العرب للحكم والسلطان ، وانتشارهم فى البلاد على نطاق واسع ، وانتقال الزمام إليهم ، ذلك أن أوراق النسبة التى لاتزال محفوظة عند ذويها من الأسرات السودانية تدل على أن رجلا يدعى غلام الله بن عائد(١) . قدم من قرية حلية من جزيرة نواوة التابعة لبلاد اليمن ، وسكن بجزيرة ساكية ، ثم رحل إلى أرض دنقلة وسكن بها ، فلم يجد بهذه العاصمة أى مظهر من مظاهر التعليم ، أو أية شبهة من حركة علمية ، إذ يبدو أنه أول من دخل البلاد من أهل العلم « وقد عمر المساجد وقرأ القرآن وعلم العلوم مباشرة لأولاده وتلامذته أولاد المسلمين » .

وكان قدوم غلام الله فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومات ودفن فى دنقله العجوز(٢) .

ويظهر أن قدوم هذا الرجل كان استهلالا لحركة علمية نامية ، ومحاولة لتثبيت الإسلام فى صدور من دخلوا فيه بالعلم والتفقه فى الدين ، ففى كتب الطبقات ما يشير إلى مساجد للعبادة والتدريس انتشرت بعد ذلك من النوبة السفلى إلى الجنوب حتى قريتى الصباى وبنادر .

وهنالك ما يشير أيضاً إلى محاولات لاحقة إذ يشير ود ضيف الله فى طبقاته إلى أن الشيخ صغيرون كان يدرس الفقه فى مسجد أخواله بدنقلة ، ثم انتقل إلى القوز حيث بنى له مسجداً وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار وضربت إليه أكباد الإبل ، وانتفعت به الناس . وممن أخذ عليه من الأجلاء الشيخ دفع الله بن الشيخ (أبو) إدريس ،

---

(١) Mac Michael : A History of the arabe in the Sudan, vol, II. p. 35.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ج ١ ص ٦٠ .

والفقيه عبد الحليم ولد نحزة وأولاد برى على والحاج إبراهيم ونور المنن الكاهلى البرقانى(١) . كما يشير هذا المؤرخ إلى مساجد أخرى وحركة علمية مشابهة .

وإذا كان فقهاء اليمن قد شدوا الرحال إلى بلاد النوبة الإسلامية ، فهل نستبعد رحيل فقهاء من مصر مع قرب المسافة وإمكان الاتصال ؟ لانستبعد أن يكون علماء مصر قد رحلوا إلى النوبة بعد أن أصبحت بلداً إسلامياً كما رحل علماء اليمن ، وسكوت كتب الطبقات عن هذا الأمر ليس دليلا على عزلة النوبة عن مصر ثقافياً .

والتسرب العربى لم يقف عند حدود مملكة مقرة ، إنما جاوزها جنوباً مندفعاً إلى المملكة المسيحية الأخرى مملكة علوة .

وكانت طبيعة هذا التسرب لاتكاد تختلف عن طبيعتها فى مقرة ، فقد تسلل المهاجرون والتجار إلى بلاد علوة ، واشتد تسربهم فى القرن العاشر الميلادى ، فارتفع شأنهم فى نفس الوقت الذى وضح فيه مثل هذا النفوذ فى دنقلة .

وقد أدرك هذا النشاط العربى الأول النيل الأزرق جنوباً ، ويبدو أن المهاجرين العرب قد ازدادوا عدداً وقوة ، فقد التمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبة غاصمة المملكة المسيحية نفسها (٢) .

وتسربت تيارات عربية أخرى عن طريق الصحراء الشرقية والبحر الأحمر (٣) .

ولا بد أن المهاجرين العرب الذين تدفقوا على مقرة كانوا يوسعون أفق هجراتهم صوب الجنوب ، دخلوا بلاد النوبة الشمالية لا ليتخذوها دار إقامة إنما كانت طريقاً يسلكونه بحثاً عن غايات أخرى .

غير أن التيار العربى الدافق قد انحدر صوب الجنوب بعد سقوط مملكة دنقلة فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى .

وكان أسبق المهاجرين انطلاقاً صوب الجنوب قبائل جهينة . فقد بدأت تدخل

---

(١) طبقات ودضيف الله ص ٧٩ ، ٩٥ ، ١٣١ ، ١٦٥ .

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٣١ .

(٣) مصطفى مسعد ص ٢٠ .

أرض علوة عبر مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرق عبر أوطان البجة ثم عن طريق النيل واحتلت أقاليم موزعة بين الأتبرة والنيل (١) .

بل يبدو أن انطلاقها نحو الجنوب كان واسع المدى ، فقد وصلت إلى حدود الحبشة ، وأنشئت مدينة أربجى على الشاطىء الغربى للنيل الأزرق سنة ١٤٧٤(٢) .

ويبدو أن جماعات المهاجرين من جهينة أو البطون العربية الأخرى تسللت إلى أرض علوة تسللا سلمياً ، فلم يرو أنها لقيت مقاومة من ملوك البلاد .

ومن الراجح أن هؤلاء المهاجرين كانوا يتظاهرون بالولاء للملوك يصانعونهم ، ويدفعون الأتاوة التماساً لهذا الرضا ، حتى كثرت أعدادهم فكشفوا عن نياتهم الحقيقية .

وأدرك ملوك علوة فجأة ما ترددوا فيه من أخطاء . ولم يكن باستطاعتهم أن يقاوموهم بالعنف بعد أن امتدت هجراتهم إلى كل ناحية .

وكانت مملكة علوة قد دهمها الانقسام ، وعانت الكثير من غارات الزغاوة المنحدرين من برنو عبر دارفور ، فلم يجدوا بدأ من أن يصهروا إلى زعماء جهينة كما كما أصهر بنو كنز إلى ملوك دنقلة .

تحالف العرب مع الفونج :

ثم جاءت الخطوة الأخيرة فى مستهل القرن السادس عشر ، حين تحالف العرب المهاجرون إلى علوة مع الفونج القادمين من الجنوب ، وقضوا على علوة نهائياً ، وخربوا عاصمتها سوبة ، وانتهت ممالك النوبة المسيحية .

وفى نفس هذا العصر كانت الهجرات العربية تشق طريقها إلى السودان منحدرة عبر الباب الثانى ، باب البحر الأحمر وشرق السودان .

فقد استطاع فريق من العرب المنتسبين إلى كاهل بن أسد بن خزيمة ، أن ينحدروا من جزيرة العرب وأن يعبروا البحر الأحمر ، وأن ينزلوا بالاقليم الساحلى الممتد من سواكن إلى عيذاب .

كان نزولهم هذا فى القرن الحادى عشر الميلادى على وجه التقريب . ثم أقاموا بهذا المهجر مدة ثلاثة قرون أو أربعة اختلطوا فيها بالبجة وتعلموا لسانهم وصاهروهم ،

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٣٧ .

وعملوا على نشر الإسلام والثقافة العربية بين صفوفهم ولا زال البجة حتى اليوم ينتسبون إلى بنى كاهل هؤلاء الذين أقاموا فى هذا الوطن حتى منتصف القرن الرابع عشر ، حين زار ابن بطوطة هذه الآفاق ، فوجدهم مخالطين للبجة عارفين بلسانهم (١) .

ثم بدأ فريق منهم يغادر هذا المهجر منصرفاً صوب الغرب إلى نهر أتبرة والنيل الأزرق . أدركوا هذا المهجر الجديد فى القرن الخامس عشر ، وأقاموا فيه بعض القرن السادس عشر مفيدين من ضعف مملكة علوة ، ثم سقوطها آخر الأمر ، والتقى هذا التيار الشرقى بالتيار الشمالى المتقدم من مملكة مقرة المسيحية ، كما ارتحل خلق منهم إلى النيل الأبيض ، واحتلوا جزءاً كبيراً منه على الضفتين الشرقية والغربية (٢) .

ثم لم تطب لبعضهم حياة الاستقرار على النيل فهاجروا إلى كردفان فى أواخر القرن السابع عشر .

وقد نهجوا نفس النهج الذى التزمه العرب الدافقون من الشمال ، من حيث اختلاطهم بالسكان الأصليين ، أو بغيرهم من القبائل ، وتسربهم سلمياً ، ومقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة عنهم .

ولا يكاد ينتهى هذا الدور حتى يكون السودان قد تعرض بحكم موقعه الجغرافى لتيارات إسلامية أخرى وافدة من الشمال الغربى إلى دارفور وكردفان ، ثم تيارات أخرى منبعثة من سنار ، ومتجهة صوب الشمال متعاونة مع العرب الذين أدالوا ملك المسيحية بعلوة .

استطاعت هذه التيارات الوافدة أن تسقط الحواجز وأن تفتح باب السودان على مصراعيه لتلقى الثقافة الإسلامية ولتقبلها وتهيئه ليلعب دوره الإسلامى الذى لعبته الأوطان الإسلامية الأخرى .

٢ — دور الازدهار :

تاريخ سودان وادى النيل فى هذا الدور يشبه تاريخ غرب إفريقية فى نفس هذا الدور أيضاً من وجوه ، ويختلف عنه من وجوه أخرى .

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ١٤١ ، ابن بطوطة جـ ١ ص ١٨٣ .

(٢) محمد عوض ص ١٤٢ .

أوجه الاختلاف هى هذه الهجرات العربية الخالصة التى أخذت تتدفق على البلاد تدفقاً مستمراً وتنتشر فى سهوله الفسيحة فى الشرق والغرب انتشاراً واسعاً ثم استقر بها المقام واختلطت بالسكان الأصليين ، ونشرت فى البلاد اللغة العربية والدم العربى والدين الإسلامى والثقافة العربية ، وطبعت السودان بالطابع العربى الواضح الباقى .

وهذا تطور قل نظيره فى البلاد الإسلامية الأخرى ، ربما لايقاربه أو يدانيه إلا هجرات الهلاليين إلى المغرب فى القرن الخامس الهجرى ، وانتشارهم انتشاراً واسعاً ، وعملهم على نشر الدماء العربية والثقافة العربية . لكن هجرات الهلاليين ليست على هذا النحو من القوة واتساع الأفق وعمق الأثر .

وتاريخ الإسلام فى سودان وادى النيل فى هذه الفترة يشبه تاريخ السودان الغربى فيها ، فى أنه شهد قيام سلطنات إسلامية خالصة ، قد تكون الأرستقراطية الحاكمة فيها عربية الدم أو عربية النسب ، وقد تكون شعوبها قد خالطتها بعض المؤثرات العربية ، إلا أنها تعتمد إلى حد كبير على جماهير أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وتشربوا حضارته .

واختلطت المؤثرات الإسلامية بالمؤثرات المحلية ، وظهر طابع محلى أو لون محلى من ألوان الحضارة الإسلامية اسلامى الشكل محلى الطابع ، يتجلى فى نظم الحكم وفى الحياة الإجتماعية .

وكان إسلام هذه الشعوب إيذاناً ببروزها فجأة فى دنيا الإسلام ، وإيذاناً باتخاذها مظهراً إسلامياً واضحاً ، وتعبيراً إسلامياً واضحاً ولعبت نفس الدور الذى لعبته سلطنات السودان الغربى . ملى — وسنغى — برنو — كانم — ومرت بنفس التطورات ، لنفس التأثيرات ، وكانت الظاهرة واحدة فى البلدين .

هــذا الدور إذن شهد ظاهرتين فريدتين : الظاهرة الأولى استقرار العناصر العربية الوافدة بعد انتشارها على نطاق واسع ، ثم عملها على نشر الإسلام والثقافة العربية ، وتكوينها بعض الإمارات العربية الخاضعة لنفوذ أرفع مقاماً أو المستقلة بأمرها . والظاهرة الثانية ظهور السلطنات والإمارات المحلية ، والدور الذى لعبته فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية فى الفترة الممتدة حتى آخر القرن الثامن عشر .

العنصر العربى الوافد على السودان :

كانت الجماعات العربية الوافدة تتقاسمها ثلاث مجموعات قبلية كبرى :

أولها : مجموعة الجعليين : وهى مجموعة عدنانيـــة الأصل ، وهى أكبر المجموعات العربية نفوذاً وأوفرها عدداً . وهى تنتسب إلى جد أكبر اسمه إبراهيم ولقبه الجعل ، وتنسبه الروايات إلى سعد بن فضل بن عبـــد الله بن العباس عم الرسول ، لهذا يطلق عليهم أحياناً اسم المجموعة العباسية .

ولا أدرى لماذا يميل أستاذنا الدكتور محمد عوض (١) إلى تأييد هذه النسبة مخطئاً رأى ماك ميكل ، علماً بأن مسألة الانتساب إلى العرب دخلها الانتحال منذ القرن الثانى الهجرى ، فما بالنا بالقرن العاشر الهجرى ؟ .

ولا يبعد أن يكون الجعليون هؤلاء خليطاً من عـــدة قبائل تنتسب إلى عدنان حقا ، ولكنها لاتنتهى إلى جد مشترك ، إنما تجمعها فى صعيد واحد وحدة الغاية والهدف ، ثم هى قد ترتبط برباط المصاهرة .

لهذا لا نؤمن بخرافة انتساب مثل هذه المجموعة الكبرى إلى أب مشترك هو إبراهيم . ومن الغريب أن أستاذنا الدكتور يعترف بما كان يعمد إليه هذا الزعيم الجد بأن يدخل فى قبيلته من ليس فيها ، إذ يقول لأهل البلاد : «جعلنا كم منا(٢)» فكيف نعيب على ماك مايكل ادعاؤه باختلاط أنسابهم ! .

هذه المجموعة القبلية حين دخلت السودان واتخذته مستقراً ومقاما تركزت على النيل بين بلاد النوبة وموقع الخرطوم اليوم .

ثم أخذت تنتشر من مكان التجمع هذا نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، تخلف بعض منهم فى بلاد النوبة ، وسار البعض مغرباً نحو كردفان وكلما زادت أعداد هذه الجماعة كلما تعددت بطونها وعشائرها وقبائلها ، فقد كان الجعليون إذن شعباً عظيما (٣) .

---

(١) السودان الشمالى ص ١٦٦ .

(٢) محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٦٦ .

(٣) محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٦٥ .

وللدلالة على أثر هؤلاء فى حياة السودان وطبيعة انتشارهم انتشارا واسعاً يجب أن نوزع القبائل المنضوية تحت لواء الجعليين توزيعاً جغرافياً على النحو الآتى :

١ - الركابية : أكثر هذه الجماعات تطرفاً نحو الشمال فهم يعيشون وسط الدناقل ، ويقال إن قرابتهم للجعليين جاءت عن طريق المصاهرة .

٢ - الجوابرة : نسبة إلى جد أكبر يدعى جابر ومركزهم الرئيسى فى جزيرة بادين الواقعة وسط النيل إلى الجنوب من الخط الذى يفصل بين المحس شمالا ودنقلة جنوباً . ويبدو أن وطنهم كان أكثر اتساعا فى عصر بركهارت ، فقد ذكر أنه يمتد بين الشلالين الأول والثانى .

٣ - الشايقية : ينتسبون إلى شايق وهو كما يقول النسابون أخ لغانم جد الجعليين ، وتمتد أوطانهم على ضفتى النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادى الملوك فى مسافة تزيد على مائتى كيلو متر (١) .

٤ - المناصير : تمتد ديارهم من أبى حمد إلى آخر الشلال ، وقد هاجر فريق منهم فى القرن الثامن عشر منحدراً صوب الغرب إلى دارفور وكردفان (٢) .

٥ - الرباطاب : على ضفتى النيل من شمال عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس إلى أبى حمد ، ثم إلى امتداد النهر غرب أبى حمد بنحو من كيلومتر (٣) ،

٦ - الميرفاب : من مصب العطبرة إلى بلدة عبيدية حيث يبدأ الشلال الخامس وعاصمتهم بربر (٤) .

٧ - الجعليون الخلص : من خانق سبلوقة إلى العطبرة على الضفتين الشرقية والغربية (٥) .

٨ - الجموعية : فيما يلى الجعليين إلى جنوب خانق سبلوقة على الضفة الغربية

---

(١) نعوم شقير جـ ١ ص ٥٢ .
(٢) نعوم شقير جـ ١ ص ٥٧ .
(٣) نفس المرجع .
(٤) نفس المرجع .
(٥) نعوم شقير جـ ١ ص ٥٤ .

للنيل الأعظم شمال أم درمان وجنوبها ، بل تمتد أوطانهم إلى نحو ٤٠ كيلو مترا جنوب أم درمان الحالية ، وأغلبهم على الضفة الغربية للنيل الأبيض والأعظم .

٩ — الجمعة : غرب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد الكواهلة (١) .

١٠ — البديرية : منها شعبة تعيش على النيل والأخرى فى كردفان ويبدو أن انحدار بعضهم صوب الغرب لم يتم إلا فى القرن الرابع عشر فى الوقت الذى أدال فيه العرب مملكة مقرة .

١١ — الجوامعة : ينتسبون إلى جد اسمه جامع ، انطلقوا جنوباً حتى موضع أم درمان ، ثم بدأوا منذ القرن السابع عشر يتجهون صوب كردفان ودارفور .

١٢ — العدبات : هاجروا فى عصر توسع الفونج وشاركوهم فى حملتهم المشهورة فى كردفان .

١٣ — البطاحين : فى وسط سهل البطانة الشمالى (٢) .

هذا التوزيع يعطينا صورة للمد الفسيح الذى أدركته هجرة الجعليين بعد انطلاقها من بلاد النوبة ، فقد بسطت نفوذها على هذه المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أم درمان .

ثانياً — مجموعة جهينة :

يلى الجعليين وفرة فى العدد وانفساحاً فى مجال الهجرة المنتسبون إلى جهينة ، وهى قبائل قحطانية ، وفدت بطونها بعد الفتح (٣) ، ثم أقاموا بمصر زمناً ، حتى إذا كان القرن التاسع الميلادى ، اشتركوا فى الجيش الذى غزا الصحراء الشرقية ، ثم بدأوا يطرقون أرض النوبة ، ويمضون فى طريقهم جنوباً منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

ولا أدرى على أى أساس يرى أستاذنا الدكتور محمد عوض أن هذا الشعب

---

(١) محمد عوض ص ١٩٤ .

(٢) محمد عوض ص ٢٠٥ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ .

المظلم يتألف من مجموعتين عظيمتين : مجموعة شرقية وأخرى غربية فى كردفان ودارفور ، هل على أساس التوزيع الجغرافى ؟

وعلى أى أساس أيضا يرى أن المجموعة الأولى دخلت السودان من الطريق الشمال الشرقى ، على حين دخلت المجموعة الأخرى السودان من الشمال الغربى ، مخالفا رأى ماك مايكل القائل بتجمع جهينة فى وطن شرقى واحد ، ثم انحدار بعض بطونها غربا حتى وصلوا إلى بلاد برنو(١) .

ونعتقد أن رأى ماك مايكل أخلق بالتأييد لأنه لم ترد فى تاريخ برنو إشارات إلى هجرات عربية جاءت من الشمال الغربى ، وكل ما نعرفه أن ملوك برنو استصرخوا المماليك ليحولوا دون تدفق القبائل العربية من الشرق ولم نسمع بقبائل عربية انحدرت عن الطريق الليبى ؟

نعرف أن غارات الهلاليين فى القرن الخامس الهجرى دفعت قبائل البربر مهاجرة نحو الجنوب ولم نسمع بقبائل عربية دفعت إلى هذا الطريق .

لذلك نرى أن جهينة تجمعت فى الشرق ثم انطلقت بعض بطونها نحو الغرب ،

ونص ابن خلدون (٢) الذى يستمد منه أستاذنا تأييداً لرأيه يؤيد هذا الانتشار الواسع لبطون جهينة بعد انحدارهم عبر الطريق الشرقى .

هذا وتقسم القبائل الجهنية فى السودان إلى ثلاث مجموعات مرتبة على النحو الآتى (٣) :

١ — رفاعة : كانوا مجاورين للبجة ، ولهم أوطان على حدود الحبشة وفى عصر الفونج كانت مواطنهم تمتد على جانبى النيل الأزرق فى السودان من سفوح الحبشة إلى المقرن .

٢ — اللحويون :

---

(١) محمد عوض : تاريخ السودان ص ٢١٢ .
(٢) ابن خلدون ح ٢ ص ٢٤٧ ،
(٣) محمد عوض ص ٢١٤ .

٣ — **العوامرة والخوالدة** :

٤ — **الشكرية (١)** :

ومواطن هؤلاء جميعاً فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة .

٥ — **دار حامد** :

٦ — **بنو جرار** :

٧ — **الزيادية** :

٨ — **البرعة** :

٩ — **الشنابلة** :

١٠ — **المعاليا** :

ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة ، وهم يعيشون فى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان .

١١ — **الدويحية**

١٢ — **السلمية** :

١٣ — **البقارة (٢)** :

١٤ — **المحاميد** :

١٥ — **البكابيش** :

١٦ — **المغاربة** :

١٧ — **الحمر** :

ثالثاً — **مجموعة الكواهلة (٣)** :

منهم شعبة تنزل فى العطبرة والنيل الأزرق وشعبة أخرى حول النيل الأبيض من خط عرض ١٢ إلى إقليم جبل الأولياء شمالا ، أى مسافة تتراوح بين ٣٥٠ و٤٠٠ كيلو متر ، وهناك شعبة غربية استوطنت كردفان .

---

(١) نعوم شقير — ١ ص ٥٨ .

(٢) Trimingham : Islam in the Sudan, pp. 28–30.

(٣) نعوم شقير — ١ ص ٥٦ ، محمد عوض ص ١٠٠ .

هذا التوسع العربي في مثل هذا النطاق الواسع الذي تم في المدة الواقعة بين القرن الخامس عشر وأواخر القرن الثامن عشر تؤيده إلى حد كبير دراسات الرحالة بركهارت ورحلاته في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أى سنة ١٨١٤ تقريباً قبل الفتح المصرى بعدة سنوات .

وقد شاركت هذه القبائل في الأحداث السياسية التي شهدها ذلك العصر واضطرت بسبب النزاع الذى نشب بينها حول مواطن الرعى والذى نشب بينهـا وبين أهل البلاد الأصليين وماصحب ذلك كله من اختلال الأمن وتدهور الحالة الاقتصادية وتعطيل التجارة بين السودان ومصر واختلال سير القوافل في منطقة النوبة الشمالية وعدم الخضوع لحكومة مركزية واحدة تستطيع أن تعزز الأمن ، وتصون طرق التجارة ، فاشتركت بعض هذه القبائل في حلف الفونج ، حين حالف أحد زعمائها عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة ملك الفونج ، وتمكن الحليفان من القضاء على مملكة علوة المسيحية (١) .

وقد أدى هذا التحالف إلى قيام مملكة العبد اللاب ، التي اتخذت قرى حاضرة لها ، ثم انتقلت إلى حلفاية ، وشاركت الفونج في السيطرة على القسم الشمالي من السلطنة .

وقد اتخذوا لقب « منجل » . وأصبحوا حكاما إقليميين لهم السلطة التامة على القبائل التي تنزل الشطر الشمالي من مملكة سنار ، وتوارثوا الملك وجبوا الضرائب ، وامتد ملكهم من مصب دندر إلى بلاد دنقلة ، ثم اسـتقلوا عن الفونج سنة ١٧٧٠ (٢) حينما ضعفوا وغلب عليهم الهمج(٣) .

وهنالك أمثلة كثيرة على مشاركة هذه القبائل في الحيـاة السياسية للبلاد فعرب الشايقية مثلا بعد أن خضعوا زمناً لنفوذ العبد اللاب انتهزوا فرصة النزاع الداخلي بين العبد اللاب والفونج سنة ١٦٩٠ ، وثاروا بزعامة قائدهم عثمان ود حماد ، وظفروا بالاستقلال المنشود (٤) .

---

(١) نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٣ . Trimingham : Islam in the Sudan p. 85,

(٢) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٣٨ .

(٣) Trimingham : Islam in the Sudan, pp. 88–89.

(٤) محمد عوض ص ١٨٦ .

وكان الجوامعة أنصار الفونج ، قد ساعدوهم على التوسع فى منطقة كردفان ، واشترك الغديات فى جيشهم (١) ، واتصل البقارة بسلاطين دار فور ، دخلوا فى طاعتهم أحياناً ، ودفعوا الجزية أو خرجوا عليهم وفروا بأنفسهم ليعاودوا الكرة من جديد (٢) .

وأسس العرب هؤلاء مملكة تقلى (٣) فى منطقة جبال النوبا بكردفان فى أواسط القرن السادس عشر .

ويرجع تأسيسها إلى هجرة رجل من زهاد الجعليين واستقراره سنة ١٥٣٠ فى تلال تقلى . وقد اجتذب قلوب السكان بورعه وزهده ، واتصل بزعيم الإقليم عن طريق المصاهرة ، فولى ابنه جيلى أبو جريدة منصب الرئاسة والملك سنة ١٥٧٠ (٤) .

ولم يلبث أن امتد ملكه على الإقليم الشرقى من الجبال وخلفه فى الملك ١٩ من أبنائه وأحفاده .

وقد حافظت هذه المملكة على استقلالها حتى الفتح المصرى وعدد نعوم شقير المشيخات التى أسسها العرب على هذا النحو (٥) .

١ — مشيخة خشم البحر : شرق النيل الأزرق بين ونقة والروصيرص .

٢ — مشيخة الحمدة .

٣ — مملكة الجموعية .

٤ — مملكة الجعليين : ومركزها شندى .

٥ — مملكة الميرافات : فى شمال الجعليين بين المقرن ووادى السنقير .

٦ — مملكة الرباطاب : من وادى السنقير إلى الشامخية .

٧ — مشيخة المناصير : من الشامخية إلى الشلال الرابع .

---

(١) محمد عوض ص ٢٠٣ .

(٢) محمد عوض ٢٢٨ .

(٣) Elles : The Kingdom of Tegali, S.N.R., vol. XXVI, pp. 37-42

(٤) محمد عوض ص ٢٥٩ .

(٥) نعوم شقير ج ٢ ص ١١ ، ١٠٨ .

٨ — المملكة الشايقية [illegible]

غير أن هذه الجماعات العربية تركت أثراً أبقى فى الميدان الاجتماعى والثقافى ، فقد عملت على نشر الدين الإسلامى(١) فى منطقة فسيحة تمتد من حدود مصر شمالا حتى خط عرض ١٢ جنوباً، ومن ساحل البحر الأحمر شرقاً حتى منطقة بحيرة تشاد .

وكانت وسيلتها فى نشر الإسلام ليست التبشير أو الدعوة إلى الدين إنما توسلت بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى ، بالإصهار إلى الشعوب المحلية ، ثم إفناء هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة(٢) وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم إزداد التيار الإسلامى عمقاً بمضى الزمن .

وقد لعب الجعليون فى هذا التطور دوراً هاماً ، وكانوا من أهم عوامل هذا الاندماج ، وقد رأينا كيف كان إبراهيم يدخل فى القبيلة من ليس فيها ولعل هذا يفسر النمو المطرد لهذه القبائل حتى أصبحت شعباً كبيراً يتألف من عـــدة قبائل وفيرة العدد .

وقد رأينا أيضاً قدرة الكواهلة على مخالطة الشعوب الوطنية والاندماج فيها ، وإذا كانوا قد تركوا فى أوطان البجة الأثر الذى أشرنا إليه فلا بد أنهم حملوا نفس الرسالة فى الأوطان الجديدة التى انحدروا إليها .

ولايبعد أن يكون الجهنيون قد أدوا نفس الرسالة ، وقاموا بنفس الدور ، واستطاعت هذه القبائل أن تكسب السودان النسب العربى والدم العربى واللغـــة العربية ، وأن تضيف إلى عالم الإسلام قطراً فسيح الرقعـــة يساهم فى الحياة الإسلامية مساهمة الأقطار الأخرى(٣) .

وكانت هذه القبائل أداة لنشر الثقافة العربية فى أرجاء السودان . وأحسن مثل للجهود التى بذلت فى هذه السبيل الدور الذى اضطلع به الجعليون فى حياة السودان ، خصوصاً عشيرة المجذوبين التى تنتسب إلى الفقيه حامد بن محمد المجذوب.

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan.

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ج ١ ص ٢٥ .

(٣) محمد عوض ص ١٧٢ .

هذه العشيرة كانت ذات أثر واضح فى نشر الثقافة العربية فى البلاد ، وكان الكثير من أبنائها يرحلون إلى القاهرة أو مكة طلباً للعلم ، ثم يعودون إلى السودان لمتابعة رسالتهم ، فتبنى المساجد ، وتنشأ الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد إليها الطلاب من كافة الآفاق .

هذه العشيرة أنشأت مدينة الدامر فأصبحت حاضرة روحيـة للجعليين ، بل للسودان كله . وقد زارها الرحالة بركهارت سنة ١٨١٤(١) ، ورأى فيها جواً من التقوى والصلاح والعلم ، وسبب ذلك أن الرئاسة والسيادة فى الدامر كانت لرجال الدين من الجعليين .

وامتد أثر الجعليين إلى جبال النوبا حيث استطاع واحد من زهادهم وعبادهم أن يؤسس مملكة تقلى . وأن يذيع الثقافة العربية فى هذه الآفاق النائية .

واتخذت هذه المملكة لنفسها سياسة مرسومة فى نشر الإسلام والعروبة فى هذه المناطق الوعرة ، فكانت تشجع القبائل العربية على الهجرة والاستيطان ، فهاجر كثيرون من الجعليين والبديرية والجوامعة (٢) .

وكأن نشر الثقافة العربية كان وقفاً على الجعليين العرب ، فقبيلة الركابية كان أبناؤها يرحلون إلى مصر فى طلب العلم ، وفى طبقات ود ضيف الله ذكر لمشاهيرهم وكانت لهم شهرة فى الفقـه والدين حيثما نزلوا ، وتولى كثيرون منهم منصب القضاء . وكانوا من أشهر العاملين على نشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى جنوب كردفان(٣) ، وكذلك كان شأن الغديات حين نشروا الثقافة العربيـة فى النصف الشمالى من دار النوبا (٤) .

ظهور السلطنات الإسلامية :

والظاهرة الثانية التى شهدها دور الازدهار فى تاريخ الإسلام فى السودان هى قيام سلطنات إسلامية توجه الحياة الإسلامية فى البلاد حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مثل سلطنة الفونج وسلطنة دارفور .

(١) محمد عوض ص ١٧٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .
(٣) نفس المصدر ص ١٩٣ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٠٤ .

وظهور هذه السلطنات فى هذا الدور لايخلو من مغزى، فهى تمثل دخول الإسلام إلى السودان من منافذ أخرى غير المنفذ النيلى أو الشمالى الشرقى بحكم موقع سودان وادى النيل واتصاله بأوطان إسلامية أخرى .

ظهور دارفور يمثل نفوذ الإسلام من الغرب ، وظهور الفونج يمثل انبثاق حركة إسلامية كبيرة فى منطقة سنار فى الجنوب ثم تدفقها صوب الشمال متعاونة مع العناصر العربية الوافدة .

وظهور هذه السلطنات يدل كذلك على أن النشاط الإسلامى لم يكن وقفا على العنصر العربى : إنما أسهم فيه فريق من أهل البلاد الأصليين بعد أن أسلموا ، وقاموا فى تاريخ الإسلام بدور لايقل عن دور العرب .

وسنلتزم فى العرض لهذه السلطنات نفس المنهج الذى التزمناه عند حديثنا عن سلطنات السودان الغربى ، بإبراز العبرة من اعتناقها الإسلام وقيامها ثم توسعها ، والظروف التى أدت إلى ضعفها ثم انحلالها ، ثم أثر الإسلام فيها ، ومع العناية بصفة خاصة بالدور الذى قامت به فى الحركة الإسلامية فى السودان .

سلطنة الفونج(١) :

إلقاء الضوء على الحركة الإسلامية التى انبعثت من سنار فى هذا العصر يتطلب منا أن نعرض للظروف التى أدت إلى ظهور الفونج .

وظهورهم يقترن فى أفهام المؤرخين بحدث بارز فى تاريخ السودان ، وقع فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) ، أو على وجه التحديد

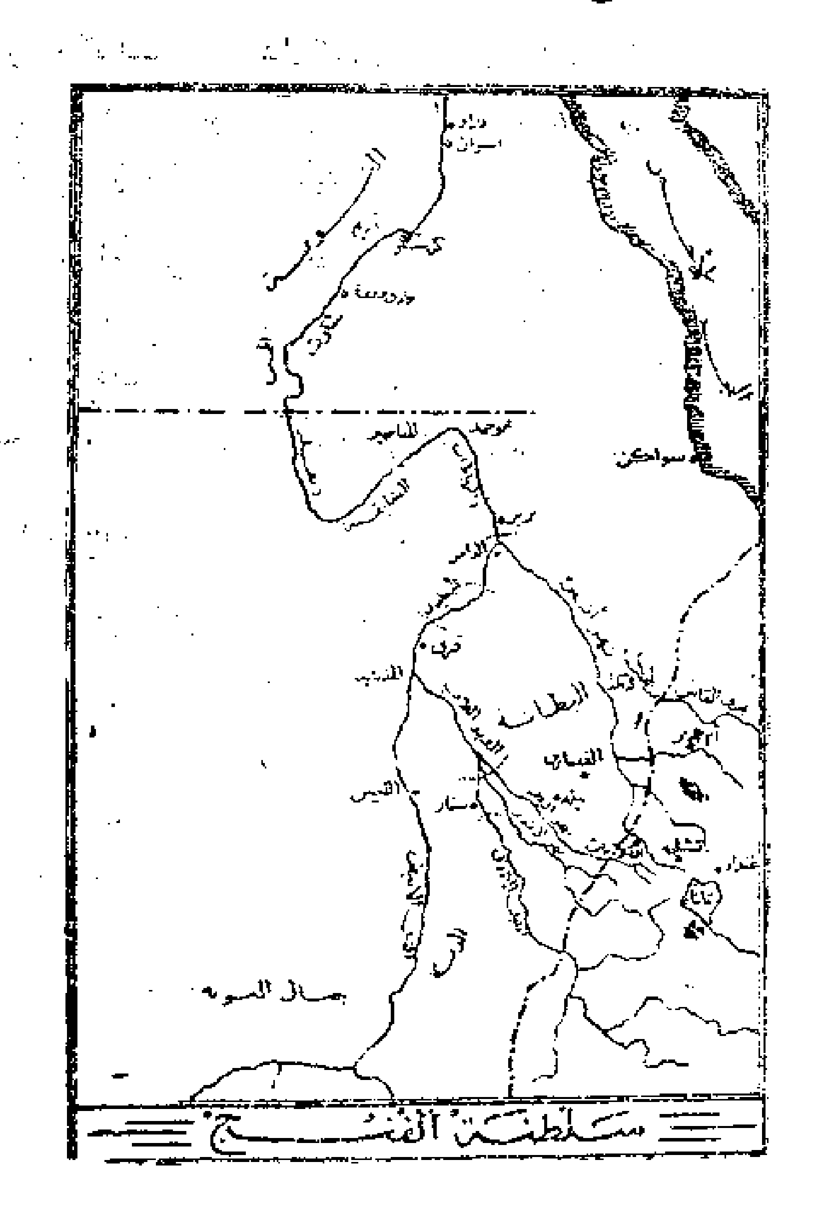
---

(١) عن الفونج انظر الأبحاث الآتية :

Arkell : Fung Origins, S.N.R. vol. XV, pp. 201-250.
Arkell : More about Fung origins, S.N.R. vol, XXVII, p. 87.
Arkell : Fung Correspondence. S.N.R. vol. XXXIII. pp. 181-182.
Chataway : Note on the history of the Fung, S.N.R. vol. XIII. p. 247.
Chataway : Fung origins. S.N.R. vol. XVII. pp. 111-117.
Henderson : Fung origins. S.N.R. vol. XXXII, pp. 174-175 and vol. XXXIV, pp. 315-310.
Robertson : Fung origins. S.N.R. vol. XVII, pp. 260-265.

سنة ١٥٠٥ ، حين تم تحالف بين الفونج وبين عرب القواسمة ، الذين هاجروا إلى مملكة علوة واستقروا فيها ، وظهر نفوذهم واضحاً جلياً فى هذا العصر ، وهو تحالف عميق الجذور(١) .

وأبلغ ما يدل على هذا العمق استمراره طوال القرن السابع عشر وبعض الثامن عشر ، وإسهامه فى توجيه الحوادث فى تاريخ السودان ، وهو تحالف أملته قرابات أسرية (كما سنوضح) وأهداف إسلامية .



سلطنة الفنج

(١) عبد العزيز عبد المجيد ، ١ ص ٣٨ ، ٣٩ .

فقد اتخذ طابع الجهاد ضد الصليبيين ، فالجهاد للقضاء على دولة المسيحيين في علوة (١) ، وهو يمثل الانتفاضات الصليبية التي شهدها العالم الاسلامي في هذا الوقت ، جهاد العثمانيين في البلقان ، وحوض البحر الأبيض المتوسط ، جهاد المغاربة ضد الغزاة الإسبان والبرتغاليين ، جهاد مسلمي شرق إفريقية لدفع الخطر الصليبي ، جهاد المسلمين في الحبشة لقهر النفوذ المسيحي ... هذا الجهاد الذي تزعمه أحمد بن إبراهيم القرين .

هذا التحالف حقق أهداف الجهاد كاملة ، فقد تمخض عن القضاء على مملكة علوة المسيحية قضاء تاماً ، وإعلاء كلمة الإسلام في سودان وادي النيل .

والدول لا تولد فجأة ، ولا يمكن أن تكون دولة الفونج قد استولدها هذا الحدث الذي وقع سنة ١٥٠٥ ، فقد كانت هذه الدولة في هذا الوقت قوة نامية ناضجة ، شاركت في إدارة دولة ذات سلطان وشاركت العرب في هذا الحدث البارز .

والمنطق يقضي أن نفترض ظهور الفونج قبل هذا التاريخ بوقت طويل ، متى كان هذا وكيف كان ؟

والذي نستطيع أن نؤكده أن أرض سنار والنيل الأزرق لم تشهد نفوذاً للفونج قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، لا ننكر أن ابن سليم الأسواني زار مملكة علوة في أواخر القرن العاشر الميلادي موفداً من قبل مصر ، وأنه ذكر أن الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرتينا أو كرسة أو كرما أو كاسو .

لكن رسول قلاوون الذي زار هذه البلاد وأدرك منطقة الجزيرة في أواخر القرن الثالث عشر لم يعرض لأية قبيلة أو أية أسرة أو إمارة تحمل إسم الفونج (٢) .

إذن ظهر الفونج بعد انتهاء القرن الثالث عشر ، ونرجح ظهورهم بعد الأحداث التي أفضت إلى القضاء على مملكة دنقلة وتسرب العرب إلى بلاد علوة على نطاق واسع ، ولا بد أن ثمة نواة لهذه الإمارة ظهرت ثم اشتدت وتبلورت في الأحداث التي أفضت إلى القضاء على مملكة علوة .

---

(١) نعوم شقير ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٢٤ .

وتحديد مكان هذه الإمارة وظهورها يتطلب منا أن نناقش المشكلة المستعصية!! مشكلة المكان الذى انحدر منه الفونج .

هل هم من الشلك على نحو ما يذكر بروس الرحالة الاسكتلندى الذى مر بهذه الجهات فى أواخر القرن الثامن عشر ؟ . وأنهم يمثلون غارة من غارات الشلك المفاجئة على منطقة النيل الأزرق ، حين تغلبوا على ود ـ عجيب شيخ العرب فى معركة فاصلة بالقرب من أربجى ، الأمر الذى حمل العرب على الخضوع لهم ومصالحتهم على نصف الماشية ، ثم تعهد هؤلاء العرب بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة التى قد تفكر فى العصيان (١) .

لا نريد أن ننساق فى معارضة رأى دون أن نستقى منه العبرة فالخرافة أبلغ دلالة من الحقيقة ، والأسطورة لا تخلو من عبرة تاريخية ، فهذا الرحالة مهما قيل فى رأيه فإنه صور حقائق رآها وسمعها من الرواة فى القرن الثامن عشر ، وهى استخدام الفونج عناصر ليلوتية فى الجيش ، عناصر من الشلك أو غيرهم ، وهذا ليس غريباً ، وهاهى دولة إسلامية قامت فى القرن العاشر الميلادى تجند الزنوج فى جيش المسلمين ، فلم لايجندهم الفونج وهم قريبون من ديارهم وموطنهم؟

وكيف يفوتنا أن نفيد من رأى بروس أو على الأقل من ادعائه من أن كلمة الفنج فى لغة الشلك معناها الوافدون الغرباء ؟ ؟ واشتقاقها من كلمة بون Bown فى لغة الشلك ، أو من كلمة فون Fon فى لغة النوير أو من كلمة Buny ومسألة إبدال الباء بالفاء أو إحلال حرف محل الآخر أمر مألوف فى كل لغات العالم . وهو أكثر شيوعاً فى لغة النوبة والشلك ، خصوصاً إبدالهم الباء بالفاء ، والعبرة أن رأى بروس صحيح من حيث أن الفونج قوم غرباء وفدوا على هذه المنطقة من حيث لا يعلم بروس ؟ (٢) .

هل جاء الفونج من الغرب من منطقة بحيرة شاد ؟ كما يرى بالمر وآركل(٣) .

---

(١) Bruce : Travels to discover the Sources of the Nile. vol. IV, p. 548.

(٢) الشاطر بصيلى ص ٢٤ .

(٣) Arkell : Fung origins : S.N.R. vol. XV, pp. 201-250 and vol. XxVII, pp. 27-97.

فسنار كما يقولون لم ينقطع اتصالها بدار فور وبرنو . أن تاريخ برنو الذى كتبه الإمام أحمد أحد العلماء فى عهد ماى إدريس ملك برنو (١٥٧١ — ١٦٠٣) يشير إلى امتداد نفوذ برنو شرقاً إلى وادى النيل . وأن الروايات المحلية فى هذه البلاد تشير إلى أن سلطنة سنار أسسها الملك عثمان ، الذى طرد من برنو عام ١٤٨٦ ، وأن عمارة دونقس من سلالة ماى عثمان ، لا سيما إذا عرفنا أن لفظ عمارة يتردد فى جدول أسماء ملوك برنو .

وهذا اللاجىء الغريب صحبه أفواج من البرنو ، وقد نزلوا على النيل الأبيض فى أرض نزلها الشلك فحالفوهم واستعانوا بهم فى محاربة العبد اللاب عند أربجى .

ثم ينساق آركل وبالمر فى هذا النسيج العجيب بقولهم إن كلمة فونج من Fune ومعناها اللثام لباس الطوارق .

حتى كلمة همج وجدوا لها شبيهاً فى لغات برنو فهى عندهم تدل على من ليسوا من أصل عربى ، وكأنهم افترضوا أن أهل برنو من أصل عربى !...

بل نراهم يحددون الطريق الذى سلكته هذه الفئة الزاحفة من برنو ، إنه الطريق الغربى الكبير بين الصحراء ومنطقة الغابات ، بل افترضوا حصولها على أسلحة نارية من تونس فى القرن الخامس عشر . ؟ . ثم يتلمسون الأدلة الأخرى ... فالسنارية كانوا مالكية وأهل برنو مالكية ... إذن فالسناريون من أصل برنوى !!

ولسنا بحاجة إلى أن نبين ما فى هذا الرأى من مغالاة . فالتفسير الفيلولوجى لكلمة فونج لا يسند رأيهم ، فالتبادل اللغوى ظاهرة مألوفة فى الميدان الثقافى والناس يتبادلون الألفاظ والأفكار دون أن يتصلوا اتصالا بشرياً .

وما يروونه من هرب ماى عثمان بعد سنة ١٤٨١ أى قبل ظهور الفونج بنحو ٢٠ سنة قد يكون صحيحاً (١) ، ولكن هل يستطيع مغامر غريب أن يقيم دولة وأن يجند جيشاً وأن يبدو فى مثل هذه القوة التى ظهر بها الفنج فى عشرين سنة ؟؟

---

(١) Palmer, p. 11-12. 148, 191, 204, 208.

عبد المجيد عابدين ص ٤٨ — ٥٢ .

ثم كيف يفوز هذا المغامر الغريب بود العرب وصداقتهم وتحالفهم الأبدى؟ ! والعرب فى المألوف يطمئنون لمحالفة العرب فكيف يحالفون البربر ! ! انظر إلى الصلات القومية والوشائج المتينة التى قامت بين عبد الله جماع وبين عمارة دونقس .

أما اتحادهم فى المذهب فلا يتطلب البداهـــة اتحادهم فى الجنس ... فالمالكية أصلا دخلت المغرب من مصر ... ثم جمهرة أصل الصعيد مالكية ، ولا يبعد أن تكون جهينة قد حملت هذا المذهب إلى سنار ، ولا يبعـــد أن يكون فقهاء المغرب قد حملوه إلى تلك البلاد ، فهذا التأثير على الأقل تأثير ثقافى ... ولم نسمع عن أن ثمة علاقة ود متصل قامت بين سنار وبرنو بحكم الأصل المشترك أو الثقافة المشتركة ... فلا يمكن والحالة هذه أن ينحدر الفونج من المغرب على نحو ما يصوره بالمر أو آركل .

إنما انحدارهم من الشرق من المنطقة الممتدة من النيل شرقاً إلى البحر الأحمر أمر طبيعى جدا بحكم الصلات الوثيقة بين المناطق النيلية وبين هذه الآفاق الشرقية اتصالات بشرية وتجارية وثقافية قديمة وعريقة فى قدمها .

والرأى الذى انتهى إليه أحد الباحثين(١) من أن الفونج انحدروا من الشرق من المنطقة التى تقوم على المداخل بين حوض النيل وأثيوبيا رأى مقبول وسليم : وأن عاصمتهم القديمة فى إقليم « لم » .

وأوضح ما فى هذا الرأى تحديده الجغرافى لمنطقة لم بأنها فى جنوب غرب إريتريا ، وتحديده العاصمة القديمة فى « أوم هجر » المعروفة الآن بأم هجار .

من أجل هذا الموقع اتخذت القوافل هذا الإقليم منفذا لها بين تلك البلاد وساحل البحر الأريترى ومختلف موانيه . من مصوع وباضع وســواكن ، كما اتخذته الهجرات المختلفة معبرا لها نحو مهاجرها (٢) .

يستخلص إذن من هذا الرأى أن ثمة إمارة إسلامية ظهرت فى هذه المناطق قبل بداية القرن السادس عشر ، وأن منطقة نفوذها كانت تنفسح غربا ، فتصل إلى أطراف الجزيرة ، وتصاقب أملاك علوة من الشرق .

---

(١) الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٣ .

(٢) الشاطر بصيلى ص ٢٣ .

وقد تم التحالف إذن بين هذه الإمارة النامية وبين العرب الذين توافدوا على بلاد علوة وتكاثروا فيها ووصلوا إلى أوج قوتهم ونفوذهم فى آخر القرن الخامس عشر منتهزين عزلة علوة واضطراب أمورها الداخلية وضعف مذهبها الرسمى واختلال شئونها الإقتصادية .

هذا التحالف أملته ضرورات إسلامية ، تحالف للجهـاد فى سبيل الإسلام ومدافعة مسيحيى علوة والقضاء عليهم إذا استطاعوا سـبيلا ، كما أملته ظروف اقتصادية ، فقد تدهورت العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات فى النوبة وبين المماليك فى مصر : فاضطرت هذه الإمارات والمشيخات إلى الاتجاه صوب الجنوب ، والاتصال بالسلطان عمارة الذى كان مسيطرا على تجارة ذلك القطاع الذى كان مركز تجمع التجارة وانطلاقها صوب الشرق (١) .

وقد تحققت أهداف الحلف ، صرعوا علوة واقتسموا أملاكها ، وامتـد نفوذ هذه الإمارة الإسلامية حتى النيل الأزرق والنيل الأبيض باسطا رواقه فوق أرض الجزيرة (٢) . بل كانت لهم السيادة الاسمية على جميع أملاك علوة حتى الشلال الثالث ، بسبب ما قاموا به من جهد فى مدافعة علوة والقضـاء عليها سنة ١٥٠٥ .

وقد ظلوا بعاصمتهم القديمة حتى ديسمبر سنة ١٥٢١ ، حين زار هذه البلاد الرحالة داود روبين الذى اخترقت قافلته الطريق الساحلى إلى مصوع ومنها إلى منطقة لم حيث السلطان عمارة ، الذى كان قد فرغ من مد نفوذه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط .

غير أن هؤلاء السلاطين انتقلوا إلى سنار لأسباب تختلف عن التى ذكرت إذ أن الظروف التى ذكرت على أنها دفعتهم إلى الانتقال كانت على العكس تشجعهم على البقاء (٣) .

---

(١) الشاطر بصيلى ص ٣٣ .

(٢) محمد عوض ٢٥٣ .

(٣) الشاطر بصيلى ص ٢٢ — ٢٣ .

لا ننكر أن الظروف التي سادت قبل ظهور أحمد القرين كانت تشجع على الرحيل ، أما بعد ظهوره وجهاده وتوفيقه فإنها كانت تحمل على البقاء (١) .

بل الثابت أن عميرة شارك فى هذه الحركة الإسلامية العامة حين حارب البلو فى المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، فالروايات المتواترة بين سكان شرق السودان تشير إلى قتال حدث بين الفونج وبين قوة مشتركة من البلو والأرتيقة (٢) ، وذلك فى السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر . وقد خرج منها هؤلاء السلاطين ظافرين كما انتصروا على مملكة علوة .

وقد اشتد أزر المدافعين عن الإسلام فى شرق إفريقية بظهور العثمانيين فى البحر الأحمر ودخولهم سواكن سنة ١٥١٧ واتصــال عميرة بهم ، وكان الأخلق أن تتعاون هذه القوى الإسلامية جميعها فى عمل مشترك .

ويخيل أن عميرة انتقل إلى سنار بعد سنة ١٥٤٣ وهى السنة التى قتل فيها أحمد القرين وفترت حركته الإسلامية بعد وضوح التدخل البرتغالى واشتداد أزر المسيحية فى الحبشة وعملها على استرداد ما فقدته على يد أحمد القرين وزملائه من المجاهدين.

ثمة اعتبارات أخرى أملت هذا الانتقال ، منها قرب هؤلاء السلاطين من مناطق النفوذ الجديدة ، فقد كان سلطانهم قد امتد على وادى النيل إحتى الشلال الثالث ، وكان عليهم إذا أرادوا أن يثبتوا أركان هذه السيادة أن ينتقلوا إلى مسرح الحوادث نفسها .

ويخيل إلى أيضاً أنهم اتخذوا اسم (فونج) بعد انتصارهم سنة ، ٩١٠هـ / سنة ١٥٠٥م ، وامتداد نفوذهم على سنار وما جاورها جنوبا ، وأن الشلك خلعوا عليهم هذا الإسم باعتبارهم وافدين فأصبح علما عليهم .

بقيت مسألة انتسابهم لبنى أمية ، ورغم أن الانتساب إلى العرب كان ظاهرة شاعت فى السودان كله وامتدت من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسى حين ادعى البرنوية والسنغى وغيرهم مثل هذا النسب العربى ، انتسب بعضهم إلى بنى أمية أو بنى هاشم وارتبط آخرون بالقحطانيين أو العدنانيين .

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia, pp. 86-87.

(٢) ص ١٧ .

رغم هذا نعتقد أن نسب الفونج لا يخلو من الصحة ، يحملنا على هذا الاعتقاد تحالفهم الوثيق بين القواسمة العرب ، تحالفا أبعد من أن يكون قد أملته مصلحة مادية مشتركة ، وهل تبقى هذه المصلحة المادية أكثر من ثلاثة قرون ؟ .

يخيل إلى أن عرب القواسمة قد حالفوا عرب الفونج وأن ثمة مصاهرة تمت بين البيتين مصاهرة لم تتحدث عنها كتب التاريخ ، ولكننا نستوحيها من هذه الصلات الوثيقة التى تنشأ بين ذرية عبد الله جماع وعميرة دونقس !!

وأرجح بأن الفونج أرستقراطية عربية ذات نسب أموى نزلت فى المنطقة الشرقية التى حددناها ، ونشرت الإسلام وتألفت حولها القلوب بحكم هذا النسب الأموى ، ثم اختلطت هذه الأرستقراطية بالعناصر المحلية عن طريق المصاهرة ، وظروف قيام هذه الإمارة أشبه بقيام الأدارسة فى المغرب الأقصى ، أرستقراطية عربية قرشية بين بربر مسلمين (١) .

بدأ دور الازدهار فى تاريخ هذه السلطنة الإسلامية بعد الانتصارات المتلاحقة فى معركة الجهاد الإسلامى ، الانتصارات على البدو فى الشرق والانتصارات على المسيحية فى حوض النيل ، وانتقال العاصمة إلى سنار .

وقد نتج عن محالفتهم عبد الله جماع وعرب القواسمة أن امتد نفوذهم الاسمى حتى دنقلة فى الشمال ، فقد أسس القواسمة مشيخة قرى التى امتد سلطانها الحقيقى من أربجى فى الجنوب حتى دنقلة فى الشمال ، تدين هذه القبائل والمشيخات بالولاء لمشايخ قرى ، ويعترف هؤلاء بالسلطان الاسمى لسلاطين الفونج فى سنار .

هذه التبعية الاسمية مظهرها تولية سلاطين سنار لشيوخ قرى ثم اعتراف هؤلاء الشيوخ بالسيادة الاسمية ، ثم دفع الجزية لسلاطين سنار ، وكان هؤلاء المشايخ والملوك يحتفظون بهذا الاستقلال المحلى فى نطاق هذه السيادة السنارية العامة(٢).

وقد مضى سلطان الفونج فى طريقه نحو الامتداد طوال القرن السابع عشر ، وفى عهد الملك بادى الثانى على وجه الخصوص فقد امتد نفوذ الفونج إلى فازوغلى النيل الأزرق ، بل أخضعوا الشلك وحاربوهم ومثلوا بهم .

---

(١) نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٢ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ص ٣٨-٣٩ .

نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٢ ، محمد عوض ص ٢٥٣ .

وانفسح نفوذهم ممتداً إلى جبال تقلى ، وجنوب كردفان ، واستمر توسع الدولة طيلة القرن الثامن عشر ، فقد استطاعت فى عهد الملك بادى الرابع أن تستعين بجيشها من الشلك والهمج وحلفائها من العرب فى القضاء على أمراء المسبعات أقرباء سلاطين دار فور ، فانتصرت جيوش شتار تحت إمرة محمد أبو اللكيلك سنة ١٧٤٧ (١) .

وبدت امبراطورية الفونج فى آخر هذا القرن ممتدة على هذه الرقعة الفسيحة من أرض السودان من البحر الأحمر حتى كردفان غرباً ، ومن الشلال الثالث حتى فازوغلى جنوباً وتخضع لها هذه العوالم من العرب وغير العرب .

غير أن هذا القرن الذى شهد هذا التوسع العظيم حمل معه عوامل الفرقة والانحلال . فقد بدأت عرى التحالف الوثيق بين الفونج والقواسمة تتصدع حينما رغب شيوخ قرى فى الاستقلال منذ عام ١٦١٠ وحققوا مايريدون فى غمرة الأحداث التى شهدها التاريخ الداخلى للبلاد فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، واستقلوا سنة ١٧٧٠ .

بل استطاع الشايقية أن يخرجوا على نفوذ العبد اللاب فى هذا العصر ، وظهر نفوذ الهمج (الهمق) بعد الانتصارات المتلاحقة التى حققوها ، فقد استطاع محمد أبو كتسور سنة ١٧٧٦ أن يعزل الملك بادى الرابع وأن يولى غيره .

وظل الحال على هذا النحو ، ملوك ضعاف يستبد بهم وزراؤهم وقوادهم من الهمج حتى ابتلعهم الفتح المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢).

ونحن لا يهمنا تاريخ الفونج أنفسهم ، بقدر ما يهمنا أن نبين مدى مساهمتهم فى النشاط الإسلامى فى سودان وادى النيـــل ومدى عميق شعورهم الإسلامى ، مدى دفعهم للحركة الإسلامية ومساهمتهم فى تشجيع الثقافة الإسلامية .

وقد ظهرت دولة الفونج منذ فجرها الأول فى مظهر إسلامى عميق واضح فقد استهلت حياتها الأولى مساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى ، كانت مشاركتهم العرب فى القضاء على مملكة علوة المسيحية مساهمة فى الجهاد فى سبيل الإسلام ،

---

(١) نعوم شقير جـ ٢ ص ٧١ .

(٢) نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٤ .

لأن القضاء على علوة كان بمثابة القضاء على آخر عقبة فى سبيل انتشار الإسلام ولولا مساعدتهم العرب وتأييدهم ووقوفهم إلى جانبهم لما تحقق هذا النصر العظيم .

وقد رأيناهم غير متخلفين عن ركب الجهاد فى شرق إفريقية ، جاهلوا البلو واشتركوا فى حركة أحمد القرين وجهاده ، لأنه لم يكن من المعقول أن يقفوا بمعزل عن هذه الأحداث الهامة التى كان تاريخ الحبشة يتمخض عنها ، وقد أسهموا فى محاربة الوثنيين فى داخل السودان نفسه ، فقد أفتى العلماء بجهاد النوبا بسبب غاراتهم على كردفان حتى يؤمنوا بالله ، فتألفت من أجل ذلك جماعات كان يتولى قيادتها بدوى أبو صفية البديرى .

واستمرت تلك الحروب زمناً طويلا حتى انتشر الإسلام فى كثير من مناطق جبال النوبا (١) .

وكان الفقيه بدوى يأتى ببعض أهل النوبا إلى الأبيض فيعلمهم القرآن والضرورى من الفقه والتوحيد ، ثم يعيدهم إلى بلادهم ليتولوا نشر الدين بين قبائلهم .

كما حاربوا الشلك لنفس هذه الأغراض ، بل شاركوا فى حركة الجهاد الإسلامى ضد الأحباش فى القرن الثامن عشر ، وتبين أنهم كانوا على اتصـال بالمسلمين فى مصر لتحقيق هذا الغرض ، إذ يروى أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا أرسل سنة ١٧٠٣ هدايا فاخرة إلى ياسو ملك الحبشة مع مبعـوث اسمه لانوار دى رول ، فرحل من مصر فى ١٩ يولية ١٧٠٤ قاصداً أن ينفذ إلى الحبشة بطريق النيل ، فوصل سنار فى آخر مايو سنة ١٧٠٥ ، ومعه سبعة من الأتباع وخادم وترجمان وستون من الإبل محملة بالهدايا ، دخل سنار وأقام فيها زمناً حتى جاءته الأخبار من مصر مشككة فى حسن قصد البعثة ، وأنها ماضية لتدريب جيش الأحباش على الحرب الحديثة ، فقاتلهم الفونج واشتبكوا مع الأحباش فى عهد الملك بادى الرابع أبو شاوخ سنة ١٧٤٤ .

وكانت جيوش الفونج يقودها الأمين ود مسمار ود عجيب شيخ قرى ، وكان أمير الفرسان الشيخ محمد أبو اللكيلك كبير الهمج ، وكان لهذا النصر دوى هائل

---

(١) عبد المجيد عابدين ـ ٢ ص ٥٣ — ٥٤ .

فى العالم الإسلامى المعاصر ، بلغت هذه الأخبار مصر والشـــام والحجاز وتونس والقسطنطينية والهند (١) .

ولم يسهم الفونج فى نشر الإسلام متوسلين بالجهاد فحسب ، إنما استعانوا بالوسائل السلمية ، فعملوا على تنشيط الدعوة الإسلامية ، واشتدت رغبتهم فى النهضة بالدين ، ومصداق ذلك تشجيعهم للجهود التى بذلها الفقيه بدوى البديرى فى جبال النوبا ، والجهود التى قام بها الشيخ إسماعيل الوالى فى جبال كندكرو .

وقد ساهم فى هذه الحركة الإسلامية الكبيرة الدعاة الوطنيون والدعاة الوافدون من البلدان الإسلامية المختلفة ، وتميز عهد الملك بادى الثانى أبو دقن بالنشاط الإسلامى البالغ .

وقد دفعتهم هذه الروح الإسلامية الخالصة إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة اتصالا دينياً وثقافياً .

وضح اتصالهم بمصر فى حربهم مع الحبشة ، كما كان اتصالهم بمصر فى الناحية الثقافية أيضاً وتطلعوا إلى الأزهر الشريف وعلمائه ورجاله ، وكان الملك بادى الأول ، المعروف بسيد القوم ، (١٦١١ - ١٦١٦) ، على صلة بعلماء مصر ، وكان يرسل إليهم الهدايا مع خبيره أحمد علوان واشتهرت مناقبه عندهم حتى مدحوه بقصائد عدة (٢) .

واتصلوا بالحجاز عن طريق الحج والتجارة وشجعوا علماء الحجاز ومتصوفيه على الرحيل إلى سنار (٣) .

وتوطدت صلاتهم بالمغرب الإسلامى ، وود ضيف الله يذكر عدداً من علماء الفونج يرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس ، واتصلوا بالعراق .

ولم تنقطع صلتهم بدارفور ، فكانت هذه السلطنة تستعين بفقهاء جزيرة سنار وشجع سليمان سولونج فقهاء سنار على النزوح إلى بلاده (٤) .

---

(١) نعوم شقير ص ٨١ .

(٢) نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٧ .

(٣) عابدين ص ٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٣ .

وكان اتصالهم بالباشا التركى فى موانى البحر الأحمر وثيقاً ، وتنظيمات الفونج الديوانية تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية (١) وتأثيرها فى سنار ؛ ولا غرو فقد كان لباشوات سواكن ومصوع وكلاء فى سنار وأربجى ؛ وكذلك اتصلوا باليمن وغيره من الأمصار الإسلامية .

وتظهر هذه الروح الإسلامية الواضحة فى معاملتهم لرجال العلم ، وفى احترامهم وإحاطتهم بالرعاية والتكريم . فكان « إذا زارهم فقيه أو عالم يدخل باسطاً يديه بالدعاء فيقول الفاتحة ثم يتقدم ويقبل يد الشيخ ، ويرجع القهقرى فيأمره الشيخ بالجلوس فيجلس على فراش فوق الأرض احتراما للدين (٢) » .

وكان للعلماء الصالحين نفوذ كبير ، لم يكن يرد لهم طلب إذا ما توسطوا فى أمر . ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان . وتمتع الصوفية فى زمانهم بسلطان كبير ، بل كانت لبعضهم سلطات زمنية وروحية .

هذا فضلا عن تشجيع الحركة العلمية بكافة السبل ، بإنشاء المساجد واستقدام العلماء ، والإغداق عليهم ، وإحاطتهم بصنوف الرعاية والتكريم .

سلطنة دارفور :

ظهور هذه السلطنة يمثل دخول الإسلام إلى السودان من منفذ آخر غير المنافذ السابقة ، دخوله من المنفذ الشمالى الغربى .

وكان انتشار الإسلام فى هذا الجزء من السودان نذيراً بقيام هذه السلطنة وبروزها على مسرح الأحداث فى السودان ، فكما أن ظهور عمارة دونقس كان نذيراً بظهور سلطنة الفونج واشتراكها فى الحياة الإسلامية ، كذلك كان ظهور سليمان سولون مقترنا باكتمال شخصية دارفور الإسلامية .

على أن الإسلام تسرب إلى بلاد دارفور قبل سليمان بكثير ، فقد كانت بلادا أول الأمر مستقراً لشعب الداجو الذى وفد على البلاد فى مصر غير محدود على وجه التقريب (٣) .

---

(١) نعوم شقير — ٢ ص ٩٤ . (٢) نعوم شقير — ٢ ص ١٠٠ .

(٣) Trimingham : Islam in the Sudan. p. 89.

ويرى ماك مايكل أنهم هاجروا إلى دارفور منحدرين من جبال النوبا الواقعة غرب النيل الأبيض جنوب خط عرض ١٠° ، وفرضوا نفوذهم على المنطقة الوسطى والجنوبية من دارفور (١) ، واستطاع هذا الشعب معتصماً بجبال مرة أن يؤسس سلطنة محلية تشبه من وجوه كثيرة سلطنة غانة في غرب إفريقية ، أو ممالك النوبة في وادى النيل .

ثم كان على دارفور بحكم اتصالها ببلاد المغرب عبر المسالك الصحراوية التى تنحدر من طرابلس نحو الجنوب أن تتأثر بالأحداث التى تعرضت لها بلاد المغرب فتعرضت لهجرة جديدة ، هجرة شعب الطنجور (٢) Tungari .

ولا أدرى على أى أساس ينسب هذا الشعب إلى العـــرب ، ولم نعلم أن ثمة هجرات عربية ذات شأن دخلت السودان عبر هذا الطريق الشمالى الغربى فى هذه الفترة (القرن الثانى عشر) والاعتقاد بأن الطنجور من العرب وهم لا يقوم على أساس ، لأن الغارات العربية التى تركت فى حياة المغرب آثاراً باقية هى غارات العرب الهلاليين منذ القرن الحادى عشر فصاعداً .

والروايات التى جمعها بالمر من علماء وادى تبين فى وضوح أن الطنجور يمثلون هجرة من قبائل البربر تدفقت إلى دارفور ووداى نتيجة لتطور الأحداث فى بلاد المغرب بعد غارات الهلاليين وأن هذه القبائل منها من ينتسب إلى البلالة والبديات وغيرهم .

هذه القبائل الهلالية الغازية المنتصرة كانت تندفع فى بلاد المغرب منحدرة من الشرق الى الغرب فى غارات متصلة ، ولم نرها أبداً متدفقة نحو الجنوب عبر هذه المسالك الصحراوية .

إنما الذين دفعوا للهجرة نحو الجنوب هم من العناصر المستضعفة ، التى لم تقو على الوقوف فى وجه هذا التيار العربى الوافد ، وكان عليها إما أن تستذل أو تهاجر .

وهذه العناصر أغلبها إن لم يكن كلها من البربر ، ومن الملثمين . وقد رأينا

---

(١) Palmer : op. cit. p. 212.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية Becker : Darfur.

هذه الشعوب تندفع في تقلص هذا العصر إلى أكثر من موضع في غرب إفريقية ، الطنجور هؤلاء يمثلون اندفاعة من هذه الاندفاعات (كما يتبين مما جمعه بالمر من أخبار وادي وبرنو) .

٥٢ – لا يمكن أن بعض البطون العربية قد وصلت إلى أطراف المغرب ودخلت منطقة السنغال ، حدث هذا في القرن السادس عشر عقب الاحتكاك المعروف بين العرب وبين الموحدين ، أو بين الأسرات التي خلفتهم في حكم المغرب .

كان الطنجور (١) إذن عنصر من البربر اندفع إلى دارفور في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر (٢) ، أي على أثر الغارات الهلالية ، وما يذكره ترمنجهام من حدوث هذه الهجرة في القرن الرابع عشر يجافي الحقيقة إلى حد كبير .

ثم خالطت هذه الشعوب الوافدة العناصر السابقة من الداجو وصاهروهم واستطاع الطنجور الوافدون أن يثبوا إلى الحكم اعتماداً على هذه المصاهرة فقد كان الداجو مثل أهل النوبة يجعلون للبنات وذراريهن حقا معلوما في الوراثة . كان أول هؤلاء السلاطين المولدين من الداجو والطنجور أحمد المعقور (٣) ، فهو ثمرة الاختلاط بين الداجو والطنجور .

وقد دخل الإسلام مع البربر الوافدين كما دخل إلى غرب إفريقية مع البربر الذين وفدوا إليها ، ويبدو أن هذا التيار الإسلامي لم يترك أثرا يذكر في حياة الناس والسبب في ذلك أن الهجرة لم تكن كبيرة العدد ففنيت بمضي الزمن في العناصر الأصلية ، ونتج عن هذا الاختلاط أو هذا الفناء عنصر جديد جامع بين دماء البربر ودماء الداجو وهو شعب الفور .

وكان ظهور هذه السلطنة بصورة أوضح يتوقف على عمق التيار الإسلامي وعلى صبغ البلاد بالصبغة الإسلامية الواضحة .

---

(١) بالمر نفسه يشك فيما يقال من انتساب الطنجور للهلالية ويرى أنه ليس ببعيد أن يكونوا قد اتصلوا بهم بعد هجرتهم إلى دارفور .

(٢) Palmer : op. cit. p. 213.

(٣) نعوم ـ ٢ ص ٢ .

يذكر بالمر أن لقب المعقور اتخذه أحد سلاطين وادى المسمى يعقوب وهو ينسب إلى شيب الطنجور .

هذه النقلة الهامة فى تاريخ السودان تمت فى عهد السلطان سليمان سولون (العربى بلغة الفور) هذا التحول الجديد جلبه العرب الذين بدأوا يفدون على دارفور منحدرين من وادى النيل .

وهذا بدوره يجعلنا نخطىء الرأى القائل بأن سليمان سولون حكم من سنة ١٥٩٦ إلى سنة ١٦٣٧(١) على نحو ما يذكر ترمنجهام .

ونميل إلى تأييد نعوم شقير الذى ذكر أن سليمان الأول هذا تولى من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٧٦ (٢) ، لسبب واضح هو أن العرب فى القرن السابع عشر كانوا قد استقروا فى وادى النيل منذ قرون ، إنما موجة تدفقهم العظمى وقعت فى القرن الخامس عشر على وجه الخصوص .

نفس الموجات التى اندفعت نحو الجنوب وأسهمت فى تأسيس دولة الفونج ، اندفعت موجة منها نحو الغرب تحمل الدماء العربية والدين الإسلامى ، ويبدو أن العرب الوافدين قد فعلوا فى دارفور مثل مافعلوه فى الأوطان الأخرى ، أصهروا إلى السكان الأصليين وأصهروا إلى سلاطين الفور مثل إصهارهم إلى ملوك النوبة من قبل .

وكان سليمان سولون وليد هذه المصاهرة ، وهذا النسب حبب فيه العرب الوافدين فاستعان بهم فى إخضاع الخارجين عليه من سلاطين الفور فى جبال مرة ، أو المناطق المحيطة بها ، وانتشر الإسلام فى ركابهم فصبغ السلطنة بالصبغة الإسلامية الواضحة ، وأتم توحيد عناصر السكان تحت لوائه ، وعمد تثبيتا للحركة الإسلامية إلى استقدام الفقهاء من الشرق لتعليم الناس أصول دينهم ، وبدأ العرب يلعبون فى تاريخ البلاد دوراً بارزاً (٣) . ومن هذه القبائل الحبانية والرزيقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلبة والمعالية فى الجنوب والحمر فى الشرق والزيادية فى الشمال والماهرية والمحاميد وبنو حسين فى الغرب(٤) .

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan, p. 90

(٢) نعوم شقير ـ ٢ ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ـ ٢ ص ١١٣ .

(٤) نعوم شقير ـ ٢ ص ١١٤ .

والدور الذى قام به السلطان سليمان فى تاريخ دار فور لا يكاد يختلف عن دور منسى موسى وإسكى محمد فى غرب إفريقية ، أو دور عمارة دونقس فى سنار ، ففى عهده برزت هذه السلطنة فى سماء الحياة الإسلامية [illegible]

وتأكيداً لهذه الروح الإسلامية الواضحة نسب سلاطين الفور أحفاد سليمان أنفسهم إلى بنى العباس ، كما نسب الفونج أنفسهم إلى بنى أمية ، وهذه النسبة تكاد تجعلنا نحدد القبيلة التى انتسبت إليها أم السلطان سليمان ، ولعلها كانت من المجموعة الجعلية ، هذه المجموعة التى اتخذت نسباً عباسياً حتى سميت المجموعة الجعلية العباسية (١) .

وبدأت الدولة تخلص من طابعها المحلى وتؤكد نفسها فى حياة السودان منذ القرن السابع عشر فصاعدا ، فقد امتدت سلطتها على كردفان حيث قامت إمارة فورية تسمى إمارة المسبعات .

وبدأت فى عهد السلطان تيراب (١٧٦٨ — ١٧٨٧) تخطو فى طريق الظهور خطوات أبعد ، فقد استعان بعرب البادية من أبالة وبقارة فى تأكيد سلطانه على كردفان (٢) .

وبدأ يحتك بالقوى الإسلامية الأخرى فى السودان ، فقد أوقع بجيش العبد اللاب من قبل ملك سنار قرب أم درمان . وكان على استعداد لأن يعبر النيل منطلقاً إلى سنار (٣) .

وبلغت الدولة أقصى اتساعها ، فقد كان حدها من الشمال بئر النترون فى الصحراء الكبرى ، ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق نهر النيل ، ومن الغرب منطقة وداى ، ثم اكتمل هذا السلطان الفعلى والرسمى فى عهد عبد الرحمن الرشيد سنة ١٧٧٨ — ١٧٩٩ فقد انتقل إلى عاصمته الفاشر ، واتصل بالسلطان العثمانى واعترف بسيادته ، ومنح لقب الرشيد .

وخلصت السلطنة من أى أثر من آثار العزلة ، واتصلت البلاد بالأوطان

---

(١) محمد عوض ص ١٦٤ .

(٢) نعوم شقير ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٠ .

الإسلامية الأخرى اتصالاً وثيقاً(١) ، وقد امتد نفوذ هذه السلطنة إلى وادى فى عهد محمد الفضل حين هزم السلطان آدم وحمله إلى الفاشر أسيراً ، وولى محمد شريف سلطاناً على وادى(٢) .

وكان من الممكن أن تتوسع إلى آفاق أبعد لولا التوسع المصرى فى القرن التاسع عشر ، وانتزاع كردفان ثم فتح دارفور آخر الأمر سنة ١٨٧٥ ، والقضاء على البقية الباقية من نفوذ هذه السلطنة .

ونحن نريد أن نعرف عن سلاطين دارفور ما عرفناه عن سلاطين الفونج من حيث مساهمتهم فى النشاط الإسلامى فى سودان وادى النيل ، ومدى عمق شعورهم الإسلامى ، وتشجيعهم للثقافة الإسلامية .

وما كادت هذه الدولة تشكل طابعها الإسلامى الخالص حتى بدأ سلاطينها يعملون على ربط بلادهم بالعالم الإسلامى المعاصر فى الناحيتين الثقافية والدينية .

واتصلوا بمصر اتصالا وثيقاً فى الناحية التجارية والثقافية ، وشجعوا طلاب دارفور على الرحيل إلى مصر لطلب العلم حيث أنشىء لهم رواق بالأزهر خاص بهم سمى رواق دارفور . ولا يستبعد أن يكون بعض علماء مصر قد شدوا الرحال إلى الفاشر لمتابعة رسالتهم العلمية ، واتصلوا بالأمصار الإسلامية الأخرى .

ومن آيات حرصهم على هذه الروح الإسلامية اشتراكهم فى إرسال صرة الحرمين(٣) ، فكان موكب المحمل يأتى إلى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيره من خيرات البلاد ، ثم تباع هذه السلع وترسل أثمانها فى صرة إلى الحجاز مع ركب الحجاج المصريين .

واتصلوا كذلك بالسلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين فقد أرسل عبد الرحمن الرشيد إلى الأستانة هدية من العاج والريش ، وتلقى هدية من الخليفة كتاباً يخلع عليه لقب الرشيد (٤) .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية Becker : Darfur,

(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) نعوم شقير ج ٢ ص ١٤١ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢١ .

وكان هؤلاء السلاطين رغم بدوية أخبارهم ينهجون نهجاً إسلامياً واضحاً ، حين يسيرون على سيرة العدل ، ويلتزمون أحكام الكتاب والسنة ، ويتبين هذا الاتجاه من سيرة كثير من السلاطين مثل سليمان الأول أو عمر الثاني فكان من أشد الملوك محافظة على الكتاب والسنة ، ويروى أنه بعد توليته بثلاثة أيام خرج إلى مجلس خاصته وسألهم أن يولوا أحد أعمامه مكانه ، لأن طاقة الملك ثقيلة ، وكان عبد الرحمن الرشيد لا يقل في سيرته عن هؤلاء السلاطين » .

كما عمل هؤلاء السلاطين على تشجيع العلماء وتقديم الهدايا لهم حرصاً على نشر العلم في بلادهم ، ويروى التونسي كيف أن عبد الرحمن سلطان دار فور لما ظهر عدله وحبه للعلماء وأهل الفضل وفد عليه الأشراف والعلماء . « وكان والده أول من وفد عليه ، فلما بلغ الخبر السكان ، اجتمع أكابرهم وطلبوا منه قراءة مختصر خليل ، فقرأ لهم ربع العبادات (١) » .

ثم يذكر التونسي أيضاً أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم إلى دارفور كرم السلطان عبد الرحمن ، ومن هؤلاء الشيخ التمر (٢) والفلاني والشيخ حسين عماري الأزهري ، ومن مكة الشريف مساعد .

طابع الحضارة الإسلامية في هذا العصر :

رأينا كيف أن « دور الازدهار » هذا ينفرد بطابع معين ينعكس على الحضارة الإسلامية ، فهو الدور الذي يتم فيه الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية الوافدة وبين التقاليد المحلية السائدة في جميع النواحي ، في نظم الحكم وفي الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الإسلامية ، وما يصحب هذا من نشأة لون من الحضارة الإسلامية على الطابع ؛ برز في مصر وفي بلاد المغرب وفي غرب السودان (٣) .

وكان على السودان أن يستجيب لهذا التطور بعد أن سادته المؤثرات الإسلامية على نطاق واسع ، وقد رأيناه يشهد ظهور سلطنات إسلامية وإمارات إسلامية كالتي شهدتها الامصار الإسلامية الأخرى .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١١٧ .

(٢) نعوم شقير جـ ٢ ص ٢٢١ .

(٣) Hilelson : The Anglo-Egyptian Sudan, Islam to day, p. 90

تم في بلاد السودان في هذه الفترة الامتزاج الكامل بين التقاليد الإسلامية التي نفذت عن طريق دارفور ، أو وفدت من سنار ، وبين التقاليد المحلية التي سادت أكثر جهات السودان ؛ وبرز طابع محلي في الحضارة الإسلامية ، إسلامي الصورة والبيئة سوداني الطابع والاتجاه ، هذا التطور أكثر وضوحاً فيما عرف من تقاليد ورسوم ونظم حكم عرفتها الفونج أو عرفت بها سلطنة دارفور .

فالفونج لم يهملوا التقاليد الإسلامية ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك وهم مسلمون ، عملوا بالكتاب والسنة ، وسعى هؤلاء الملوك جهدهم لتطبيق الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية وفي الأموال وفي جمع الزكاة والعشور ، وإقامة الحدود الشرعية على الجناة .

فقد كان علماء الفونج يقيمون حد السرقة والقذف وغيرها من الحدود الإسلامية (١) ولكنهم مع هذا انتهجوا في نظم الحكم نهجاً محلياً صرفاً يتميز باللامركزية الصرفة ، حين كانوا يسمحون للأمراء المحليين بالاحتفاظ باستقلال ذاتي كامل .

ولم يكن سلطان سنار يحفظ بأكثر من حق تعيين الأمراء أو فرض الجزية وكانت سيادته إسمية . لاننكر أن المرشحين (للمنجلية) كانوا يحضرون إلى سنار ليختار السلطان أحدهم فيمنحه الككر والطاقية ذات القرنين أو يمنحه سيفاً . ولكن هذا المرشح إذا تم اختياره على هذا النحو مضى إلى إمارته ليمارس سلطاته المحلية الكاملة .

وهذا اللون من نظم الحكم أكثر الألوان موافقة لأحوال السودان وطبيعته في هذه الرحلة من تاريخه . هذه القبائل العربية القوية التي انتشرت هــذا الإنتشار الواسع كيف ترضى بتبعية مطلقة وهي التي لاتفتأ تسعى وراء المرعى والماء ؟ وهذه المشيخات المتنافرة كيف تندمج في حكم مركز قوى في هذه البلاد الفسيحة إلى أبعد الحدود وكيف تستطيع دولة أن تبسط عليها سيادة سنار أو الفاشر أو قرى (٢)؟.

ولم يكن الفونج يستطيعون أن يهملوا التقاليد المحلية التي ورثوها عن علوة والتي وجدوها تسود منطقة سنار والنيل الأزرق مادامت لا تتعارض مع العقيــدة أو تقاليد الإسلام .

---

(١) نعوم شقير ج ٢ ص ٩٨ . (٢) الشاطر بصيلي ص ٧١ .

وكيف يمكن أن يبقى الفونج بمعزل عن التأثر بالبيئات المجاورة . فكلمة مانجل نفسها يرى ماك مايكل أنها من أصل سودانى إن لم تكن قد استعيرت من الهمج ، ثم طريقة التتويج ووسيلتها حين يحضر الأمير إلى سنار فيمنحه السلطان الككر ويلبسه طاقية لها ذؤابتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنها قرنان قيل إنها تقاليد نوبية قديمة شاعت فى الممالك النوبية فى الإقليم الواقع بين أسوان وكوزسكو ، وكان هؤلاء الملوك يلبسون الطاقية ذات القرنين والسوار (١) .

بل أبقى الفونج على تقاليد غريبة أقرب إلى التقاليد الوثنية من أى شىء آخر فى مراسم ولاية الحكم ، يظهر منها مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر ، ونتصور مدى ما أحرزته التقاليد الموروثة من انتصار فى صراعها مع التقاليد العربية الإسلامية .

فالسلطان لا تتم بيعته إلا إذا خضع لمراسم معينة تتم على المراحل الآتية (٢) :

١ — مراحل الاختيار بين المرشحين للعرش من أقرب الناس للحاكم السابق .

٢ — ينتقل إلى ساحة التتويج حيث الأمراء وأكابر الدولة فيلبس الطاقية ويتسلم السيف ويجلس على الككر .

٣ — بعد انتهاء مراسم التتويج يذهب السلطان إلى مكان معين فى انتظار خروج دابة من الأرض يتفاءل بخروجها .

ولا نريد أن نفيض فى هذا الوصف ، ويكفى أن نقول أن زعماء المشيخات المحلية كانت لهم مراسمهم وتقاليدهم فى ولاية الحكم ، ألا يصور لنا هذا كله هذا اللون المحلى من الحضارة الإسلامية ، ويعطينا صورة واضحة عن هذه الدولة الإسلامية التى جمعت بين عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية ، وما صحب هذا الجمع من اختلاط التقاليد ؟؟ (٣) .

والحياة الإسلامية فى دار فور خضعت لنفس هذا التطور واستجابت لمثل هذه المؤثرات .

---

(١) محمد عوض ص ٢١٩ .

(٢) شرحها الشاطر بصيلى مقتبساً من رواية صاحب مخطوطة تاريخ سنار . انظر : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١١١ — ١١٩ .

(٣) المصدر السابق .

فهم من ناحية تمسكوا بالكتاب والسنة وطبقوا الشريعة الإسلامية تطبيقا تاما ، انظر إلى سلطانهم محمد الفضل وهو يخاطب محمد على مشيرا إلى أحكام الدين وأثرها فى نظريات الحكم « أوردت لك دليلا من الله تجد فيه ما يكفيك أم نورد لك بحديث من رسول الله تجد فيه تعاليمه إنا ندين بكتاب الله وسنة رسوله ونؤدى الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والذى لم يصل نأمره بالصلاة والذى لم يزك نأخذ منه الزكاة ، ونضعها فى بيت المال ، ولا ندخرها ونرد الأمانات إلى أهلها ونعطى كل ذى حق حقه (١) » .

وهذا يبن مدى تمسكهم بالتقاليد الإسلامية ، حتى نظام البيعة نفسه كان نظاما إسلاميا فبيعة عبد الرحمن الرشيد حضرها الأعيان ورؤساء الجيش والعلماء وحلف أبناء السلاطين على الكتاب (٢) .

ولكنهم رغم هذا لم يهملوا التقاليد المحلية ، تقاليد الداجو والطنجور وغيرهم وقد جمعت هذه الأحكام العرفية فى كتاب واحد يعرف بقانون دالى يقوم بتنفيذه حكام الأقاليم ، والقاضى الأعظم فى هذا القانون هو كبير الخصيان الملقب بأبى شيخ .

وإليك بعض المبادىء التى تضمنها هذا القانون لتعرف مدى مطابقتها للقوانين الإسلامية .

فهى تنص على وراثة الملك ، وعلى أن قصاص السارق ست بقرات أو ما يعادل ثمنها ، وإذا لم يدفع السارق حبس حتى يفديه أهله . القاتل قصاصه القتل إذا كان عامداً أما غير هذا فيدفع الفدية ومقدارها مائة بقرة إذا كان من البقارة أو مائة بعير إذا كان من الإبالة ، الزانى إذا زنا بمحصنة فعقوبته ست بقرات ، وإذا كانت أيما فبقرة واحدة والبكر بقرة واحدة . وقصاص الضارب إذا أحدث جرحاً ثوب من الدمور وإذا لم يحدث جرحاً فنصف ثوب . أما شارب الخمر فحده ثمانون جلدة (٣) .

وكانت لسلاطين دارفور نظمهم الخاصة فى الحكم : فوالى الإقليم

(١) نعوم شقير ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

يتخذ مقدوماً له وهو يعين بفرمان خاص ، ورجال الحاشية منهم أبو شيخ كبير الخصيان ، وهو يطبق ذلك ومقامه أكبر مقام في السلطنة .

ومن رجال الإدارة المركزية ملك النحاس ، وملك دادات السلطان ، وملك القاشر وملك الجباة ، وملك الحدادين ، ولكل سلطان وكيل رسمي من ذرية السلطان يسمى « الكامنة » (١) .

ويتبين لنا مدى تغلغل تقاليد البربر وتقاليد الملثمين من الدور الممتاز الذى تحتله المرأة فى هذه السلطنة خصوصا نفوذ « الميارم » أخوات السلطان و « الحبوبات » جدات السلاطين .

ولهذه السلطنة تقاليدها فى ملكية الأرض . فالبلاد كلها ملك السلطان وهو يقسمها إلى « حواكير » أو إقطاعات يوزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه بحجج مختومة يعيشون من ريعها . وكذلك قسموا قبائل البادية على أبناء السلاطين تجبى لهم زكاتها (٢) .

وكانت لهم تقاليد خاصة فى جلوس السلطان على الككر فى يده اليمنى صولجان ، وفى يده اليسرى سيف مستقيم . وعلى جنبه الأيسر سيف محدب وفى الدخول عليه حين يخلع الداخل الطاقية والسلاح « ويلقى بنفسه على الأرض » ثم يحبو على الركب ، والأيدى كالسلحفاة ، مما يوحى بتقاليد دارفوزية خالصة (٣) .

وقد أشار نعوم شقير إلى تقاليد غريبة يتبعها السلاطين ورثوها عن أجدادهم من الداجو والطنجور أو غيرهم مثل عادة كسر الضلع ، حين يأخذون ضلعاً من أضلاع الثور ويحكونها حتى تصير قابلة للكسر . ثم يحملها السلطان ويضرب به النحاس فإذا كسر تفاءل (٤) .

لكن هذا الالتقاء بين التقاليد الإسلامية والتاليد المحلية إذا كانت قد وضحت

---

(١) نعوم شقير ـ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ـ ٢ ص ١٣٦ .

(٣) المصدر السابق ـ ٢ ص ١٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٠ .

آثاره فى بعض أوجه نظم الحكم أو الحياة الاجتماعية أو العادات الموروثة ، فإنه لم يظهر فى ميدان الثقافة الإسلامية .

فقد كانت هذه الثقافة عربية خالصة فى جوهرها ومظهرها ، كانت ثقافة حملت إلى أرض سودانية لا تكاد تختلف عما رأينا فى الباب الثالث عند تعرضنا للثقافة العربية فى غرب إفريقية .

وتفسير ذلك واضح فأرض السودان لم تشهد ثقافة قديمة عريقة كالتى شهدتها أرض مصر أو الشام أو العراق ، ثقافة مغلوبة تؤثر فى الثقافة الوافدة الغالبة ، وينشأ من هذا الالتقاء نمط جديد من الثقافة اللغة العربية أداته فى التعبير والثقافات الموروثة أداته فى التفكير ، لم تجد الثقافة العربية الوافدة إلى السودان ثقافة قديمة من النوع الذى أشرنا إليه ، لم تتأثر بأية تقاليد محلية إنما بدت عربية خالصة .

والثقافة الإسلامية فى السودان فى ذلك العهد تأثرت بعاملين بارزين :

أولا : العصر الذى ولدت فيه ، فقد خطت خطواتها الأولى فى القرن الخامس عشر ثم اشتد ساعدها نوعا ما فى القرن السادس عشر ، ثم بدأت تتضح معالمها وتتنوع مظاهرها فى القرن السابع عشر فصاعداً .

ثانياً : موقع السودان الجغرافى بين بيئات إسلامية توطدت فيها الثقافة الإسلامية منذ عهد بعيد ، واتصاله بهذه الأوطان ، بالحجاز أو اليمن أو الحبشة أو غرب إفريقية .

هذان العاملان إذن أثرا فى هذه الثقافة طبعاها بطابع خاص وتحكما فى نموها وتطورها ، أوهما مسئولان عن تفسير ما خفى من معالمها .

دخلت الثقافة الإسلامية إلى السودان فى أصيل النهضة الإسلامية ، كانت مصر قد اكتمل نضجها الثقافى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ثم وقف التيار الفكرى عند الغاية التى إليها انتهى إليها ، ثم خضعت مصر للنفوذ العثمانى فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

وخضوع مصر على هذا النحو أو انتهاء العصر المملوكى الذى أسهم فى رفع شأن الثقافة ، وإيصالها إلى المستوى الذى وصلت إليه أثر فى طابع هذه الثقافة

واتجاهها ، فقد اتجهت إلى العلوم النقلية ، ولا نقول إنها عزفت عن العلوم العقلية فقد كانت تدرس ، ولكنها تدرس آلية صرفة القصد منها حفظ المائل الشائعة واستظهارها دون العمل على استنباط قواعد جديدة .

وكان التأليف فى هذا الميدان يكاد أن يكون نادر الحدوث ، والمشتغلون بهذه الثقافة لم يستخدموا قواهم الإدراكية فى الاجتهاد والتخريج ؛ إنما اتجهوا نحو الاختصار وجمع الفروع الكبيرة فى عبارات ضيقة تشبه الألغاز ؛ وأصحاب تلك الشروح غلبت عليهم الرغبة فى الاختصار أومست الحاجة إلى الشروح والحواشى وحواشى الحواشى .

ولم تكن حالة الثقافة الإسلامية فى مصر بخير منها فى البلاد الإسلامية الأخرى ؛ كانت الثقافة الإسلامية فى المغرب الأقصى تصب فى مجارى مشابهة ؛ وكانت مدارس غرب إفريقية قد تعرضت للاحتلال المركشى . وبدأت تنبكت وجنى يصيبهما الضعف . وكذلك كان شأن العراق والشام والحجاز (١) .

وفى هذا العصر الذى برز فيه السودان الإسلامى فى سماء الحياة الإسلامية العامة كانت المذاهب الصوفية قد سادت وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم ، وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار كثيرون من العلماء يعتقدون أن علم الظاهر لا يتم إلا بعلم الباطن ، بل اعتبر بعضهم هذا العلم الباطن هو الذى لا علم غيره .

كانت الأمم الإسلامية إذن غارقة فى لجة الصوفية بطرقها المختلفة وآدابها ونظمها وتقاليدها وأذكارها وكراماتها ، لم يعد أهل العلم والفقهاء يحتلون المرتبة الأولى من نفوس المسلمين ، إنما هذه المرتبة احتلها رجال الطرق الصوفية الذين ارتفعوا إلى مكان التقديس أحياء وأمواتاً (٢) .

ظهور السودان الإسلامى فى ذلك الوقت ، يكاد يحدد طبيعة الثقافة التى دخلته ، أو التى كانت فى سبيلها إلى الدخول .

وموقع السودان واتصاله الطبيعى بأمم إسلامية مجاورة ، كان يحتم تبادل

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) Trimingham : Islam in the Sudan p. 120.

الثقافة ، كما تبودلت السلع والمتاجر . وكان لكل قطر من هذه الأقطار يحمل إلى السودان حصيلته الثقافية وطابعه ومنهجه الخاص في الدراسة والتفكير .

اتصل السودان بمصر اتصالا وثيقاً أملته الطبيعة ، وأملاه التبادل التجاري بين البلدين .

فقد كانت قوافل السودان تنحدر إلى مصر انحداراً متصلا من سنار ودارفور لتحمل إلى أسواقها سلع السودان ومحاصيله . وكانت مثل هذه تعود بحاصلات مصر وحاملات آسيا وأوربا .

هذه القوافل كانت تصل إلى شندى ثم يصل بعضها إلى سنار وكسلا أو إلى الفاشر وما جاوزها غرباً ، ولا ننسى الطريق الشرقي الذي سلكته التجارات منذ القدم (١) .

بل كانت مصر أوثق الأقطار الإسلامية اتصالا بالسودان فكانت المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية التي بدأت تظهر في هذه البلاد منذ القرن العاشر فصاعدا ، بل نستطيع أن نقول إن مصر هي التي غرست البذور للثقافة الإسلامية الوافدة إلى البلاد (٢) .

هذا الاتصال كانت أهدافه معروفة وطبيعته ووسائله واضحة ، رحلة علماء مصر إلى بلاد السودان وإقامتهم به مشتغلين بالتعليم ، أو رحلة طلبة من السودان والإقامة بمصر وتلقي العلم بالأزهر والتأثر بالاعتبارات الفكرية الإسلامية في القسم الشمالي من الوادي ، ثم العودة إلى السودان لمتابعة الدرس والتحصيل مستعينين بنفس الوسائل ، متجهين إلى نفس الأهداف .

وكتب الطبقات هي أفضل من يصور لنا هذه الرحلات المتبادلة ، ويحدد لنا طبيعة هذه العلاقة ونتائجها ، أول من قدم من مصر على نحو ما تذكر كتب الطبقات رجل اسمه الشيخ محمود العركي ، تعلم في الأزهر على شيخين من أعلام شيوخ المالكية هما شمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين : انطلق هذا الشيخ إلى منطقة النيل الأبيض ، وبنى قصراً يعرف الآن بقصر محمود ، ثم أقام بجزيرة

---

(١) نعوم شقير جـ ٢ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٧٠ .

سنار ، وأنبسرن نحواً من سبع عشرة مدرسة بين الجسانية واليشن ، واشتغل بتعليم الفقه (١) .

ثم اشتد وفود العلماء من مصر فى النصف الثانى من القرن العاشر ، بعد أن توطدت دولة الفونج وبسطت ظلها على السودان ، وظهرت مكانة سنار بين عواصم الإسلام .

وتعدد كتب الطبقات أسماء الوافدين وتعرض لإنتاجهم ، وتتحدث عن أثرهم فى ميدان الثقافة ، فقد حضر الشيخ إبراهيم جابر المعروف « بالبولاد » بعد أن تعلم على الشيخ محمد البنوفرى ، واشتغل بفقه المالكية بتدريسه مختصر خليل .

أقام بديار الشايقية أول الأمر ، وانطلق إلى أرض الفونج متابعاً رسالته (٢) .

هؤلاء قوم تعلموا فى مصر ثم عادوا إليها ولكن فريقاً من علماء مصر الخلص وفدوا على السودان ، منهم الشيخ محمد القناوى المصرى الذى تنقل فى السودان بين سنار وأربجى ، وعاد إلى بربر وبنى مسجداً وعلم الفقه والعقائد والنحو ، وولى القضاء وتتلمذ عليه كثيرون منهم محمد بن عيسى سوار الذهب ، ثم الشيخ محمد ابن على بن قرم الذى استقر بمدينة بربر يعلم فقه الشافعية ، ثم اختلف إلى أربجى وتتلمذ عليه القاضى وشين قاضى أربجى (٣) .

واختلاف طلاب السودان إلى مصر حقيقة ليست فى حاجة إلى توضيح ، ويكفى أن نذكر أنه أنشىء بالأزهر رواق السنارية لطلبة سنار ورواق لطلبة دار فور ، واستمرت هذه العلاقات متصلة غير متقطعة حتى اشتدت بعد الفتح المصرى (٤) .

والأثر المصرى فى ثقافة السودان واضح كل الوضوح ، يتمثل فى الطابع العلمى لهذه الثقافة ، من تدريس الفقه والمنطق والتوحيد ونشر المذهب المالكى والمذهب الشافعى .

---

(١) محمد ضيف الله ص ٤ .
(٢) نفس المرجع ص ٦ : عبد العزيز عبد المجيد ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ .
(٣) طبقات ص ١٥٧ ، انظر نعوم شقير ج ٢ ص ١٧٦ : ١٧٧ .
(٤) الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

واتصل السودان ببلاد الحجاز اتصالا أملته العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، ثم اختلاف السودانيين إلى هذه البلاد المقدسة طلباً للحج والزيارة . كما وفد كثيرون من علماء الحجاز وأقاموا فى السودان .

فقد قدم من الحجاز شيخ من شيوخ الصوفية يسمى تاج الدين البهارى من خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلانى . قدم من الحجاز مع داود بن عبد الجليل أحد التجار الذين كانوا يسافرون إلى الحجاز كثيراً . أقام فى أم شعير يشتغل بالتصوف ويذيع مبادئه بين الناس .

هذه الصلات التجارية الدينية الثقافية لم تنقطع طوال هذا العصر ، بل كان تيارها يشتد بمضى الزمن(١) . واتصال السودان بالحجاز حمل إلى سودان وادى النيل طابع الثقافة الإسلامية فى الحجاز فى هذا العصر ، حمل إلى هذه البلاد مبادىء الصوفية ، والطابع الصوفى للثقافة الإسلامية غذى الحجاز فى الناحية العملية فى الوقت الذى كانت فيه مصر تغذى الناحية العلمية وتنميها(٢) .

ولم تنقطع صلة السودان بالمغرب الإسلامى ، وتحدثت كتب الطبقات عن بعض علماء المغرب الذين رحلوا إلى السودان فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، مثل الشيخ التلمسانى المغربى ، الذى قدم على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب واشتغل بتدريس القرآن وعلم الكلام والتجويد .

بل يمضى ود ضيف الله إلى أبعد من هذا حين يتحدث عن بعض علماء الفونج ويرجع أصلهم إلى المغرب والأندلس . ويضرب لذلك أمثلة بعبد الكافى المغربى وحسن ود حسونه ودفع الله بن مقبل وسعدود شوشاى واللبدى ، وهما صوفيان من المغاربة(٣) .

كما اتصل أهل دارفور بتونس ، وذهب كثير منهم إلى كانو وتنبكت طلباً للعلم(٤) .

هذا الاتصال بالمغرب ترك أثراً فى الثقافة الإسلامية فى السودان ، فقد كان

---

(١) طبقات ص ٤٢ .

(٢) Trimingham : Islam in the Sudan. p. 195.

(٣) طبقات ص ٤٥ : ١١٩ .

(٤) عبد العزيز عبد المجيد ص ٢١ .

المغاربة مالكية لذلك نراهم يسهمون فى تدريس فقه مالك الذى تخصص فيه أهل المغرب وفيه تعددت تواليفهم وغزر إنتاجهم ، كما حمل المغاربة إلى السودان التأثير الصوفى كما حمله أهل الحجاز .

وإذا كانت سنار أو دارفور قد اتصلتا بمراكز العلم فى الإسلام على هذا النحو ، فقد اتصلت مدارس السودان بعضها ببعض بتبادل الأساتذة والطلاب .

فكثرت الرحلة من دنقلة وبربر إلى سنار وأربجى . وكذلك تأثرت دارفور بالحركة العلمية المزدهرة فى سنار(١) . رحل كثيرون من علماء الفونج إلى دارفور ، أقاموا بها واشتغلوا بالحياة العلمية ، كما رحل طلبة دارفور إلى سنار لاستكمال الدراسة وتلقى العلم .

هذا عن العوامل التى أثرت فى طبيعة الحياة الثقافية فى السودان ، وهنالك عوامل أخرى انبعثت من الحياة السودانية نفسها ، كان لها أثر عظيم فى نمو الحركة الفكرية ، والأخذ بين هذه الثقافة النامية ، والعمل على دفعها إلى الأمام .

أهم هذه العوامل قيام السلطنات الإسلامية فى السودان ، ثم تبنى هذه السلطنات للحركة الفكرية الوليدة وتشجيعها بكافة السبل ، ثم مساهمة شعب السودان نفسه فى هذا التشجيع . وإقبالهم على هذه الثقافة إقبالا عظيما .

وإذا كان قد قدر للثقافة الإسلامية فى السودان أن تنمو وتزدهر فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى قيام سلطنات الفونج ودارفور . لأن القبائل البدوية التى انحدرت إلى السودان سعيا وراء المرعى والموطن كانت تمارس نفس الحياة التى مارستها فى بيئاتها القديمة ، ولم تعن كثيرا بالأمور الدينية والثقافية (٢) .

إنما ظهور سنار فى عهد الفونج وتدفق التجارة إليها ، وارتفاع مستواها الاقتصادى ، ثم ما حققه الفونج أنفسهم من سلام وطمأنينة ، هو الذى بعث الثقافة الإسلامية من مراقدها .

فقد كان ملوك الفونج يشجعون العلماء على القدوم إلى سنار والإقامة فيها ،

---

(١) و د ضيف الله ص٤٢ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ح ١ ص ١٥١ .

وكانوا يقدرونهم ويبسطون عليهم ظل الطمأنينة والحماية ويمنحونهم الأعطيات ويعفونهم من الضرائب ، ويسرون لهم أسباب الراحة(١) . هذا إلى بناء المدارس والمساجد ، والإنفاق عليها وتشجيع الطلاب على القدوم إلى سنار ، أو تيسير أسباب السفر لمن يريد منهم الرحيل إلى الأمصار الاسلامية المجاورة .

وكانت المشيخات الداخلة فى نطاق سلطنة الفونج تحذو حذوها ، والشيخ عجيب المانجلك مثلا كان يقطع الإقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين ، ويحببهم فى الإقامة فى قرين بكافة الطرق (٢) .

ولم يكن سلاطين دارفور أقل من الفونج احتراما للعلماء وتشجيعاً للعلم ، إذ تمتع المشتغلون بالفقه بمكانة ممتازة فى حياة دارفور نتبين هذا مما يذكره كل من الرحالة براون الذى زار هذه البلاد فى القرن الثامن عشر . ومما ذكره محمد بن السيد عمر التونسي .

رأى براون ما كان للعلماء من مركز مرموق وضرب مثلا بالفقيه سراج وحظوته عند السلطان عبد الرحمن الرشيد (٣) وذكر التونسى أن الفقية فى دارفور كانت له أعلا منزلة بعد رجال السلطان .

وأشار التونسي لمكانة الفقهاء من نفوس السلاطين ، فقال إن أحد تجار دارفور وشى به عند السلطان عبد الرحمن وكاد يقبض عليه ، ولم يجرؤ أحد على أن يستشفع له عند السلطان إلا السيد عمر التونسي نفسه . هؤلاء العلماء كانوا يمنحون الأعطيات الكبيرة ، والإقطاعات الواسعة . فأدى هذا إلى تشجيع الرحلة إلى الفاشر .

وذكر التونسي أسماء بعض العلماء الذين اجتذبهم إلى دارفور كرم السلطان عبد الرحمن منهم الشيخ التمر والفلانى والشيخ حسين عمارى الأزهرى والشريف مساعد من أهل مكة(٤) .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ص ١١٤ .

نعوم شقير جـ ٢ ص ٧٤ — ٧٦ .

(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٢ .

(٣) Browne : Travels in africa, Egypt and Syria. p. 240.

(٤) التونسي : تشحيذ الأذهان ٥٥ — ٥٦ .

ولم يكن هذا التشجيع وقفاً على السلاطين إنما شارك فيه الشعب . فقد كان سكان المحلة التي بها مسجد أو خلوة يستضيفون الطلبة الغرباء في بيوتهم كأبنائهم أو ذوو قرباهم .

ويشير بركهارت إلى هذه العادة بقوله . « كلما أرسلت(١) الجهات المجاورة لقبيلة الشايقية صبيانها ليتعلموا في خلواتها ومساجدها قام كبراء الفقهاء بتوزيع هؤلاء الصبيان بين الإخوان والأصدقاء ليقيموا في بيوتهم ، طاعمين كاسين ويبقوا معهم كما يشاءون » . ويقول في موضع آخر : « إن كثيراً من أولاد السكوت والحبش يرسلون إلى مدارس عرب الشايقيــة حيث يقيمون عشر سنوات أو أكثر يعلمهم فقهاء القبيلة (١) .

وكانت لهذه الحياة الثقافية مراكز في السودان ينبعث منها هذا الإشعاع الثقافي :

من أقدم هذه المراكز مدينة دنقلة ، التي دخلها الإسلام في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، وارتفعت مكانتها بعد سقوط علوة وقيام سلطنة الفونج ، وانتشرت بها المساجد والمدارس .

وقد رأينا غلام الله اليمني يفد إليها في القرن الرابع عشر ، وينشيء فيها مدارس لتعليم القرآن والفقه والحديث ثم انتشرت هذه المراكز في المنطقة الممتدة من دنقلة في الشمال إلى أربجي في الجنوب(٢) .

وظهرت ديار الشايقية وانتشرت في القرن الثامن عشر ، وقد ذكر الرحالة بركهارت أنه وجد بها الكثير من المدارس والمساجد التي تدرس فيها علوم الدين الإسلامي ، وكذلك مدينة كورتي وبربر .

على أن أعظم هذه المراكز في هذه المنطقة الشمالية وأوسعها نفوذاً أو أبعدها أثراً مدينة الدامر مركز الجعليين وكعبتهم الثقافية .

وقد زارها بركهارت وتحدث عنها طويلا ، مشيراً إلى مكانتها العليا وتقديس الناس لفقهائها وانتشار نفوذهم في جميع أرجاء السودان . وصف مسجدها وتحدث

---

(١) Travels in Nubia. pp. 70-7

(٢) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٨٤ .

عن أهميته العلمية ، فقال : وفى الدامر مسجد كبير حسن البناء له عقود من القوالب وأرضه مغطاة بالرمل النظيف ، ويلجأ إليه أبناء السبيل والغرباء ؛ ولهذا المسجد صحن يحيط به عدد من خلوات التعلم . كما أن للفقهاء مساجد صغيرة قرب منازلهم(١) .

وتحدث عن الحركة العلمية المزدهرة ، عن المدارس الكثيرة وعن الطلاب الوافدين من دارفور وسنار وكردفان ، وعن الكتب الكثيرة فى علوم الدين التى اشتريت من القاهرة ، وعن معاهد العلم التى تعلم التجويد والتفسير والتوحيد ، والفقهاء لهم مكانة سامية فى نفوس أهل السودان كلهم ترقى إلى مرتبة التقديس تنسب إليهم الخوارق والمعجزات ، وتنسب إليهم الأعاجيب ، يخافهم أهل السودان كلهم حتى البشاريين لا يجرؤون على إيذاء أحد من فقهاء الدامر .

وذكر بركهارت أنه سافر من الدامر إلى شندى يوم ١٥ إبريل سنة ١٨١٤ ، وكان فى قافلته فقيهان ليحرسا القافلة ، وكان وجودهم كافياً لأن يبعث فى قلوب الناس الهيبة حتى أنهم كانوا يفدون إليهم لتقبيل أيديهم(٢) .

وسنار أعظم المراكز الثقافية فى ديار الفونج كانت مركزاً تجاريا قبل كل شىء عرفت بغناها الوافر وتجارتها الرابحة ، وكان التجار يجلبون إليها البضائع من مصر والحجاز عن طريق النيل والبحر الأحمر .

وكان يجلب إليها من كردفان التبر والحديد والرقيق ، ومن فازوغلى الذهب والجلود ، وجلبت إليها تجارة الحبشة ، وأصبحت مركزاً علمياً تتطلع إليه جميع المناطق السودانية شرقاً وغرباً ، وطبقات ودضيف الله حافلة بأنباء العلماء الراحلين إليها أو الصادرين عنها .

ثم أصبحت الفاشر بعد إنشائها من المراكز الثقافية الهامة فى غرب السودان وإن كانت أقل شأناً من سنار .

وقد لاحظ التونسى انخفاض المستوى العلمى فى هذه المدينة ، فقراءة القرآن متأخرة نوعا ما . وكذلك شأن العلوم الأخرى أكثر قراءتهم للفقه والتوحيد ،

---

(١) Burkhardt : p. 70.

(٢) Burkhardt : p. 276, 266, 268.

والعلوم العقلية قليلة جداً ، والقليل من النحو والمعاني والبيان والبديع والمنطق والعروض(١) .

أما معاهد التعليم فى السودان فى ذلك العصر فقد عددها ود ضيف الله على هذا النحو : المسجد — المدرسة — الخلوة — المكتب .

وكانت المساجد معاهد للعلم انتشرت فى جميع أرجاء السودان ، والخلوة لتعلم القرآن وهى منتشرة فى جميع قرى السودان . وقد استعمل ود ضيف الله كلمة مدوسة ، وأراد بها مكان اجتماع الطلبة فى المسجد لتلقى العلم(٢) .

وبرامج التعليم تتضح صورتها من كتب الطبقات كما اتضحت معاهد التعليم ، كان التعليم يبدأ أولا بحفظ القرآن ولم تكن هناك مصاحف مخطوطة كان المدرس يملى من الذاكرة والدروس تكتب ثم تحفظ لوحاً فلوحاً(٣) .

وكان الفقه المادة التى تلى القرآن فى الأهمية : ثم يلى علم الفقه علم الفرائض وعلم الكلام أو علم التوحيد أو علم العقائد(٤) .

أما التصوف فقد كان شائعاً علماً وعملا . وكان معظم العلماء صوفية وللصوفية أدب خاص وأوراد وأذكار تحفظ وتردد ، من أجل ذلك كانت دروس الصوفية تعلم وتلقن مع العلوم الأخرى فى المساجد والخلاوى (٥) .

فقد انتشرت الطرق الصوفية فى السودان كله فى ذلك العهد ، عملت هذه الطرق على التقريب بين القبائل والأجناس ، إذ دخل النـاس فى مختلف أنحاء السودان إلى الربط والزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى العلم عنهم .

ولعل هذا الانتشار الواسع يعزى إلى الفونج الذين شجعوا رجال التصوف وأعانوهم ، ونالوا من رعايتهم الشيء الكثير .

وقد انتشرت القادرية التى أسسها عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر ،

---

(١) تشحيذ الأذهان ص ١٠٧ ، نعوم شقير ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٤٦ ، ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ص ٩٤ — ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٤٣ .

والتي دخلت إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر ، ثم دخلت السودان سنة ١٥٤٠ .

ثم الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (١١٩٦–١٢٥٨) ، التي انتشرت في مراكش في القرن الخامس عشر ثم رسخت في السودان في هذا العصر على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المحسي المتوفى سنة ١٧٤٣ .

وأصبحت الصوفية في ذلك العصر تمتاز بظاهرتين : قلة الخصومة التقليدية بين الفقهاء والصوفية لضعف سلطان الفقهاء ثم الاتجاه إلى الجانب العملي من التصوف .

وإذا كانت الصوفية في ذلك الوقت قد انحدرت إلى مستوى الخرافة والشعوذة فذلك لقلة حظ السودان من المدارس الثقافية الراقية أو الطبقة الواعية من الفقهاء الذين في مكنتهم أن يحاربوا الخرافة ، وأن يجنبوا الإسلام في السودان ماوقع فيه فقد أصبح الصوفي يلعب دوراً شبيهاً بدور الساحر في المجتمع الوثني القديم (١) .

هذا ولم تهمل دراسة المواد الأخرى ، كالتفسير والحديث والنحو والمنطق والأصول ومصطلح الحديث وعلوم اللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض .

٣ — سودان وادي النيل في القرن التاسع عشر

أظل القرن التاسع عشر سودان وادي النيل وأحواله لا تكاد تختلف عن أحوال الأمصار الإسلامية الأخرى ؛ وكأن الأقدار قد شاءت بأن يخضع الوطن الإسلامي كله في مطلع هذا القرن لأحداث متشابهة ، وأن ينفعل انفعالا متشابهاً وأن يستجيب لمؤثرات متشابهة .

في مستهل هذا القرن ظهرت بعثرته السياسية واضحة جلية ، فالأمارات والسلطنات التي ظهرت على مسرح الأحداث لم تستطع واحدة منها أن تظهر وأن تقوى وأن تلم الشمل وتحقق للبلاد وحدة سياسية كاملة .

بسط الفونج نفوذهم شمالا حتى الشلال الثالث ، غير أن سلطانهم الحقيقي لم يتجاوز مدينة أربجي . كان سلطانهم شمال هذه المدينة سلطاناً اسمياً ليس غير ،

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١٤٤ .

Hilleson : The Angl-Egyptian Sudan; Islam to-day, p. 101.

حاولوا بأن ينتزعوا كردفان ، وأن ينازعوا دارفور ، ولكنهم لم يستطيعوا إتمام وحدة السودان ، بل لعلهم لم يفكروا فيها .

وكذلك كان شأن دارفور شيطرت على كردفان ، وقاتلت ضد الفونج زمنا ولكنها لم تستطع تحقيق هذه الوحدة ، وانتقل السودان إلى القرن التاسع عشر وقد زاد فرقة على فرقة .

ولم تستطع هذه السلطات أن تمسك برمقها بل تهاوت نحو الضعف الواحدة فى إثر الأخرى ، اضمحل سلطان الفونج وتفرق شمل ملكهم .

قد استطاعت سلطنة الفونج على إثر تحالفها مع العرب أن تفيد من التجارة وأن تستغلها ، وأن تشاطر الإمارات العربية الأخرى هذه الأرباح الطائلة ، ومن أجل تحقيق هذا الكسب حالفت العرب ، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، واتصلت بمصر وأنشأت بالبلاد ثلاثة مراكز جمركية هامة فى دنقلة وفى قرى وفى تشلجة .

وكان الملوك يحصلون المكوس من القوافل ، فيستولون على نصيب منها ، ويبعثون بالباقى إلى خزانة السلطان فى سنار (١) ، وكان احتفاظ هذه السلطنة بقوتها ونفوذها متوقفاً على هذه التجارة ومدى الإفادة منها .

لكن الأحداث فى القرن السابع عشر تمخضت عن تطورات لم تكن فى الحسبان . فقد اشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة ، واكتشف طريق الرأس وتحولت مسالك التجارة وسيطر العثمانيون على أسواق مصر ، ونزل الأوربيون فى غرب إفريقية ، فأنشأوا بها المراكز التجارية ، وأخذوا يتوسعون منها إلى قلب القارة ، وكان لا بد أن تصيب هذه الأحداث تجارة السودان ، وأن تقلل من شأنها .

وكانت الإفادة من هذه التجارة أيضاً تتوقف على مدى كبح جماح القبائل العربية وإجبارها على الطاعة فلا تعترض القوافل ولا تقطع طريق التجارة وكان الاحتفاظ بنفوذ الفونج يتطلب المال الوفير وقد قل هذا الأمل .

---

(١) الشاطر بصيلى ص ٦٦ – ٢٧١ ، ١١٩ .

فكان من الطبيعي أن يضعف هذا النفوذ ثم يتهاوى ، واستطاعت القبائل أن تسترد سلطانها وأن تغير على القوافل ، وراح البشاريون يغيرون على هذه القوافل ويفتكون بالمسافرين ، فاضطربت أحوال السلطنة الإقتصادية ، وقل كسبها وتناقصت مواردها .

ومما زاد الحالة الاقتصادية سوءاً نظام الجباية الإقطاعي فقد كان زعيم كل قبيلة يجمع العشور والضرائب ، يدفع جزءاً منها لزعيم القرية ويقوم هذا بدفع نصيب لخزانة السلطان .

وكان طبيعياً أن تتسرب إلى هذا النظام مساوئ تخرج به عن حدوده المعقولة وأن يضاعف العمال الجباية ، وأن يبتلعوا أغلبها وأن يزيدوا من الالتزامات المفروضة على القبائل والعشائر (١) .

ثم امتدت يد الاضطرابات إلى السلطنة نفسها فتغلب الهمج على سياسة الدولة يوجهونها كيف يشاءون ، فقد استطاع محمد أبو كتمور أن يهزم الأحباش ، وأن يرد هزيمة الفونج فى كردفان إلى نصر ، فلما عاد إلى سنار عزل الملك بادى الرابع واحتكر السيادة وتوارثها بنوه حتى زمن الفتح المصرى .

هذا بالإضافة إلى عيوب أخرى نابعـــة من نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات والأمهات ، فشغل الفونج بأمورهم الداخلية عن الأحداث الكبرى التى كانت تجرى فى السودان (٢) .

وكان معنى هذه التطورات الاقتصادية وهذا الضعف الذى أصاب نظام السلطنة فى الصميم أن تتفكك هذه الامبراطورية ، وأن يستقل الملوك الواحد فى إثر الآخر . استقل العبد اللاب منذ سنة ١٧٧٠ ، ولم تنقطع المناوشات بينهم وبين الفونج وكان آخرها حرب عام ١٨٠١ ، وما كان من هزيمة الشيخ عبد الله بن عجيب ، حتى العبد اللاب تضاءل نفوذهم حين استقل الشايقية فى هذا العصر .

وانتهت سيادة الفونج الإسمية على تقلى ، فقد استغل أميرها اسماعيل بن محمد فرصة الضعف الذى أصاب سلطنة سنار وأعلن استقلاله(٣) .

---

(١) الشاطر بصيلى ص ٩٦ . (٢) نعوم شقير جـ ٢ ص ٨١ .

(٣) نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى ص ٤٤ .

ولم تكن أحوال دارفور خيراً من أحوال سنار ولم تستطع الاحتفاظ بكردفان أو تحمي ظهرها من ناحية الغرب .

والقبائل العربية لم يكن من المعقول أن يوحدها وطن مشترك أو لغة مشتركة أو دين مشترك ، ولم يعصمها سلطان الفونج ، فعاودت حياتها البدوية التقليدية من النقلة والبغضاء .

واشتعلت الحرب بين أحياء العرب ، بين البطاحين والشكرية سنة ١٨٠٣ ، أو بين السغداب والجمعيات سنة ١٨١٢ (١) . وكانت هذه العداوات تزداد عمقاً وعنفاً كلما ضعفت سلطنة سنار وبدت عاجزة عن أن تؤكد نفوذها وسلطانها .

وشهد السودان في ذلك العصر ميلاد طراز آخر من الزعامة كان خليقاً بأن يوحد السودان وأن يلم الشمل . فقد ظهرت الزعامة الدينيــة ، زعامات الفقهاء والصوفية ، وكان من الممكن أن تعيد إلى المجتمع توازنه ، وأن توفر للوطن استقراره وأن تحفظ التوازن بين المشايخ والسلاطين .

لكن تفرقت الزعامات الدينية كما تفرقت الزعامات السياسية ، وعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء ، بل عملوا على إشاعة روح التعصب والتنافس ، فلا عجب إذا كان أحد الأجانب الوافدين على السودان في ذلك القرن قد رأى الحياة الإسلامية تسودها العاطفة والخرافة ، تنسب الناس إلى الفقهاء الخوارق ويقدسونهم أكثر مما يقدسون الرسول ، في الوقت الذي انحدر فيه مستواهم العلمي فلم يستطيعوا أن يميزوا بين الخرافة والإيمان (٢) .

وقد تعرض السودان لنفس الأخطار التي تعرض لها العالم الإسلامي المعاصر : فقد خضعت بعض بلاده للنفوذ العثماني ، فقد امتد النفوذ العثماني إلى بلاد النوبة بعد فتح مصر : إما حماية لحدود مصر الجنوبية أو استغلالا للنزاع بين الجوابرة وغيرهم من أحياء العرب .

فقد أرسل السلطان العثماني سنة ١٥٢٠ سرية من عساكر البوسنة بقيادة حسن قوسي طردت الجوابرة وبسطت النفوذ العثماني .

---

(١) نعوم شقير جـ ٢ ص ٩٠ .

(٢) Hilleson : Anglo Egyptian Sudan, pp. 101-102.

ومما يدل على أن العثمانيين كانوا يرابطون لحماية حدود مصر باحتلال لجزء من بلاد النوبة ، أن هذه الحملة لم تعد إلى مصر بعد طرد الجوابرة وإنما أقامت في البلاد ومنحهم السلطان سليم هم وذريتهم من بعدهم امتيازات عدة ، منها إعفاؤهم من الضرائب وفرض الأعطيات لهم ، ولما مات حسين قوبس تولت ذريته الحكم من بعده متخذين الدر عاصمة لهم . وبقيت السلطة يتقاسمها ثلاثة من هؤلاء الكشاف حتى الفتح المصري (١) .

بل توغل المماليك (٢) في بلاد النوبة بعد أن فر بعضهم من مذبحة القلعة سنة ١٨١١ ، هاجروا إليها وحاولوا السيطرة على دنقلة والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة .

فقد حاولوا الدخول إلى كردفان وبلاد الفور حيث رحل محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك ، وحاول المماليك في مهجرهم الاتصال بالوهابيين في جزيرة العرب عن طريق مندوبهم حسين جوهر الكاشف .

بل وضحت أهمية السودان في نظر المستعمرين ، وبدأوا يطمعون فيه ويتطلعون إليه ، ذلك أن الإنجليز بعد احتلال الفرنسيين لمصر قد مدوا أطماعهم إلى شرق إفريقية ، واهتموا بها بعد خروج الفرنسيين من مصر .

وضح هذا الاهتمام بعد رحلة هنري صولت في صحبة اللورد فلنسيا عام ١٨٠٥ — ١٨٠٦ ، ورحلته الثانية سنة ١٨٠٩ — ١٨١٠ ، قام بالرحلة الأولى لمفاوضة الحبشة حتى توافق على منح بريطانيا قاعدة بحرية في أرض الدناقل يمكن استخدامها لغزو مصر إذا قامت قوات فرنسية باغلاق البحر الأبيض أو احتلال مصر مرة أخرى ، أو إذا وقعت مصر في يد دولة قوية تخشى انجلترا منافستها (٣) .

وكان على السودان أن ينتفض كما انتفضت الأقطار الإسلامية الأخرى حينما سعت إلى الاصلاح واتجهت إليه .

---

(١) نعوم شقير ح ٢ ص ١٠٨ ـ ١١٠

(٢) انظر Bobinson : The Mamlukes in the Sudan S.N.R. vol. V, pp. 88-94.

(٣) الشاطر بصيلي ص ١٢٦

ولم يكن أمام السودان إلا أحد طريقين : أن تجيء الانطلاقة منبعثة من السودانيين أنفسهم ، أو تحمل إليهم مبادئ الإصلاح قوة أخرى ترتبط بهم بروابط جغرافية وثيقة . ولم يكن السودان مهيئاً لأن تنبعث من صميمه الرغبة في الإصلاح ، فلم يبق إلا الحل الثاني الذي حققه الفتح المصري .

فقد بدأت جيوش محمد علي بغزو بلاد النوبة ، واستطاعت في آخر سنة ١٨٢٠ أن تقضي على نفوذ الكشاف وعلى الإمارات والمشيخات التي قامت في البلاد ، إما مستقلة بأمورها أو خاضعة للفونج . وفي ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ هزمت قوات محمد علي الشايقية ، وكانوا عقبة في سبيل الزحف المصري المنطلق صوب الجنوب .

واستطاع المصريون أن يتموا فتح بلاد النوبة ، وأن يخضعوا هذه البلاد للنفوذ المصري المباشر ، وكان دخولهم بربر سنة ١٨٢١ تأكيداً لفتح بلاد النوبة .

ولأول مرة في تاريخ العلاقات بين مصر والسودان يتجاوز النفوذ المصري حدود بلاد النوبة . فقد غزا محمد علي الفونج في معاقلهم عن طريق الحملة التي أعدها لفتح سنار . وقد استطاعت هذه الحملة أن تضع حداً لسلطنة الفونج ففتحت سنار في ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ .

بل بدا أن المصريين يريدون مجاوزة سنار في طريقهم نحو الجنوب ، ثم توقف الزحف عند فازوغلي في يناير سنة ١٨٢٢ .

ولم يهمل محمد علي غرب السودان ، إذ دخل جيش الدفتردار كردفان سنة ١٨٢١ ، وبدأ يصطدم بسلطنة دارفور ، وامتد نفوذ محمد علي إلى شرق السودان ، وخضعت هذه البلاد لحكمه المباشر منذ إتمام الفتح سنة ١٨٢٥ .

ولا نريد أن نخوض أكثر من هذا في أحداث الفتح ، أو أن نعرض عرضاً مفصلاً لتاريخ السودان في هذه الفترة المليئة بالأحداث ، الحافلة بالتطورات .

إنما الأمر الذي نريد أن نوضحه هو كيف كان هذا الفتح امتداداً لحركة التجديد التي بدأت منذ ظهور محمد علي ، وإلى أي حد أثرت هذه الحركة الإصلاحية التي شهدها شمال الوادي في مطلع القرن التاسع عشر في الثقافة العربية الموروثة ، ومقدار

ما وصلت إليه هذه الآثار من ضحالة أو عمق ، ومدى تأثرها بالأحداث التى تعرضت لها مصر منذ ذلك الوقت حتى وقوعها فى قبضة الاحتلال ، ومدى مساهمة النفوذ المصرى فى انتشار الإسلام والثقافة العربية ، ومدى إسهامه فى تهيئة السودان للدوره المرسوم فى تاريخ الإسلام فى القرن التاسع عشر والعشرين .

وقد عرضنا فى الباب الثانى لأهداف الحركة الإصلاحية ومراميها ورأينا كيف عملت على الإفادة من تجارب الغرب فيما لا يتعارض مع تقاليد الإسلام ووجه لتحقيق هدفين : القضاء على أنظمة العصور الوسطى ومخلفاتها بإصلاح النظم الإدارية ، والاقتصادية ، وخلق أداة صالحة للحكم تستطيع أن تكون أمينة على حركة الإصلاح توجهها الوجهة التى يريدها المصلحون ، مع الإفادة من التجارب العلمية والادارية التى أحرزها الغرب بعد أن نهض نهضته المعروفة ، ثم خدمة أهداف هذا الإصلاح بإدخال التعليم الحديث على غرار المألوف من نظام الغرب وتقاليدها ، مع عدم المساس بميراث القرون الماضية فى التعليم الإسلامى المعروف . وتدعيم ذلك كله بالاقتباس من نظم الغرب لإنشاء قوة عسكرية تحقق أطماع صاحب هذه الأفكار وتحمى تجاربه فى الإصلاح ونظريته فى إيجاد الدولة الصالحة على النحو الذى يريده . ويهمنا أن نعرف إلى أى حد امتدت هذه الآراء إلى السودان بعد ارتباطه بمصر . وما تركته من آثار فى حياته الإسلامية .

لم تعمد حكومة مصر بعد فتح السودان مباشرة إلى إنشاء المدارس على النحو الحديث الذى شهدته مصر ، إذ يبدو أنها كانت تؤثر أن تبعث من أبناء السودان من ترى أن الحاجة تتطلب إرسالهم إلى مدارس مصر لتلقى هذه التجربة الحديثة فى التعليم .

وضح هذا فى عهد محمد على نفسه ، فقد اختير ستة من أبناء السودان ألحقوا بمدرسة قصر العينى التجهيزية ، التى تؤهل الطلاب لتلقى التعليم فى المدارس المخصوصة .

وفرض عليهم بعد إتمامهم هذه المرحلة أن يلتحقوا بمدرسة الزراعة ، التى نقلت من نبروه سنة ١٨٣٩ (١) يستدل على هذا مما ذكره رفاعة الطهطاوى(٢) ، من

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ . (٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

أن هؤلاء المبعوثين نقلوا إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ليتذوقوا طعم المعارف المدنية لينشروها في بلادهم، وقد شاهدت بعضهم مستخدماً بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ؟؟

وكان هذا إذن أول عهد سودان وادي النيل بهذا النسق الجديد من التعليم الذي شهدته مصر في القرن التاسع عشر.

ولا بد أن عدد المبعوثين لتلقي هذه الدراسات كان يتزايد بمضي الوقت إذ يبدو من الوثائق ومن مراسلات ديوان المدارس ، أن مدرسة المبتديان كان بها نحواً من مائة طالب سنة ١٨٢٥ ، وأن الحكومة في ذلك الوقت كانت ترمى إلى أن يمتزج المصريون بالسودانيين في ثقافة موحدة تخدم أهدافها ومشروعاتها .

ومضت هذه السياسة خطوة أبعد من هذا ، فالحكمدار ممتاز باشا يقترح إرسال مائة من طلاب مدرسة الخرطوم لإتمام تعليمهم في مصر في مدارس العمليات الميكانيكية والزراعية حتى إذا عادوا للسودان استخدموا في إدارة آلات حلج القطن وكبسه (١) .

ثم رأت الدولة أن تنقل تجربة التعليم الحديث إلى ميدان السودان نفسه ، بدأت هذه المحاولة في عهد عباس الأول حين قرر إنشاء مدرسة تجهيزية في الخرطوم في ٦ رجب سنة ١٢٦١ هـ لتعليم مائتين وخمسين من الطلاب على أن يتولى رفاعة الطهطاوي إدارتها والإشراف عليها .

ويختار هؤلاء الطلاب من أولاد المشايخ والأهلين بدنقلة والخرطوم وسنار والتاكة ، ومن أولاد الأتراك الذين استوطنوا السودان .

وافتتحت مدرسة الخرطوم في شوال سنة ١٢٦٩هـ ، ورغم أنها بدأت متواضعة ولم تستمر الدراسة فيها أكثر من سنة واحدة ، ورغم موتها بموت عباس ، الا أنها تجربة لا تخلو من دلالة تاريخية ، فهي أول محاولة تشهدها أرض السودان لإدخال التعليم المدني الحديث (٢) .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ـ ٢ ص ٧٨ ـ ٩٧ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ـ ٢ ص ٣٦ .

ثم امتد أفق هذه التجربة في عهد إسماعيل ، وفي ولاية موسى حمدي باشا فقد كانت حكومة السودان في حاجة إلى طائفة مدربة من أبناء السودان لاستخدامهم في وظائف الحكومة ، ليتعلموا فن الكتابة والحسابات والتحريرات .

وقد أنشئت خمس مدارس من هذا النوع في مديريات الخرطوم ودنقلة والتاكه ، ألحق بكل منها مائة تلميذ ، وضحت أهداف الحكومة حين قال أمر ، « وحيث أن تأسيس خمس مدارس في المديريات المذكورة لنشر العرفان والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة ، بناء عليه بادروا إلى إجراء إيجابه واسعوا في تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه » .

ويتبين من طريقة تعيين المدرسين ، وتنفيذ البرامج الدراسية وتقرير الكتب اللازمة أن هذه المدارس كانت تحت الإشراف الفني لديوان المدارس وأنها كانت تعامل معاملة المدارس المصرية ، من حيث البرامج وخطط التدريس والاجازات والامتحانات .

وتظهر وثائق سنة ١٢٢٨ هـ نجاح التجربة وإقدام الحكومة على إلحاق بعض الخريجين بمدارس التلغراف ومدارس الهندسة ، أو إلحاقهم بخدمة الحكومة ، بل اختير فريق منهم لتعلم هندسة البواخر وآخرون لتعلم الطب والصيدلة ، وأرسل كثيرون منهم إلى مدارس مصر الفنية للاستزادة من الخبرة الفنية المطلوبة .

والوقائع المصرية تكشف لنا في وضوح عن خبايا هذه النهضة التعليمية فقد جرت العادة منذ العقد السابع من القرن التاسع عشر أن تنشر هذه الجريدة إحصائية للمدارس والمكاتب الأهلية كما ترد من « ديوان المدارس » وقد أشارت إلى مدرسة كردفان وتلامذتها السبعة والعشرين وذكرت أن طلبة السودان يتعلمون اللغات الأوربية : الفرنسية والإنجليزية والألمانية والطليانية بحسب رغبة كل متعلم .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ٢ ص ٧٣ .

وتذيع الوقائع نتيجة مدرسة الخرطوم فتذكر أنه تقدم سنة وعشرون طالباً نجح خمسة عشر طالباً بدرجة أعلى وعشرة بدرجة عال وواحد بدرجة وسط (١)، وهنالك تفاصيل كثيرة عن الامتحانات ونظمها وكيفية عقدها، وهى تدل على اتساع هذه النهضة العلمية الحديثة بالقدر الذى سمحت به ظروف مصر وميزانيتها.

وأجمع الدارسون لهذه الحركة العلمية الحديثة على نجاح هذه المدارس فى نشر الوعى الحديث وأنها حققت الغرض منها، وقد أضيفت إلى هذه المدارس مدرستان: واحدة فى مصوع والثانية فى سواكن.

ولم يتوقف هذا اللون من التعلم الحديث فى السودان واستمر إلحاق الخريجين بوظائف الحكومة، واستمرت المدارس مفتحة الأبواب يزيد عددها سنة بعد سنة، بالرغم من اضطراب أحوال مصر المالية وفرض الرقابة الأجنبية على الإيرادات والمصروفات.

بل أنشئت مدرسة للطب فى عهد توفيق، وظلت مدارس السودان تؤدى وظيفتها، ظلت مدرسة الخرطوم حتى سنة ١٨٨١، وكذلك مدرسة بربر واستمرت مدرسة كردفان حتى حصار الأبيض، ثم أغلقت هذه المدارس أثناء حركة المهدى التى قامت بالسودان (٢).

ولم تكن هذه التجربة الإصلاحية قاصرة على شمال السودان، إنما امتدت إلى مديرية خط الاستواء، فقد وضع أولو الأمر فى مصر سنة ١٨٦٤ لائحة للإصلاح تشتمل على مقدمة وثمانية عشر بنداً وخاتمة، وتعتبر دستوراً لما يجب أن تسير عليه الحكومة فى المنطقة الجديدة.

وهى تهدف إلى تعليم أهل الجنوب الصناعات الحديثة وتشويقهم إلى التعليم ومحاولة نشر اللغة العربية، وإرسال المعلمين إلى المحطات التى أنشئت هناك لتعليم الأطفال القراءة والكتابة (٣).

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ج ٢ ص ٨٥.   (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٤.
(٣) عبد العزيز عبد المجيد ج ٢ ص ٨٧.

بل أرادت مصر أن تأخذ بيد الرقيق المحررين لترفع من روحهم المعنوية ، وتشعرهم بإنسانيتهم ، وقد أدخلت أطفال هؤلاء الرقية فى المدارس المصرية ، وأنشأ محافظ بنك السودان وسواحل البحر الأحمر مدرسة لمن حرروا من العبيد فى سواكن ، ويبدو أن مدرسة أخرى أنشئت فى سنار (١) .

ولم تقف محاولة الإصلاح عند إدخال المنهج الحديث فى التعليم فى السودان ، بل امتدت يد الإصلاح إلى انعاش اقتصاديات البلاد بقدر ما تسمح به الطاقة ، وإخراجها من اقتصاديات العصور الوسطى القائمة على الرعى والاستغلال البدائى لثروات البلاد ، وتطوير الزراعة البدائية ؛ والقضاء على النظام التجارى العتيق ، القائم على المقايضة بإدخال النقد الحديث .

وقد عنيت الهيئات القائمة على الإصلاح بالزراعة عن طريق تطبيق نفس الأسس التى طبقت فى مصر ؛ من حيث توسيع الرقعة الزراعية وإدخال محصولات اقتصادية جديدة .

وضحت هذه الرغبة منذ عهد محمد على بإيفاد المبعوثين لتعلم وسائل الزراعة الحديثة ، فأصلحت مساحات واسعة من الأرض كانت مهجورة ، وانتظمت الأحوال الاقتصادية ، وأنشئت مصانع فى الخندق والمتمة والكاملين وغيرها (٢) ، وأدخلت زراعة القطن فى دلتا خور بركة ، وفى حوض القاش ونهر العطبرة ، وأصلحت أراضى دنقلة (٣) .

واستخدمت وسائل منظمة للنقل ؛ وأنشئت الخطوط الحديدية ، ودبت الحياة فى المدن والقرى ، وامتدت سياسة التعمير والإنشاء إلى مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين الذين أرسلوا من مصر للمساهمة فى تقدم البلاد واستغلال مواردها الطبيعية .

وامتدت محاولة الإصلاح إلى النواحى الإدارية بإدماج المشيخات والإمارات فى سلطنة مركزية واحدة ؛ ثم جرت محاولة للملاءمة بين أوضاع البلاد والنظم الإدارية فى عهد سعيد ؛ ومحاولة لتخفيض الضرائب ؛ وشهد هذا العهد طائفة من الولاة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٢) الشاطر بصيلى ١٤٢ .
(٣) نفس المرجع ص ١٩٧ .

الصالحين عملوا بقدر الطاقة على رعاية هذه الحركة الإصلاحية ودفعها إلى الأمام بقدر ما تيسر لهم من جهد أو مال (١) .

لكن هذه التجربة فى التجديد والإصلاح التى شهدتها مصر فى القرن التاسع عشر لم تمتد إلى السودان على نطاق واسع ، ولم تستطع فى السنوات الست والخمسين أن تحقق إلا قدراً محدوداً من النجاح .

فالإصلاحات التى شهدتها مصر فى عهد محمد على لم تمتد إلى السودان على نطاق واسع ؛ لم تنشأ مدارس على النسق الذى رأته مصر ؛ واكتفى بهذا العدد اليسير من المبعوثين .

وكان التوسع فى التعليم بعد محمد على وئيداً لا يتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليه الحركة الإصلاحية من الانطلاق وسعة الأفق . فلم تنشأ إلا مدرسة واحدة فى عهد عباس تعثرت ثم أغلقت ؛ وفى عهد إسماعيل لم تنشأ إلا سبع مدارس فى هذه الرقعة الفسيحة الواسعة من أرض السودان .

حتى هذا القدر الضئيل من التعليم كان موجهـــاً ؛ أريد به إمداد الحكومة بالموظفين وتدريب السودانيين بالقدر الذى تحتاجه حكومة مصر فى السودان .

لم توضع برامج للتعليم تناسب أحــوال السودانيين . أو تتمشى مع مستوياتهم الثقافية . أو تفتح أمامهم آفاق التعليم على نطاق واسع ! لذلك لم تكن هذه الحركة العلمية عميقة الجذور ولم يكن من المعقول أن تترك فى حياة السودان أثراً قوياً .

فقد كانت الصبغة الدينية غالبة على التعليم فى السودان . وكان السودانيون يرون فى هذا التعليم خير ما يحقق أهدافهم ومثلهم . ولم يروا فى هذا العلم الحديث إلا لوناً من الثقافة فرضت عليهم لخدمة الحاكمين وتحقيق أطماعهم .

حتى الاصلاحات الادارية التى رأيناها تمتد إلى السودان كانت محدودة الأثر . تنقص منها الحاجة الملحة إلى الاستقرار . فقد كثر عزل الولاة . وفى الفــترة الواقعة بين سنتى ١٨٢٥ و ١٨٧٧ تولى من هؤلاء الولاة خمسة عشر فى نحو واحد وثلاثين عاماً . أى بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل واحد منهم .

---

(١) Sabry : Le Sudan Egyptian, p. 7.

. ولم يكن هذا التغيير الدائب يتيح لأمثال هؤلاء الوقت الكافي لدراسة الأحوال ومحاولة علاجها . بل إن بعض هؤلاء الحكام لم تكن له سابق خبرة وتجربة ودراية بأحوال السودان وشعوبه وقبائله . لم يحاولوا وضع لون من الحكم يناسب أحوالهم وأوضاعهم واستعداد . أو نقل السودان من عالم العصور الوسطى إلى عالم القرن التاسع عشر (١) .

بل تركت سياسة ولاة الأمر فى مصر القاضية بفتح أبواب البلاد على مصراعيها للنفوذ الأوربى ليتدفق طليقاً من كل قيد طاغياً يغرق البلاد أثرها فى السودان . فقد بدأت حكومة مصر تستخدم الأجانب فى الأعمال الادارية على نطاق واسع . استخدم إسماعيل صمويل بيكر فى تنظيم مديرية خط الاستواء . وعين غوردون حاكما على السودان .

فهيأ للمطامع الأوروبية الفرصة بأن تتدفق إلى السودان كما تدفقت إلى مصر ، وأثار استخدام هؤلاء المسيحيين هلع أهل الســودان وذعرهم واشمئزازهم وهم يفكرون تفكيراً إســلامياً صرفاً ، الأمر الذى جعلهم ينظرون إلى مصر نظرة الشك والريبة .

ولكن الفتح المصرى وما أعقبه من نفوذ مع هذا كله ترك آثارا باقية فى مستقبل الحياة الثقافية فى السودان وفى انتشار الإسلام . فقد استطاع الحكم المصرى أن يقضى على الدولة التى ضربت ظلها عليه فى العهد السابق ، وأن يعيد اتصاله الوثيق بحوض البحر الأبيض المتوسط وحضارته .

بل استطاع هذا الحكم أن يفتح الطريق أمام المؤثرات الأوربية لتتدفق إلى السودان ، وأن يهيء له اتصالا مباشراً بالعالم الأوربى ، وسيزيد من اهتمامه بالسودان وبأهميته وثروته ومستقبله .

يتمثل هذا فى السيل الدافق من الرحالة والمستكشفين الذين وفدوا على السودان بعد الفتح ، فقد وفد عليه ،

فردريك كايو F. Caillaud (١٨١٩ -- ١٨٢٢) إدوارد ربل E. Rueppel

(١) الشاطر بصيلى ص ١٤٥

(٢) Sabry : Le Sudan Egyptian. p. 44.

(١٨٢٥ — ١٨٣٦) بريم Brehm (١٨٤٧ — ١٨٥٣) كومب Combes (سنة ١٨٤٦) — روبرت هارتمان (١٨٥٩ — ١٨٦٠) فون هوجلين Von Heuglin (سنة ١٨٥٧) — جيوم ليجان G. Lejean (١٨٦٠ ١٨٦٤) — مارنو Marno (١٨٦٩—١٨٧٣) فرن F. werne (١٨٤٠ — ١٨٤١) — دهبران Debergine (سنة ١٨٩٨) (١) .

وما نجم عن هذه الرحلات من دراسة شاملة للسودان في النواحي الإقتصادية والاجتماعية والاثنوجرافية ، وتعريف الناس بشعوبه وقبائله وكشف ما خفي من تاريخه .

فكان التقاء السودان بالثقافة الغربية تم عن طريقين : طريق غير مباشر قامت به الحكومة المصرية بتوسعها في التعليم ومحاولتها استخدام الوسائل العلمية الحديثة في استغلال ثروة السودان والإفادة منها ، وطريق مباشر وسيلته الرواد والرحالة والمكتشفون والتجار والقناصل الذين تدفقوا على البلاد في ظل الحكم المصري .

ولم يقف أثر مصر عند هذا الحد ، بل امتد إلى الثقافة العربية التقليدية . ذلك أن فتح السودان وثق من الصلات بين مصر والسودان إلى أبعد الحدود وأصبحت الرحلة بين القطرين سهلة ميسرة ، تمكن طلاب العلم السودانيين من إرواء تعطشهم إلى العلوم الدينية كيفما طاب لهم ، كما تمكن رجال العلم في مصر من أن يرحلوا إلى السودان إذا شاءوا .

يشهد بوفرة عدد الراحلين إلى مصر من الطلاب السودانيين إنشاء رواق السنارية بالأزهر سنة ١٨٤٦ ، يدل على ذلك أن طالباً سودانياً يسمى محمد علي وداعة التحق بالأزهر سنة ١٢٥٣ هـ ، فوجد بهذا الرواق الجديد نحو ستة من أهل السودان وقد خصصت الدولة لطلبة هذا الرواق الإعانات والجرايات اللازمة .

وتضاعف عدد الوافدين عليه طوال عهد عباس وسعيد . واشتد وفود أهل السودان في عهد إسماعيل . تدل على هذا زيادة الميزانية المخصصة لطلبة الرواق ، وتخصيص حصة من وقف برلنته هانم للإنفاق على الطلاب السودانيين (٢) .

---

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ١٠٠ — ١٠٤ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد : جـ ٢ ص ١٩ — ٢٠ .

وتدل الوثائق على كثرة رحيل السودانيين إلى مصر التماساً للتعلم بالأزهر ، وهى تشير أيضاً إلى عودة أغلبهم إلى بلادهم لمتابعة الحركة العلمية أو إقامة بعضهم بمصر واستقرارهم بها نهائياً ، ولم تكن الدولة تبخل على هؤلاء الوافدين بالرعاية والتشجيع (١) .

كما رحل العلماء المصريون ووصل بعضهم مع جيش الفتح ، فقد صحب جيش اسماعيل بن محمد على نخبة منهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والسيد أحمد البقلى والشيخ السلاوى(٢) ، واشتد وفود هؤلاء العلماء بعد ذلك .

وقد أنشأت مصر مدارس للعلم فى المدن الكبيرة يتولى العلماء تدريس العلوم العربية فيها ، هذا النوع من المدارس كان يغذيه علماء السودان الذين تعلموا فى مصر ، ولم تكف الحكومة عن تشجيع هذا النوع من التعليم بقدر ما تستطيع : أصلحت المساجد وأقامت مساجد أخرى جديدة ، وأوقفت عليها الأوقاف ، ومنحت المشتغلين بالعلم المنح والهبات .

وهيأ الحكم المصرى للسودان مركزاً جديداً من مراكز الثقافة الإسلامية أضيف إلى المراكز القديمة ، فقد أنشئت مدينة الخرطوم ووضحت أهميتها منذ عام ١٨٢٣ ، حينما عسكرت فى موضعها حامية مصرية ثم اتخذها خورشيد عاصمة للحكم المصرى فى السودان سنة ١٨٣٠ ، ثم أخذت تنمو نمواً مطرداً . فحينما زار محمد على السودان سنة ١٨٣٩ ، كانت منازل الخرطوم لاتزيد على خمسمائة ، وأصبح سكانها سنة ١٨٥٦ نحو ٤٥ ألفاً زادوا سنة ١٨٨٣ فأصبحوا نحوا من ٥٥ ألف نسمة .

وكما أصبحت الخرطوم مقراً للحكومة المركزية وضحت زعامتها الثقافية ، أنشئت فيها أول مدرسة حديثة فى عهد عباس ، ثم تتابع إنشاء المدارس والمعاهد ، وأصبح مسجدها العتيق مركز التعليم الدينى فى السودان .

وكان من بين الذين درسوا فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية وتلميذ الشيخ محمد أحمد نور السروراتى والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والشريف السيد حسين المجدى والشريف المحروق وأصبحت

---

(١) نفس المرجع ص ٦٢ .

(٢) نعوم شقير ــ ٣ ص ٢٧ .

هذه المدينة على حد تعبير Emile Baurgeois .

"La tête du pont de la civilisation en Afrique"

وكذلك أصبحت كسلا منذ أن اتخذتها (١) مصر عام ١٨٤٠ مركزاً للثقافة العربية فى شرق السودان (٢) .

بل ساعد الحكم المصرى على انتشار اللغة العربية والدماء العربية فى السودان كله ، فقد أسقط الحواجز السياسية القائمة بقضائه على السلطنات والإمارات والمشيخات وأدمجها كلها فى وطن سودانى موحد يخضع لحكم مركزى مستقر .

فالقبائل العربية التى كانت تحد من هجراتها هذه الحواجز انفسح أمامها المجال لتمضى فى هجراتها إلى حيث يطيب لها المرعى والمقام . بعضها مضى غرباً إلى أقصى ما يريد ونفذ بعضها إلى جنوب السودان ، ومضى بعضها الآخر إلى أقصى الشرق ، ساعدت على هذه النقلة سهولة المواصلات من ناحية واستتباب الأمن من ناحية أخرى .

يؤكد هذه الحقيقة استطاعة الرحالة الأجانب التجول فى السودان دون أن يتعرض لهم أحد ، ففى كردفان حيث كان التاجر لا يأمن على نفسه أن يسير منفرداً : استطاع الرحالة بالمر أن يجتاز البلاد من غير أن يصحبه سوى خادم واحد ، ولم يصب أحد باعتداء أو أذى ، وتنقل فيه الرحالة كوتشى مطمئناً سنة ١٨٣٩ ، وكذلك الأمير الألمانى بكلر مسكاو ، وجاءت أسرة المسيو مولى إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠ للنزهة كما لو ساحت فى ربوع إيطاليا (٣) .

وفى ظل هذا الأمن وهذه المواصلات الميسرة اختلطت الدماء والأنساب ، وانتشر النفوذ العربى إلى أبعد مدى ممكن ، وتهيأ السودان الموحد ليحتل مكانه الحق فى العالم الإسلامى .

والحكم المصرى حين أسقط هذه الحواجز ، ومكن القبائل أن تختلط وأن تنتشر وتتعارف ، أتاح للطرق الصوفية التى نشطت فى القرن التاسع عشر إلى أبعد

(١) Sabry : Le Sudan Egyptian. p. 111.

(٢) Ibid p. 108.

(٣) عبد العزيز عبد المجيد — ٢ ص ٤ .

الحدود أن تبسط من نفوذها فى السودان ، وأن توسع من أفق نشاطها فى الدعوة إلى الإسلام ، مستفيدة من هذه الظروف الجديدة .

اشتد نشاط الطريقة السامانية التى كانت قد دخلت السودان سنة ١٨٠٠ على يد أحمد الطيب تلميذ محمد بن عبد الكريم السامانى . وقد انتشرت هذه الطريقة على الخصوص بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة .

لكن الرجل الذى أثر فى السودان أكثر من سواه هو السيد أحمد بن إدريس الفاسى ، فقد كان صوفيا ومصلحاً دينياً متأثرا بالإصلاحات الوهابية واتخذت طريقته طابعاً تبشيرياً محضاً . وقد تتلمذ عليهم من رجال السودان محمـــد المجذوب الصغير (١٧٩٦ — ١٨٣٢) والشيخ إبراهيم الرشيدى (١٨٧٤) (١) ؛

غير أن أهم هؤلاء المريدين السيد محمد عثمان الأمير غنى الذى أرسل عام١٨٣٥ لنشر تعاليم الإسلام . عبر البحر إلى القصير وانطلق حتى أدرك النيـــل يدعو إلى طريقته . ونجحت دعوته من أسوان حتى دنقلة جنـــوباً . وأسرع النوبيون إلى الدخول فى طريقته .

ثم انطلق إلى كردفان وأقام فيها زمنا ثم رحل إلى سنار وعمل على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية على وجه الخصوص ، ونشأت بعده طريقة جديدة هى الميرغنية التى انتشرت فى ظل الحكم المصرى انتشاراً عظيم الشأن .

وقد شجع محمد على طرقاً صوفية أخرى كالطريقة الســـعدية وهى فرع من الرفاعية والطريقة الرحمانية وهى فرع من الدرقاوية . كل هذه الطرق انتشرت فى ظل الحكم المصرى انتشارا واسعاً ، وعملت على نشر الإسلام بين من لم يدخل فيه بل عملت على شد أزر الثقافة الإسلامية إلى حد بعيد (٢) .

وأهم من هذا أن الحكم المصرى كسب الإسلام منطقة جديدة لم يكن يتيسر له أن ينفذ إليها . فقد بدأ النفوذ المصرى يتجاوز سنار نحو الجنوب متجهاً إلى منطقة أعالى النيل والمناطق الاستوائية . وبدأت المحاولات الأولى فى عهد محمد

---

(١) Trimingham : Islam in the Sudan. pp. 212–226.

(٢) عبد المجيد عابدين الثقافة العربية فى السودان ص ٩٦ — ٩٧ .

علي ، فقد أرسل بعد فتح سنار عدة حملات من الخرطوم لاكتشاف منابع النيل وصلت آخر حملة منها سنة ١٨٤١ إلى غندوكرو ولم تتعداها إلى الجنوب (١) .

لكن المحاولات الحقيقية بدأت فى عهد الخديوى إسماعيل . ذلك أن السير صموئيل بيكر أراد أن يسهم فى الجهود المبذولة لاكتشاف منابع النيل متعاوناً مع غيره من المستكشفين الإنجليز ، ومتمماً للجهود التى بذلها كل من سبيك وجرانت لاكتشاف هذه المنابع عن طريق زنجبار والتدفق منها إلى هضبة البحيرات ، وما أدت إليه هذه الجهود من اكتشاف بحيرة فكتوريا فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ .

وكان بيكر يريد أن يسلك طريق الخرطوم ويستأنف الرحلة من غندوكرو عسى أن يلتقى بهذين الرجلين ، فخرج من الخرطوم فى ديسمبر سنة ١٨٦٢ ، ووصل غندوكرو فى فبراير سنة ١٨٦٣ ; وتمخضت جهوده عن اكتشاف مخرج النيل من بحيرة فكتوريا (٢) .

وقد أفاد اسماعيل من هذه الجهود وأذن لبيكر سنة ١٨٦٩ بفتح مناطق خط الاستواء ، وفى فبراير سنة ١٨٧٠ قام فى ثلاثين مركباً من الخرطوم قاصداً خط الاستواء ، ونزل عند ملتقى السوباط بالنيل الأبيض ، وبنى معسكر التوفيقية ، واكتشف طريق بحر الزراف ونشر النفوذ المصرى من السوباط حتى منطقة فكتوريا .

وقد تكللت هذه الجهود بالنجاح ، وانتشر النفوذ المصرى فى عهد اسماعيل إلى منطقة البحيرات ، وتتابعت هذه الجهود على يد غوردون (١٨٧٤—١٨٧٧) الذى ثبت أركان النفوذ المصرى فى هذه الآفاق : وأنشأ عشر محطات فى السوباط والناصرية وشامبة ومكركة وبوز واللاتوكة واللاد والرجاف والدفلاى وفانيكو . كما أسس مركزاً فى مرولى على نيل فكتوريا . ووقع فى ١٩ يوليو سنة ١٨٧٤ مع متيسا ملك أوغنده معاهدة يعترف فيها بالحماية المصرية (٣) .

وقد فتحت هذه المناطق أمام التيار الإسلامى ، لا ننكر أن اتساع تجارة الرقيق فى ظل الإدارة المصرية قد عاق إلى حد كبير الجهود المبذولة لنشر الإسلام فى هذه المناطق ، فقد استفحلت تجارة الرقيق بعد الفتح المصرى وتسلح الجلابة بالأسلحة

---

(١) نعوم شقير ـ ٢ ص ١٠ .

(٢) Sabry ; op. cit. pp. 35–46.

(٣) Sabry : op. cit. pp. 40–44.

النارية ، وتوغلوا في النيل الأبيض حتى وصلوا إلى أعاليه ، ودخلوا مناطق بحر الغزال وخط الاستواء .

لكن مصر استجابت للحملة الإنسانية في أوربا في ذلك العصر لوقف تجارة الرقيق حين عقدت في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع انجلترا في هذا الشأن . ووافق إسماعيل على إقفال أسواق الرقيق في مصر والسودان ، وعمل غوردون أثناء ولايته على السودان على تنفيذ هذه الاتفاقية ، وكان الممكن أن تثمر هذه الجهود كلها ، وأن يستأنف الإسلام طريقه نحو الانتشار لولا الحركة المهدية وتدخل الإنجليز .

المهدية في السودان :

غير أن النصف الأخير من القرن التاسع عشر شهد تطورات كانت بالغة الأثر في الحياة الإسلامية في كل من مصر والسودان على حد سواء .

فقد أدت حركة التجديد في مصر بعد عصر محمد علي إلى فتح البـــاب أمام النفوذ الغربي ليجاوز النفوذ الثقافي إلى الميدان الاقتصادي والسياسي .

وشهدت مصر في هذه الفترة مظاهر الإنحراف التي أشرنا إليها في الباب الثاني وشهد السودان أيضاً بحكم ارتباطه بمصر نفس هذه الظروف ، وشهد هذه المساوىء التي كان لها الأثر الواضح في مستقبل الحياة الإسلامية ، مساوىء امتدت إلى جميع نواحي الحياة السودانية .

امتدت إلى الميدان الاقتصادي ، وبدأ السودانيون بعد حكم دام أكثر من نصف قرن يحسون بثقل وطأة الحكم المصري ، فقد كانت الحياة الاقتصادية صورة من الحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، كانت المبادلة أساس هذه الحياة ، فكان قضاء الحكام المصريين على هذا النظام قضاء عنيفاً له أسوأ الأثر في نفوس السودانيين وكانت بعض مناطق السودان تعتبر الرقيق عملة ، تدفع بها أثمان السلع والمرتبات . فلما عمدت حكومة مصر إلى إلغاء تجارة الرقيق ثم الإلحاح في هذا الإلغاء متوسلة بالعنف والخروج عن المألوف ، عجز هؤلاء الناس عن دفع الضرائب المطلوبة نقداً (١) .

---

(١) نعوم شقير — ٣ ص ١١٠ — ١١٢ وما بعدها .

وهذه السياسة الضريبية رغم إنحرافها عن وسائل السودانيين لم تراع العدالة فى فرضها . فقد كانت الحكومة تعفى بعض الطوائف وفق هواها ، وتثقل على بعض الطوائف الأخرى فكان إعفاء الشايقية من الضرائب أمرا لا يقبله الجعليين ويرون فيه مذلة وهوانا ، لذلك كان هؤلاء الجعليون ممن أيدوا المهـــدى ، وساروا فى ركابه وأثره أنهم كانوا يقولون (١) .

« يانعم العباسية . القامت المهدية ... والله ما فى ربة غنيمة الشايقية » (٢).

وامتد هذا التميز حتى إلى ميدان الطرق الصوفية فتميز المرغنيـــة على سائر الطوائف الأخرى ، كثر أتباعهم ، وعظم جاههم .

ثم عمدت الحكومة فوق هذا إلى العنف فى جباية الضرائب المفروضة . وكانت فظائع الباشبوزق الشايقية والأكراد والمغاربة أعظم مما يتحمله السودانيون العرب .

لذلك نجد المهدى فى منشوراته يندد « بسحب الناس فى الحديد والسلاسل من أجل الضرائب(٣) » ثم المضاعفة فى الجباية عن طريق فرض ضرائب إضافيـــة ، وفرض أنواع كثيرة من الجبايات غير المشروعة لإرضاء المديرين ومن فى حكمهم ، وليس أدل على سخط الناس من مثلهم الشائع « عشرة فى تربة ولا ريال فى طلبة »(٤).

وكانت لهذه السياسة أثرها فى المجتمع ، شاعت ظاهرة هجرة الديار والاعتصام بمناطق الأطراف كالقلابات وبحر الغزال ودارفور فرارا من هذا الظلم . . انظر إلى قصيدة الشيخ محمد شريف المشهورة :

وما أبت السودان حكم حكومة	إلى أن أتى ضعيف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمـــير وحده	والشيخ والنظـــار أضعافـــه فادر
بضرب شـــديد ثم كتف مؤلم	ومن بعده الالقاء فى الشمس والحر
وأوتاد ذى الأوتاد من بعض فعلهم	واشنع من ذا كله عمـــل الحر

وكانت محاولة إلغاء الرقيق قاصمة الظهر فى الحياة الإجتماعية فى السودان فقد

---

(١) Sabry : op. cit. p. 68. وما بعدها .

(٢) نعوم شقير ــ ٢ ص ١١٢ .

(٣) نعوم شقير ــ ٣ ص ٣٦٦ .

(٤) المرجع السابق ــ ٣ ص ١١٠ .

كان الرقيق منتشرين فى حياة الناس لا يكاد يخلو منهم بيت ، كانوا الأيدى العاملة فى الزراعة والرعى والصناعة ، فكان هذا الإلغاء المفاجىء بمثابة التقويض العنيف لهذه الأسس ، ثم كان الإسراف فى تعقب الجلابة وتحرير الرقيق بالقوة ، والحملات العنيفة التى قام بها صمويل بيكر وغوردون فى بحر الغزال وخط الاستواء وتنكيلهم بالتجار أشنع تنكيل قضى على ما بقى بنفوس الناس من ظل من الولاء للحكومة المصرية . (١)

لذلك كانت المناطق التى ألغت تجارة الرقيق أشد أقاليم السودان سخطاً على حكومة مصر ، وأكثرها تأييداً للحركة المهدية ، مثل المناطق الواقعة فى دارفور غرب وفى النيل الأزرق . وكان عثمان دقنة فى شرق السودان من أكثر الناس تأييداً للمهدى وسخطاً على الحكومة .

وامتدت مظاهر الفساد إلى الميدان الدينى . كان تفكير الناس فى السودان تفكيراً إسلامياً عميقاً إلى أبعد الحدود ، فاهتزت مشاعرهم أبلغ اهتزاز لاستخدام المسيحيين الأجانب فى وظائف الحكومة ، وإطلاق أيديهم فى أمور الناس ، وإسرافهم فى استخدام الأجانب وإيذائهم للشعور الإسلامى خصوصاً فى عهد غوردون هذا العهد الذى أطاح ببقية ولاء الناس للخديوية .

وقد بلغ السخط مداه عندما أتى غوردون حكمداريته فى سنة ١٨٧٩ بمقتل سليمان الزبير ورجاله ، بعد أن قبلوا عرض غوردون بالتسليم فقام جسى بإعدامهم رمياً بالرصاص (٢) .

فرأى أهل الوعى من السودانيين كيف عملت هذه الفئة المأجورة على إهدار كرامتهم ، وإيذاء شعورهم ، وانفجر سخطهم فى الحركة المهدية المعروفة .

ومما يدل على عمق الشعور بالأسى لتدخل هؤلاء الأجانب ما ورد فى كتب المهدى من إشارات إلى سخطه على الدخلاء المغتصبين ومن لوم توفيق على تسليمه الأمر لأعداء الدين (٣) .

ولم ير السودانيون فى حركة التجديد التى انحدرت إليهم لوناً من ألوان

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ١١١ . (٢) الشاطر بصيلى ص ١٩٢ .
(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ٢٤٧ — ٢٥١ .

الإصلاح ، وما كان إغتاظهم عن الإصلاح الذي ينحدر في ركاب الأوربيين ، إنما رأوا في ذلك كله رجساً وبدعة يجب أن تتطهر منها البلاد .

وقد أشار المهدى إلى هذه البدعة وندد بكتب « القانون » التي تتعرض للنبي ، وأظنه يشير إلى الكتب الدراسية المترجمة عن الفرنسية التي كانت متداولة في المدارس الحديثة في السودان .

لذلك اعتبر الترك كفرة أهل بدعة يجب قتالهم وجهادهم حتى يرتدعوا ، وأبلغ دليل على تفشي هذا السخط وهذا القلق هو استجابة السودانيين السريعة العميقة للدعوة المهدية ، فكانت هذه الدعوة تنتشر انتشار النار في الهشيم .

وكان لابد أن ينتفض المصريون وأن ينتفض السودانيون لوقف هـذا التيار ولإصلاح ما أفسده ، ولكن لابد لـكل من هاتين الانتفاضتين أن تخضع لظروف البيئة التي ظهرت فيها وانبعثت منها ، تخضع لطبيعة الحياة وميراث القرون ، وتتجاوب مع آلام الشعب وآماله .

ظروف مصر قضت بأن تكون انتفاضتها دستورية الطابع غرضها الأخذ بيد الشعب عن طريق الإصلاح الدستوري ومراقبة الحكام وإلزامهم بأن يسيروا سيرة العدل والإصلاح ، وذلك لأن مصر استطاعت بعد تطور دام أكثر من ثمانين سنة أن تتذوق تجارب الغرب ، وأن تفيد من آرائه وأفكاره ، وأن تقتبس من نظمه بالقدر الذي يلائم حاجتها .

أما ظروف السودان فقد فرضت نفسها على طبيعة الانتفاضة وأهدافها وخططها لا يمكن أن يستجيب السودان إلا لحركة دينيـة تنبع من تفكيره الديني العميق المتأصل . صوفية متمشية مع التصوف الذي غلب على حياة الناس ، تكره الغرب وثقافته وتعاديه وتحارب البدعة التي فشت في البلاد في ظل الحـكم المصري ، الانتفاضة المصرية تمثلها الثورة العرابية والانتفاضة السودانية تمثلها الثورة المهدية (١) هذه الثورة التي كانت ذات طابع سياسي ، ديني واجتماعي .

ولا يعنينا منها إلا أنها تمثل رأياً في الإصلاح ، وإنها انبثقت من نفس الينابيع

---

(١) عن المهدية : انظر Wingate : Mahdism and the Egybtian Sudan
Ten Years Captivity in the Mahdi's camp by chrawlder.

التى انبثقت منها حركات مماثلة فى أقطار أخرى ، ولا يعنينا أيضاً إلا أثرها فى الحياة الثقافية ، وأثرها فى الحياة الفكرية وفى انتشار الإسلام فى السودان ، ونريد أن نعرض لصاحب هذه الحركة ، ونشأته وثقافته والآراء التى نادى بها والمبادىء التى أعلنها .

ولد محمد أحمد فى جزيرة ضرار من أعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ فى أسرة متواضعة تنسب الى نجم الدين جد الكنوز ، فهى من العرب المولدين الذين اختلطوا بالدماء النوبية .

ونسبه هذا فى نظرى كان بالغ الأهمية ، فى النجاح الذى أحرزته دعوته فى السودان ، لم يكن إذن ينتمى إلى المجموعتين العربيتين ، الجعلية أو الجهينية(١) لأن انتماءه إلى واحدة منها سيجلب له عداء الأخرى بسبب المنافسات القبلية والحزازت الأسرية .

وأصبح فى مكنته إذن أن يوحد بين الشعبين ، ويؤلف بين الحيين ، وانحداره من الكنوز كان له أهمية خاصة فى حياته ، فالكنوز ينتمون إلى آل البيت ، ومن هنا كان انتساب المهدى إلى البيت النبوى : وكان لنسبه هذا أثر كبير فى نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله .

ولم يطب المقام لأسرته فى دنقلة فشدت الرحال إلى الخرطوم ، فأتيح له فى هذه الحاضرة الثقافية الكبيرة أن يجد حظه من العلم ، وأن يقبل عليه ، فدرس القرآن فى مدرسة كررى والخرطوم وأخذ يتعلم الفقه على الشيخ الأمين الصويلح فى مسجد ود عيسى ثم على الشيخ محمد الخير فى الغبش تجاه بربر ، ودرس النحو والتوحيد والفقه ، واشتهر بالتعبد والتقوى والزهد حتى قيل إنه كان يمتنع عن أكل زاد أستاذه محمد الخير ، لأنه كان يجرى عليه من مال الحكومة ، ويرى أنه مال الظلم ، هذه الدراسة الفقهية كانت لها انطباعات فى نهجه وتفكيره ، بل جلبت له تأييد طبقة الفقهاء ومناصرتها ، وهى طبقة ذات أثر ونفوذ عظيم فى حياة أهل السودان (٢) .

ثم مالبث أن انساق فى التيار الصوفى الذى شمل البلاد فى هذا العصر فانتسب

---

(١) نعوم شقير - ٣ ص ١١٤ .

(٢) نعوم شقير - ٢ ص ١١٥ .

إلى الطريقة السامانية على يد الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب .

ودخل في السامانية سنة ١٨٦١ ، ثم تشرب المذهب الصوفي فتغلغل في نفسه وأظهر التقشف والزهد والخشوع ، فارتقى إلى مصاف الشيوخ ، وأصبحت له رايته ، وأصبح في مكانته أن يتجول حيث طاب له ، وأن يدعو باسم السامانية ، وأن يعطى ما شاء من العهود .

ثم إلى رحل جزيرة أبا سنة ١٨٧١ حيث بنى جامعاً للصلاة وخلوة للتدريس فاجتمع عليه الناس وزادت شهرته حتى قيل أن المسافرين بالنيل ، كانوا يقفون بالمراكب والوابورات فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون البركة .

فلما وضح نفوذه وكثر أتباعه نفس عليه شيخه السابق هذه المكانة التي وصل إليها ، فالتجأ إلى شيخ آخر هو الشيخ القرشي وجدد عليه عهده ومشيخته .

وكان لهذا كله أثره الواضح في حياته وفي نهجه في التكبر ، ووسيلته في التعبير . مكنته كثرة أسفاره داعياً إلى طريقته من أن يختلط بالناس من جميع المستويات ، وأن يطلع على آلامهم ، ويستمع إلى مظالمهم ، ويلمس ما يعانونه من شقاء . فوضح له أن الوزر يقع على عاتق الحكم المصرى في السودان . وأنه مسئول عما آل إليه الحال . وثقافته الصوفية التي اكتسبها في هذه الفترة انطبعت في عقيدته وتقاليده .

وقد تبلورت في نفسه الرغبة في الإصلاح في مارس عام ١٨٨١ . حينما خرج سائراً نحو الغرب في زى الدراويش . وبدأ يوجه دعوته إلى أبناء السودان . بدأ أولا بمخاطبة الخاصة من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل ثم أعلن دعوته على الناس كافة (١) .

ونحن نريد أن نبين منهجه في الإصلاح وأن نحدد مكانه بين جمهرة المصلحين الذين حفلت بهم الحياة الإسلامية في القرن التاسع .

وخير ما يعيننا على هذا منشورات المهدى ومكاتباته التي ذكرها نعوم شقير

---

(١) Trimingham : Islam in rhe Sudan, p.p, 93–96.

فى كتابه تاريخ السودان . فهى تصور أهدافه . وتنبض بأحاسيسه . وتكشف النقاب عن آرائه (١) .

وفى هذه المنشورات ثورة جامحة على النفوذ الغربى الذى استشرى فى وادى النيل كله شماله وجنوبه فى عهد توفيق . وهو يرى فى هذا النفوذ سر البلاء ومصدر البدعة . يتبين هذا من كتابه الموجه إلى الخديوى توفيق « وإماتة ما حدث من البدع والضلال والإنابة إليه تعالى . فى كل الأحوال وقد تأكد فى هذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان ، فإن دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الإسلام وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين . وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين . فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام . وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الإسلام » .

وهو يلومه على تسليم أمور المسلمين للإنجليز . وأنه أحل لهم الدماء والأموال والأعرض « فجاءت الإنجليز بكبرهم وخيلائهم » .

وهو يرى أنه لا خلاص إلا بالوحدة لطرد هذا العدو وتطهير البلاد من نفوذهم . وهو يدعو هذا الخديوى إلى « أن يكون الجميع يداً واحدة على إقامة الدين . وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين . وأن هذا النفوذ (٢) قد ظلم أمة محمد . وأنه لايرد هذا الظلم إلا بالقضاء عليه . إذن حركة المهدى رد فعل للتجديد الذى دخل السودان فى ظل الحكم المصرى(٣) .

والطابع الصوفى يبدو فى طابع الزهد والبساطة الذى عرف به أتباعه منذ البداية ويبدو فى اعتماده على المعرفة الإلهية . فالصوفية يرون أن درجة الكشف لا بالكتب والتعليم والاستدلال . إنما هى إلهام ينفث فى الروح .

لذلك نرى المهدى يحتفظ إلى جانب القرآن والصحيحين بكتب التصوف كإحياء علوم الدين للغزالى . وكتب الشعرانى . وتفسير روح البيان للألوسى (٤) .

---

(١) انظر أيضاً : Holt ; Mahdiys, S.N.R, vol. XXXIIJ. : pp. 182-186.

(٢) نعوم شقير حـ ٣ ص ٣٧٤

(٣) Hilleson ; op. cit. p. 102.

(٤) عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان ص ١٢٤ .

كما يتضح هذا الانطباع الصوفى من لغة المهدى، ومن طريقته فى التعبير، فهو يكثر من الإشارة إلى الأقطاب وإلى الخضر . وينعت الرسول بأنه سيد الوجود(١) ويشير فى رسالة بعثها إلى يوسف باشا الشلالى إلى القطب الدرديرى (٢) . وكانت هذه اللغة تجد قبولا من أهل السودان . وتتجاوب مع عواطفهم . وكان يكتب هذا كله عن عقيدة وإيمان دون تظاهر أو ادعاء .

وإذا منهجه فى الإصلاح يتجه وجهة سلفية واضحة محضة . العودة بالتشريع إلى عهوده الزاهرة . وإلى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة .

فهو يفتح باب الاجتهاد فى الإسلام ويحض عليه . « وما العين إلا الأعمال الموافقة للسنة والكتاب من لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين(٣) وإن هذا الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين مما عليه من الانطباعات الزمنية (٤) »

ودفعه هذا إلى إبطال المذاهب الدينية ، والخروج بمذهب خاص يوحد بين هذه المذاهب ويسوى ما بين بعضها من الخلاف ، ويعود بالناس إلى الاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة .

لذلك أحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وجمع الكتب العلمية والدينية فلم يبق بالسودان إلا الكتاب والسنة وكتب التصوف .

ثم يقيم الحدود الشرعية : من قطع يد السارق ، ورجم الزانى ، بل ينهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة (٥) ، بل لقد يقتل المرء على ترك الصلاة .

وفى نفس الوقت يفتح باب الجهاد فى سبيل الدين ، ولكنه يضيف شيئاً جديداً هو أن الكفر بمهديته كفر « من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف ، فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة (٦) » .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١٢٢ .
(٢) نعوم شقير ج ٣ ص ١٣٧ .
(٣) نعوم شقير ج ٣ ص ١٤٥ .
(٤) نفس المرجع ج ٣ ص ١٢٧ .
(٥) عبد المجيد عابدين ص ١٢٣ .
(٦) نعوم شقير ج ٣ ص ١٣٧ .

إذن هذه الإصلاحات ليست اختيارية ، انما تفرض على الناس بالقوة ، كما فرضت الوهابية آراءها الإصلاحية ، وكما فعل عثمان بن فودى من قبل .

تتجلى هذه المبادىء من نص البيعة « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله ، أما بعد : فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك به أحـــداً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نأتى ببهتان ولا تعطيل فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعلى أن تفرض الجهاد (١) » .

ثم هو يقيم حكومة على أسس سلفيه صرفة ، ينشىء بيت المال ، ويفرض الزكاة والعشور ، ويوزع الغنيمة والفىء توزيعا شرعياً ؛ ويقسم رايات الجيش تقسيما إسلامياً : وتعيينه الشيخ أحمد ود جبـــارة قاضى الإسلام ، يساعده قضاة يحكمون فى الأمور الشرعية ونواب للحكم فى الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال .

وهذه كلها محاولات مخلصة للإصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة بالعـــلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة ، ومحاولة الاستنباط استنباطاً يفوق جمهرة التابعين ، وكيف يتوفر ذلك فى السودان وحال الثقافة الإسلامية كما رأينا ؟ .

وقد لاحت فى تعاليم المهدى وآرائه تأثيرات وهابية واضحة ، فقد لاحظ المؤرخون وجود شبه ، بين الحركة المهدية والحركة الوهابية ، هذه الحركة التى امتدت آثارها فشملت العالم الإسلامى كله .

هذا التشابه واضح فى تشدد المهدى فى مبادىء التوحيد . وجعل التعبد لله وحده . وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم . والامتناع عن شرب (التمباك) .

بل دعوته تشبه السنوسية من وجوه كثيرة . فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية خفض المهر . ومنع النساء من لبس الذهب والفضة والنهى عن شعر العارية . أو خروج النسوة مكشوفات الرءوس . وتوجيه الناس إلى الكتاب والسنة ومحاربة البدع . وعدم الاحتفال بالأعراس . ومنع البـــكاء وراء الميت وإبطال السحر والتعزيم .

---

(١) نعوم شقير ج ٣ ص ١٣٩ .

بل جاوز المهدى ذلك بتقرير المحافظة على الصلوات الخمس جماعة، وإبطال الرتب والألقاب ، ومساواة الغنى بالفقير وتوحيد الأزياء ، وإبطال الرقص والغناء، بل نراه يفرض على الشاتم عقوبة إذ يضرب سبعة وثلاثين سوطاً (١).

إذن أراد المهدى أن يوجد فى السودان نوعاً من الوحدة تلائم طبيعة الحياة فيه . الحكم المصرى أزال الفوارق السياسية ، والمهدى أراد أن يزيل الفوارق المذهبية بجمع السودان على دين واحد ومذهب واحد وطريقة واحدة . فألغى المذاهب الأربعة ، وألغى الطرق الصوفية أخيراً . وروض الناس على الزهد فى الدنيا ومجاهدة النفس .

وإذا وسمنا المهدية بميسم المحلية نكون قد ظلمناها ، وغمطناها حقها فلم تكن نزعة محلية تريد إصلاح السودان وحده ، إنما كانت حركة عالمية تريد أن تمد يد الإصلاح إلى الوطن الإسلامى كله بعد تحرير السودان وتخليصه من علله وأدوائه .

تظهر هذه المسحة العالمية من كتابه إلى الخديوى توفيق وكتابه إلى أهل مراكش ثم من الكتب التى بعثها خليفته التعايشى إلى السلطان عبد الحميد ، وقبائل نجد والحجاز والسنوسى ووداى وسلطان سكت .

وقد اهتز لحركته المسلمون جميعاً ، ورأوا فيها رغبة مخلصة لاصلاح أحوال المسلمين ، وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب بل يذكر آدمز أن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده كانا ينظران إلى حركة المهدى نظرة عطف وتشجيع وكان غرضهما العمل فى الخفاء على تنظيم قوات المهدى لتحرير مصر (٢) .

ولعل الحملة التى أعدها المهديون لم تكن لغزو مصر إنما لتحريرها من نير الاحتلال . وهذا يدل على مشاركته العالم الإسلامى المعاصر آماله وآلامه واتجاهاته وأحداثه .

كان الجهاد وسيلة المهدى فى الإصلاح وإقامة هذه الحكومة العالمية الإسلامية ، اعتبر حكام مصر من الترك كفرة يجب جهادهم ، واعتبر كل من خرج عن

(١) عبد المجيد عابدين ص ١٢٨ .

(٢) آدمز : الإسلام والتجديد ص ١٢ - ١٠ .

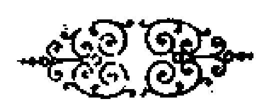
طاعته كافرا يحل قتاله . لذلك نرى دعوته الاصلاحية تتسم بالطابع العسكرى منذ البداية . وقد أحرز نصراً سريعاً متتابعاً . أيده أهل البادية أول الأمر ثم أيدته غالبية أهل السودان .

وقد ساعده على إحراز هذا النصر أمور أربعة عددها نعوم شقير على هذا النحو : استخفاف الحكومة بشأنه واشتغال مصر بثورة عرابى وضعف الحاميات العسكرية ، وتردد الحكومة .

وشملت دعوته ربوع السودان كله ، وكان يقدر لها لو نجحت أن تمكن للإسلام والثقافة العربية وأن تصبغ السودان بالصبغة الإسلامية العميقة وتنشر الاسلام فى جنوب السودان ، وربما فى آفاق أخرى .

فقد بدأ المهديون يتجهون صوب الحبشة لفتح ميدان الجهاد .

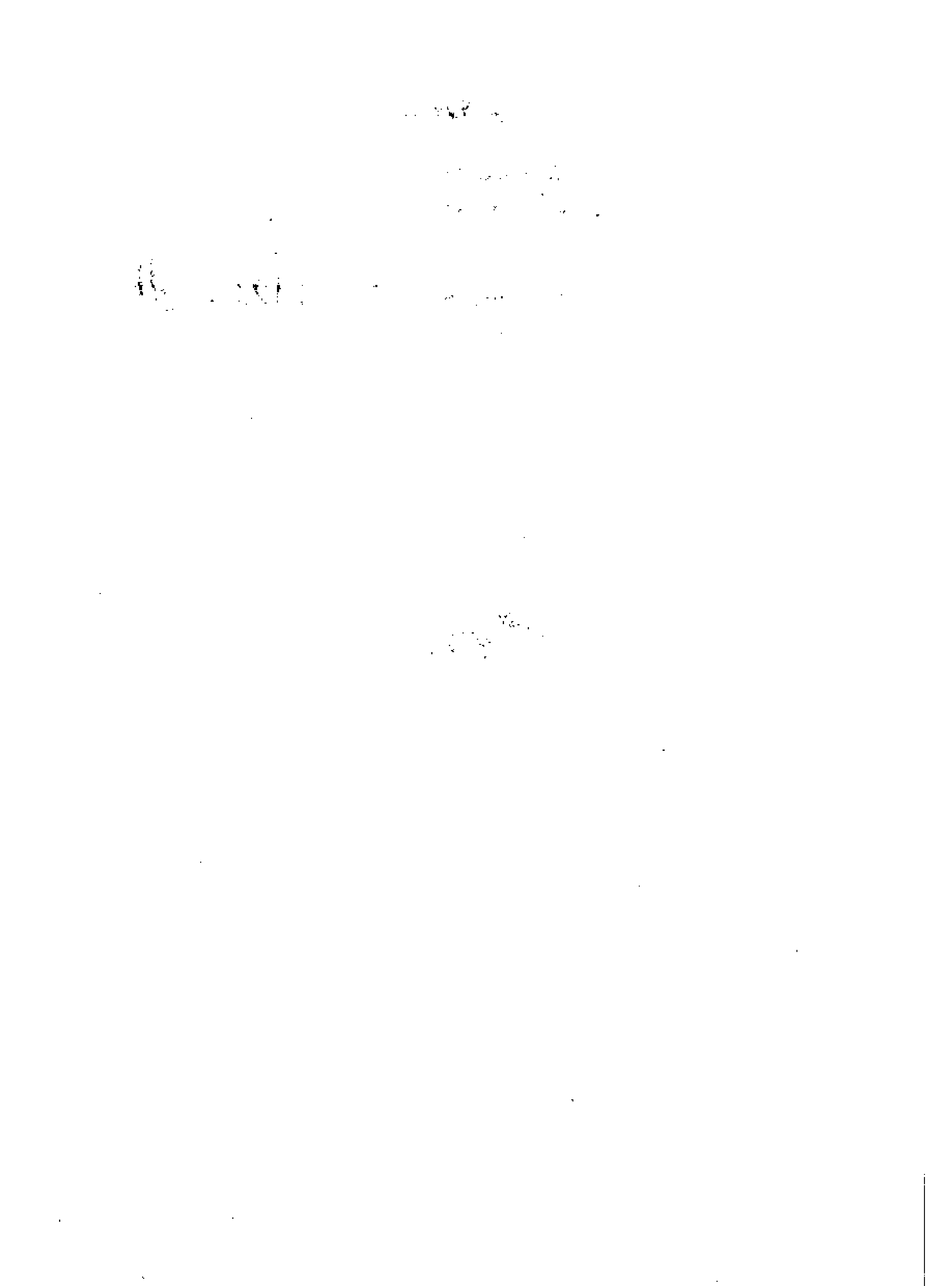
ومن يدرى ربما استطاعت أن تغير من اتجاهات الاسلام ، وتوسع من أفقه ، لولا أن الرجعية فى مصر تحالفت مع الاستعمار فى ظل استرداد السودان ، وما أعقبه من قهر المهدية ووأد هذه الحركة الإصلاحية وامتداد رواق النفوذ البريطانى إلى السودان كما امتد إلى مصر من قبل .



الباب الخامس



انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد الحبشة وشرق أفريقيا



المنطقة التي تضم إرترية والحبشة وبلاد الصومال وأقسامه الثلاثة وساحل كينيا وجزيرة زنجبار ، تكاد أن تؤلف عالماً إسلامياً مستقلا له أوضاعه الخاصة ، ومقوماته الخاصة أيضاً . بل يكاد هذا العالم أن يكون منعزلا عن بقية القارة .

هذه الحقائق نابعة من طبيعة هـــذا الإقليم ، ومن طبيعة الشعوب النازلة به ، والتي شاركت في أحداث التاريخ الاسلامي في هذه المنطقة . هذا الإقليم تنتشر به سلسلة من الهضاب والمرتفعات أهمها الهضبة الحبشية التي يبلغ ارتفاعها نحو ٦٥٠٠ قدم ، والتي تأخذ في الارتفاع كلما سرنا نحو الشرق ، حتى يبلغ ارتفاعها في أقصى الشرق ثمانية آلاف قدم ، ثم تنحدر تدريجياً صوب الغرب متجهة صوب سهول السودان ، ثم يقل ارتفاع هذه الهضبة بالتدريج في الجنوب الشرقي حيث تتخللها الوديان العميقة فتقسمها إلى طائفة من الهضاب الصغرى ، ثم هضبة البحيرات العظمى .

هذه الهضاب المنتشرة من الشمال إلى الجنوب تكاد أن تكون حاجزاً يمنع أو يقلل من اتصال هذا الجزء ببقية العالم الإفريقي المجاور ، واستطاعت أن تحسر التيار الإسلامي وأن تتحكم فيه ، فلا تدعه ينفذ منها متجهاً صوب الغرب(١) .

وهي تترك بينها وبين ساحل البحر الأحمر أو المحيط الهندي سهولا فسيحة تغلب عليها الطبيعة الصحراوية أو شبه الصحراوية .

في هذه المنخفضات نزلت طائفة من الشعوب البدوية التي تشتغل بالرعي والنقلة في هذه السهول الفقيرة ، وأصبح تاريخ هذا الجزء من إفريقية صراعا بين البدو سكان هذه السهول ، وبين المستقرين سكان هذه الهضاب المرتفعة .

فلما نفذت المسيحية إلى هضبة الحبشة ، وبقيت أغلب الشعوب البدوية على الوثنية ، أصبح الصراع في الحقيقة صراعا بين الوثنية والمسيحية . ولما انتشر الاسلام بين هذه القبائل الرعوية أصبح النزاع بين الإسلام والمسيحية .

---

(١) Trimingham. Islam in Ethiopia, p. 15.

ونتج عن ذلك أن هذه الشعوب البدوية لم تستطع أن تخترق هذا النطاق الهضبى متوسلة بالقوة والعنف والغزو . قد تتقدم قليلا ، ولكنها سرعان ما تصطدم بمراكز المقاومة فى الهضبة ، فتنهزم وترتد على أعقابها .

لذلك فشلت جميع الجهود التى بذلت لنشر الإسلام بقوة السيف ، ووقفت الهضبة الحبشية شامخة محتفظة بقوتها ؛ غير أن الوسيلة الوحيدة للتسرب إلى هذا النطاق الهضبى هى التسرب السلمى عن طريق الهجرة الوئيدة ، أو الاتصال التجارى .

عن هذا الطريق دخلت المؤثرات السامية القديمة ، وبنفس هذا الطريق تسرب الجلا إلى الحبشة ، وأوغلوا فيها ، ثم اعتنقوا الإسلام ونقلوه إلى قلب الهضبة نفسها . وكان للتجارة والعلاقات السلمية الأخرى أبلغ الأثر فى نشر الإسلام فى هذه الآفاق .

هذه الحواجز الهضبية الممتدة من الشمال إلى الجنوب على هيئة حاجز ضخم عزلت المناطق الساحلية عن الداخل كما قلنا . لكنها فرضت على هذه المناطق أن تتجه وجهة شرقية نحو عالم الجزيرة العربية والمحيط الهندى . وأن تتصل بهذه العوالم عن طريق البحر عبر مضيق باب المندب ، أو عن طريق المسالك الملاحية فى المحيط الهندى .

لذلك تأثرت هذه المناطق بالحياة فى جزيرة العرب منذ فجر التاريخ ، ونشطت العلاقات التجارية بين هذه المناطق الساحلية وبين آسيا ، وعملت الطبيعة بدورها على تيسير الاتصال بين هذه المناطق الساحلية بشرق إفريقية ، وبين بلاد العرب والهند .

فالرياح الموسمية تهب فى شهر ديسمبر من كل عام متجهة إلى الشمال الشرقى ، وتظل تهب فى هذا الاتجاه حتى آخر فبراير ، ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر فى اتجاه مضاد نحو الجنوب الغربى . ومعنى هذا أن هذه الرياح تحمل أهل ساحل شرق إفريقية إلى شواطىء الهند ، ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل جزيرة العرب الجنوبى ومضيق عدن (١) .

هذه الخصائص الطبيعية عرفها أهل الشرق منذ وقت بعيد ، وعرفها الإغريق

---

(١) Coupland . pp. 15-16.

والرومان والتجارب التى مر بها الإغريق والرومان سجلت فى كتاب مشهور هو Periplus of the Erythrean Sea(١) .

١ — دور التكوين

هذا الوطن الإسلامى يشبه الأوطان الإسلامية الأخرى من بعض الوجوه خصوصاً فى فترة التكوين هذه من تاريخه الإسلامى .

فقد كان انتشار الإسلام فى ربوعه يتوقف على عدد من القبائل البدوية ، تتبنى هذه الدعوة ، فتكسبها روحاً جديدة تذكى فيها رغبة ملحة نحو الهجرة والتوسع ، نشراً لهذا من ناحية ، والتماساً لمواطن أخرى أكثر أمناً وطمأنينة وخصوبة من ناحية أخرى .

ويتوقف انتشار الإسلام على نضال هذه القبائل مع مملكة مسيحية عريقة فى حضارتها ، وكان مصير الإسلام فى هذه البقعة يتوقف على مدى قدرة القبائل البدوية على الاتحاد والإلحاح فى الهجوم ثم قدرة هذه المملكة القديمة على المقاومة .

وهذا يشبه ما عرفناه فى غرب إفريقية من الصراع بين البدو الملثمين وبين مملكة غانة . أو ما رأيناه فى سودان وادى النيل من صراع بين القبائل العربية المهاجرة ، وبين مملكتى مقرة وعلوة المسيحيتين . وفهمنا لانتشار الإسلام فى مرحلة البداية يتوقف على فهم طبيعة البدو هؤلاء ، ثم طبيعة المملكة المسيحية حاملة علم المقاومة .

هذه الشعوب البدوية التى لعبت الدور الأول فى تاريخ النضال من أجل الإسلام هى البجة والأعفار (أو الدناقل) والصوماليون ثم الجلا .

قبائل البجة تقع مواطنهم فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وقد حفل تاريخهم بحركات توسعية اتجهت صوب حدود مصر ، أو تدفقت على سهول شرق السودان ، أو أوغلت فى الأطراف الشمالية من هضبة الحبشة ، حين استطاعت قبيلة الزنفاج البجاوية فى آخر القرن السابع أن تخترق هضبة أرترية عن طريق

---

(١) Hourani : Arab sea faring : p. 79.

وادى بركة ، وأغارت على حدود الحبشة ، وخربت أغلب إقليم الحاسين ، وهاجر كثيرون من الأحباش صوب الجنوب(١) .

بل كان هؤلاء البجة قبل ذلك قد أسسوا مملكة البلميين على النيل بين مصر والنوبة ، وهى المملكة التى قضى عليها سلكو ملك النوبة سنة ٥٤٣ م .

ويبدو أن هؤلاء البجة استطاعوا فى القرن التاسع الميلادى أن يمنوا هجرة صوب الجنوب ، إذ يتبين من رواية اليعقوبى ؛ أن البجة استطاعوا فى هذا الوطن الفسيح الممتد من حدود مصر شمالا حتى مملكة أكسوم جنوباً أن يؤسسوا خمس إمارات أو خمس ممالك .

منها مملكة نقيس من النيل عند أسوان إلى خور بركة ، وأشار اليعقوبى إلى عاصمتها هجر قرب سنكات الحالية ، شاركت فى تكوين هذه المملكة قبائل الحدارب والحباب والأمرار والكوبار والمناسا والرسيفة والزنفاج .

ثم مملكة البقلين فى ساحل أرترية ومنطقة رورا من الهضبة والمجرى الأوسط لوادى بركة .

ثم مملكة بازين بين مملكة علوة النوبية ومملكة بقلين ، ومملكة الجازين التى امتد نفوذها من مدينة باضع حتى خور بركة ، ومن مملكة البقلين حتى موضع يقال له فيكون (٢) الأمر الذى يدل على عمق تسرب شعوب البجة فى هذا الإقليم ومدى مشاركتهم فى أحداثه .

من هذه الشعوب البدوية أيضاً شعب الأعفار ، ويسميهم الأحباش والعرب باسم الدناقل ، وقد وردت هذه التسمية فى أخبار ابن سعيد ، وتمتد ديارهم من خط حديد جيبوتى – درداو فى الجنوب إلى شبه جزيرة بورى فى الشمال ، ومن البحر الأحمر حتى الحافة الشرقية لهضبة الحبشة .

وقد كان هؤلاء الأعفار من البدو أكثر الناس مشاركة فى حركة الجهاد العظمى التى قام بها أحمد القرين فى القرن السادس عشر ، وكان هؤلاء الناس تدفعهم ظروف بيئتهم ومصاعبها إلى الخروج فى هجرات موسمية ، منطلقين نحو الغرب

---

(١) **Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 47.**

(٢) **Ibid, pp. 49, 50.**

إلتماساً لاستبدال أوطانهم الجرداء بأوطان أخرى فيها استقرار وطمأنينة فى قلب هضبة الحبشة .

إلى الجنوب من هؤلاء نزل شعب حامى آخر هو الشعب الصومالى ، كان وطنه القديم فى ما هو الصومال اليوم (١) ، وكانوا فى وطنهم هذا يعيشون عيشة النقلة والبداوة والشظف ، فاندفعوا فى هجرات مطردة نحو الجنوب والشمال والغرب .

وبلغت هذه الهجرات أقصاها فى عهد أحمد القرين ، واشترك الصوماليون فى حركة الجهاد وأشار المؤرخ عرب فقيه (٢) إلى القبائل التى شاركت فى الحرب مثل قبيلة عبز مقدى وجرى وزربة ، كما أشار إلى المغانم الوفيرة من الخيل والبغال والبقر والدقيق والقماش التى حازوها بفضل تأييدهم لأحمد بن إبراهيم الغازى(٣) .

وفى هذا الوطن الفسيح عاش قوم من البدو والرعاة يطلق عليهم الأحباش اسم « القالة » أو المهاجرين ، وهم يطلقون على أنفسهم اسم أوررما (Oroma) .

وكانت هجرات الصوماليين التى أشرنا إليها فى القرن السادس عشر قد أخرجتهم من مواطنهم ودفعتهم نحو الغرب (٤) ، وقد استغلوا فرصة الضعف الذى أصاب الحبشة بعد غزوات أحمد القرين ، وهاجروا إليها وأوغلوا فيها وخالطوا أهلها .

إلى الجنوب من هؤلاء وهؤلاء نزلت شعوب البانتو(٥) وانتشرت بعض قبائلهم فى ساحل إفريقية المواجه لجزيرة زنجبار ، وكان الكتاب العرب يخلعون عليهم اسم الزنج فسمى الإقليم بر الزنج .

هذا عن الشعوب البدوية أما عن الطرف الآخر ، من أطراف النضال الممثل فى مملكة الحبشة المسيحية ، فالمعروف أن شعب الحبشة خليط من شعوب حامية قديمة سكنت الهضبة منذ وقت بعيد ، وهجرات سامية تدفقت من بلاد العرب عبر بوغاز باب المندب ، ونشرت فى البلاد الحضارة السامية والدم السامى (٦) .

(١) Ermio Cerulli : Somaliland : Enyc. of Islam.

(٢) عرب فقيه : فتوح الحبشة : ص ٣٢ – ٨١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٤) Trimingham , op. cit. pp. 195–199.

(٥) Trimingham : op. cit. pp. 220–221.

من هذه القبائل : ود – جوشا ، جوباوين – وابونى – ربى – جلو – دوبى .

(٦) Guidi ; Abyisinia, Encyclopaedia of Islam.

غير أن الحدث البارز فى تاريخ الحبشة الذى أخرجها من عزلتها ، وهيأها لأن تلعب دوراً بارزاً فى سياسة العالم الوسيط هو تدفق المسيحية على البلاد منذ وقت بعيد منذ القرن الرابع الميلادى ، القرن الذى شهد غلبة المسيحية على مصر وشمال إفريقية ،

بدأت التيارات المسيحية تنفذ إلى بلاد الحبشة نتيجة لصلاتها البحرية والاقتصادية بالدولة البيزنطية، على أن المؤسس الأول لكنيسة أكسوم هوفرومنتيسوس وأيديسيوس .

كما بدأت الرهبانية تتدفق على البلاد منذ عام ٤٨٠ ، ثم دخلها المذهب المونوفيزيتى ، وأصبحت كنيسة الحبشة وثيقة الصلة بكنيسة الإسكندرية ، بل أصبحت تابعة لها .

ويؤكد Cosmanlndico pleustes أن المسيحية تمكنت من البلاد فى مستهل القرن السادس ، وأدى ذلك إلى إعادة صلة بلاد الحبشة بالعالم الهلينى وبدنيا البحر الأبيض المتوسط(١) .

وانتشار الإسلام فى هذا الجزء من إفريقية فى هذا الدور وفى الأدوار التى تلته كان متوقفاً على إسلام القبائل البدوية أولا ، ثم تبنيها للدعوة الإسلامية ثانياً ، ثم صراعها مع المسيحية التى اعتصمت ببلاد الحبشة ولاذت بهضبتها المنيعة فنرى كيف انتشر الإسلام بين عوالم البدو هؤلاء والطرق التى سلكها فى تسربه إلى هذا الإقليم .

الظروف الجغرافية التى حددناها تعيننا على معرفة الطرق التى سلكها الإسلام. وهى لا يمكن أن تعدو طريقين لا ثالث لهما : الطريق الأول الطريق البرى الذى ينحدر من مصر على طول ساحل البحر الأحمر مخترقاً ديار البجة ومتجهاً إلى ساحل أرترية ، ثم الطريق البحرى المتصل بجزيرة العرب مهد الإسلام .

أما الطريق الأول فقد بدأت المؤثرات الإسلامية تنحدر عبره بعد أن أتم العرب فتح مصر . وأدخلوها فى دائرة النفوذ الإسلامى ، فكان طبيعيا أن لايقطع

---

(١) Trimingham : Islam in Etiopia pp. 38–40,

الإسلام الصلات التجارية القديمة بين الحبشة ومصر عبر الساحل الشرقى لإفريقية ، أو يقطع الصلات الوثيقة بين الكنيستين المصرية والحبشية .

وكان من الطبيعى أن يقوم البجة الذين تمتد ديارهم من شمال الحبشة حتى حدود مصر بدور الوساطة فى المبادلات التجارية بين مصر الإسلامية وبين الحبشة ، وكان طبيعياً أيضاً أن يتصل البجة هؤلاء بالعرب فى مصر منذ اللحظة الأولى .

ويبدو أن العرب عرفوا هؤلاء البجة للمرة الأولى فى حملة عبد الله بن سعد ، فابن عبد الحكم يشير إليهم ، ويذكر أن ابن سعد تركهم بلا عقد ولا صلح ، الأمر الذى يدل على أن الصلات لم تكن قد توثقت بعد بين البجة والعرب ، أو على الأقل كان هم العرب فى هذه الفترة منصرفاً لبلاد النوبة ، لتأمين حدود مصر الجنوبية .

ويبدو أن الدولة الإسلامية فى مصر بدأت تدرك أهمية البجة ، وتقدر الدور الذى يضطلعون به فى التجارة بين مصر والحبشة ، وأرادت أن تعيد الصلات التجارية القديمة التى كان البجة قد قطعوها فى مستهل القرن التاسع الميلادى .

فقد روى أن عبيد الله بن الحجاج قد عقد معهم صلحاً يجيز لهم أن يواصلوا نشاطهم التجارى ، وأن ينزلوا الريف مجتازين فلا يقيمون فيه ، ولا يتعرضوا لأهل مصر بسوء ، سواء أكانوا مسلمين أو ذميين ، هذه إذن بداية الاتصال بين البجة وبين الإسلام (١) .

ولم يسترع البجة أنظار الولاة فحسب ، بل استرعوا أنظار العرب الذين وفدوا على مصر مع جيوش الفتح أو بعد ذلك بقليل .

بدأ هؤلاء العرب يهتمون بأرض البجة بحثاً عن المعادن وسعياً وراء استغلالها والإفادة منها ، أو اشتغالا بالوساطة التجارية بين مصر وشرق إفريقية ، وبدأ فريق من تجار العرب من ربيعة وجهينة لا يختلفون إلى ديار البجة ثم يعودون إنما يقيمون بها إقامة دائمة متصلة .

بل بدأت بعض البطون العربية تجد فى أرض البجة ما يشجعها على الهجرة

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ١٩ .

إليها فخرجت جماعات من بلي ومن قيس عيلان ودخلت ديار البجة ، وأقامت فيها واختلطت بأهلها ، وأصهرت إلى الناس .

وعن طريق هذه الإقامة وهذه المصاهرة بدأ الإسلام ينتشر بين البجة ، وفى وفى رواية ابن حوقل (١) ، ما يشير إلى أن أفراد من البجة بدوا يدخلون فى الإسلام منذ أواخر القرن السابع الميلادى .

وتوثقت عرى هذا التعاون بمضى الزمن ، وكان العرب يندفعون صوب الجنوب فى هجرات مستمرة لأسباب سياسية أو اقتصادية ، وبدأت هجرات العرب إلى أرض البجة تشتد فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، بل بدأت جماعات من الأمويين تأوى إلى أرض البجة وتقيم فيها (٢) .

ويبدو أن القبائل العربية المهاجرة أو الأفراد العرب المهاجرين لم يقنعوا بالمناطق القريبة من أرض مصر ، إنما أوغلوا نحو الجنوب ، فقد أثبتت الأبحاث الأثريه وجود جاليات إسلامية فى منطقة خور نبت الواقعة على مسافة سبعين ميلا غرب سواكن ، فقد عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى ، ودل البحث الأثرى كذلك على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخه إلى سنة ٨٣١ م ، بل تطرقت هذه الهجرات العربية إلى هجر عاصمة مملكة البجاوية . وإلى مدينة صنجات (ولعلها سنكات الحالية) (٣) .

وكانت الظروف التى رأيناها تدفع العرب نحو الهجرة إلى بلاد النوبة وتستحثهم على الهجرة صوب الجنوب مساحلين للبحر الأحمر . وكان العرب الوافدون يخالطون أهل البلاد ويعيشون بينهم ، ويتعاونون معهم ، ويتعلمون لغتهم ، وكلما أمعن العرب فى الإندماج فى البجة ومخالطتهم ، كلما اشتد أثر الإسلام وتمكن من نفوس أهل البلاد .

ويبدو أن القرن الثالث الهجرى ، قد شهدت تطورات بعيدة الأثر فى أوطان البجة . شهد تغلغل النفوذ العربى ومضيه نحو أقصى الجنوب ، واقترابه من

---

(١) ابن حوقل ص ٥٠ — ٥١ .

(٢) المسعودى ، التنبيه و الإشراف ص ٣٠ .

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia, p. 50,

حدود الحبشة . كما شهد وضوح التأثير العربى فى حياة البجة وسياستهم ، فقد تأثروا بالعرب واندمجوا فى الحياة العربية .

ويخيل الى أن عدوان البجة على حدود مصر فى عهد ابن الجهم ، كان بتحريض من القبائل العربية التى ساءت علاقتها بأولى الأمر فى مصر منذ ذلك العهد ، كما أن العهد الذى عقد بين أمير البجة وأمير مصر (١) يصور لنا هذا النفوذ العربى الواضح .

ويكفى للدلالة على وضوح التأثير العربى أن أمير البجة قد اتخذ اسماً عربياً فالمراجع تطلق عليه اسم كنون بن عبد العزيز ، وقد نص هذا العقد على أن تكون بلاد البجة من أسوان إلى دهلك وباضع ملكاً للخليفة ، وأن كنون بن عبد العزيز وأهله عبد من عبيد الخليفة ، على أن يبقى ملكاً على البجة .

ولا أدرى كيف يبيح كنون للخليفة مثل هذا النفوذ الواسع ؟ إن هذا يوحى بأن ثمة إمارة إسلامية قد قامت فى بلاد البجة فى ذلك الوقت وأن هذه الإمارة اعترفت بسيادة الخليفة ونفوذه شأنه شأن الإمارات الاسلامية الخاضعة .

وقد نص هذا العقد على أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام ، وقد قدر هذا الخراج بنحو مائة من الإبل ، أو ثلاثمائة دينار ... ولماذا لم تفرض الجزية مثلا ؟ ؟ ألا يدل هذا على أن رعية كنون هذا كانت على الإسلام ؟

ثم رسم هذا العقد أسس التعاون المشترك بين مصر وشعب البجة ، فقضى بألا يقتل البجة مسلماً ولا ذمياً حراً أو عبداً ، وألا يعينوا أحداً على المسلمين بل يؤمن هذا العهد التجارة المتبادلة بين القطرين ، فإذا دخل أحد المسلمين فى بلادهم للتجارة مجتازاً أو مقيما فهو آمن لآخر حدهم ، ويؤمن البجة على هذا النحو إذا رحلوا الى مصر .

ويشير هذا العهد إلى المساجد التى بناها المسلمون فى صنجة وهجر ، وأنها آمنة لا تهدم ، ولا تمتد إليها يد بسوء ، ويؤكد هذا العقد تبعية إمارة البجة هذه للخلافة العباسية ، فقد أباح لعمال أمير المؤمنين أن يدخلوا البلاد لقبض

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٩٥ .

صدقات من أسلم من البجة ، وهل تخصص الدولة عمالا لتحصيل الزكاة إلا إذا كانت الجالية الإسلامية عظيمة الشأن وفيرة العدد (١) ؟

ولم يستقم الأمر بين البجة وحلفائهم العرب وبين الدولة الإسلامية فى مصر ، فقد عاودوا الإغارة على حدود مصر فى عهد الخليفة المتوكل العباسى ، وسير عنبسة بن إسحق القمى ، على رأس حملة كبيرة لإخضاع البجة وحلفائهم من العرب وأجبروهم على دفع الخراج واحترام العقد ، وكان أمير البجة فى هذا الوقت على بابا (٢) .

ورغم ماذكره المؤرخون من أنه كان على الوثنية ، فإننا نعتقد أنه كان مسلماً من ذلك الطراز من المسلمين الذين لم تتعمق هذه العقيدة فى نفوسهم بالقدر الذى يجعلهم يقطعون صلتهم بعقائد الماضى وخرافاته دفعة واحدة .

على كل حال أكد العقد من جديد حق العرب فى الإقامة بأرضه واستغلال مناجم الذهب والزمرد ، هذه الثروة المعدنية التى كانت قد احتلت من اقتصاديات مصر فى ذلك العهد مكانة رفيعة . فما يستخرج من المعدن كان يبعث به إلى والى الفسطاط حيث يتولى أمره ديوان خاص ، وقد اتخذ هذا الديوان على نحو ما يذكر المقريزى ضمانات لصيانة هذه الثروة « بتفتيش الفعلة عند الخروج من كل يوم حتى تفتش عوراتهم (٣) » .

بل هذا العقد الذى جدد سنة ٢٤١ هـ بعد حملة القمى أباح لمصر أن تعين من قبلها عاملا حفيظاً على هذه الثروة ، الأمر الذى يدل على أن الاستغلال بلغ النهاية القصوى بالدرجة التى أثارت هذا الاهتمام البالغ .

وقد زادت رغبة العرب فى الهجرة عن ذى قبل ، بعد أن ضمنت الدولة سلامتهم ، وبعد أن أثمرت الجهود السابقة فى التقريب بين العرب والبجة . وكان كثيرون من جنود الحملات الحربية المسيرة لقتال البجة يعجبهم الحال فيفضلون المقام فى البلاد ويتخلفون عن العودة (٤) .

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد جـ ١ ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٢ .

(٣) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٣٢ .

(٤) ابن حوقل ص ٥٣ .

وضحت هذه التأثيرات العربية بعد هذه الأحداث بنحو قرن من الزمان ، ذلك أن المسعودى(١) الذى زار مصر سنة ٣٣٢ هـ يتحدث عن البجة واختلاطهم بربيعة وازدياد صبغتهم العربية ، وعن الأمير ربيعـة أبى مروان بشر بن إسحق وجيشه الذى بلغ ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها ، وثلاثين ألفا على الإبل من الحدارب وهم من مسلمى البجة .

وأعتقد أن هذه الإمارة البجاوية قد أصبحت لربيعة ولجيل مولد من آباء عرب وأمهات بجاويات ، وأن هذا الطراز من الأمراء استطاع أن يؤلف بين البجـة المسلمين وبين العرب الوافدين ، وأن يوحد بين أحياء العرب من مصر وتميم .

ويبدو أن هذه الإمارة البجاوية العربية (الحدارب) استطاعت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى أن تتخذ مدينة سواكن قاعـدة لها (٢) . فالمراجع التى تعرضت لمشروعات المماليك فى شرق إفريقية تتحـدث عن أمير حدربى مقره فى مدينة سواكن ، وأن هذا الأمير تعرض للقوافل المصرية الذاهبة إلى الجنوب ، وهذا التعرض كما نعتقد يمثل سوء العلاقات بين العرب والمماليك ، حتى فى بلاد النوبة نفسها عمد الكنوز وغيرهم من العرب إلى الثورة على المماليك والوقوف فى وجههم .

وقد أراد الظاهر بيبرس أن يؤكد نفوذ مصر القديم الذى وضح منذ أيام على بن الجهم ، وأن يؤمن تجارة مصر الدولية . فأرسل تجريدته المشهورة إلى سواكن ، التى ثبتت نفوذ مصر ، وجعلت أميرها الحدربى نائباً خاضعاً للسلطان المملوكى ، كما جرد الناصر للناصر محمد بن قلاون حملة مشابهة لتأمين طرق التجارة وتأديب العناصر العاصية (٣) .

ويبدو أن الإسلام كان قد بدأ منذ مستهل القرن العاشر الميلادى يقطع خطوات فى طريقه صوب الجنوب . إذ يتبين من رواية اليعقوبى أنه بدأ ينتشر بين البقلين فى وادى بركة . فهو يذكر أنهم من البدو وأنهم خاضعين إسماً لملك علوة ، غير أن ملكهم مسلم يتكلم العربية وأن كثيرين من مسلمى البقلين يحجون إلى مكة .

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٢ — ٣٤ . (٢) ابن بطوطة — ١ ص ١٤٨ .
(٣) حامد عمار ص ٨٩ .

وهذا بدوره يحدد لنا الخطوات التي كان الإسلام يقطعها في طريقه نحو الانتشار فهو ينتشر بين أفراد الطبقة الحاكمة ، يعتنقه ملوك من أمهات بجاويات وآباء عرب ، ثم ينتشر بالتدريج بين عامة الناس(١) .

ويخيل إلينا أنه لولا البليين الذين انتشروا في ساحل إرتيريا وشمال الحبشة واعتنقوا المسيحية لاستطاع هذا النفوذ الإسلامي المنحدر من الشمال أن ينطلق متدفقاً إلى أرض الحبشة نفسها في صورة قوية واضحة (٢) .

ورغم هذا فإن هذا الطريق البري قد أدى رسالته المرسومة ، وأسهم بطريق غير مباشر في نشر الإسلام في بلاد الحبشة نفسها ، وقد رأينا كيف لعب التجار المنحدرين من مصر عبر هذا الطريق دوراً عظيماً في تسرب الإسلام تسرباً سلمياً(٣).

هذا عن الطريق البري فلننظر إلى أي مدى أسهم الطريق البحري في نشر الإسلام في هذا الجزء من إفريقية .

لم يكن من المعقول أن يقطع الإسلام الصلات البحرية الوثيقة بين شرق إفريقية وجزيرة العرب ولم يتسبب الإسلام في جميع الأقطار التي تسرب إليها في إحداث تغيير مفاجيء في حياة الشعوب . أبقى على الصلات البشرية القديمة ، بل نماها وضاعفها .

وصلات شرق إفريقية بعوالم البحر الأحمر والمحيط الهندي صلات قديمة موغلة في قدمها ، ترجع إلى أيام الساميين القدماء وتدفقهم إلى بلاد الحبشة وتركهم أثراً في حياة البلاد باقي حتى اليوم .

ولم تنقطع صلات الحبشة ببلاد العرب طوال العصور التاريخية ، بل كانت الأيام تزيدها توطداً ، لأنها علاقات أملتها الظروف الطبيعية المتبادلة وتوطدت الصلات التجارية إلى أبعد الحدود . وامتدت هذه الصلات إلى بعض القبائل العربية الشمالية ؛ وصلة قريش بنجاشي الحبشة ، أوضح من أن يعرف بها .

وكان العرب قد عرفوا أسرار المحيط الهندي ، وكثرت رحلاتهم إلى شرق

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia. p. 60.

(٢) Ibid p. 51.

(٣) Ibid p. 60.

إفريقية وإلى بلاد الهند ، وإذا كان الإغريق والرومان قد عرفوا أسرار هذا البحر ، ونفذوا من البحر الأحمر جنوباً ، وأدركوا شرق إفريقيــة مبحرين محذاء الساحل ، متعاملين مع بعض المدن الساحلية القائمة عند مصبات الأنهار ، فإن العرب عرفوا هذه الأسرار قبلهم بنحو قرنين (١) ، وارتادوا هذه الأسواق النائية قبل أن يعرفها الإغريق أو الرومان .

عرف العرب تجارة هذه المناطق وحملوا العاج والرقيق وزيت النخيل وغيره من الحاصلات الاستوائية .

والأستاذ كوبلاند (٢) يرى أن هذا النشاط قد بلغ الغاية فى مستهل القرن السابع الميلادى ، حين خرج المحيط الهندى من ظلمة المجهول ، وبدأ يزدحم بالتجار الأسيويين خصوصاً التجار العرب ، الذين أوغلوا شرقاً فوصلوا إلى الصين ، وكانت لهم علاقات وطيدة مع جزر الهند الشرقية والفلبين ، كما أنشأوا المحطات التجارية فى قالقوط وساحل ملبار وملقا وشبه جزيرة الملايو ، وأنشأوا مستعمرة فى كنتون ، وحملوا سلع الشرق الأقصى وسلع إفريقية إلى أسواق أوربا فكيف يغير الإسلام من هذه العلاقات التى وطدتها الظروف ؟

لا ننكر أن التوسع العربى العظيم الذى امتد فى سرعة مذهلة إلى بلاد الشام والعراق ومصر قد أذهل الحبشة ، وقطع صلتها القديمة بالعالم الهلينى والبيزنطى ودنيا البحر الأبيض المتوسط ، وأقفل مؤقتاً الأسواق التى اعتاد تجار الأحباش أن يتعاملوا معها .

وتعرضت الحبشة لأخطار جسمية تهدد كيانها ، فعاش البجة فى السهول الواقعة بين الهضبة والبحر ، وقطعوا الطرق وأغاروا على المدن ، وعطلوا الحياة الاقتصادية ، وتعرض الأحباش لمتاعب داخلية جمة منذ هجرات اليهود عام ٦٤٠ م(٣) وتوارت طوائف من الوثيين من أهل البلاد ، غير أن هذه الظروف الطارئة لم يقدر لها أن تبقى طويلا .

---

(١) Hourani ; Arab sea faring. p. 51.

(٢) Coupland : East africa, p. 16.

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia. pp. 43-44.

واتصال الحبشة بالمسلمين قديم يرجع إلى السنة الخامسة من الهجرة حين آوى المسلمين إلى النجاشي اعتصاما بعدله ونجاة من أذى قريش وعدوانها .

غير أن هذه الهجرات الإسلامية الأولى لم تترك أثراً في حياة البلاد ، وإن كانت قد تركت أثراً في نفوس الناس ، وأطلعتهم على الينبوع الروحي الجديد المنفجر بالقوة والحياة ووطدت الصلات بين الدولة الإسلامية في عهد الرسول وبين الأحباش ، إذ لم ينس الرسول عليه الصلاة والسلام مكرمة الأحباش : كان يكرم الوافدين منهم ، ويحمل لهم أطيب الذكريات وأحبها .

ثم بدأت الدولة الإسلامية تحتك بالحبشة في عهد عمر بن الخطاب وفي سنة ٢٠هـ على وجه التقريب . إذ تذكر الأخبار أن الخليفة أرسل سرية من المسلمين بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي فلم توفق ، الأمر الذي جعل الخليفة يأخذ على نفسه عهدا بألا يحمل في البحر أحد للغزو(١) .

وأخبار هذه الحملة لا تتفق مع علاقات الود التي سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول . ولم يكن عمر بالرجل الذي يخرج على أمر قرره الرسول . بل قيل إن الخليفة قضى بألا تعتبر أرض الحبشة أرض جهاد .

والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد عادية قرصان البحر من الأحباش ، لأن هؤلاء الأحباش عاودوا الإغارة على جدة ، سنة ٨٣ هـ فلم يجد المسلمون بداً لدفع أذاهم وحماية شواطىء بلاد العرب من أن يتخذوا لهم في البحر قاعدة قريبة من الشاطىء الإفريقي ، فنزلوا أرخبيل دهلك على مقربة من مصوع (٢) .

ويبدو أن السيادة الإسلامية على هذا الموقع الاستراتيجي قد بقيت طوال العصر الأموي ، بدليل أن صاحب الأغاني(٣) يشير إلى ما كان من نفي الأحوص الشاعر والفقيه ، عمال بن مالك إلى هذه الجزر .

واستمرت هذه السيادة حتى عصر المأمون ، فالطبري يذكر أن هذه الجزر تعرضت لغارات الهند في النصف الأول والثاني من القرن الثامن ، بسبب نفي ابن

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٠ :
(٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٦ .
Basset : Les Inscriptions de l'ile de Dahlak.
(٣) الأغاني جـ ٤ صفحات ٢٣٩ — ٢٤٦ — ٢٤٨ — ٢٢٠ .

عبد الجبار حاكم خراسان من قبل المأمون . ووجدت بهذه الجزر نقوش عربية تاريخها منتصف القرن التاسع الميلادى (١) .

ويبدو أن الدولة الإسلامية إنسحبت بعد ذلك ، ولكنها تركت فى هذه الجزر جالية من المسلمين من أهل البلاد ، فكانت جزر دهالك أول رأس أجسر بقيمه الإسلام على الساحل الشرقى لإفريقية .

ويبدوا أن هذه كانت آخر محاولة للتدخل الرسمى فى شرق إفريقية فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسرباً سلمياً بطيئاً فى ركاب المهاجرين إلى إفريقية من التجار والمغامرين عبر المسالك البحرية المعهودة .

ثم استطاعت بلاد الحبشة أن تخلص من عزلتها ومن متاعبها الداخلية التى شغلت بها منذ النصف الأخير من القرن السابع الميلادى ، فقد استأنفت نشاطها المألوف ، وعادت إلى عالم التجارة توطد صلاتها بالأسواق التجارية القديمة فى بلاد العرب وفى مصر .

عادت توطد علاقتها باليمن بعد أن انقطعت فى غمرة الأحداث الماضية فعقدت معاهدة صداقة مع إبراهيم ابن زياد المعروف بالصاحب الحرملى (٩٠١ — ٩٠٢) (٢) ، وبدأت سفن اليمن تبحر من زبيد فى طريقها إلى موانى شرق إفريقية ، واستطاعت الحبشة أن تعيد صلتها بمصر فى النواحى الاقتصادية ، ولعل هذا يتفق مع ما شهده القرن الثالث الهجرى من اتفاق بين البجة والعرب لمواصلة التجارة مع الحبشة ، وقد وطدت أيضاً صلتها الدينية بالكنيسة اليعقوبية فى مصر . فأرسلت مصر بطريركا جديداً إسمه دانيال (٣) (٩٢٣ — ٩٣٤) .

عودة هذه العلاقات التجارية كان معناه اتساع أفق المبادلة التجارية بين الحبشة وبين وبلاد العرب . وقد توسع الطرفان فى تجارة الرقيق إلى أبعد الحدود بسبب إقبال الإمارات العربية المستقلة على الاستعانه بالجنود السودانيين عوضاً عن جنود العرب الذين تفرقوا فى الأمصار .

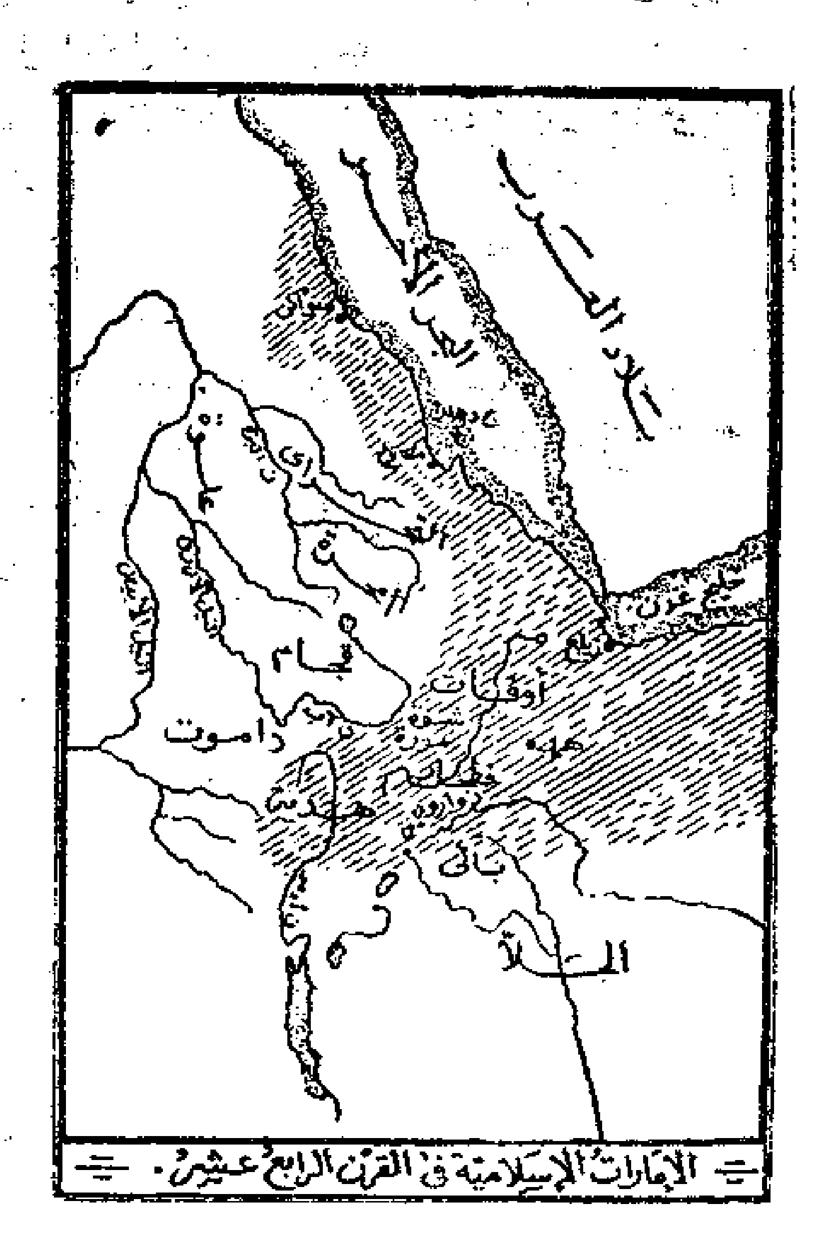
---

(١) Trimingham, op. cit. p. 45.

(٢) Trimingham, op. cit. p. 51.

(٣) Ibid p. 53.

واتساع التجارة المتبادلة والتوسع فى تجارة الرقيق بصفة خاصـة كان معناه كثرة الوافدين على شرق إفريقية من التجار والمغامرين والوسطاء ؛ فشهد هذا القرن نمو المدن الساحلية بهؤلاء الوافدين من تجـار المسلمين والمشتغلين بتجارة الرقيق وغيرها من التجارات .



الإمارات الإسلامية فى القرن الرابع عشر .

وظهرت فى هذا العصر جاليات إسلامية قوية فى دهلك وسواكن وباضع وزيلع وبربرة وكتاب القرن العاشر جميعهم مجمعون على ظهور هـذه المدن زاخرة بالحياة الاسلامية .

المسعودى (٩٣٥) وابن حوقل (٩٣٧) وغيرهم يتحدثون عن دهلك باعتبارها مركزا هاماً للتجـارة وعن علاقتها ببلاد اليمن وبأبى الجيش بن زياد ملكها . فقد كان يتلقى العبيد والعاج . وعمارة اليمنى يقدر عدد العبيد بنحو ألف رأس نصفهم من الأحباش : ونصفهم الآخر من نساء النوبة (١) .

ويذكر هؤلاء أيضاً أن دهلك كانت تدفع الأتاوة لملك الحبشة . ولم تقطع دهلك صلتها ببلاد اليمن وظهرت أهمية زيلع كمركز من هذه المراكز التجارية الهامة(٢) واليعقوبى (٣) أول مؤرخ عربى يشير إلى هذه المدينة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، كما نجد إشارات فيما ذكره الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

وقد زادت هذه المدن سعة من المال وزيادة فى أعداد الجاليات الإسـلامية الوافدة ، وفى دخول النازحين إليها من أهل البلاد فى الإسلام . فالرحالة بنيامين التطيلى السائح اليهودى الإسبانى الذى رحل من عيذاب إلى أسوان سنة ١١٧١ ، يشير إلى الحياة الإسلامية الحافلة التى شهدها فى هذه المدن الساحلية الهامة (٤)، ولا بد أنها مضت فى طريق النمو طوال القرن الثانى عشر والثالث عشر ، فابن سعيد يذكر أن ملك دهلك حبشى مسلم ، وأنه أراد الاستقلال عن ملك اليمن(٥) .

على كل حال شهدت الفترة الواقعة بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر توطد النفوذ الإسلامى فى السهل الساحلى ، وظهور ونمو مدن إسلامية تنتشر على طول الساحل الإفريقى كأنها العقد أو الطراز(٦) .

هذه المدن المشتغلة بالتجارة لم يكن بعنيها أن تخضع للأحباش وأن تدفع الجزية ، أو تخضع لملوك اليمن إذا أرادوا أن يؤكدوا نفوذهم منتهزين فرصة ضعف الأحباش وانصرافهم إلى مشاكلهم الداخلية .

ولم يكن من المعقول أن يظل النفوذ الإسلامى حبيسا فى هذه المدن الساحلية ،

---

(١) عمارة تاريخ اليمن (نشرة وترجمه كاى سنة ١٨٩٢) ص ٨ .

(٢) Trimingham ; op. cit. p. 61.

(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان .

(٤) Trimingham ; op. cit. p. 57.

(٥) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٣٥ .

(٦) المقريزى : الإلمام ص ٣ .

بل كان لا بد أن ينفذ إلى المناطق الداخلية . فما هى الوسيلة؟ . وما هو المدى الذى وصل إليه ؟

كان هؤلاء التجار الوافدين هم عدة الدعوة الإسلامية فى سبيلها نحو الانتشار . فقد كانوا يخالطون أهل البلاد الأصليين ويتزوجون من نسائهم ، ويوطدون صلاتهم بهم إلى أبعد الحدود : بل كان هؤلاء التجار يفتحون الكتاتيب لتحفيظ القرآن ، ويرسلون الطلاب المتفوقين إلى الحرمين أو القاهرة أو دمشق .

وكانت هذه المدن الساحلية أسواقا ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليين من الصوماليين أو الدناقل أو البجة لبيع حاصلاتهم ، وشراء ما يحتاجونه أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل ، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة الإسلامية عن كسب ، ويدفعهم إلى إعتناق الاسلام لينشروه بين ذويهم إذا عادوا إلى بلادهم (١) .

ثم كان نفوذ هؤلاء التجار يتجاوز المناطق الساحلية ممتداً إلى الداخل ، فكانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية التماسا للتجارة ، ويقيمون بها بعض الوقت ثم ينحدرون إلى الساحل من جديد ، وفى أثناء إقامتهم يخالطون الناس وينشرون الإسلام .

وأهم من هذا أنهم كانوا يوطدون صلاتهم بالطبقة الحاكمة ، وكان الأمراء والحكام يرحبون بهم ترحيبا عظيما ، فهم وسيلتهم للكسب والثراء . فقد كانوا يساعدون هؤلاء الناس على تصريف منتجاتهم ، وشراء ما يحتاجون إليه .

وكانت الصدقات تنقلب إلى دعوة إلى الإسلام ، وكثيراً ما كانت تنجح فيسلم الامير وتتبعه حاشيته ثم تتأسى به الرعية . فقد كان بنو ولشمع أمراء أوفات من نبلاء البلاد الأصليين ، وكذلك كان حكام الأمارات الإسلامية التى ظهرت فى فى داخل البلاد .

ويبدو أن الإسلام نفذ إلى الداخل فى وقت مبكر ، ربما فى القرن الثالث الهجرى ، حين تطرق إلى شرق منطقة شوة حيث قامت سلطنة إسلامية عملت على توطيد العقيدة الإسلامية فى جنوب شرق الحبشة ، وقد ألقى ضوء جديد على تاريخ

---

(١) Trimingham : pp. 61–62.

هذه السلطنة حينما عثر Cerulli (١) على مختصر لتاريخ سلطنة شوة الإسلامية فى نهاية القرن الثالث عشر .

وقد تبين أن هذه السلطنة أسستها أسرة عربية تسمى بأسرة بنى مخزوم سنة ٢٨٣هـ (سنة ٧٩٦م) . وليس من شك فى أن بنى مخزوم هؤلاء مهاجرين عرب نفذوا إلى هذه الجهات فى هذا الوقت المبكر ، وليس بعيداً أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر فى ضيافة إمارة محلية ، ثم اختلطوا بالأمراء عن طريق المصاهرة ، حتى آل إليهم الملك آخر الأمر .

ومما يؤسف له أن هذه الوثيقة التى نشرها تشيرولى لا تعرض إلا للمرحلة الأخيرة مرحلة اضمحلال هذه الامارة ، حينما مزقتها الفتن الداخلية والصراع مع الامارات الإسلاميةالأخرى . وفى سنة ١٢٧٧ استطاع ولشمع أمير إحدى هذه الامارات أن يهاجم شوة (٢) ويسقط بنى مخزوم سنة ١٢٨٥ .

بعد ذلك بسنوات استطاع هذا الفاتح أن يفرض سلطانه على الامارات الأخرى عدل — مورة — هوبت — جداية ، فى الوقت الذى انتهت فيه الأسرة الحبشية القديمة وخلفتها الأسرة السليمانية . هذه الامارة الجديدة التى قامت على أنقاض شوة هى إمارة « أوفات » .

وفى نفس الوقت تقريباً كان التيار الإسلامى يتسرب إلى ممالك صدامة جنوب بلاد الحبشة ، وفى مرتفعات شرق شوة . وفى الوثائق التى اكتشفها تشيرولى ما يشير إلى جهود بذلها سلاطين شوة فى نشر الإسلام صوب الداخل سنة ١١١٨ فى بلاد أرجبه argobbs فأضيفت إلى أملاكهم .

وقد تحولت المراكز التجارية التى انتشرت فى الداخل إلى إمارات اسلامية نامية : هدية — فطجار — أوفات — دارة — بالى وأرابينى وشرخا (٣) .

---

(١) Cerulle; Il Sultanato dello Shoa nel secolo XIII, R.S.E.I. 1941. pp. 5–42.

(٢) المقريزى : الإلمام ص ١٦ وما بعدها .

Trimingham, p. 58.

(٣) المقريزى : الإلمام ص ١٢ — ١٣ .

وامتدت هذه الإمارات إلى هرر وبلاد اروسى جنوبا حتى البخشيرات مطوقة الحبشة ألن الحبشة من الجنوب والشرق .

وقد وجدت نقوش عربية ببلاد أروسى جمعها p. azais فى مقال له عنوانه

Cinq années de regcherche Archeologique en Ethiopie (1931).

قد وجد نقشان عربيان بتاريخ ٦٦٦ و ٦٧٥ هـ (١٢٦٧ — ١٢٧٦) (١)

وامتد التيار الإسلامى فدخل الهضبة الحبشية نفسها ، فأبو صالح الأرمنى يذكر أنه قد أسلم كثيرون فى بلاد الحبشة فى مستهل القرن الثالث عشر ، وكان المسلم يدفع الجزية . وقد اكتشفت قبور بها نقوش عربية فى جنوب نجراى عند Wager Hariba . واحد تاريخه ٨ ذى القعدة سنة ٣٩٦ هـ .

وتميل ترمنجهام (٢) إلى أن ينسب ذلك إلى نشاط الآباء المسيحيين أنفسهم متعاونين مع ولاة مصر ، فكانوا فى الحقيقة دعاة إلى الإسلام ؛ فى سنة ١٠٤٧ استطاع مغامر يدعى عبدون أن يزور الوثائق ، ويتولى منصب مطران الحبشة ، وتدخل بدر الجمالى وزير المستنصر وعين أبا ساويرس مطراناً على هذه البلاد . فلما رحل إليها بدأ ينفذ الاتفاقية التى عقدها مع بدر الجمالى بنشر الإسلام ، وإنشاء المساجد .

وهذا تعليل ضعيف لا يتفق مع المنطق ، فكيف يصدق أن ينقلب المطارنة دعاة إلى الإسلام إلا إذا كانوا قد أسلموا فعلا : الأولى أن يرد تسرب الإسلام على هذا النحو إلى قلب الحبشة إلى جهود الدعاة المسلمين وجهود التجار على الخصوص .

* * *

هذا عن الجزء الشمالى الشرقى من إفريقية فلننظر كيف قامت مراكز إسلامية مماثلة على طول ساحل الصومال جنوباً حتى زنجبار .

هجرة العرب وإقامتهم فى ساحل شرق إفريقية لم تكن أمراً أستحدث بعد ظهور الإسلام . فقد اكتشف المغامرون من البحارة العرب بحر الزنج وكثر

---

(١) Trimingham. p: 63.

(٢) Trimingham, p. 63.

او تحالهم إلى الشاطىء الغربى للمحيط الهندى لمبادلة منتجات آسيا بذهب إفريقية وعاجها وصمغها .



المدن الإسلامية فى شرق إفريقية

وقد كشف البحار الإفريقي Periplus (١) عن هذه الجهود العربية القديمة وأعطانا صورة حية لمغامرة هؤلاء البحارة ومعرفتهم بالمنطقة الممتدة من رأس غور دافوى شمالا حتى زنجبار جنوباً ، عرض لرحلاتهم ومغامراتهم ، وتحدث عن السلع التى تاجروا فيها وعن السفن الكبيرة بقباطنتها العرب ، التى كانت فى نقلة مستمرة بين موانى آسيا وبين هذه الجهات النائية .

(١) W.H. Schoff, The Periplus of the Erythraean Sea.

ولم يكد القرن الأول ينقضي حتى كان هؤلاء المغامرين قد انتقلوا من مرحلة الرحلات الخاطفة إلى مرحلة الاقامة والاستقرار . فقد أنشأوا مستعمرات على طول هـذا الساحل أقاموا فيها المنازل وجلبوا أهلهم وذويهم وطاب لهم المقام .

كانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر يمكن الدفاع عنها إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا لها بسوء ، ولانعرف عن هذه المدن القديمة شيئاً يذكر(١) ، وكل ما نعرفه أن ظهور الإسلام وانتشاره فى بلاد العرب كلها ومتداده إلى الشرق الأدنى والأوسط امتد أثره إلى هذه البقعة النائية من إفريقية فخرجت من ظلمه المجهول إلى وضح التاريخ ، حين أسلم المقيمون فيها والمختلفون إليها .

وكأن إسلام المغامرين من البحارة العرب أو الفرس كان نذيراً ببروز هذه المدن ، وبظهورها فى سماء الحياة الإسلامية ، وبدأت هذه الآفاق النائية تتأثر بأحداث الشرق ، ولم يعد يقصد إليها التجار مقيمين أو مسافرين ، إنما بدأت طوائف أخرى من المهاجرين تشد الرجال إلى الجنوب فراراً من ضغط سياسى أو مذهبى ، أو تفريجاً لضائقة اقتصادية ، أو التماساً لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة هؤلاء المسلمين الراحلين إلى الجنوب هم الذين تسببوا فى بروز هذه المدن ، وظهورها فى ميدان الحياة الإسلامية .

ويبدو أن أول هجرة من هذا القبيل حدثت فى القرن السابع الميلادى أو فى سنة ٦٩٥ على وجه التحديد . وقد ألقى الأستاذ هتشنز Hichens المزيد من الضوء على أخبار هذه الهجرة ونتائجها حين عثر على كتاب ألفه شيبو فرج بن حمد الباقرى (عنوانه أخبار لامو) (٢) ، يعرض فيه لتاريخ هذا البلد والهجرات الأولى التى تدفقت إليه ، فيذكر أن هذه الهجرة الأولى تمثل فريقاً من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف ، فرحلوا إلى الجنوب . ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين كانت

---

(١) Hichens : Islam in East africa p. 115.

(٢) شيبو فرج بن حمد الباقرى : خبر لامو .

Trans : W, Hichens Witwatersand press, Johannesberg. 1938,

عظيمة لأنهم استطاعوا إخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء ويونى الحصين ، وكانت به جالية تزيد عن عشرة آلاف من الرجال المسلمين .

ثم وفد فى هذا الوقت أيضاً فريقاً من أهل عمان ، وممن هاجر منهم سليمان وسعيد أبناء عباد الجندى ، وهم من أزد عمان الذين أعلنوه الثورة فى وجه الخليفة عبد الملك ، وظلوا يقاتلون قوات الأمويين حتى غلبوا على أمرهم ، واضطروا إلى الفرار إلى بلاد الزنج .

وإذا كان الأستاذ كوبلاند(١) لايعرف أين انتهى بهم المطاف فإن صاحب تاريخ لامو يلقى المزيد من الضوء على هؤلاء العمانيين : فقد كانت هذه الأرستقراطية العربية الوافدة سبباً فى ظهور إمارة إسلامية فى هذا العصر فى مدينة لامو شمال ممبسى ، إذ استطاع حفيد هؤلاء ويسمى الحاج سعيد فى مستهل القرن الثامن الميلادى أن يؤلف حكومة دمقراطية تستهدى تعاليم مذهب الخوارج الذى تفشى بين أزد عمان .

وصاحب تاريخ لامو يذكر كيف أن المهاجرين من الشام والهند بمدينة حديو ، وأهل مدينة ويونى قد بايعوا سعيداً بالزعامة ، ورسم لهم أن تقسم المدينة إلى أحياء صغرى ، لكل منها شيخها ، وشيوخ الأحياء كلهم يؤلفون مجلساً استشارياً يشاركه المسئولية .

وأصبح المواطنون جميعهم أحراراً لكل منهم الحق فى أن يلجأ إلى هذا المجلس طالبا الإنصاف إذا مسه سوء . فكانت إمارة لامو هذا أقدم الإمارات الإسلامية ظهوراً فى ساحل شرق إفريقية (٢) .

ثم انحدرت هجرة مماثلة لأسباب دينية هذه المرة ، فقد حدث انقسام فى صفوف الشيعة ، واضطر كثيرون من الزيدية إلى الإعتصام ببر الزنج . خرجوا سنة ٧٢٩م واستقر بهم المقام فى شنجايا shanguya ، ويحدد كوبلاند موضعها ، فيذكر أنها فى موضع مدينة Port Dunford (٣) الحالية ، ويبدو أن هذه المدينة لم تبرز فى هذا المجتمع ، ولم تظفر بالشهرة والنجاح الذى ظفرت به الإمارات السابقة .

---

(١) Coupland : East africa p. 20.

(٢) Hichens : Islam in Eart africa p. 110.

(٣) Coup Land : East africa p. 21.

وكأن كل هجرة من هذه الهجرات كانت مقدمة لظهور مدينة جـديدة ونشأة إمارة اسلامية جديدة .

ففي القرن العاشر الميلادي أو في سنة ٩٠٨ على نحو ما يذكر صاحب كتاب خبر لامو ، أو سنة ٩٢٠ على نحو ما يذكر كوبلاند خرج سبعة أخوة من الأحساء خلال الصراع الدموى الذى اشتد بين الخلافة وبين القرامطة .

ومما يذكر في هذا الصدد أنهم هاجروا في ثلاث سفن ، ونزلوا على ساحل الصومال . وأسسوا مدينة مقدشو وطردوا الزيدية إلى الجنوب ، وتحالفوا مع أهل البلا د الأصليين من الصوماليين ، وظهرت مقدشو كركز تجارى يشتغل بتجارة الرقيق على الخصوص ، ثم أنشأوا براوة ويسميها الإدريسي (١) بروات كما أشار إلى مركة التي تقع عند نهر وبي ، بل يشير الإدريسي إلى مواضع أخرى يشير إلى قرفاوة ومركة والنجا وبذونة . ويضيف هنشز (٢) إلى هذا قوله أنه أنه ظهرت مدن أخرى مثل ماندا في جزيرة ماندا ، وأوزى وشاكه قرب دلتا تانا

ثم جاءت هجرة ثالثة تمخضت عن ظهور مدينة أخرى ، وإمارة إسلامية جديدة . خرجت عدة سفن من شيراز على الخليج الفارسي ، بل نرى الشيخ محي الدين الزنزبارى الذى لخص كتاب السلوى في تاريخ كلوا يذكر (٣) أن هذه السفن كانت سبعاً عدداً . وأنها حملت حسن صاحب شيراز وأبناءه الستة فارين بأنفسهم ملتمسين مهجراً جديداً يأوون إليه .

لكن يختلف في تحديد تاريخ هذه الهجرة ، فصاحب هذا التاريخ يردها إلى القرن العاشر ، أو على وجه التحديد إلى سنه ٩٧٥ م ولكن هنشز (٤) اعتماداً على بعض التواريخ المحلية ، يذكر أن هذه الهجرات تمت بين سنتى (١٠٥٥ - ١١٠٠) ، وأن الشيرازيين المهاجرين كانوا من الشيعة ، وأنهم فروا من وجه طغرل بك السلجوقي الذى فتح شيراز سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) وهذا الرأى أقرب إلى الصحة .

---

(١) انظر الإدريسي : كتاب المهج وروض الفرج .
R.S.O. IX, 450, 452.

(٢) Hichens : Islam in East africa p. 116.

(٣) S.A, Strong : History of Kilwa, J.R.A.S. 1895.

(٤) Hichens, 117.

استقر السلطان الفار بمدينة كاسوا ، وتفرق أبناؤه على الساحل . كل ينزل بالموضع الذى يحب . وظهور هذا السلطان كان نذيراً بظهور إمارة كلوا الشهيرة وكأن ظهورها كان رهناً بهجرته ، وقد نمت جزيرة كلوا فى عهد الشيرازيين هؤلاء وتوطدت علاقاتها بزنجبار (٢) وأنشىء بها مسجد آثاره باقية حتى اليوم (١).

وفى آخر هذا العصر تمت آخر هذه الهجرات فظهرت آخر الإمارات . ففى مستهل القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٣) استطاع سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى صاحب عمان أن يتزوج أميرة سواحيليه إبنة إسحاق حاكم باتا Pate (٢) ، ثم ورث الملك وأصبح أميراً شرعياً ، ثم نقل بلاطه من عمان إلى شرق إفريقية وتأسست الأسرة النبهانية فى مدينة باتا Pate وستقوم هذه الإمارة فى ظلهم بدور بارز فى تاريخ الإسلام فى شرق إفريقية .

إذن لم يكد القرن الثالث عشر ينتصف حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقى لإفريقية . من سواكن شمالا حتى موزمبيق جنوباً ، أو كما يقول داورتى باربوزا (٣) .

From the dawn of the fourteenth century the fair citadels of Islam Lay Like a string of lustrous pearls along the green cushion of the verdant coast ' their marts busy with merchants and seafarers and caravans, trafficking in ivory, spices gums slaves and gold".

هذه المدن اشتغلت بالتجارة فى المحل الأول ، لكنها كانت مركزاً لحياة إسلامية قوية ، وأماكن وثوب تتجمع فيها المؤثرات الإسلامية لتنتقل إلى ماورائها وليس ببعيد أن يكون الفقهاء ورجال العلم قد اقتفوا أثر التجار غير أن الثقافة العربية فى هذا الدور لم تتضح معالمها بصورة كافية .

* * *

---

(١) Dorman : The Kiliva Civilisation. T.N.R. 1938.

(٢) Fiury ; The Kufic inscriptions of the Kisimkazi. Mosque, J.R.A.S., 1922.

(٣) Werner : History of pate, J.R.A.S. 1915.

(٤) M.L. Dames : The Book of Duarte Barbosa.

٢ — دور الازدهار

يبدأ هذا الدور عند منتصف القرن الثالث عشر ، حين وضح نمو هذه المدن التجارية التي تناثرت على طول ساحل إفريقية الشرقي ، زادت ثروة وغنى ، وزاد الإسلام رسوخاً بين أهلها ، وبدأت تتسع رقعتها بالتدريج ، ممتدة إلى المناطق الداخلية وتحولت إلى سلطنات إسلامية واضحة المعالم .

غير أن هذه السلطنات تختلف عما رأيناه في أقطار إفريقية الأخرى في نفس هذه المرحلة من التطور . لم تكن هذه السلطنات إفريقية خالصة ، أسسها أسرات من أهل البلاد الأصليين الذين أسلموا ، إنما أسسها أسرات عربية الأصل أو عربية النسب .

فسلاطين أوفات وسلاطين مقدشو وغيرها من السلطنات الإسلامية يمثلون أرستقراطية عربية مهاجرة استقرت بهذه الجهات ونمت ثرواتها واتسع نفوذها وكثر أتباعها وتسلمت مقاعد الحكم في هذه السلطنات . وإذا كانت السلطنات عربية على هذا النحو فإن الرعية المسلمة كانت من أهل البلاد الأصليين ، من الأعفار والصوماليين ، أو من قوم خليط من العرب الوافدين وأهل البلاد الأصليين

ويمتاز هذا الدور أيضاً بأن السلطنات ما كادت تكتمل نموا وتزداد قوة حتى خاضت غمار حرب صليبية شديدة الوطأة استنزفت موارد هـــذه السلطنات ، وقللت من نشاطها الثقافي ، وشغلت عليها كل وقتها .

وكان انتشار الإسلام في شرق إفريقية بل بقاء الإسلام يتوقف على نتيجة هذا الصراع الدموي الذي لم تهدأ ثائرته ، وعلى نصيب هذه السلطنات من النجاح في حماية المسلمين ، وصيانة التراث الذي توطد في البلاد منذ عهد بعيد .

ولم تنج سلطنة أو إمارة من الاشتباك في هذه الحرب الضروس ، الإمارات الواقعة إلى الشمال من مقدشو اشتركت في حرب الأحباش وفي مدافعتهم واشتركت الإمارات الجنوبية في مكافحة الخطر البرتغالي المتدفق من الجنوب .

فلنعرض للخطر الصليبي الذي ظهر في ميدان شرق إفريقية ، الخطر الحبشي والبرتغالي .

انتقل الأحباش من التعاون والمسالمة إلى العدوان السافر الصريح . هذا العدوان وطبيعته واتجاهاته وآثاره في حاجة إلى أن نقف عنده بعض الشيء ، ونحاول تفسيره تفسيراً مقبولا .

شهد هذا العصر ما في ذلك شك خروج الحبشة من متاعبها الداخلية ظافرة منتصرة ، استطاعت في ظل الأسرة السليمانية أن تسترد وحدتها الداخلية كاملة (١)

وكان ظهور هذه الأسرة السليمانية مقترناً بجهود ضخمة لصبغ البلاد بالصبغة المسيحية الواضحة والقيام بجهد واضح لنشر المسيحية بين الوثنيين من أهل البلاد ،

تزعم هذه الحركة القديس الحبشي أوسيطاطيواس (St.E wastatewas) (٢) أو بندكت الحبشة الذي قاد هذه الحملة التبشيرية الواسعة في غرب شوة وبلاد داموت ، واقترن ذلك بجهود ديرية ضخمة ، بني دير في شوة ونشطت الحركة الديرية في البلاد لإصلاح العقيدة المسيحية وبعث الحياة الإجتماعية بعثاً جديداً .

فلما أفاقت الدولة من متاعبها الداخلية بدأت تتطلع إلى هذه الإمارات الإسلامية التي حفت بها من الشمال والشرق والجنوب .

وقد يعلل هذا العدوان تعليلا اقتصادياً ، حين وجد الأحباش أن المسلمين استطاعوا في العصور السابقة أن يسيطروا سيطرة كاملة على الحركة التجارية بين موانى البحر الأحمر وداخل البلاد .

بل سيطروا على التجارة الخارجية كذلك ، وأصبحت موارد البلاد وعلاقاتها بالعالم الخارجي في قبضة المسلمين ، وقد نجم عن هذا اختفاء بعض المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة بالتجارة من قبل مدينة أكسوم . فقد فقدت نشاطها القديم بسبب احتكار المسلمين لتجارة البحر الأحمر ، وما خلفه ذلك من نتائج اقتصادية

---

(١) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 65.

Budge, pp. 216, 217, 218, 278, 284, 285, 318, 465, 287, 155, 337, 348, 574, 604, 356, 375.

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 66.

كان على البيت السليمانى أن يعرض لها بالإصلاح ، كما عرض لإصلاح نواحى الحياة الحبشية الأخرى(١).

وقد يرد هذا الصراع إلى أن القوى الإسلامية قد جاوزت دور النشأة والتكوين وظهرت السلطنات الإسلامية فى سماء الحياة العالمية ، زادت ثروة وقوة، وتضاعف أنصارها تضاعفا مطردا . فلم تشأ أن تبقى على سياسة التعاون القديمة ، إنما أرادت أن تتحدى مملكة الحبشة وأن تبادئها بالعدوان .

قد تكون هذه الأسباب كلها مقبولة إلى حدما ولكنها لاتفسر عمق هذا الصراع الذى لا يكاد ينطفىء حتى يشتعل بأشد ما كان ، وهذه الحروب الدموية العنيفة التى لم تهدأ أبدا طوال هذا العصر ، واستمرت إلى حدما طوال القرن التاسع عشر .

ولا نتردد فى القول بأن هذا العالم الإسلامى فى شرق إفريقية كان مسرحاً لحركة صليبية ضخمة ، لاتستمد أسبابها من داخل الحبشة نفسها ، إنما تستمد أسبابها من قوى عالمية ذات أهداف مرسومة تدفع الأحباش دفعاً نحو الالتحام بالمسلمين ومحاولة إخضاعهم والقضاء عليهم .

فقد كان الأحباش على اتصال بالحركة الصليبية الدائرة الرحى فى بلادالشام ، يعرفون خفاياها ، ويتتبعون أخبارها ، وكانت حركة الاتصال بين الأحباش وبين هذا التيار الصليبى دير أقامه الحجاج الأحباش فى بيت المقدس أبقاه صلاح الدين الأيوبى ولم يعرض له بسوء ، وكان الأحباش يعينون رئيس الدير وينفقون على الرهبان (٢) .

كان الأحباش يتابعون الحركة الصليبية عن طريق هذا الدير ، وكانت مشاركتهم عاطفية لا أكثر ولا أقل . فقد كانت أحوالهم الداخلية والإقتصادية قبل القرن الثالث عشر لا تمكنهم من المشاركة الفعلية فى هذه المعركة ، والقوى الإسلامية تحيط بهم كل صوب .

وما كادوا يفيقون من متاعبهم حتى تلاشت الإمارات الصليبية فى بلاد الشام

---

(١) الشاطر بصيلى ص ١٠ — ١١ .

(٢) زيادة : مصر والحروب الصليبية ص ١١٩ .

بوقوع عكا آخر معاقل الصليبيين فى يد السلطان خليل فى مايو سنة ١٢٩١ (١) ؛

ولكن المنظمين لهذه الجهود الصليبية لم ييأسوا ، إنما كانت تراودهم أحلام الرجعة إلى بيت المقدس ، وعمل كثيرون من قادة الفكر والدعاة السياسيين والرؤساء الدينيين على التفكير فى الأسباب التى أدت إلى هذه الخاتمة ، والوسائل التى تمكنهم من العودة وضرب الوطن الإسلامى فى قلبه وكان الأحباش فى ظل السليمانيين قد أفاقوا من متاعبهم الداخلية فانساقوا فى هذه الفكرة الصليبية المتأخرة .

وقد وفد على الشرق بعض الرجال الأوربيين لدراسة أحواله وكتابة تقارير عن أوجه القوة أو الضعف فيه . وممن وفدوا فليب دى ميزير وزير بطرس الأول ملك قبرص ، وجلبرت دى لانوى موفداً من قبل فيليب الطيب دوق برجنديا ، وهنرى الخامس ملك إنجلترا ، كذلك أوفد ملك فرنسا شارل السابع أسقف مدينة شالون ، الذى اقترح قيام حلف من القوى المسيحية فى الشرق (٢) الدولة البيزنطية — أرمنيا — دولة الحبشة .

ولم تكن دول أوربا بقادرة على معاودة نضال القرن الثانى عشر ، فقد كانت مشغولة بمشاكلها السياسية والاقتصادية ، فلتكن الوسيلة إذن الإتصال بالأحباش والاستعانة بهم على مهاجمة الوطن الإسلامى من الجنوب .

وكانت جهود المعاصرين منصرفة إلى الوصول إلى مملكة القديس يوحنا الموعودة وتحقيق الحلف المنشود ، فأرسل البابا نقولا الثانى إلى ملك الحبشة سفارة على رأسها Jean de Monetcerʌine . فلم توفق فى الوصول إلى أرض الحبشة ، كما أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرين سنة ١٣١٦ سفارة الدومنيكان قبض على أعضائها فى مصر (٣) .

وكانت الحبشة تستجيب لهذه التيارات الصليبية ، فقد ذكر dele Broquléra أنه عندما علم الأحباش بأنباء غزو بطرس لوز جنان ملك قبرص لثغر الإسكندرية بادر ملكهم باعداد الجيش للاشتراك فى هذا الصراع . وكان على وشك أن يهم بالتنفيذ لولا أن علم بارتداد حملة بطرو إخفاقها (٤) .

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle ages p. 285.

(٢) حامد عمار ص ١٠٦ .

(٣) Kammerer ; La Mer Rouge, I,p. 294.

(٤) حامد عمار ص ١٠٥ .

بل أراد إسحاق الأول (١٤١٤ — ١٤٢٩) أن يدخل هـذه الحرب باستعداد أتم وقوة أوفر، فاستخـدم بعض الجراكسة ممن لم تهيأ لهم الإقامة بمصر، مثل الطنبغا والى قوص الذى اتصل بملك الحبشة، وأسند إليه شئون الجيش، فقام بتنظيمه وتدريبه على استخدام السيوف والرماح والزرديات والنفط كما ضبط الأمور الإدارية بمملكته كاتب قبطى إسمه فخر الدولة نظم الدواوين(١) وجباية الأموال .

ولم يعد الأحباش ينفذون خطة تضعها القوى الصليبية الأوربية بل أرادوا أن يكونوا البادئين، وأن يظهروا فرسانا فى هذا العصر الصليبى المتأخر .

فما كاد إسحق يعلم بنبأ استيلاء المماليك على جزيرة قبرص سنة ١٤٢٧ ، والقبض على ملكها جانوس ، حتى بادر بالاتصال بملوك أوربا للقيام بهجوم مشترك ، وكان رسوله إلى هؤلاء تاجر فارسى إسمه نور الدين التبريزى ، كان قد استقر ببلاد الحبشة ، وتنوعت مشروعاته التجارية ، والثابت تاريخياً من أرشيف نابلى ومن المراجع الإدارية أن ثمة سفارة حبشية وصلت إلى بلاط ألفونس ملك أرغونة حول ذلك التاريخ(٢) .

وتم الاتفاق بأن يساهم ملك أرغونة بأسطول على نفقته الخاصة ؛ وعززت تلك الاتفاقية بمشروع مصاهرة متبادلة بين الطرفين يتزوج ملك الحبشة من الأميرة الأرغونية Dona Juana(٣) ، كما يتزوج ولى العهد البرتغالى من أميرة أثيوبية .

وبعث ملك أرغونة بسفارة من قبـله لإجراء مراسم الزواج ، ولبت فرنسا نداء ملك الحبشة اسحق رغم انشغالها بحرب المائة عام ؛ فبعث دوق دى بارى سفارة لم يصل منها إلى بلاد الحبشة سوى شخص واحد من أهل نابلى ، وقد ذكر دى لا بروكيير أنه لقى ذلك الشخص عام ١٤٣١ ، يجمع مهره الصناع لبناء السفن إستعداداً لذلك المشروع الصليبى .

لكن ظروف فرنسا لم تدع لشارل السابع مجالا للمشاركة فى ذلك المشروع غير أن التقرير الذى بعثه رئيس هيئة الاسبتارية برودس إلى ملك فرنسا يدل

(١) المقريزى : الالمام ص ٦ .
(٢) ساندمار ص ١٠٧ .
(٣) Wiét : Relations Egypt abyssines pp. 128–129.

على إهتمام هذا الملك نفسه بالنهوض مع ملك الحبشة لمهاجمة القوى الإسلامية (١) .

وقد عرض هذا الرجل لما أصاب المسلمين الأحباش من هزائم شنيعة كما أشار إلى أن ملك الحبشة قد وجه إنذاراً نهائياً إلى سلطان مصر يهدده ، ويطلب إليه معاملة المسيحيين فى بلاده بالحسنى ، وإلا فإنه سيهاجم بلاد العرب والأماكن المقدسة ، ويحول مجرى النيل . وفى ١٨ ديسمبر سنة ١٤٥٠ وصل رد ملك أرغونة يبدى خوفه من مغبة الطريق ، ويعد بأنه يمده بحاجته من الصناع وأرباب الحرف (٢) .

وتضمنت هذه المشروعات إعلان الحرب الاقتصادية بإغلاق طرق التجارة المملوكية ، وإقفال البحر الأحمر (٣) لذلك دأب سلاطين المماليك على مراقبة هـذا البحر وعدم السماح للأوربيين باجتيازه إلا بإذن خاص من السلطان .

ألا يفسر ذلك كله الحروب الدامية التى شهدها مسرح شرق إفريقية بين المسلمين والأحباش ، والعلاقات ذات الطابع العنيف التى امتاز بها العصر المملوكى فقد كان المماليك أكثر الناس إحساساً بهذا الخطر الصليبى الذى يهدد بلادهم من الجنوب .

ثم ظهر فى ميدان شرق إفريقية خطر صليبى آخر هو خطر البرتغال ، فقد أثمرت حركة الكشوف الجغرافية التى استهلها هنرى الملاح ، فاكتشف الطريق إلى الشرق ، ودار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح . ودخلوا ميدان شرق إفريقية سنة ١٤٩٩ .

وتعرضت الإمارات الجنوبية لخطر أفدح من الخطر الحبشى الذى تعرضت له الإمارات الشمالية ، فقد كان هذا الخطر بحرياً يهدد تجار المحيط الهندى بقطع أرزاقهم ، ويصيب تجارتهم بالبوار ، ويعزلهم عن العالم الخارجى .

وكان هجوم البرتغاليين على مدن شرق إفريقية تحدوه هذه الروح الصليبية

---

(١) Wiet ; op. cit. p. 129.

(٢) De la Ronciere ; La decouverte de l'afrique T.II. p. 119.

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia, pp. 76-77.

المتعصبة ، فضربوا مقدشو بالقنابل ، واستولوا على جزيرة سوقطرة فى مدخل البحر الأحمر .

والدول الإسلامية المحيطة ببحر العرب لم تفلح فى القيام بجهد مشترك لقهر البرتغاليين ، وفشلت جهود الغورى فى مدافعة الخطر البرتغــالى ، واستطاع Lope Suarez أن يستولى على زيلع ويحرقها سنة ١٥١٧ على حين قام Saldanha بالإغارة على بربرة فى العام التالى .

وقد أراد الأحباش أن تتصل هذه الجهود الصليبية . الجهود البرية التى يضطلعون بها ضد الإمارات الشمالية ، والجهود البحرية التى يضطلع بها البرتغاليون ضد الإمارات الجنوبية .

وكان البرتغاليون أنفسهم أكثر إحساساً بضرورة هذا الاتصال ، حتى لقد وسمت جهود المكتشفين بهذا الميسم الصليبى ، وقيل أنها كانت تهدف إلى كشف طريق للاتصال البحرى بالقدس يوحنا صاحب الحبشة .

وكان البرتغاليون فى فورة حماسهم الدينى بعد طرد المسلمين من الأندلس وضعف القوى الإسلامية فى المغرب ، ففى سنة ١٤٦٠ وصل إلى الحبشة برتغالى إسمه Peres Joao Covilham ، وكان من أكفأ الضباط البرتغاليين ، وأقدرهم ، وعرف بمهارته فى عقد المعاهدات المشهورة مع المغاربة .

وقد اصطحب معه Aiphonse de Payvo وكانت له خبرة تجاريا فائقة ، وقد انضما لإحدى القوافل المنطلقة من مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، وانتهيا إلى مدينة الطور بشبه جزيرة سيناء حيث افترقا ، تجول كوبلهام ببحار الهند ، وجمع معلومات كثيرة أرسلها لملك البرتغال وشفعها بخريطة تبين امكان الوصول إلى الهند عن طريق الرأس .

اما زميله الآخر فقد مضى إلى سفالة بحثاً عن مناجم الذهب ، ولكنه قتل فى موضع بجنوب الحبشة ، وسمع كوفلهام بمقتل صديقه فغادر مصر إلى الحبشــة وعاش بها ثلاثاً وثلاثين سنة (١) . وقد اتخذ ملك الحبشة من كوبلهام هــذا أداة للسفارة بينه وبين يوحنا الثانى ملك البرتغال ومفاوضته للإطباق على مصر من الشمال والجنوب .

---

(١) Budge, I. p, 179–180.

وكذلك انتهزت هيلانة ملكة الحبشة فرصة تربص الأسطول البرتغالي بالمسلمين في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأرادت أن تفاوض ملك البرتغاليين عمانويل في عقد محالفة معه ، وفكرت في إرسال سفارة من القساوسة الأحباش ، لكنها أدركت أنهم لايستطيعون القيام بها ، فأوفدت أرمينياً يدعى ماثيو في مايو سنة ١٥١٠ (١) .

وأرسلت إلى ملك البرتغال رسالة(٢) فيها إشارات متعددة إلى أن الذى دفع الحبشة إلى الرغبة في محالفة البرتغال ما أحرزته هذه الدولة من انتصارات باهرة في المحيط الهندي ، وحاجة الحبشة للسفن لنقل قواتها لغزو مكة ، وإقفال البحر الأحمر عند الطور شمالا أو باب المندب جنوباً ؛ وقد عرج هذا السفير أول الأمر على مياه الهند لمقابلة البوكرك قائد الأسطول البرتغالي ، ثم سافر إلى مملكة البرتغال حيث استقبله ملكها عمانويل(٣) .

هذه الرغبة المتبادلة بين الحبشة والبرتغال لعقد تحالف ضد المسلمين فصل من قصة الحروب الصليبية في هذا الميدان الجنوبي .

ومما يشهد بتحمس البرتغاليين أن عمانويل ملك البرتغال رد على طلب البابا إيقاف الحملات إلى مياه الهند رغبة في تحسين العلاقات بين دول البحر الأبيض والدولة المملوكية بأن أكد أنه سوف يجعل من مكة هدفاً لجنوده ومدافعه .

وقال لوب سواريز خليفة البوكرك أنه في حاجة إلى معاونة ملك الحبشة للاستيلاء على جدة والقضاء على دولة المماليك(٤) . لذلك هرع أحد رجاله إلى بلاد الحبشة للمباحثة في الحصول على معونتها ؛ هذا المبعوث هو Francisco Alvarexر الذى كتب تقريراً عن رحلته سنة ١٥٢٠ ترجم إلى اللغات الأوروبية كلها . وستعرف كيف أن هذا التدخل البرتغالي سيضع خاتمة لحركة الجهاد التى قام بها المسلمون بزعامة أحمد بن إبراهيم القرين (٥) .

---

(١) Trimingham ; Islam in Ethiopa p. 83.

(٢) Kammerer : La Mer Rouge, T. II. p. 253.

(٣) Wiet : op. cit., pp. 131-132.

(٤) حامد عمار ص ١١٠ .

(٥) Budge, I, p. 189.

ولم تقف الدول الإسلامية الأخرى مكتوفة الأيدى أمام هذه الجهود الصليبية التى شارك فيها الأحباش والبرتغاليون وملوك النوبة المسيحيون .

فقد كانت مصر تشد أزر القوى الإسلامية بوسائلها الخاصة ، بالضغط على الكنيسة القبطية فى مصر أو تهديد تجارة البحر الأحمر كما بينا فى الباب الأول .

وكان أمراء شرق إفريقية يفزعون بدورهم إلى مصر طلباً للمساعدة ، فقد سعى الفقيه أبو عبد الله الزيلعى لدى سلطان مصر حتى يستكتب البطريرك رسالة إلى ملك الحبشة يطلب إليه أن يكف عن أذيته للمسلمين ، وصدرت المراسم السلطانية للبطريرك ، فكتب إليه كتاباً بليغاً شافياً فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال(١) .

وكان هؤلاء الملوك يفزعون أيضاً إلى بلاد اليمن إذا أحسوا إضطهاداً من جانب المسيحيين ، فقد اعتصم أبناء سلطان أوفات بالملك الناصر بن الأشرف إسماعيل ، وقد ساعدهم فى العودة إلى البلاد أخرى لاستئناف الجهاد (٢) .

ثم ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الأحداث ، فنفثوا فى المجاهدين المسلمين قوة بعد ضعف ، ومدوا يد المساعدة لأحمد بن إبراهيم الغازى ، وحاولوا أن ينقذوا إخوانهم مسلمى الجنوب ، فقد بدأ القراصنة الأتراك يعملون فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى .

وقام أحد المغامرين الأتراك بالتقدم إلى موانى شرق إفريقية على ظهر سفينة واحدة ومعه حفنة من الملاحين الأتراك ، واتصل بالمسلمين ، وأفهمهم أنه مبعوث الخليفة وأن الأسطول التركى على الأبواب ، وقد قوبل بحماس شديد فى كل مدينة نزل بها ، فى مقدشو وبراوة وغيرها ، وهرع الناس إلى الدخول فى طاعة مراد الثانى ، ولكن هذه المحاولة العثمانية انتهت بالإخفاق وهزم المغامرون الترك قرب ممبسى(٣) .

* * *

لم تكن هذه الحروب حروباً محلية ، وإنما كانت حروباً صليبية واسعة

---

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٣ .

(٢) الإلمام ص ٢٥ . Trimingham. op. cit. p. 74.

(٣) Coupland : op. cit. p. 58.

المدى بعيدة الأثر ، وسنحاول أن نصور كيف لاقى مسلموا الشمال الأحباش وكيف لاقى مسلمو الجنوب البرتغاليين ، والنتائج التى تمخض عنها هذا اللقاء فى مصير الإسلام فى شرق إفريقية .

الإمارات الشمالية والأحباش :

وجهاد الإمارات الشمالية ونضالها من أجل نشر الإسلام ومدافعة الجهود الصليبية الحبشية مربأ دوار ثلاثة : دور أوفات — دور عدل — ثم دور هرر أو الجهاد الإسلامى الأعظم .

ويبدأ دور أوفات منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، ولكى نستطيع أن نبين طبيعة هذا الدور واتجاهاته يحسن أن نستعرض القوى الإسلامية فى مستهل هذا العصر .

وأول ما يطالعنا من استعراض القوى الإسلامية فى ذلك العصر أن التوسع الإسلامى صوب المناطق الداخلية قد بلغ الذروة ، وأوغل كثيراً صوب الغرب .

يدل على هذا أن إمارة إسلامية تسمى هدية قد نشأت بين حواش وجبى ، واحتلت رقعة فسيحة من الأرض ، ويبدو أن هذه الإمارة كانت أحدث الإمارات الإسلامية عهداً فى هذه المنطقة ، فالطبقة الحاكمة قد اعتنقت الإسلام .

أما غالبية الناس من السداما والجوارجى والشاسو فقد كانت لاتزال على الوثنية وكان الإسلام لا يزال فى طريقه نحو الانتشار (١) . وقامت هذه الإمارة بمحاولات كثيرة لمد نفوذ الإسلام إلى المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر جبى . وعرفت إمرة هدية فى عالم الإسلام فى شرق إفريقية با تجارها بالرقيق وتخصصها فى تجارة الخصيان (٢) .

وظهرت إمارة أخرى عند الانحاءة الغربية لنهر حواش ، أو فى النهاية الجنوبية الشرقية من هضبة شوة .

ثم إمارة دوارو جنوب شوة ، تمتد حدودها حتى الضفة اليمنى لنهر حواش ،

---

(١) Trimingham, op. cit. pp. 67–68.

(٢) القلقشندى — ٥ ص ٣٢٨ ، المقريزى ص ١٢ – ١٣ .

وتوغل جنوباً حتى نهر وبى . وكانت هذه الامارات من أقوى الإمارات الإسلامية فى هذا النطاق الداخلى كله ، ويقال إنها كانت تستطيع أن تجد جيشاً لا يقل من حيث عدده أو عدته عن جيش إمارة أوفات(١) .

إلى الجنوب منها ظهرت إمارة أخرى هى إمارة بالى(٢) بين نهر الوبى فى الشمال وجبال دوريا فى الجنوب . فهى بحكم هذا الوضع تتحكم فى سهول الصومال ، وتجاور أوطان شعبى السداما والجلا .

وفى أقصى جبال أمحرة ظهرت مدينة هرر كمركز من مراكز النفوذ الإسلامى فى هذه البلاد ، وهى مدينة قديمة النشاط أسسها المهاجرون الساميون القدماء ولا زال أهلها حتى اليوم يتكلمون لساناً سامياً ، وقد اعتنق أهلها الإسلام . وأصبحت من أهم مراكز التجارة (٣) .

وكانت سلطنة أوفات أقوى هـــذه الإمارات وأعظمها رقعة ، وتهيأت لتولى زعامة الحياة الإسلامية بحق .

وقد استطاع تشيرولى Celruli (٤) بعد اكتشافهلمختصر تاريخ سلطنة شوة المخزومية أن يلقى مزيداً من الضوء على نشاط هذه الإمارة وتطورها .

إذ يبدو أنه قد أسسها مهاجرون من الغرب نفذوا إلى هضبة شوة مشتغلين بالتجارة ، واستقروا فى منطقة أوفات ويبدو أن هؤلاء العرب بعد أن طاب لهم المقام أصهروا إلى الأسرة الحاكمة .

من هذه المصاهرة ظهرت طائفة من أمراء أوفات يدعون نسباً عربياً قرشياً وينتسبون إلى بنى عبد الدار أحياناً أو إلى بنى مخزوم أحياناً أخرى (٥) ، فى الوقت الذى يقال إنهم من أصل حبشى . وظهر من هؤلاء الأمراء المسلمين عمر المعروف بولشمع . كانت هذه الإمارة تدين بالطاعة لأمراء داموت ، ثم انتقل هذا الولاء إلى

---

(١) Trimingham, op. cit. pp. 67–68.

(٢) القلقشندى جـ ٥ ص ٢٥٩ .

(٣) المقريزى : الإلمام ص ٧ .

(٤) Cerulli, R.S.E. 1, 1941, 1941, pp. 5–52.

(٥) المقريزى : الالمام ص ١٦ .

الأحباش بعد قضائهم على إمارة داموت(١) ، فالمقريزى يشير إلى أن عمراً هـذا ولاه ملك الحبشة مدينة أوفات وأعمالها .

ثم نمت هذه الامارة الصغيرة حتى برزت فى صورة أقوى فى أواخر القرن الثالث عشر ، حين استطاع أحد أمرائها ويدعى على بن ولشمع أن ينتهز فرصة ضعف إمارة شوة المخزومية وأن يهاجمها سنة ١٢٨٥ ، وأن يقضى عليها قضاء مبرما ، وأن يرث ماكان لها من ملك ونفوذ (٢) .

حدث هذا فى عصر ابن سعيد ، فهو يشير إلى أوفات والى أنها عاصمة ملك مستقل . ويصف المدينة نفسها ، وقوعها على ربوة عالية مشرفة على مجرى ماء ، ويصف قصر الملك وقلعته التى أقيمت على التلال ، وخصوبة الأرض وغنى الإقليم وثرائه (٣) .

واستطاعت أوفات فى ظل بنى ولشمع بعد أن ورثت ملك بنى مخزوم أن تبسط نفوذها على هذه الإمارات الصغرى التى أشرنا إليها بل استطاعت أن تبسط هذا النفوذ حتى ساحل البحر الأحمر ، حتى منطقة زيلع ، بل امتد نفوذها إلى سهل أوسا ، ودان لها الأعفار بالطاعة والولاء ، تحكمت فى رقعة فسيحة من الأرض متنوعة الموارد كما تحكمت فى كثير من الطرق التجارية الغنية (٤) .

إذن شهد القرن الثالث عشر ظهور حلف إسلامى ضخم بزعامة أوفات وأمرائها من بنى ولشمع ، وامتد نفوذ هـذا الحلف على جزء كبير من جنوب شرق الحبشة وساحل البحر الأحمر ، وأوغل فى بلاد الصومال .

ويذكر ترمنجهام أن هذا الحلف الإسلامى بزعامة أوفات كانت مساحة أرضه أكبر من مساحة مملكة الحبشة المسيحية نفسها (٢) . كان تكوين هـذا الحلف وظهوره على هذا النحو متفقاً مع التطورات التى شهدتها بلاد الحبشة بظهور

---

(١) Trimingham : p. 59.

(٢) Cerulli, op cit.

(٣) نقلا عن القلقشندى جـ ٥ ص ٣٢٥ .

(٤) Trimingham : p. 67.

(٥) Trimingham, p. 69.

السليمانيين ووضوح الإتجاه الصليبي ، فكان لابد من أن تبدأ المرحلة الأولى من مراحل الجهاد .

ولاندرى كيف كانت البداية على وجه التحقيق ، وإنما نرجح أن سلاطين أوفات بعد أن استشعروا العزة والمنعة والكثرة أعلنوا استقلالهم ، وطرحوا تبعيتهم الأسمية لملك الحبشة .

ورأى ملوك الأحباش فى هذا تحرشاً إسلامياً لا يمكنهم أن يقبلوه . وكانوا فى قرارة أنفسهم يخشون أن تؤدى هذه الجهود الإسلامية المتحدة إلى عرقلة المشروعات الصليبية التى كانوا قد أوشكوا أن ينغمسو فيها .

وعلى الرغم من أن الحلف الإسلامى كان على اتصال دائم بشعب الأجوا الثائر على سلطان الأحباش إلا أن موقفهم كان أضعف من موقف الأحباش .

كان الأحباش باستطاعتهم أن ينسحبوا إلى مناطق داخلية ، على حين كانت ديار المسلمين فسيحة الرقعة سيئة المواصلات تنتشر فيها مجموعة من البدو . على حين كان السداما سكان المناطق الزراعية أميل للمسالمة والهدوء .

ولم تكن البلاد الإسلامية منظمة تنظيما دقيقاً . لم تكن تستطيع جمع الجند وترحيلهم ، ولم تكن حركة المقاومة التى تزعمها أوفات منبعثة من شعور إسلامى دافق يغمر الشعب كله ويدفعه إلى القتال عن عقيدة وإيمان ، فهزمهم الأحباش من أول لقاء (١) .

وكان من الممكن أن تكون هذه الحروب هى القاضية ، لولا تدخل الظاهر بيبرس الذى هدد بقطع العلاقات وعدم الموافقة على تعين المطران الذى طلبه الأحباش وأثمر هذا التدخل . فعقد الأحباش الهدنة مع أوفات ، وأعادو فتح بلادهم للتجار المسلمين . وعين لهم مطرانهم الجديد ، واستعادوا مراكزهم بالبلاد المقدسة (٢) .

وكان العدوان يتربصان متنهزان أية فرصة ضعف أو بادرة تخاذل . فقد انتهز

---

(١) Idem,

(٢) Trimingham, p. 70.

المسلمون فرصة وفاة ملك الحبشة سنة ٦٩٨ ﻫ وقام شيخ مجاهد يدعى محمد أبو عبد الله بمهاجمة أطراف الحبشة يؤيده نفر من المجاهدين (١).

ولم تعمد الحبشة إلى المقاومة ، بل كانت بسبب بعض المتاعب الداخلية أميل إلى المهادنة . ولم يكن سلاطين أوفات ليقنعوا بالهدنة ، وقد اتخذوا الجهاد ديناً وعقيدة . فإنقلب السلطان حق الدين(٢) من الإغارة غير المنظمة إلى الهجوم السافر المنظم . غزا أطراف الحبشة وأحرق بعض الكنائس ، وحمل بعض الأحباش على اعتناق الإسلام ، وقبض على أحد سفراء الأحباش المنحدر فى طريقه إلى بلاده وقتله ، فغزا ملك الحبشة بلاد أوفات سنة ١٢٢٨ ، وأسر حق الدين (٣) ، ودخلت أوفات وفطجار فى طاعة النجاشى .

ولم تكن هذه الحركات الإسلامية الدافقة لتهدأ بوفاة ملك أو أمير فقد عادت الإمارات الإسلامية تلتف حول سعد الدين أحد سلاطين أوفات . آزرته إمارتا هدية ودوارو .

وكانت خطة هذا الحلف الجديد أن يتصلوا بالأجوا المعارضين للأحباش فيشقوا عصا الطاعة ليشغل الملك ، ثم يعمد المسلمون إلى مهاجمة الحبشة من ثلاث جهات ، فتسربت الخطة إلى الأحباش ، وأخضعوا هذه الإمارات الواحدة فى أثر الأخرى ، دخلوا هدية وطردوا سلطانها أمانو ، ثم خضعت دوارو وفطجار «وتلاشت مدينة أوفات واتضعت حتى خربت(٤)» .

وتشرد أبناء سعد الدين وامتدت حدود الحبشة إلى حافة الهضبة إلى نهر حواش وضمت بعض مناطق من إقليم شوة .

وفى غمرة هذا الصراع الدموى استنجد أهل أوفات بالمماليك وأرسلوا ابا عبد الله الزيلعى ليطلب من سلطان مصر الناصر محمد أن يتدخل لدى الأحباش ليخففوا الوطأة عليهم .

---

(١) Idem.

(٢) المقريزى : الإلمام ص ١٩ .

(٣) Trimingham, p 71.

(٤) المقريزى : الإلمام ص ١٨ .

وهمت إمارتا مور وعدل لنجدة إخوانهم فى الدين ، وحالفوا بعض القبائل البدوية : طيقوا وباحومة وليكالا وورجار وجيالا ، ولعلهم من قبائل الأعفار التى كانت تدين الطاعة لسلاطين أوفات ، فلم يستطيعوا وقف قوات الحبشة الزاحفة . فقد قضت على هذه المحاولة وأتبعت ذلك بالقضاء على محاولة أخرى نظمها الإمام صالح أحد أبناء شرفاء مكة الذين آووا إلى مدينة هرر منذ وقت بعيد

ولم تكن هذه الإمارات الإسلامية رغم صدق إيمانها بالجهاد بقادرة على مواجهة الأحباش الذين اتحدت كلمتهم . ووحدت صفوفهم حركة دينية دافقة فخضعت هذه الإمارات كلها لنفوذ الحبشة خضوعاً مطلقاً ، وبدأ كأن روح المقاومة الأولى قد انتهت تماماً .

وابن فضل الله العمرى يصف هذه الحال من الضعف والفرقة التى سادت المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع عشر أو بين سنتى ١٣٤٣ — ١٣٤٨ .

فهو يستقى أخبار هذا الوطن الإسلامى من الشيخ أبى عبد الله الزيلعى ، ويعدد إمارات المسلمين السبع ويعرض لأسباب ضعفها وتفرق كلمتها ، فى كلمات عميقة الأثر « وجميع ملوك هذه الممالك وإن توارثوها لا يستقل منهم بملك إلا من أقامة سلطان أمحرا وتقربوا إليه جهد الطاقة فيختار منهم رجلا يوليه ؛ فإذا ولاه ، سمع البقية له وأطاعوه فهم له كالنواب . . ثم هذه الممالك السبعة ضعيفة البناء قليلة الغناء لضعف تركيب أهلها ، وقلة محصول بلادهم وتسلط الحطى عليهم . مع ما بينهم من عداوة الدين ومباينة مابين النصارى والمسلمين ، وهم على ماهم عليه من الذلة والمسكنة للحطى سلطان أمحرا عليهم قطائع مقررة تحمل إليه فى كل سنة من القماش والحرير والكتان (١) ... »

وأبطر هذا النصر ملك الحبشة : سيف أرعد فادعى أنه حامى حمى كنيسة الإسكندرية فأرسل إلى مصر ينذر بالكف عن إيذاء المسيحيين وقبض على بعض التجار المصريين ببلاده ، فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر(٢) .

وانتفضت سلطنة أوفات إنتفاضة تشبه الانتفاضة التى تسبق الموت . فعاود

---

(١) نقلا عن القلقشندى ج ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢) Budge, pp. 209, 313, 361, 574.

حق الدين الثانى القتال ، فهزم ومات فى المعركة سنة ١٣٨٦ م، والتف المسلمون للمرة الأخيرة حول خليفته سعد الدين الثانى ، وأعلنوا الجهاد، واشتركت طوائف الناس كلهم فى هذه الحرب المقدسة .

يتبين هذا من قول المقريزى ، فلقيه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفلاحون وجميع أهل البلاد ، وقد تحالفوا جميعاً على الموت ، فكانت بينهما وقعة شنيعة استشهد فيها من المشايخ والعلماء أربعمائة شيخ ، كل شيخ منهم له عكاز وتحت يده من الفقراء والسالكين عدد عظيم(١)

ولم تكن المسألة مسألة تحمس للدين ، إنما مسألة عدد وعده وقوة ، لم تتوفر لهؤلاء المجاهدين ، ولم تقدم القوى الإسلامية المعاصرة المساعدة المجدية التى تعينهم على الصمود ، فانتهت هذه الانتفاضة الأخيرة ، وفر سعد الدين الثانى إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقتل (سنة ٨١٧ — ١٣١٥ م) فى عهد النجاشى يسحاق ،

وكان احتلال زيلع بمثابة إسدال الستار على مملكة أوفات التى احتلها الأحباش نهائياً . ولم يعد يسمع بها أحد ، وانتهى دور أوفات فى الجهاد (٢) .

وكان سلاطين أوفات ومسلمو شرق إفريقيا من عميق الإيمان والتمسك بأهداب التراث الإسلامى ، بحيث لم يكن من المستطاع أن يتخلوا عن سياسة الجهاد ، ومدافعة الأحباش ما وسعهم ذلك ، وتركزت المقاومة حول الأمراء الهاربين من أبناء سعد الدين ، الذين سيستهلون الدور الجديد من أدوار الجهاد ، وهو دور عدل (٣) .

كان هؤلاء الأمراء العشرة قد اعتصموا باليمن فى ظل سلطانها أحمد بن الأشرف إسماعيل . وأعانهم على العودة إلى إفريقية ، إلى مسرح الأحداث مرة أخرى ، وقد اتخذوا لقباً جديداً ، لقب سلاطين عدل ، وآووا إلى عاصمة جديدة تسمى دكر(٤) ، لعلها على أطراف حدود الصومال بعيداً عن متناول الأحباش .

وقد ورد ذكر عدل للمرة الأولى فى أخبار سلطنة شوة المخزومية ، هذه

---

(٢) المقريزى — : الإلمام ص ٢٣ — ٢٤ .

(١) المقريزى : الإلمام ص .

(٢) Littmann : Adal Encycc. of Islam.

(٣) الالمام ص ٢٥ .

الأخبار التى نشرها تشيرولى (١) فعرض لإمارة عدل وكيف فتحت سنة ١٢٨٨ ، فتحها بنو ولشمع مؤسسو سلطنة أوفات ، كما أشار إليها ماركو بولو فى رحلة ١٢٨٥ . وإن كان قد خلط بين عدل وبين عدن ، وتاريخ عمدا صيون يشير إلى عدل ومورة وكثرة عدد سكانهما . والعمرى يكتب فى نفس العصر فى القرن الرابع عشر ، فيتحدث عن عدل ويسميه عدل الأمراء .

إذن عدل إقليم من الأقاليم التى خضعت لسلاطين أوفات ، وليس بعيد أن قد تأسست فيها إمارة محلية تدين بالولاء لبنى ولشمع ، ويبدو أن موقعها المتطرف قد ساعدها على نجاتها من التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات السابقة .

وكان طبيعياً أن يأوى بنو سعد الدين إلى إقليم قريب من البحر ، يتيح لهم الاتصال ببلاد اليمن بعيداً عن مناطق النفوذ الحبشى ، وألفاريز (٢) تحدث عن مملكة عدل بين سنتى (١٥١٧ و ١٥٢٠) وذكر أنها قرب فطجار وشوة أعنى أن حدودها الشرقية تمتد إلى حافة الهضبة على حين يمتد نفوذها جنوباً حتى رأس غور دافوى ، وسميت هذه البلاد بر سعد الدين تخليداً لسعد الدين الثانى الذى مات بزيلع ودفن بها (٣) .

وستأنف سلاطين عدل الجهاد مرة أخرى فى عهد صبر الدين الثانى (سنة ٨٢٥ هـ — ١٦٢٢ م) والملك يسحق صاحب المشروعات الصليبية المعروفة . فلم يحالفه التوفيق ، كما هزم خليفته منصور من بعده (١٤٢٤ — ١٤٢٥) ، واستمر الجداد فى عهد جمال الدين (١١٣٣) . وفى عهد بدلاك ابن سعد الدين (١٤٤٥) (٤) ، دون أن يتمكن سلاطين عدل من قهر الأحباش أو استرداد أملاكهم القديمة .

لكن الأحباش تغلبوا على هذه الحركات كلها ، وخرجوا من الصراع ظافرين ، واستطاعوا فى عهد زرع يعقوب (١١٣٤ — ١١٦٨) أن يكونوا

---

(١) Cerulli. R.S,E 1.9.

(٢) Stanley of Alderley : Narrative of the Portugnese embassy to abysasinia, p. 340,

(٣) Burton ; First foot steps in East Africa pp. 72-73

(٤) الإلمام ص ٢٧ — ٢٩ .

إمبراطورية عظيمة ، امتدت شمالا حتى مصوع وسهول السودان ، وسيطرت على القبائل البدوية من التجراى والبجة فى منطقة الساحل ووادى بركة ، وضمت أوفات وفطجار ودوارو وبالى ، وفى المنطقة الخصبة فى الجنوب الغربى سيطرت على إمارة هدية السابقة وبعض ممالك سدامة ، ومنحت هذه الولايات استقلالها الذاتى ، يحكمها عامل يسمى الجرادينحدر من البيت المالك القديم .

وكانت هذه الولايات وراثية ، واحتفظ المسلمون بدينهم ، وكانوا لا يزالون ينتشرون فى شوة (١) ، وفى تجراى الشرقية كما يتبين من رواية الفاريز (٢) .

وطبق الأحباش ما يحلو لهم من سياسات فى هذه الإمارات الخاضعة ففرضوا على أمير هدية جزية من نوع غريب ، أن يقدم كل عام فتاة عذراء تتنصر ، وأن لا يلبس المسلمون عدة الحرب ، ولا يستخدموا السيوف ، إنما يركبون الخيل بغير سروج « وإذا أرسل إلينا من يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على سرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلى عليها ونحسب أنها ميتة ونعطيها له فإنا وجدنا آباءنا يفعلون ذلك » (٣)

ويبدو أن الرغبة الصادقة فى الجهاد قد عرف بها الجيل الأول من سلاطين أوفات قد فترت عند أحفادهم سلاطين عدل . فقد سئموا القتال ، وجنحوا إلى المسالمة ، فأرسل محمد بن بدلاى سنة ١٤٤٥ بعثة الملك الحبشة فى مستهل عهده يعرض دفع جزية سنوية (٤) وعقد هدنة بين سلاطين عدل والأحباش .

كما حاول محمد بن أزهر الدين الذى حكم عدل مدة ثلاثين سنة (١٤٨٨—١٥١٨) أن يسير فى نفس الطريق ويسالم الأحباش (٥) .

لكن إذا كان سلاطين عدل قد جنحوا إلى الراحة ، ومالوا إلى المسالمة وركنوا إلى التخاذل ، فإن الشعب المسلم لم يتخل عن سياسته التقليدية من مقاومة

---

(١) Trimingham : pp, 81–77.

(٢) Alvarez : Narrative p. 95.

(٣) عرب فقيه ص ٢٨٥ — ٢٧٦ .

(٤) Trimingham, p, 81.

(٥) Alvarez : Narrative: p. 95.

الأحباش ومدافعهم ، وكان تخاذل عدل وتحمس الشعب للجهاد مؤذناً ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد : دور هرر(١) ، أو دور الفتح الأعظم .

هذا الدور يتميز بظواهر ثلاث : انتقال الزمام من سلاطين عدل التقليديين الذين جنحوا إلى السلم إلى طائفة جديدة من الأمراء أشربت حب الجهاد، واتخذت لقب الإمام ، وانتشار الإسلام على مدى واسع ، وسيطر الفقهاء والدعاة على حياة الناس ، ودخول الشعوب البدوية ميدان المعركة الإسلامية بعد أن تم إسلامها فى النصف الأول من القرن السادس عشر بإسلام الدناقل والصوماليين .

هذه العناصر الثلاثة ستخرج الجهاد من سلبيته القديمة إلى حركة دافقة ضخمة تندفع كالسيل الجارف نحو قلب المقاومة الحبشية .

لم يعد الجهاد وقفا على السلاطين ، مرتهنا بإشارتهم ، محققا لمطامعهم وأهدافهم فقد أثبتت الأحداث أن سلاطين عدل لم يكونوا أمناء على هذا الجهاد.

ويبدو أن السلطان انتقل إلى طائفة من رجال الدين علت كلمتهم وارتفع شأنهم فى الحقبة الأخيرة من تاريخ عدل : فقد ظهرت طائفة جديدة من الأمراء المسلمين متخذة لقب إمام متفرغة للحرب والجهاد ، مما يدل على أنها كانت تمثل حركة دينية عميقة الجذور .

وأصبح هؤلاء النفر من الأمراء الأئمة يشرفون على سياسة الجهاد، ويجندون لها الأنصار من الأعفار والصوماليين .

وكان هذا الطراز من الأمراء الدينيين أكثر ملاءمة لروح العصر ، وأقدر على إلهاب شعور الجماهير . هؤلاء الأئمة كانوا يمثلون الحركة الإسلامية الشعبية الدافقة . وكان سلاطين عدل يمثلون السلطة الاسمية ، التى تستمد وجودها من ملك قديم ، تؤيدهم طائفة من الأرستقراطية تهتم بالتجارة أكثر من اهتمامها بالجهاد ، وتدفع السلاطين دفعاً نحو مسالمة الأحباش والتفاهم معهم .

وأصبح المجتمع العدلى به حزبان : هذا الحزب الدينى الشعبى الذى يتزعمه

---

(١) Littmann : Harar, Encyclopaedia Islamica.

الأمراء الأئمة ، وهذا الحزب المحافظ الذى يريد أن يسالم الأحباش وبزعمة سلاطين عدل التقليديون (١) .

هؤلاء الأئمة تسللوا إلى المدن العدلية ، وانتشروا فيها ، ووثبوا إلى حكمها ، وكونوا إمارات محلية فى أرض السلطنة الممتدة بين هرر وساحل البحر . هذه القسمة أو هذا التطور يصوره عرب فقيه بقوله « وعاد ابن سعد الدين أن كل أمير يكون له التقدم والتأخير والغزو والجهاد وأكثر العساكر إلى وجهه . ولم يكن للسلطان غير خرج البلد يأكله (٢) » .

لم يكن هؤلاء الأئمة يتصارعون لرغبة السلاطين ، إنما كان بيدهم إعلان الجهاد عندما يريدون ، فقد كانت بأيديهم القوة الحقيقية فى البلاد منذ أواخر القرن الخامس عشر .

وكان أول هؤلاء الأئمة ظهوراً الداعى عثمان حاكم زيلع الذى أعلن الجهاد بعد وفاة محمد بن بدلاى مباشرة سنة ١٤٧١ .

ثم ظهر فى هرر أمير من هؤلاء الأئمة يسمى محفوظ ، اضطلع بسياسة الجهاد فى أيام ملك الحبشة ناعود ، وتحدى سلطان محمد بن أزهر الدين ، واشتبك مع الأحباش كما يقول ألفاريز منتهزاً فرصة ضعف المسيحيين إثر شهور الصيام . وعلت كلمة محفوظ حتى أصبح صاحب الأمر الفعلى فى البلاد وقد جاءه الدعاة من بلاد العرب ، وأمدوه براية خضراء وقبة من مخمل أزرق وأعانوه بالرجال والسلاح ، واندفع محفوظ نحو الجهاد .

غير أن البرتغاليين ظهروا على مسرح الحوادث وتقدم أسطول Lope Suarez وفاجأ زيلع فى غيبة محفوظ وأغار عليها ، ولم تنجح حركة محفوظ . على كل حال يكفى أن هذه الحركات كانت تقف حجر عثرة فى سبيل سلاطين عدل الاسميين وانتهى الأمر باغتيال السلطان محمد سنة ١٥١٨ (٣) .

ومن هذا الطراز من رجال العصر المشتغلين بدفع الحركة الإسلامية وإعلان

---

(١) Trimingham : pp. 82–83.

(٢) عرب فقيه ص ١٢ .

(٣) Trimingham : p. 84.

الجهاد آبون بن آذش « ملك سبع سنين وأقام الحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وقتل قطاع الطريق وأبطل الخمور واللعب والرقص على الطبول ، وعمرت البلاد وأحب الأشراف والفقهاء والفقراء والمشايخ واستولى على ملكه وأصلح الرعية(١) » . ولم ترق سياسته هذه فى نظر سلطان عدل الرشى أبى بكر بن محمد ، فقد هاجم آبون فى زيلع وقتله سنة ١٥٢٥ .

وعرب فقيه يقارن بين حكمه وحكم آبون بقوله ، « وبعد ذلك أن الجراد أبون وصل إليه السلطان أبو بكر بن السلطان محمد بن آذر من ذرية سعد الدين ، وجمع عليه الجموع من الصومال من المفسدين وقطاع الطرق ، وأحربوا الجراد آبون ، واقتتلوا قتالا شديداً وقتل الجراد آبون ، آذر فى وطنه على بلاده وعياله ، قتل شهيداً رحمه الله ، وتولى السلطان أبو بكر البلاد بعد الجراد آبون ، وأخرب البلاد ، وظهر قطاع الطرق ، وظهرت الخمور » (٢) .

وكان أعظم هؤلاء الأئمة وأبقاهم أثراً الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم صاحب الفتح العظيم .

ويمثل هذا الدور أيضاً نمو الحركة الإسلامية نمواً عظيما بعد نحو أربعة قرون من التطور ، ونمو الحركة العلمية إلى أبعد الحدود ، واتصال هذه الإمارات الإسلامية بالأوطان الإسلامية الأخرى ، وغلبة الفقهاء على المجتمع .

إلى هؤلاء الفقهاء والدعاة يرجع الفضل فى إسلام قبائل البدو وانضمامها إلى الحركة الإسلامية : وكان هؤلاء الفقهاء من وراء الأمراء الأئمة يؤيدونهم ويشدون أزرهم ، ويدفعون الناس إلى الجهاد دفعاً . وقد شاركوا فى جهاد أحمد بن إبراهيم يحرضون على القتال (٣) ، ويشدون أزر المجاهدين .

أهم من هذا كله أن القرن السادس عشر شهد دخول قبائل البدو فى حركة الجهاد الإسلامى ، وكان دخولها يشبه إلى حد كبير ظهور شعب الملثمين وتبنيهم حركة الجهاد فى عهد عبد الله بن ياسين ، أو تأييد قبائل الفولانى لعثمان

---

(١) عرب فقيه ص ٦ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) عرب فقيه ص ٣٨ — ٤١ .

إبن فودى ، فقد كان إسلام الأعفار والصومال يمثل نصراً للحركة الإسلامية فى شرق إفريقية .

فقد كانت هذه القبائل قوية شديدة المراس ، تريد أن تندفع صوب الغرب إلى المناطق الخصبة ، وتغادر هذه الأوطان القاحلة ، وجاء إسلامهم معاصراً لحركة الجهاد والفتح التى استهلها أحمد بن ابراهيم .

بل لعل بداية الجهاد ومشاركتهم فيه نتيجة الجهود السابقة التى بذلت لإدخالهم فى الاسلام دليل على نجاح هذه الجهود ، وقفوا من وراء هذا الفتح يؤيدونه وكادوا يأتون على ملك الأحباش لولا تدخل البرتغاليين (١) .

هذا الإمام الذى رشحته الأحداث لتزعم حركة الجهاد الإسلامى فى الدور الهررى هو أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين أو الأشول ، قضى أيامه الأولى فى إقليم هوبت بين قلديسى وهرر .

وقد عهد أبوه لعبد محرر اسمه عدلى فأصبح من أوفى أتباعه . وقد تثقف ثقافة دينية غزيرة ووقر فى نفسه ما رآه من ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم واستشراء الأحباش وعدوانهم . فتاقت نفسه إلى تزعم الجهاد . وقد إدخرته العناية لإعادة القوى الإسلامية ، وإنقاذ المجتمع الإسلامى مما اصابه .

والمعاصرون (٢) له ارتفعوا به إلى مرتبة القدسية ، ونسجوا حوله الأساطير ، وأحاطوا مقدمه بالرؤى التى تمهد له وتبشر به ، فهو إمام آخر الزمان فى زعمهم « لا تسموه السلطان ولا الأمير ، ولكن سموه إمام المسلمين ، قال فقلت لهما إمام آخر الزمان فقال لى نعم (٣) » .

انظر إلى رواية عرب فقيه : « حدثنى من أثق به على بن صلاح الجبلى وأحمد بن طاهر الرعوى ، أنهما سمعا رجلا يسمى سعد بن يونس العرجى يقول : بينما أنا راقد ذات ليلة من الليالى ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعن يمينه أبو بكر الصديق ، وعلى يساره عمر بن الخطاب وبين يديه

---

(١) Trimingham : p. 81.

(٢) Ibid : p. 86.

(٣) عرب فقيه ص ١٢ .

على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وبين يدى على بن أبى طالب كرم الله وجهه الإمام أحمد بن إبراهيم ، فقلت له يا رسول الله من هذا الرجل الذى بين يدى على بن أبى طالب ، فقال صلى الله عليه : هذا رجل يصلح الله تعالى به بلاد الحبشة (١) » .

وقد بدأ حياته بالانتساب إلى أسرة الإمام محفوظ . فتزوج ابنته فكسب تأييد أنصاره . ولما قتل الإمام أبو بكر المجاهد آبون نزح أحمد إلى مسقط رأسه هوبت يجمع الأنصار ويرتب المجاهدين .

وما كاد يتم له ذلك حتى عمل على مقاومة أبى بكر سلطان عبد الأسمر واقتسم السلطة فى البلاد على النحو الذى كان يقتسم به الإمام محفوظ ولكنه قتل السلطان وولى بدلا منه أخاه عمر دين كسلطان اسمى للبلاد .

فلما توطد سلطانه وكثر أتباعه استهل حياة الجهاد . فامتنع عن دفع الجزية التى كان يدفعها سلاطين عدل ؛ وانحدر الأحباش لقتال المسلمين سنة ١٥٢٧ ، وهم يعتقدون أنهم سيتفرقون كما تفرق المسلمون من قبل . فهزم الأحباش لأول مرة منذ بداية الجهاد ؛ وبدأ أحمد يتجاوز النطاق التقليدى القديم ؛ فلا يكتفى بالإغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة . إنما أراد هذه المرة أن ينفذ إلى قلب الهضبة نفسها ، ويضع حداً لملك الأحباش .

ولم يكن المسلمون ، يتخيلون أن يقدم مسلم على اقتحام هذا الميدان ، فقالوا له : « إن ملك الحبشة معه قوة عظيمة ، وخيله لا تحسب ، وعنده من الدروع والخوذ والرجال والدرق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وآباؤك وأجدادك والأمير على والأمير محفوظ صهرك والجراد إبراهيم والسلاطين المتقدمة ممن ملك بر سعد الدين ، لم يكن منهم أحد يقصد ملك الحبشة إلى بلده وسكنه ، ولكن يغزون أطراف البلاد ويغنمون ويرجعون ، وإذا تبعهم أحد من الكفرة قاتلوا عما بأيديهم ؛ وأنت تريد تقصد ملك الحبشة إلى وطنه ؛ والآن لا تهلك المسلمين . فقال الإمام : الجهاد فى سبيل الله ما هو يتعب على المسلمين . فقالوا نحن ما مرادنا إلا الجهاد ، من قتل منا صار إلى الجنة (٢) » .

---

(١) عرب فقيه ص ١٣ — ١٤ .

(٢) عرب فقيه ص ٤٢ .

وفى سنة ١٥٢٩ أحرز أحمد نصراً حاسماً على الأحباش فى موقعة شنبر كور ...
ثم بدأ فى غزو بلاد الحبشة نهائياً . وأصبحت قصة الفتح منذئذ سلسلة من الانتصارات المتلاحقة .

فى سنة ١٥٣١ دخل دوارو وشوة وأمحرة ولاستا ، وفى سنة ١٥٢٣ استعاد الامارات القديمة ، بالى وهدية وسدامة ، وبات هذا الفتح مداً لا يمكن مقاومته (١) .

وفى سنة ١٥٣٥ سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها ، وغزا ... تجراى للمرة الأولى . وتقدمت قواته فى كل سبيل ، فى الساحل وفى السهول ... الشمال الغربى . متصلا بسلطنات مزجة وولقيت وهى إمارة نوبية يحكمها ... وكانت تخضع لملك الحبشة ، ومات ملك الحبشة لبناء نقل طريدا (٢) .

وبينما الجهاد الإسلامى يمضى فى طريقه المرسوم ظهر الجناح الآخر من ... الصليبى متقدماً من الجنوب ، فقد ظهر البرتغاليون فى المحيط الهندى . ودمروا زيلع وأحرقوها سنة ١٥١٧ .

ثم ظهرت قوة إسلامية فتية هى قوة العثمانيين ، فقد ضموا بلاد الشام ومصر وسيطروا على البحر الأحمر ، واستولوا على عدد عظيم من المراكز التجارية والعسكرية ، وكان ظهور العثمانيين فى هذا الوقت بالذات مما أنقذ العالم الإسلامى من خطر ماحق ، فقد كان البرتغاليون يطمعون بالاتفاق مع الأحباش فى ضرب مصر عن طريق السويس ومهاجمة البلاد المقدسة ، وتحقيق الحلم الصليبى ...

وقد أدرك العثمانيون هذا الخطر الصليبى ، وارتاعوا لسفارات البرتغالية التى توافدت على بلاد الحبشة فاحتلوا سواكن وزيلع ، واتصلوا بالمسلمين فى مصر .

وكان المسلمون فى زيلع يتلقون المساعدة من القطلان أعداء البرتغاليين فقد كانوا يساعدونهم فى بناء أسطولهم ، هذا الصدام المسلح بين القوتين البحريتين البرتغالية والعثمانية سيؤثر فى مصير الصراع بين المسلمين والأحباش (٣) .

---

(١) عرب فقيه ص ٤٢ .

(٢) Trimingham, p. 88.

(٣) Trimingham, op. cit. pp. 76—77.

استنجد الأحباش بالبرتغاليين سنة ١٥٣٥ ، وأرسل John Bermudez إلى ملك البرتغال يلتمس العون ، فأرسل ملك البرتغال نجـدة قوامها أربعمائة من حملة البنادق ، فوصلوا بلاد الحبشة سنة ١٥٤١ .

والتقى المجاهدون بزعامة أحمد بالبرتغاليين فى المنطقة الواقعة بين أمبا آلاجى وبحيرة الشانجى وذلك فى سنة ١٥٤٢ ، وقد جرح القرين ونجا من الأسر ، وآوى القرين إلى جبل زبل المطل على بلاد الدناقل لتنظيم قواته .

واستنجد بالباشا التركى فى زبيد ، فأرسـل إليه تسعمائة من حملة البنادق وعشرة مدافع ، وعاود أحمد الهجوم والتقى بالبرتغاليين فى وادى أفلا ، فحال القائد البرتغالى Christovao do Gama بينه وبين الاتصال بجنده .

ثم هزم قواته وقضى على أغلبها الأمر الذى حمل القرين على الاعتقاد بأن الأمر قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن أدركت قواته بحيرة تانا ، واشتبك مع النجاشى قلاوديوس وحلفائه البرتغاليين فهزم عند ويناداجا قرب بحيرة تانا ، ومات وتفرقت جموعه ونجت الحبشة من كارثة محققة (١) .

كان الإسلام ينتشر فى ركاب هذا الفتح ، وعرب فقيه الذى أفرد كتابه كله للتاريخ لهذه الفتوح يذكر أن غالبية سكان الهضبة اعتنقوا الإسلام اقتناعاً أو رهبة . بعض الناس كان يدخل فى الإسلام خوفا « أما أهل جان زلق فإنهم ما أسلموا . وكان مختفين فى الدسوت والجبال ، والآن أسلموا قبل ما يجرى القتال ... وقد أسلم أكثر الحبشة والمسلمون متفرقون فيها فإذا سمعوا بنا إن نحن قد خالفنا لم يفلت منا أحد(٢) » .

والمؤرخون الأحباش يؤيدون هذه الأقوال فيذكرون أنه لم يحتفظ بدينه أكثر من فرد واحد من كل عشرة ، فمن استسلم وأحب الاحتفاظ بدينه فرضت عليه الجزية ، ومن اختار المقاومة قوتل . وكان الفقهاء يسيرون فى ركب الفتح يحرضون على الجهاد أو يفهمون الناس الدين .

وإذا كانت هذه الحركة لم تحقق اهدافها بالقضاء على مملكة الحبشة نهائيا

---

(١) Budge, pp. 572—574.

(٢) عرب فقيه ص ١٧٦ .

إلا أنها أثبتت أن الدولة واهية الأساس بنظمها الإقطاعية العتيقة ونظامها السياسى والإدارى المختل .

كما أثبتت أنه من المستطاع أن يتمكن البدو سكان السهول من فتح هذه الهضبة إذا اتحدت صفوفهم وألفت بين قلوبهم أهداف سامية . وهذا الجهاد يدل على مدى عمق الشعور الإسلامى فى نفوس أهل شرق أفريقية وتمسكهم بالإسلام إلى أبعد الحدود ، فقد دأبوا على الجهاد وأصروا عليه طيلة ستة قرون .

وكانت خسائر الأحباش فى الرجال تفوق الوصف وإذا كان الأحباش الذين أسلموا كرها قد ارتدوا إلى دينهم القديم ، فليس من شك فى أنهم تأثروا بالعقيدة الإسلامية التى ظلوا يعتنقونها طيلة الخمس عشرة سنة الماضية .

وهذه الدفعة الإسلامية لم تمت بموت أحمد ، بل استمرت من بعده فترة طويلة ، فقد حاول الوزير عباس أن يكون إمارة من دوارو وفطجار وبالى ولكنه هزم سنة ١٥٤٥ .

وانتفضت هرر مرة أخرى والتف الناس حول أرملة القرين للأخذ بالثأر ، واجتمعت قوات عمر دين وعلى الجراد بن الإمام أحمد ، وعزت دوارو ولكنها هزمت وأسر زعماؤها .

ولم يهدأ المسلمون رغم هذا ، فقد بدأت محاولة جديدة بقيادة نور بن الوزير مجاهد ابن اخت أحمد القرين وانتخب إماما سنة ٩٥٩ هـ (١٥٥١/١٥٥٢ م) وأسموه (صاحب الفتح الثانى) .

ولكن أوان الجهاد الأعظم كان ولى ، ولم يعد الأحباش بعد مصرع الامام أحمد يخشون أحداً ، فغزوا هرر وخربوا أسوارها (١) .

وقامت هرر قومة أخرى سنة ١٥٥٩ ، اشترك فيها نور أمير هرر بعد أن اتخذ لقب أمير المؤمنين ، وشاركه الجهاد سلطان عدل الاسمى الذى خلف عمر دين واسمه على وغزوا فطجار ، غير أن هذه الجهود كلها انتهت بالاخفاق فى عهد ملك الحبشة سر صاد نجل (٢) . وإن كان مجاهدوا هرر ظلت تراودهم

(١) Trimingham : p. 91.

(٢) Budge, pp. 359—374.

أحلام الجهاد حين حالفوا الزعيم الحبشى الثائر بحر نجش ، والتقى محمد الرابع أمير هرر بالأحباش سنة ١٥٧٧ عند نهر ويبى ، فهزم وأسر وقتل زهرة رجاله .

وانتهت هرر كقوة سياسية ذات شأن فى الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن يستبعدوا هذا الخطر الإسلامى ، وأن يخلصوا من التهديد العثمانى . ذلك أن العثمانيين فى سنة ١٥٧٧ استولوا على مصوع وأركيكو وتقدموا نحو سهل أرترية ، وأنشأوا حصنا فى دباروا .

وأخذ القائد العثمانى أزدمر يمد نفوذ العثمانيين فى هذه الجهات ، ولكن زعماء الولايات الشمالية مثل يسحق وبحر نجش هزموا القوات العثمانية ، وحالوا بينها وبين احتلال جزيرة بورى .

ثم انتهز الأحباش فرصة انشغال القائد العثمانى . واستولوا على دباروا ، واضطروا العثمانيون إلى التراجع نحو سواكن ومصوع وأركيكو ولما أنهى الأحباش المقاومة فى هرر ، استداروا للعثمانيين وحليفهم الجديد بحر نجش فهزموهما . وقتل الباشا العثمانى فى هذه المعركة . وانتهت هـــذه المعارك بعقد الهدنة سنة ١٥٨٩ (١) ، ثم بدأ العثمانيون طول القرن السابع عشر والثامن عشر يشغلون عن البحر الأحمر .

. . .

الامارات الجنوبية والبرتغاليون :

فلننظر إلى الامارات الجنوبية كيف واجهت خطر البرتغاليين . هذه الامارات فى بداية هذا العصر أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر فصاعدا اكتمل نموها . ووضحت شخصيتها الإسلامية ، وبدأت تتحول من مجرد مدن تجارية قائمة على ساحل المحيط الهندى إلى سلطنات إسلامية ذات نظم وراثية فى الحكم وذات عادات وتقاليد ، بعد أن كثر عدد المهاجرين العرب وانتشر الإسلام بين الشعوب النازلة على الساحل الشرقى ، وعظمت الثروات بتنوع مظاهر النشاط الاقتصادى .

---

(١) Conti Rossini : La Guerra Turco-Abissinia, del 1578, oriente Moderno, Rome, 1923.

فالأسرة النبهانية التى رأيناها تقوم فى جزيرة (بانا) Pate برزت فى هذا العصر بروزاً واضحاً ، خصوصاً فى عهد عمر الأول (١٣٧٢ — ١٣٥٨) نجحت مشروعاتها الاقتصادية ، وامتد سلطانها على شطر كبير من ساحل شرق إفريقية ؛

وكشفت دراسات الأستاذ هتشنز عن سلطنة إسلامية نبهانية مكتملة النمو ذات نظم إدارية وتقاليد سياسية ، فقد انفردت بتقاليد جديدة فى الملاءمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للشعب ، فقد كانت ضريبة الانتاج مقدارها ١٠ ٪ إذ تتقاضى الدولة وسقين من كل عشرين وسقا تنتجها كل جماعة من العبيد مشتغلة بالزراعة (١) .

وقد ترجم هتشنز قطعة من الأدب السواحيلى من عصر بنى نبهان تدل على تذمر الناس من هذه السياسة الضريبية (٢) .

« وفى نيجوزيلاند أفلح قطعتى من الأرض ، وانتج عشرين حملا تأخذ الدولة منها حملين ... ماذا أفعل . قل ماذا أفعل ؟ زوجتى تطالب بالملابس الجديدة وأنا غارق فى الديون إلى أذنى » .

بل كشف مخطوط تاريخ لامو عن جانب آخر من النظم السياسية . فى عهد عمر الأول كانت دار الشورى Junbe فى بانا مقراً للحكومة المركزية للبلاد التى خضعت لهؤلاء السلاطين وكان السلطان النبهانى يتخذ له عاملا فى كل مدينة من المدن التى خضعت له ، هذا العامل يشاركه السلطة مجلس شورى محلى ، كما يستعين هذا الوالى بكبراء المدينة وذوى الوجاهة فيها .

وكما ظهرت سلطنة النبهانيين فى بانا وبرزت على هذا النحو تمت سلطنة كلوا واستطاعت هى الأخرى أن تخضع عددا من مدن الساحل الإفريقى .

وقد وصل سلطان كلوا الغاية فى القرن الخامس عشر ، فعندما ألقى فاسكو دا جاما مراسيه فى موزمبيق وجد أن حاكم هذه المدينة يخضع لسلطان كلوا .

وكانت المكوس تجمع باسمه وتحمل إلى خزانته (٣) . وكان نفوذ كلوا قد امتد

---

(١) W. Hichens : Islam in East Africa, p. 118.

(٢) Werner : Khabar al-Pate : J.R.A.S. 1915.

(٣) Coupland : East africa, p. 26.

إلى مناجم الذهب فى سفالة ، بل امتد هذا النفوذ حتى ممبسى على إثر مصاهرة تمت بين البيتين الحاكمين فى كل من كلوا وممبسى (١) .

وفى نفس هذا العصر تقريباً كانت مقدشو فى أقصى الشمال تمر فى تطور مشابه وقامت فيها سلطنة إسلامية ذات نظم ورسوم أصابت قدراً كبيراً من الثروة والجاه زارها ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر . وكان سلطانها يدعى أبو بكر بن الشيخ عمر . ويظهر أنه من مسلمى الصومال . ويبدو من وصف ابن بطوطة أنها كانت سلطنة تباورت تقاليدها ونظمها . فهو يتحدث عن جلوس السلطان بقوله « ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك ، وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه عليه غيره ، والفقهاء والشرفاء معه ، ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق (٢) » .

ثم يتحدث عن جلوس الفقهاء والعلماء وذوى الرأى ، وعن كيفية نظرهم فى شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، كما يفيض فى وصف الحياة الاقتصادية ومدى ما وصلت إليه السلطنة من اتساع فى النفوذ ونمو فى التجارة (٣) .

لا ينكر أن بعض هذه السلطنات مثل سلطنة بنى نبهان فى بانا استطاعت أن تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . واستطاعت كلوا أن تحقق مثل هذا النفوذ فى القرن الخامس عشر . غير أن هذه الجهود لم تتمخض عن إيجاد وحدة سياسية تجمع شمل هذه المدن التجارية .

والعجز عن تحقيق هذه الوحدة يرجع إلى تكوين هذه الإمارات من بطون عربية مختلفة ، لم تتحد فى شبه جزيرة العرب . فكيف تندمج فى وحدة واحدة فى شرق إفريقية ؟ فضلا عن اختلاف المذاهب الدينية من زيدية إلى اباضية إلى سنة مذاهب لا يمكن أن تأتلف أو تقترب ، ثم التوجيه الجغرافى للمدن نفسها لم تمل عليها أن تندمج فى نظام سياسى موحد .

---

(١) ابن بطوطة جـ١ ص ١٥٥ .

(٢) نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٣ .

(٣) ابن بطوطة ص ١٥٤ .

فهى مجموعة من المدن التجارية تستقل كل واحدة منها بنشاطها التجارى ، وتكاد تتخصص فى تجارة من التجارات ، فهى أشبه بالمدن الفينيقية التى تناثرت على ساحل الشام ، أو على ساحل شمال إفريقية ، وكانت العداوات لا تفتأ تشتعل بين هذه المدن المختلفة مذهبياً وجنسياً ! مثل النزاع المعروف بين مالنده وممبسى (١) الذى استمر حتى قدوم البرتغاليين ، وسارت مالنده فى ركابهم مع اختلاف الدين رغبة فى الانتقام من ممبسى .

هذه المدن والإمارات والسلطنات كان طابعها اقتصادياً صرفا وتاريخها الاقتصادى يكشف تاريخها السياسى ، ويؤثر فى حضارتها وفى حياتها الاجتماعية ، بل يؤثر فى نشاطها الإسلامى .

هذه المجتمعات تنوعت مشروعاتها الاقتصادية . واشتغلت بالزراعة فى المناطق الخصبة ، زرعت محاصيل لم تألفها البلاد : جلبوا زراعة البرتقال والذرة والفلفل والأرز والقرنفل ، ونجحت هذه الزراعة نجاحاً بعيد المدى . ويكفى أن يذكر أن القرنفل أهم المحصولات التى يعتمد عليها أهل زنجبار حتى اليوم .

وكان لهم نشاط صناعى ، فقد عرفت مقدشو صناعة المنسوجات الرفيعة التى كانت تصدر إلى العالم الإسلامى كله ، وذكر ابن بطوطة أنها كانت تحمل إلى مصر . وكذلك استخراج الذهب من منطقة سفالة ، هذا إلى جانب التجارة التقليدية فى العاج والذهب وجوز الهند والدقيق (٢) .

واستطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها على هذا النحو أن تصل فى الغنى والترف إلى ما يقرب من الخيال . تظهر هذه الحقيقة من وصف ابن بطوطه (٣) لمدن مقدشو وكلوا وممبسى فى القرن الرابع عشر ، وهذا الرحالة كان على معرفة وثيقة بمستوى الحياة العربية فى البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى هذا العصر فعجب للثراء العريض والحياة المترفة التى رآها فى شرق إفريقية ، وحديثه عن كلوا يوحى بأنها من أجمل بقاع العالم وأوفرها بهاء ، وكذلك حديثه عن ممبسى ومقدشو يعطينا صورة صادقة لمجتمعات مترفة غنية .

---

(١) على إبراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى ص ٣٤ .

(٢) Coupland : p. 26.

(٣) Coupland : pp. 35—36.

الصورة الأخرى نستمدها من رحالة برتغالي معاصر ، رأى هذه البلاد تبلغ الغاية من التطور الاقتصادي في القرن الخامس عشر . هذا الرحالة هو Duarte Barbosa الذي زار هذه البلاد سنة ١٥٠٠ على وجه التقريب ، وسجل في رحلته ما رآه من ازدهار ورخاء ، فقال : « لقد أقام العرب في هذه البلاد حقبة طويلة بسبب اشتغالهم بالتجارة مع البلاد الداخلية وكانوا يتجرون في زوارق صغيرة في كلوا أو ممبسى أو مالنده فيبيعون الملابس القطنية والحريرية ، ويبادلونها بمحصولات البلاد (١) » .

ووصف ممبسى وتحدث عن نظافة بيوتها وتناسق طرقاتها وملابس رجالها ونسائها حديث المندهش المتعجب ، كما أعجب فاسكوداجاما من قبل حينما رأى سلطان مقدشو في ملابسه الفاخرة وحاشيته ، ووصف المدينة ؛ ورأى مبعوثه إلى مالنده العجب ، المقاعد من العاج والذهب والأبسطة الفاخرة والحياة التي يشع منها الترف والجاه .

ولم تشذ مدينة من هذه المدن عن هذا الوصف . كلوا والجزر الصغرى وممبسى ومافيا وبما كلها في مثل هذا المستوى الرفيع . الأمر الذي يدل على أن هذا المجتمع الإسلامي في القرن الخامس عشر قد بلغ قمة التطور الاقتصادي(٢) .

هذا النشاط الاقتصادي ترك أثره في الحياة الاجتماعية ؛ فقد فرضت هذه الحياة على طوائف السكان أن تتعاون لخير المجتمع . كانت طبقات المجتمع كما وضحت في ذلك العصر أربعاً : الاستقراطية العربية صاحبة الكلمة في البلاد ، وطبقة الهنود المهاجرين وكانت تملك أغلب سفن المحيط الهندي ، ومهر الهنود في الشئون المالية والمصرفية وركزوا في أيديهم الحركة التجارية ، ثم طبقة أخرى من السكان خليط من المهاجرين العرب وأهل البلاد الأصليين تتكلم اللغة السواحلية . ثم طبقة العبيد الذين كانوا يشترون بالمال ويقومون بالأعمال اليدوية في المزارع والمصانع والمتاجر ؛ هذه الطبقات كلها تعاونت معاً بصورة فريدة (٣) .

هذا النشاط الاقتصادي دفع المشتغلين بالتجارة إلى التوغل في داخل البلاد لجلب العبيد . وكان تسرب هؤلاء العرب إلى المناطق الداخلية تسرباً سلمياً في أغلب الأحوال ؛ ولما كانت الإبل لا تستطيع أن تسلك هذه الطرق في مواسم الأمطار ،

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) M.L. Dames : The Book of Duarte Barbosa.

(٣) Coupland : pp. 26—28.

لذلك اعتاد التجار أن يتخذوا لهم مأوى فى المناطق الداخلية يقيمون فيها الشهر أو الشهور يتاجرون ثم يعودون . فأدى هذا إلى نشأة بعض المستقرات الداخلية ، وكانت هذه الصلات التى نشأت غايتها المبادلة التجارية فى المحل الأول ، إلا أنها أفضت إلى نشر الإسلام فى المناطق الداخلية (١) .

كانت هذه المدن تختلف عن المدن الشمالية ، فهى لم تجد دولة مسيحية تنازعها لقمة العيش ، وتقف لها بالمرصاد ، ولم تكتب فى تاريخ الجهاد صفحة موسومة بطابع الفروسية ، كالتى كتبتها أوفات وعدل وهرر . كانت تود أن تعيش فى سلام تتابع نشاطها الاقتصادى ، لولا أن وجدت نفسها وقد انقسمت فى المعترك الصليبى دون أن تدرى .

أتاها الصليبيون ليس عن طريق البر كما رأينا فى الشمال ، إنما عن طريق البحر فى ركاب البرتغاليين الذين ظهروا فى المحيط الهندى ، فقد دار دياز حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦ .

ولم يكن عمل دياز أقل شأناً من اكتشاف كولومبس للقارة الأمريكية . فقد كان هذا مقدمة لسيطرة الأوربيين على تجارة المحيط الهندى ، وما تلا ذلك من السيطرة الاقتصادية والسياسية .

وفى سنة ١٤٨٧ جاء فاسكو دا جاما مترسماً خطوات سلفه دياز ، فدار حول الرأس ووصل إلى المدن العربية فى موزمبيق ومالنده ، ثم شق المحيط إلى قاليقوت ، وعاد إلى لشبونة من نفس الطريق .

ثم عاد البرتغاليون مرة أخرى فى ربيع سنة ١٤٩٧ ، وبدا الهجوم الصليبى من الجنوب ، واستغل الفاتحون الصراع التقليدى بين مالنده وممبسى فأخذوا يغتالون هذه المدن الواحدة فى إثر الأخرى . ولم يشهد هذا المسرح الجنوبى إماماً مثل أحمد القرين يوحد الجهود ، ويذكى الحمية فى النفوس لمواجهة هذا العدو .

كان ظهور البرتغاليين بداية صراع دموى عنيف استمر أكثر من قرنين(٢) .

---

(١) Coupland : p. 30.

(٢) أنظر **Ballard : Rulers of the India Ocean. Guillain, Documents sur L'histoire de l'Afrique Orientale.**

ولم يكن البرتغاليون يريدون الاستقرار السلمى إنما كانت أغراضهم صليبية واضحة، هى القضاء على الإسلام والحصول على أكبر قدر ممكن من ذهب سفالة ، والسيطرة على المحيط الهندى وطرد المسلمين من البحر ، والقضاء على احتكار المسلمين لهذه التجارة .

وقد اختارت البرتغال رجالا أعدوا لهذا الغرض ، والمؤرخ البرتغالى Faria Souza فى كتابة In tne Portuguese Asia يعترف بذلك إذ يقول « كان للبرتغال ضباط يمتازون بالقسوة والطمع . والحكمة والتعقل فى نظرهم كلمات جوفاء . أعمالهم حب الربح بعيدون من الشعور بالعدالة » .

ويكفى أن يقال أنه لم تنج مدينة من هذه المدن المزدهرة من عبث الطغاة ، أحرقت ممبسى خمس مرات . وضعوا السيف فى رقاب الناس ، ومن بقى أسروه وأعملو السيف فى كلوا : وطردوا أهلها من ديارهم . دمروا مساجد لامو وبانا وقتلوا الشيوخ وفرضوا الغرامات الباهظة ، واستطاعوا فى سنوات قلائل بالسيف والتعذيب وإراقة الدماء أن يقضوا على المؤسسات التجارية التى أنشأها العرب(١) .

وفى نفس الوقت تقريباً خرجت جموع من الزنوج الوازمبا من الداخل وأطبقت على المدن الساحلية ، وأغاروا على ممبسى ، هاجموا الناس وأكلوهم فى الطرقات .

وفى نفس الوقت رست سفن Colunho de Menezes فى ميناء ممبسى لتضربها بالقنابل . وهرب الناس من أكلة البشر ، وألقوا بأنفسهم فى البحر ليعتصموا بالسفن الراسية ، لكن البرتغاليين حصدوهم بالرصاص .

وقد صور هتشنز هذه الحروب البرتغالية تصويراً يبين بشاعتها بقوله :

"All that remains of their occupation are a few bush grown ruins and, at Mombasa, that grim, shapless mass of frowning rock, Fort Jesus, whose walls could tell such tales of massacre and pillage, rape, and arson, that even the cannibal wasimba would have trembled to commit so blarphemous an irony as to bestow the same of their diety upon so sanguinary a pile"(٢)

---

(١) Hichens : op. cit. p. 122.

(٢) Hichens : p. 123.

وإذا كانت حركات الجهاد قد انتهت في الشمال إلى ما رأيناه من سيطرة الأحباش وانتهت فى الجنوب إلى استتباب النفوذ البرتغالى ، فإن القرن السابع والثامن عشر سيشهد التيار الإسلامى متغلباً على هذه المصائب ، معاوداً نشاطه وحيويته من جديد .

فقد استجدت ظروف مكنت الإمارات الإسلامية الجنوبية من التحرر من ربقة الاحتلال البرتغالى ، فقد ظهرت قوى بحرية أخرى تنافس البرتغاليين فى شرق إفريقية وفى المحيط الهندى ، وتنتقص من سيادتهم . فقد استدارت سفينة فرنسية حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٥١٩ بعد رحلة دياز بنحو ثلاث وأربعين سنة .

كما بدأت أول سفينة الإنجليز تدخل هذا الميدان سنة ١٥٨٠ ، وظهرت أول سفن هولانده سنة ١٥٩٠ . واستطاع لنكستر الانجليزى سنة ١٥٩٠ أن يصل إلى الهند ، وتأسست شركة الهند الشرقية ، وبدأت كل من انجلترا وهولانده ترسلان السفن التجارية المسلحة لتنتشر فى الشرق الأقصى من البحر الأحمر إلى الفلبين .

وكانت هذه التطورات مما مهد السبيل للانتقاص من السيادة البرتغالية بل أدت للقضاء عليهم ، فلم تبق لهم إلا اجوا ومالقه ، وطردوا من هرمز سنة ١٦٦٢ .

وأخذ الانجليز يمكنون لأنفسهم ، استولوا على موريتيوس سنة ١٦٤٤ وسيلان سنة ١٦٥١ . وفى منتصف القرن الثامن عشر فقد البرتغاليون مستعمراتهم وشركاتهم فى الشرق كله من الخليج الفارسى وسواحل الهند وأرخبيل الملايو وركزوا اهتمامهم فى جزر الهند الشرقية .

والمسلمون من أهل البلاد لم يستسلموا لهذا الخطر البرتغالى إنما بدأوا يستردون الأرض التى فقدوها ، فقامت منذ سنة ١٥٨٣ سلطنة عربية فى المناطق الشمالية البعيدة عن النفوذ البرتغالى ، وبدأت ممبسى تقاوم هذا الاحتلال ، وظهر عامل جديد لم يكن فى الحسبان فقد ظهر العثمانيون فى القرن السادس عشر ، وبدأوا يثبتون أركان سيادتهم على البحر الأحمر وينافسون البرتغاليين .

وكان ظهور الأسطول التركى سنة ١٥٨٠ مما شد عزائم المناضلين المسلمين (١) ، وقوبلت هذه السفن بحماس شديد فى كل مدينة زارتها ، وبدأت المدن الإسلامية تعلن

(١) Coupland : op. cit. pp. 52—56.

الثورة وتخرج عن طاعة فيليب الثانى ملك البرتغال ، وتدخل فى طاعة السلطان العثمانى .

وأرسل صاحب ممبسى يستصرخ العثمانيين بإرسال حامية تركية ، ولكن العثمانيين لم يقدموا على المغامرة فى هذا الميدان الجنوبى . فلم يرسلوا الحامية الموعودة . إنما استدعى البرتغاليون النجدات من جوا ومالنده وعاود المسلمون الاستنجاد بالعثمانيين وتعهدوا بأن يمولوا الحملة وأن ينفقوا عليها . وجاء القائد التركى إلى ممبسى مرة أخرى ، لكن حاقت به الهزيمة وقبر هذا الأمل فى نفوس المجاهدين .

لكن ظهر فى ميدان الجهاد الإسلامى شعب فتى آخر . فقد تحرر العمانيون سنة سنة ١٦٥٠ فى عهد الإمام سلطان بن سيف ، وطردوا البرتغاليين من مسقط ومن الساحل العربى الجنوبى ، وأرسلت ممبسى إلى العمانيين تستصرخهم .

ودخل العمانيون فى ميدان الجهاد فى الجنوب سنة ١٦٥٢ ، واستطاعت هذه القوة الفتية أن تهزم البرتغاليين فى زنجبار . وفى سنة ١٦٦٠ استولى الأسطول العمانى على ممبسى . وفى سنة ١٦٦٩ فى آخر أيام سلطان بن سيف دخلوا موزمبيق (١) . وظل العمانيون يحملون على المقاومة فى عهد سيف بن سلطان ، وهزم البرتغاليون سادة الأمس هزيمة ساحقة عند ممبسى ، وفى سنة ١٧٤٠ استطاع الإمام أحمد بن سعيد أن يحرر المسلمين فى شرق إفريقية نهائياً (٢) .

وكأن هذا التحرر من الكابوس الذى جثم على صدر المسلمين نحو قرنين كان نذيراً بانطلاقة عظيمة للنفوذ الإسلامى . فقد عاودت الحركة الإسلامية نشاطها ، وبدأ المسلمون يعوضون ما فاتهم تحقيقه فى السنوات الماضية .

وبدأ الإسلام يتوغل توغلا حقيقياً إلى الداخل ، وبدأ الدعاة ينشرون الإسلام فى موزمبيق وسفالة ، ونفذ الإسلام إلى نياسالاند ، ولا زال بها حتى اليوم نحو ربع مليون من المسلمين .

وبعد اختفاء الخطر البرتغالى تعمق المسلمون فى توغلهم الداخلى . فنفذوا إلى

---

(١) Coupland : pp. 58—66.

(٢) Hicheas, p. 127.

هضبة البحيرات ، ودخلوا أوغندة ، دخلها تجار زنجبار سنة ١٨٢٥ ودخل الإسلام كينيا وتنجانيقا .

وفى خلال القرن الثامن عشر أنشئت المساجد فى القرى الواقعة على طول الطرق التجارية الموصلة إلى بحيرات نياسا وتنجانيقا . وأدرك التسرب الإسلامى حدود الكنغو ويذكر هتشنز أنه لا تكاد تخلو قرية فى قلب هذه المنطقة من مسجد للمسلمين(١) .

وأحرز الإسلام تقدماً مماثلا فى المناطق الإسلامية إلى الشمال من مقدشو ، وإذا كان السيف لم يفلح فى قهر المقاومة الحبشية ، فإن الإسلام نفذ إلى قلب الحبشة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر بوسائل أخرى .

وقلب الإسلام الهزيمة إلى نصر ، وحقق من النجاح ما لم تحققه المعارك التى ظل المسلمون يخوضونها أكثر من أربعة قرون . فقد بدأت الحبشة بعد قضائها على أحمد القرين تدفع ثمن أطماعها الصليبية ، ومحالفتها للغربيين من البرتغاليين .

إذ بدأ النفوذ الأوربى يتسرب إلى بلاد الحبشة على نطاق واسع . ودخل الجزويت فى أثر سفراء البرتغال ، وبدأت الكاثوليكية الوافدة تهدد اليعقوبية الحبشية بعد أن تضاعف نفوذ هؤلاء المبشرين .

وبدأوا يستغلون النصر الذى أحرزه فى التدخل فى الشئون الدينية والسياسية ، وسخط الأحباش وبلغ السخط بزعمائهم جداً جعلهم يفضلون أن يخضعوا للمسلمين ، وأن هذا الخضوع فى نظرهم أفضل من وقوعهم فى قبضة البرتغاليين .

وضح هذا السخط فى عهد الملك فاسيلداس ، وبدأ يفكر فى محالفة المسلمين ، وطلب تأييد القوى الإسلامية فى دفع الخطر الغربى ، وبدأت الحبشة تعود إلى سياسة ما قبل القرن الثالث عشر(٢) : العزلة عن العالم الخارجى ومسالمة المسلمين .

وبدأ هذا الملك فعلا يتصل بملوك اليمن ، اتصل بالإمام المؤيد سنة ١٦٤٠ يطلب أن يتعاونا لدفع الخطر البرتغالى ، كما عاود الاتصال بخليفته المتوكل على الله سنة ١٨٤٧ (٣) .

---

(١) Ibid, p. 129.

(٢) أرنولد : الدعوة للاسلام ص ١٢٨ — ١٣٠ .

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia p. I00.

ودخل الإسلام إلى هذه البلاد مستظلا بهذه النسامة. ومتسربا تسربا سلمياً واسع المدى والرحالة Mameol d'Almeida ، الذى عاش فى بلاد الحبشة بين سنتى ١٦٢٤ و ١٦٣٣ يذكر أن المسلمين انتشروا فى طول البلاد وعرضها وأنهم ثلث السكان.

وبدأ الوثنيون غير المتعمقين يقارنون بين المسيحية الحبشية الغارقة فى خضم الخلافات المذهبية وبين بساطة الاسلام ووضوحه ، وهذا لأن الوثنيين الكارهين للأمحرية الحاقدين عليها وجدوا فى الإسلام متنفساً لهم ، فمالوا إليه كرها فى الأمحرية وحضارتها .

فقد كانت موسومة بالكبرياء الدينى والعنصرى ، فتهيأت لهؤلاء الأحباش الساخطين الفرصة للانتماء إلى مجتمع عالمى أوسع ، والتمتع بأخوة إسلامية أكبر مقاماً ، وأوفر قوة من دولة الحبشة نفسها ، فضلا عن تجرد الإسلام من العنصرية والطائفية وحواجز الجنس واللون (٢) .

ومما يدل على عمق انتشار الاسلام واتخاذه صورة عنيفة أن الأحباش بدأوا يستشعرون الخطر ، ويحاولون وقف الحركة الاسلامية الزاحفة بتخصيص قرى مستقلة للمسلمين وأحياء خاصة لهم فى المدن الكبرى (٣) .

وقد اتخذ انتشار الاسلام وسيلة أخرى حملته إلى قلب النفوذ الحبشى وذلك من طريق هجرات الجلا : كان الجلا هؤلاء فى عصر القرين حلفاً قبلياً مفكك الأوصال ، ينتشر فى وادى الوبى وجوبا ، بل ينتشرون حتى الجبال الواقعة إلى الشرق من بحيرة أبايا ، ثم بدأوا يغادرون هذا الوطن متنهزين فرصة الفراغ الذى أحدثه خروج الصوماليين فى ركاب أحمد القرين ، وبدأو يهاجرون نحو بلاد الحبشة .

وكان شأنهم شأن البدو دائما إغارات خاطفة ثم تقهقر خاطف ، وكانت هجراتهم تنفذ من طريقين : من الجنوب الغربى عبر الممر الواقع بين جبل ولبوو بحيرة أبايا ، أو عبر وادى جوبا وويبى .

الهجرات الأولى بدأتها قبائل الداوى إذ انقضت على منطقة باتيرا أمورا وهزمت

---

(١) Histoire de la haute Ethiopia.

(٢) Trimingham : p. 101.

(٣) أنظر Poncet : a voyage to Ethiopia.

جيش الحبشة (١) ، ثم غزوا منطقة بالى بعد ذلك ، حدث هذا فى الوقت الذى هزم فيه القرين وخرجت الحبشة من هذا الصراع منهكة القوى ؛ وكلما ردهم الأحباش كلما عاودوا الإغارة مرة أخرى واستقر بهم المقام فى إقليم بالى الغنى بمراعيه ومياهه ، ثم دخلوا هرر أيضاً وتعلموا استخدام الخيل بعد احتكاكهم بالصوماليين .

وفى مستهل القرن السابع عشر بدأوا يحتاون السهول الخصبة فى شرق إفريقية ، وبدأ بعضهم ينفذ إلى أمحرة ثم بدأت جموع أخرى تقتحم الحبشة عبر نهر وبى . وتدفقوا إلى إمارات السداما فى منطقة شوة ولم يستطع الأحباش دفع هذا الخطر الدافق فقد احتلوا ثلث البلاد .

لم يندمجوا فى السكان الأصليين ، بل ظلوا بمعزل عنهم فى الناحية الاجتماعية والثقافية وذلك بسبب عنجهية الأمحريين وكبريائهم .

ثم بدأ الجلا يتسربون إلى النظام الحبشى نفسه ؛ دخلوا كمرتزقة فى القوات الحبشية ، وسيطروا على البلاط وبلغ فن نفوذهم وارتفاع شأنهم أن أم الملك ياسو زوجته من ابنة أحد زعماء الجلا الأقوياء . وفى عهد ابنه وخليفته (١٧٥٥ — ١٧٦٩) غلب أقرباؤه من الجلا على الحياة فولاهم الوظائف الرئيسية فى البلاد (٢) .

هؤلاء الجلا المهاجرين بدأوا يدخلون فى الإسلام أفواجا ، وكان دخولهم أولا نتيجة حتمية لسياسة الأحباش القائمة على التفرقة العنصرية .

فقد تركهم الأمحريون يعيشون بمعزل ، لم يحاولوا إدخالهم فى المسيحية ، وكأن هذا الدين وقف عليهم وحدهم . بل بدأت الدولة تجعل الفلاشة والسداما والجلا والشانقلا (٤) عناصر مبعدة عن الحيـــاة مضطهدة ، ثم أضافوا إليهم المسلمين .

وبدأ المسلمون يحتكون بالجلا فى الأسواق . وبدأ الجلا يحسون بمعارضة

---

(١) Budge, Vol. II, pp. 603—613.

(٢) Cerulli, M.R.A.L. Sér vi. vol. VI, 1931.

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 105.

(٤) Trimingham : 102.

الإسلام للمسيحية فى الحبشة ، وبدافع كرههم للأحربين وتعصبهم مالوا إلى الإسلام ودخلوا فيه (١) .

والوسيلة الأخرى أن سياسة المسالمة التى ثابت إليها الحبشة فتحت الطريق أمام التجار المسلمين وأمام الدعاة المتخذين زى التجار . وبدأ التجار ينشطون على وجه الخصوص فى جنوب غرب الحبشة ، حيث كان المهاجرون من الجلا قد احتلوا ممالك سدامة وكونوا ست إمارات فى هذه المنطقة .

كما انحدر التجار المسلمون إلى هذه الجهات من السودان ومن جنوب شرق إفريقية ، كانوا يجمعون بين التجارة والدعوة إلى الإسلام ، وقد وجدوا ترحيبا عظيما من أمراء الجلا هؤلاء ، فتحوا لهم الأسواق ، وجلبوا لهم ما يحتاجون من سلع . واستقر بعضهم فى البلاد ، واتخذوا زوجات من الجلا .

عن طريق هذه الصلات الاجتماعية والاقتصادية دخل هؤلاء الأمراء فى الاسلام فى منتصف القرن التاسع عشر وتبعهم شعب الجلا (٢) ، وتسرب الإسلام إلى زعماء الجلا فى قلب الهضبة الحبشية نفسها ، وكان هؤلاء الزعماء قد وثبوا إلى أرفع المناصب واتخذوا مناصبهم هذه وسيلة لدفع الحركة الإسلامية إلى الأمام .

من هؤلاء الزعماء الرأس على الذى كانت له السيادة على المناطق الوسطى والشمالية الغربية فى بلاد الحبشة ، واستغل هذا النفوذ الواسع لتشجيع المسلمين ، ويقال أنه أحب أن يحيى تقاليد الإمام أحمد بن ابراهيم ، فجعل قبره مثابة للناس يحجون إليه . ويقال إن هذا الزعيم الحبشى قد أدخل فى الإسلام ثلث سكان البلاد التى تولى حكمها .

وفى نفس هذا العصر تقريباً انتشر الإسلام بين القبائل المسيحية فى أرترية ، وقد بلغ انتشار الإسلام حدا جعل الكردينال Massaian (٣) الذى قضى فى البلاد ردحا طويلا من الزمن يقول أنه لو تمخض المجتمع الإسلامى عن ظهور قرين آخر لدخلت البلاد كلها فى الإسلام .

---

(١) Budge, II. p. 627.

(٢) Trimingham : p. 109.

(٣) Budge, vol. II, p. 508.

الثقافة العربية :

والثقافة العربية في هذا الدور تأثرت بموقع المدن الإسلامية وطبيعة الحياة فيها ، وبالجهاد المستمر الذى اضطلعت به ، فالمدن التى قامت على الشاطىء الشرقى لإفريقية كانت مدناً تجارية قبل كل شىء ، تشتغل بالنقل التجارى بين إفريقية ، وبين أسواق الاستهلاك فى العالم كله ، وكانت هذه المدن على علاقة وثيقة بالعالم الإسلامى كله ، علاقة ببلاد اليمن ، وعلاقة بمصر .

هذا الاتصال المستمر بالعالم الإسلامى ، ترك أثره فى الحياة الثقافية فى البلاد فقد نزحت إليها جميع الفرق والمذاهب التى عرفتها الحياة الإسلامية . نزحت إليها الزيدية ، ونزحت إليها الاباضية ، وتنوعت المذاهب بتنوع طوائف الراحلين والمهاجرين ، وكثر الراحلون من أهل شرق إفريقية إلى بلاد اليمن وجزيرة العرب عامة .

كما كان فقهاء اليمن وعلماؤها أكثر المسلمين وفودا إلى هذه الجهات ، طبعوا الحياة بطابعهم ، وأثروا فى الحركة الإسلامية تأثيراً واضحاً . وقد رأينا فقهاء الحجاز واليمن ينتشرون فى سلطنة عدل وفى إمارة هرر يحضون على الجهاد ويحرضون عليه .

وكان لمسلمى شرق إفريقية صلة بمصر أيضاً . اتصلوا بها اقتصادياً وثقافياً ، كان تجار مصر يختلفون إلى أسواق الحبشة وتجار مدن إفريقية الإسلامية يختلفون إلى مصر . وكان المسلمون الراغبون فى الاستزادة من العلم يفدون إلى مصر للالتحاق بالأزهر . وقد أنشىء لهم بهذا المعهد رواق لأهل زيلع ، ورواق للجبرتية .

وبرز من هؤلاء العلماء الوافدين إلى مصر طائفة من العلماء أمثال الشيخ الامام الزيلعى فخر الدين عثمان بن على شارح الكنز المتوفى سنة ٧٤٢ هـ (سنة ١٣٤٢م) والمحدث الزيلعى جمال بن عبد الله بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٧٦٢، والعارف بالله الشيخ على الجبرتى الذى اعتقد السلطان قايتباى فى صلاحه وولايته وتوفى سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٣ م) (١) .

---

(١) يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة ص ٦٨ .

وكان هؤلاء المشتغلون بالعلم يعودون إلى بلادهم لمتابعة نشاطهم العلمي ولا يبعد أن يكون نفر من فقهاء مصر وعلمائها قد رحلوا إلى مدن شرق إفريقية واقاموا فيها . فابن بطوطة الذى زار مقدشو فى القرن الرابع عشر يشير إلى أحد الفقهاء المشاهير فى هذه المدينة واسمه ابن البرهان المصرى الأصل (١) .

وإذا كانت مصر قد تركت أثراً واضحاً فى حياة نصارى الحبشة فلابد أنها تركت أثراً أشد عمقاً فى حياة المسلمين من تلك البلاد ، هؤلاء المسلمون الذين كرس سلاطين المماليك أنفسهم لحمايتهم والدفاع عنهم ، وكانت علاقتهم بملوك الحبشة تتأثر بما يلقاه هؤلاء المسلمون من خير أو شر .

وقد تركت طبيعة الحياة فى المدن الإسلامية الواقعة شمال مقدشو أثرها فيما شاع فيها من ثقافة إسلامية . فقد كان هؤلاء المسلمين فى نضال وجهاد مستمرين ، جهاد وأيناه يشغل عليهم وقتهم كله وحياتهم كلها .

لهذا طبعت هذه الثقافة بطابع ديني عميق ، فقد سيطر الفقهاء ورجال الدين على حياة المسلمين ، وتحكموا فيها ، وكانوا من وراء حركات الجهاد التى اضطلع بها سلاطين عدل أو الأمراء الأئمة الذين ظهروا فى هذه البلاد منذ القرن الخامس عشر . كان هؤلاء الفقهاء يشتركون القتال ويحرضون عليه ، اشتركوا فى جهاد سلاطين عدل ، وجهاد الأمير محفوظ والجراد آمون ، وجهاد الإمام أحمد بن إبراهيم .

وكان هؤلاء الأمراء والسلاطين يأتمرون بأمر هؤلاء الفقهاء ويتلقون منهم التوجيه والإرشاد وقد صطبغت الحياة الإسلامية فى هذه الجهات فى القرن الخامس عشر بلون ديني متزمت لا نستطيع أن نعلله التعليل الصحيح .

وقد أشار المقريزى إلى هذا الطابع المتزمت بقوله : « وهم يتشددون فى ديانتهم تشدداً زائداً ويعدون من خالفهم من سائر الملك أشد عداوة (٢) » ، كما لاحظ محافظتهم على دينهم إلى حد المغالاة ، وأن الإشارات القليلة التى وردت فى كتاب عرب فقيه أو المقريزى أو ابن بطوطة أو العمرى تشير إلى اضطلاع الأمراء والسلاطين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) المقريزى : الالمام ص ٤ .

بل مضى بعضهم إلى أبعد من هذا ، فالجراد-آبون أبطل الخمور(١) « واللعب والرقص بالطبول » وكذلك فعل كل من أتى بعده . فهل هذا اللون من الحياة الدينية مرده إلى حركات حنبلية انتقلت من بلاد العرب فى ركاب التجار والفقهاء ؟ أم يرد ذلك إلى تأثر ببعض نزعات الخوارج من الأباضية ؟

وقد انتشر الاباضيون فى كثير من مدن شرق إفريقية ؟ أو أن الخطر الملح من عدوان الأحباش ولد فى نفوس المسلمين هذه الشدة فى التمسك بأهداب الدين امتساكاً للرمق وصونا للتراث الإسلامى من الضياع ؟ أم يرد هذا إلى طبيعة الشعوب حديثة عهد بالإسلام ؛ فقد دخل الأعفار والصوماليون فى الإسلام فى عصر متأخر ، فاتسم دخولهم فيه بهذه الحركة الإسلامية العميقة .

إذن غلب الطابع الدينى على الثقافة الإسلامية فى هذه البلاد فالعمرى يذكر أن مدن شرق إفريقية لها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ، وعند أهلها محافظة على الدين ؛ إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية . . . فيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء (٢) .

هذه الحقائق كلها تحدد لنا هدف الحركة التعليمية فى هذه البلاد وطابعها إذ ليس من شك فى أن انتشار الإسلام كان مصحوباً بنشاط تعليمى واضح .

كلما انتشر الإسلام فى مكان خف إليه الفقهاء وأقاموا الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين . لذلك كان دخول الأحباش فى الدين الإسلامى واستجابتهم لهذه الحركة التعليمية سبباً فى ارتفاع مستواهم الثقافى .

وقد نقل السير توماس أرنولد عن ريبل (٣) . أنه كثيراً ما لاحظ أثناء تنقله فى بلاد الحبشة أن الوظائف التى تتطلب خبرة خاصة ومستوى ثقافياً معيناً لا يشغلها إلا المسلمون .

ويعلل ريبل ذلك بقوله إن المسلمين أعلا همة وأوفر نشاطاً وأرفع مستوى . فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القرآن والكتابة الوقت الذى كان فيه فى أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا إذا أرادوا الانتظام فى سلك الكهنوت .

---

(١) عرب فقيه ص ٦ .
(٢) القلقشندى جـ ٥ ٣٢٤ .
(٣) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص ١٣٩ — ١٤٠ .

انتشر هذا النوع من التعليم فى جميع أرجاء شرق إفريقية ، فى المناطق الساحلية وفى الداخل أيضاً . ولكن يبدو أن التعليم لم يكن يتجاوز هذا المستوى .

فلم تشهد البلاد كما يقول العمرى ظهور نوع من المدارس مثل التى ظهرت فى مصر أو فى غيرها من البلاد الإسلامية . ويبدو أن سهولة الرحلة بين هذه المدن وبين مختلف الأمصار الإسلامية جعلتهم ينشدون هذا النوع من العلم فى مدارس اليمن أو الحجاز أو مصر .

ويبدو أن الحياة الثقافية فى السلطنات التى انتشرت من مقدشو صوب الجنوب كانت أكثر ازدهاراً منها فى مدن الشمال ، فقد عاشت هذه المدن عيشة رخاء وطمأنينة منذ نشأتها الأولى حتى بداية الاحتلال البرتغالى فى أواخر القرن الخامس عشر .

لم تشهد هذا الجهاد العنيف من أجل البقاء الذى شهدته المدن الشمالية ولم تكن مدن الجنوب مجرد أسواق للتجارة إنما حمل المهاجرون إليها من العرب والفرس حبهم للأدب والشعر وميلهم للثقافة .

ويبدو أن المحنة البرتغالية ، وما أعقبها من تحرر وانطلاق قد أنتجت نهضة أدبية شاملة وصلت إلى غايتها فى القرن الثامن عشر . هذه المحنة لم تقض على العقيدة الإسلامية إنما صقلتها ، وانتشرت الحمية الدينية فى كل مكان .

هذا التحمس الفائق للدين بعد عصر المحنة يتمثل فى الهمزية التى ألفها السيد عيد روس الشيخ على من أهل لامو (١) ؛ ففيها تصوف وعمق ونزعة دينية عميقة ، وانطبعت هذه الحرية فى أغانى العصر وأناشيده وقصصه وتجلت هذه النهضة فى مؤلفات السيد عبد الله بن على ، وفى كتاب له يسمى الانكشاف (٢) .

وكان هذا السفر يقرأ فى المدن الجنوبية كلها ، فى المساجد وأماكن العبادة ؛ وامتدت هذه النهضة إلى الأدب الشعبى السواحلى ، وظهر فى هذا الميدان شاعر من

---

(١) Hichens : op. cit. p. 123.

(٢) هذا الكتاب ترجمة هتشنز ونشر بلندن سنة ١٩٣٩ .

أهل الجنوب اسمه مويا كا ابن حاج الغسانى ، بلغ فى هذا الإنتاج الأدبى حداً كبيراً من التفوق (١) .

الإسلام فى شرق إفريقية فى القرن التاسع عشر

وكان لا بد أن يستجيب الوطن الإسلامى فى شرق إفريقية للتطورات الهامة التى تجاوبت أصداؤها فى العالم الإسلامى فى إفريقية على الخصوص ؛ هذه التطورات التى رأيناها تمتد إلى مصر والمغرب وغرب إفريقية وسودان وادى النيل . كان لا بد أن يتجاوب المسلمون فى شرق إفريقية مع الوطن الإسلامى الأكبر ؛ فهم جزء من هذا الوطن .

ولم تكن أحوال شرق إفريقية فى ذلك العصر تمهد لأن تنبثق حركات الإصلاح والتطور من داخل هذا الوطن نفسه ، فقد أخفقت حركات الجهاد التى رأيناها تشتعل طوال العصر الماضى .

وخرج المسلمون من هذه المعارك وقد أنهكت مواردهم واستنزفت قوتهم ، وأخضع الأحباش جميع الإمارات الإسلامية لسلطانهم ، وتخلصوا من الحكم البرتغالى بعد أن تعاونوا معه ، وأوقفوا نشاط العثمانيين فى شرق إفريقية ، وعانى المسلمون فى الإمارات الجنوبية من الاحتلال البرتغالى الشىء الكثير .

ولم يكن يتهيأ لهم أن يتخلصوا من هذا الخطر الداهم . لولا ظهور القوى البحرية الكبرى فى المحيط الهندى وإضعافها النفوذ البرتغالى .

ثم تقدم العمانيون لإنقاذ إخوانهم فى الدين لذلك قضت هذه الظروف أن يستجيب هذا الوطن للحركات الإصلاحية التى ظهرت فى العالم الإسلامى القريب . وكان طبيعياً أن تمتد هذه التطورات إلى شرق إفريقية ، وأن تؤثر فى حياة المسلمين هناك .

هذه التطورات التى أثرت فى أحوال المسلمين فى شرق إفريقية هى : امتداد النشاط الصوفى الذى مسته يد الإصلاح فى القرن التاسع عشر ، امتداده إلى شرق إفريقية ليساهم فى تدعيم الحركة الإسلامية ، وفى نشر الإسلام فى هذه البلاد ،

(١) Hichens : Deivani ga Muyaka bin Haji al-Ghassani, Johanesburg, 1940.

وظهور المصريين بعد فتح السودان واقترابهم من حدود الحبشة ؛ وتدخلهم فى شرق إفريقية ؛ ثم ظهور السيد سعيد وتوحيده مسقط وزنجبار (١٨٠٦ — ١٨٥٦) .

بدأت الطرق الصوفية تدخل شرق إفريقية قبل بداية القرن التاسع عشر بوقت طويل . لم تتسرب إلى البلاد قبل القرن الرابع عشر ، فقد لاحظ العمرى (١) الذى كتب عن هذه البلاد بين سنتى (١٣٣٢ — ١٣٣٧) أنه ليست بها ربط ولا زاوية ولا خانقاه .

ولكن يبدو أن الطرق الصوفية بدأت تتسرب إلى البلاد بعد ذلك ؛ تسربت القادرية مع المهاجرين اليمنيين أو الحضارمة ، وأخذت تنتشر فى مصوع وزيلع ومقدشو ؛ ودخلت إلى هرر أيضاً على يد الشريف أبى بكر عبد الله العيدروس الذى توفى بعدن سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) (٢) ، فأصبحت الطريقة الرسمية فى إقليم هرر حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، ونشطت الطرق الصوفية وتجددت امتد هذا النشاط إلى شرق إفريقية .

استأنفت القادرية نشاطها العلمى والدينى . أنشأت المدارس فى البلاد واضطلعت بنشر الإسلام ، وانتشر أتباعها بين الجلا .

وفى جنوب غرب الحبشة كان نشاطها قد تركز فى المناطق الساحلية حتى سنة ١٨١٩ ؛ غير أن النشاط امتد إلى المناطق الداخلية ؛ وتسربت إلى مدينة براوة سنة ١٩٤٠ وانتشرت بعد ذلك فى بلاد الصومال انتشارا واسعاً ، ولها زوايا كثيرة فى أرترية ومصوع وأسمرة وأغلب المدن الكبرى .

ثم تسربت الطريقة الأحمدية التى أسسها السيد أحمد بن إدريس الفاسى هذه الطريقة التى أسهمت فى حركات الإحياء التى شهدها القرن التاسع عشر ولم يكن الفاسى صوفياً فحسب ؛ وإنما كان مصلحاً يستهدى تعاليم الوهابية ويتأثر بها ، فجرد الصوفية من كثير من بدعها ونادى بالاعتماد على الكتاب والسنة فهى طريق السالكين .

وقد لقيت تعاليمه هذه معارضة عنيفة من علماء مكة . فاضطر إلى أن يهاجر إلى

---

(١) نقلا عن القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٢٤ .

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia 234.

عسير حيث مات بها سنة ١٨٣٧، ولكن آراءه في الإصلاح لم تمت بموته، إنما امتدت إلى شرق إفريقية. دخلت الصومال سنة ١٨٧٠، ولقيت نجاحاً منقطع النظير خصوصاً في منطقة الشبيلي وقد لقيت استجابة سريعة من الصوماليين، فقد صادفت تعاليمها صدى في نفوسهم، ولقد لعبت دوراً كبيراً في رفع مستوى الثقافة الإسلامية في بلاد الصومال (١).

والختمية التي ظهرت في السودان متأثرة بتقاليد ابن إدريس، وانتشرت على يد محمد عثمان الأمير غني، انتشرت بين بني عامر في شرق إفريقية سنة ١٨١٧، وحملها ابنه الحسن إلى مدينة سواكن؛ واستجاب لها الحلانقة والحباب، وأنشئت مدينة الختمية في كسلا، واكتسبت الكثير من الأنصار راودت المخلصين للإسلام من سلاطين المماليك فحالت امكانيات عصرهم دون تحقيقها.

بمعنى أن اهتمام مصر الإسلامية بشرق إفريقية لم يعد اهتماما سلبياً إنما اهتماماً إيجابيا له شأنه وله أثره في توجيه الحياة الإسلامية في هذه الآفاق، وبعث الروح في القوى الإسلامية التي استنزفت دماءها في قرون الكفاح وعهود الاضطهاد.

كان الامتداد المصري استمراراً للامتداد العثماني، الذي أوقف نفوذ البرتغاليين وحقق للمسلمين السيادة البحرية من السويس شمالا حتى مضيق عدن جنوبا، رغم أن الأحباش استطاعوا أن يهادنوا القوة العثمانية ويحولوا دون تدفقها إلى إفريقية.

غير أن العثمانيين ظل لهم نفوذ إسمي على الأقل على منطقة سواكن ومصوع. فقد كان نواب أركيكو من أهل البلاد الأصليين في الحقيقة يخضعون لباشا جدة العثماني، كما كان حكم مصوع خالصاً لباشا الحجاز، وكان نواب أركيكو هؤلاء المعينون من قبل باشا جدة يتولون أمر القبائل التي تعيش في الأراضي المنخفضة الممتدة بين ساحل البحر الأحمر الغربي، وكان لهم حق فرض الضرائب على القوافل التي تدخل أرض الحبشة (٢).

غير أن البعث الذي تدفق في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ثم

---

(١) Trimingham : pp. 242–243.

(٢) Plowden : Travels in abyssinia p. 3.

امتد إلى السودان بعد فتحه كان مؤذناً بإخراج هذا النفوذ العثمانى من الجمود إلى الحركة ، ومعيداً لعهد التوسع الإسلامى القديم .

وكان أول عهد محمد على بمشكلة البحر الأحمر على أثر قيام الثورة الوهابية التى عرضت النفوذ العثمانى فى الحجاز للضياع واستنجاد السلطان بوالى مصر لإخماد هذه الحركة ، واستطاعة ابراهيم بن محمد على أن يحقق الآمال التى عقدها السلطان فكرفىء بإعطائه باشوية جدة فى يوليو سنة ١٨٢٠ (١) .

ولما كانت هذه الباشوية تشمل سواكن ومصوع فقد أصبح إبراهيم يلقب بمتصرف جده والحبش ، وأصبح لمصر رأس جسر فى المنطقة الهامة ، وكانت مشروعات محمد على تهدف إلى تحقيق غرضين .

الغرض الأول أن تصبح هذه السيادة الإسمية على مصوع وسواكن سيادة حقيقية وأن تستبدل نيابة أركيكو التى كانت لاتكاد تسلم من طمع الأحباش وعدوانهم بقوة عسكرية مصرية حقيقية . فأرسل سنة ١٨٢١ جيشاً استطاع أن يحتل مصوع ويحقق الشطر الأول من الخطة . وفى نفس الوقت تعمد الجيوش المصرية إلى إقلاق الحبشة ومهاجمتها من الغرب . بذلك تصبح هذه البلاد محصورة بين هذه القوات التى تأخذها من الشمال والغرب .

ونحن لانريد أن نجرد هـــذه السياسة من أهدافها الإسلامية الواضحة بأن ندعى أن سياسة محمد على تلك لم تكن تهدف إلا إلى الرغبة فى بسط نفوذه الشخصى على مناطق تابعة للعثمانيين ، أو الانتقام من الأحباش الذين آووا نمر وعضدوه وإنما نعتقد أن هذه السياسة كانت تنطوى على أهداف إسلامية واضحة ، وإنما تعبير صادق عن أحلام مصر الإسلامية بمعاضدة القوى الإسلامية فى شرق إفريقية معاضدة واقعية .

فقد بدأت القوات المصرية فعلا تشدد القبض على سبدرات سنة ١٨٢٣ (٢) ، ورحل والى مصر إلى السودان وطاف بمنطقة الحدود الحبشية . ثم عمدت جيوشه

---

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ص ٢٣—٢٤ .

(٢) Sennar Chroncle, Mac-Michael : Arabs in the Sudan, vol. II, p. 391.

إلى مهاجمة الحدود الحبشية عند القلابات ، وإلقاء الذعر والفوضى بمنطقة جندار وقيل أن تحالفاً تم بين الرأس على زعيم الجلا المسلم ، وبين القوات المصرية للقيام بعمل مشترك (١) .

على كل حال لم تتحقق هذه الأهداف ، فقد كان الباب العالى يرتعد خوفاً من هذه القوة النامية فى حجره . فلم يوافق على احتلال مصوع ، واضطر المصريون إلى إخلائها ، وعادت هذه البلاد إلى سابق عهدها من الضعف والتخاذل فى ظل السيادة العثمانية الإسمية .

وبدأ الأحباش يعاودون الاعتداء على منطقة أركيكو من جديد . وكأن العثمانيين أحسوا بفداحة ما ارتكبوه فوافقوا فى سبتمبر سنة ١٨٤٦ على تأجير ميناء سواكن ومصوع لمحمد على مدى حياته ، بعد أن أنهكت قوته وأثخن بالجراح (٢) .

ثم بدأ نفوذ مصر الإسلامية يعاود الظهور مرة أخرى بصورة أقوى وأشد فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك بإحياء الخطة القديمة ثم التوسع فيها بقدر الإمكان .

حاولت مصر أن تتولى تدعيم السيادة فى منطقة البحر الأحمر بأن يتنازل العثمانيون لمصر عن سواكن ومصوع ، وكان الباب العالى الذى أقلقته أطماع تيودور وسياسته حريصا على تحقيق ما أراده المصريون . فأصدر فى ٣ مايو سنة ١٨٦٥ فرماناً يمنح باشا مصر حكم قائمقاميتى مصوع وسواكن وملحقاتها فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ .

وصدر فرمان الوراثة الصلبية يمنح اسماعيل حكومة وراثية فى مصر وجميع الملحقات التابعة لها فى سواكن ومصوع . وكانت ملحقات سواكن ومصوع تمتد من الشمال فى رأس علبة إلى رهيطة فى الجنوب عند باب المندب (٣) .

وظهر النفوذ المصرى فى هذه الجهات واضحاً قوياً متجاوباً مع شعور المسلمين

---

(١) Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Aly, III, pp. 97—98.

(٢) شكرى : مصر والسيادة على السودان ص ٣ .

(٣) حراز ص ٧٨ .

المنتشرة مدنهم على ساحل إفريقية الشرق يتجلى فى الرحلة التى قام بها جعفر باشا مظهر وزيارته أهم الموانى وتخصيصه الرواتب لشيوخ القبائل ، وإبحاره إلى شاطىء الصومال فى أغسطس سنة ١٨٦٧ . ودعوة قبائل الصومال إلى الدخول فى طاعة مصر .

وكان أهل البلاد من المسلمين يرون فى ظهور المسلمين فى أرضهم إحياء لماضيهم المشرق ، وكأنها حملة إسلامية قد خفت لنجدتهم والأخذ بيدهم ، وادراك المصريين لأهمية هذه البلاد وعمق شعورها الإسلامى وترحيبها بالنفوذ المصرى يتجلى فى التقرير الذى وضعه جعفر مظهر وقدمه للخديو مبيناً إمكانية مد مصر من السويس شمالا حتى رأس غور دافوى جنوباً (١) .

وسارعت مصر إلى تثبيت هذه السيادة بعد الحملة التأديبية التى أرسلتها انجلترا إلى الحبشة سنة ١٨٦٧ ، فعينت عبد القادر باشا حاكما على سواحل إفريقية فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ ، وأرسلت تعزز الحاميات المصرية .

وظهور الأسطول المصرى فى خليج عدن(٢) ، واستقبله المسلمون أحر استقبال حتى أن كل قبائل الصومال حتى رأس حافون أرسلت تطالب برايات عثمانية .

وكتب السلطان عبد الله بن السلطان سالم القادرى إلى مصر يدخل فى طاعتها ، وكان زعيم الدناقل إدريس بن حسن يتقاضى من الحكومة المصرية راتباً شهرياً .

وظهرت مصر بين مسلمى شرق إفريقية فى ثوب المنقذ ، فمنحت الإعانات للعلماء والشيوخ والفقراء وأصلحت بين القبائل وألفت بين القلوب (٣) .

وبدت مصر كأنها تريد إحياء الجهاد الإسلامى الذى استهله أحمد القرين فى القرن السادس عشر ، إذ أرادت أن تحكم الدائرة حول الحبشة ليتم عزلها وتطويقها فعين منزنجر فى ١٦ ابريل سنة ١٨٧١ حاكما لمصوع ، وضم إليه إقليم بوغوص بين التاكة ومصوع ، وتطلعت مصر إلى إقليم الحماسين ، وأرادت أن تبسط

---

(١) Shoukry : Khedive Ismail p. 240.

(٢) حراز ص ١١٤—١١٥ .

(٣) Trimingham : Islam in Ethiopia pp. 120—121.

نفوذها على شمال الحبشة كله (١) ، وأن تعد قاعدة صالحة للهجوم على الحبشة من الشمال .

وفى فبراير سنة ١٨٧٣ عينت مصر منزنجر مديراً لعموم شرق السودان و محافظا لسواحل البحر الأحمر من سواكن إلى زهيطة بما فى ذلك بوغوص والتاكة ، ثم مضت مصر خطوة أبعد فقد حصلت على ميناء زيلع من الدولة العثمانية ، وقد تنازلت عنها مقابل جزية سنوية تدفعها مصر ، واستخدمت زيلع قاعدة للتسرب إلى منطقة هرر .

ودخلت مصر هرر فعلا فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ، واستطاعت أن تبسط سيادتها على ساحل البحر الأحمر ، بل مضى النفوذ المصرى إلى مصب نهر الجب .

وبعد أن أتمت مصر تطويق الحبشة على هذا النحو عمدت إلى مهاجمتها بعد أن أعادت تنظيم الجيش المصرى مستعينة بالضباط الأمريكان الذين سرحوا من الخدمة فى بلادهم .

وأعدت لتحقيق ذلك حملتين : الأولى يقودها الكولونيل اندروب السويدى والثانية يقودها منزنجر ، كانت الخطة المتفق عليها أن يقع الهجوم من الشمال بينما يقوم منزنجر والنجاشى منليك بمهاجمة الحبشة من الجنوب .

وقد فشلت هذه الخطة وهزمت القوات المصرية . وعاود المصريون الهجوم بقيادة راتب باشا فلم يوفقوا ، وبذلك نجت الحبشة هذه المرة كما نجت من قبل حين قتل أحمد القرين وأخفقت جهوده (٢) .

غير أن مصر ظلت تحتفظ بنفوذها على ساحل الصومال حتى رأس حافون وثبتت أركان هذه السيادة حين وافقت إنجلترا فى مارس سنة ١٨٧٧ على امتداد السيادة المصرية على هذا النحو .

وامتداد النفوذ المصرى إلى شرق إفريقية كان سيتمخض عن توثيق العلاقات الثقافية بين مصر وهذه البلاد ودفع الحركة الإسلامية إلى الإمام لولا الأحداث

---

(١) Sabry : Le Sudan Egyptien p. 132.

(٢) Trimingham : Islam in Ethiopia p. 121.

التي أدت إلى احتلال مصر ، واشتعال ثورة المهدية وانسحاب المصريين من شرق إفريقية .

وكما تأثر المسلمون في شرق إفريقية بظهور قوة مصر وامتداد نفوذها إلى السودان وتطلعها إلى البحر الأحمر وسواحل الصومال ، كذلك قدر للمدن الواقعة إلى الجنوب من مقدشو أن تتعرض لتدخل آخر ، يشد أزر المسلمين ويبعث الحياة في الحركة الإسلامية .

فقد استطاع سلطان مسقط سعيد بن سلطان بعد أن تولى الإمامة أن يتخلص من متاعبه جميعها ، من القبائل البدوية التي كانت لا تكف عن الإغارة على أطراف مسقط ، ومن قراصنة الخليج الفارسي الذين كانوا يتربصون بتجارته الدوائر ، من النفوذ الوهابي الذي كان يريد أن يمتد صوب الجنوب ، ثم النزاع المتصل بين الفرنسيين والانجليز الذي قد يجر في ذيوله عمان في أية لحظة .

تخلص من هذه المتاعب جميعها سنة ١٨٢٤ ، وأصبح سيد عمان دون منازع واسترعى هذا الحاكم الشاب انتباه العالم الإسلامي لنجاحه في خوض هذا المعترك السياسي (١) . وما كاد يتم له ذلك حتى تجاوزت آماله شاطيء عمان . وأخذ يتطلع إلى شرق إفريقية الغنى بثروته وتجارته .

كان أئمة عمان منذ مشاركتهم في طرد البرتغاليين قد احتفظوا بنفوذ اسمي في كلوا ومافيا وبمبا وزنجبار (٢) . ولم يكن هذا النفوذ يمتد صوب الشمال فقد كان حكام ممبسى يحتفظون باستقلالهم غير أن السيد سعيد كان يريد أن يجعل هذه السيادة حقيقة وقعة ، ولم يتم له ذلك إلا بإخضاع ممبسى سنة ١٨٣٠ .

ثم انبسط نفوذه الفعلي على المدن الشرقية كلها ، فقرر أن ينقل حاضرته إلى زنجبار سنة ١٨٤٠ (٣) . وأصبحت زنجبار حاضرة توحد بين عمان وبين شرق إفريقية في إطار سياسي واحد لم يستطع أهل البلاد أنفسهم أن يحققوا مثل هذه الوحدة. فلم تتحقق الا على يد هذا السلطان العماني القوي .

وكان هذا التوحيد بداية مرحلة مزدهرة في تاريخ الاسلام في هذا الجزء من افريقية

---

(١) Coupland : East Africa pp. 108—152.

(٢) Ibid :p. 218.

(٣) Werner : Zanzibar, Encyclopaedia of Islam.

وبرز السيد سعيد بن أئمة المصلحين اللذين حفل بهم التاريخ الإسلامي فى القرن التاسع عشر . واختط لنفسه سياسة نجحت إلى أبعد الحدود ، فمدت نفوذه ، وزادت من ثروته ، ويسرت لهذه أسباب الطمأنينة والرخاء .

وكانت إصلاحاته اقتصادية وسياسية معاً ، ففى الناحية الاقتصادية نجده يشجع هجرة الهنود إلى شرق افريقية فى أوسع نطاق ، هاجر الهنود بخبرتهم ورءوس أموالهم وأسهموا فى النهضة الاقتصادية للبلاد (١) ثم نراه يعمل على استغلال ثروة زنجبار نفسها بالقيام بمشروعات زراعية .

توسع فى زراعة القرنفل إلى أبعد الحدود وأصبح من أهم السلع التى تصدر من الشرق للغرب . وأصبحت مزارع القرنفل فى أواخر أيام سعيد تغل نحو سبعة ملايين من الأرطال ، ثم عمد إلى البحث عن أسواق جديدة للتصدير غير الأسواق التقليدية فى المحيط الهندى وشرق آسيا .

أراد أن يفتح أسواق أوربا ، فرحب بالتجار الأوربيين والأمريكيين فعقد معاهدة مع الولايات المتحدة سنة ١٨٣٢ ، ومع بريطانيا سنة ١٨٣٩ ، ومع فرنسا سنة ١٨٤٣ ، وسمح بإنشاء قنصليات للدول الأوربية ، وفى السنة التى مات فيها كانت أوربا تستهلك أكثر من ثلث منتجات إفريقية (٢) .

وقد أثرت هذه السياسة فتضاعفت تجارة مدن شرق افريقية . فى سنة ١٨٥٦ دخلت ميناء زنجبار أكثر من ٦٠ سفينة أوروبية وأمريكية ، وبلغ ثمن ماصدر من البضائع ١٤٦,٦٦٦ جنيهاً ، وبلغت الرسوم الجمركية المحصلة نحو ٢٢ ألف جنيه ، وقد أغراه هذا باحتكار التجارة ، وبدأت سفنه الخاصة ترتاد موانئ أوربا (٣) .

واقترنت هذه الإصلاحات الاقتصادية بإصلاحات أخرى سياسية من تنظيم الإدارة والقضاء والتوحيد بين طبقات المجتمع وانشاء فرقة من الجند المرتزقة من أهل البلاد ولم يكن سعيد يعرف حدوداً سياسية ، فقد بسط نفوذه شمالا حتى حدود الحبشة وجنوباً حتى موزمبيق بل امتد نفوذه إلى جزيرة مدغشقر بعد أن تزوج ملكتها .

---

(١) Coupland, pp. 302—303.

(٢) Coupland, p. 314.

(٣) Ibid, p. 315.

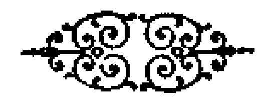
وأصبح السيد سعيد من أقوى الحكام المسلمين المعاصرين ، وأكثرهم ثروة وأبعدهم صيتاً ، وفى ركاب هذا الثراء العريض نمت الثقافة الإسلامية وازدهرت وازداد التوغل الإسلامى انطلاقاً صوب الداخل .

وكان من الممكن أن تعمل العوامل الثلاثة التى أشرت إليها على النهوض بالحياة الإسلامية ونشر الإسلام فى أجزاء كثيرة من القارة والمضى بالنهضة الأدبية إلى أقصى مدى ممكن ، لو لم تتمخض أحداث السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر عن القضاء على هذه القوى أو إضعافها :

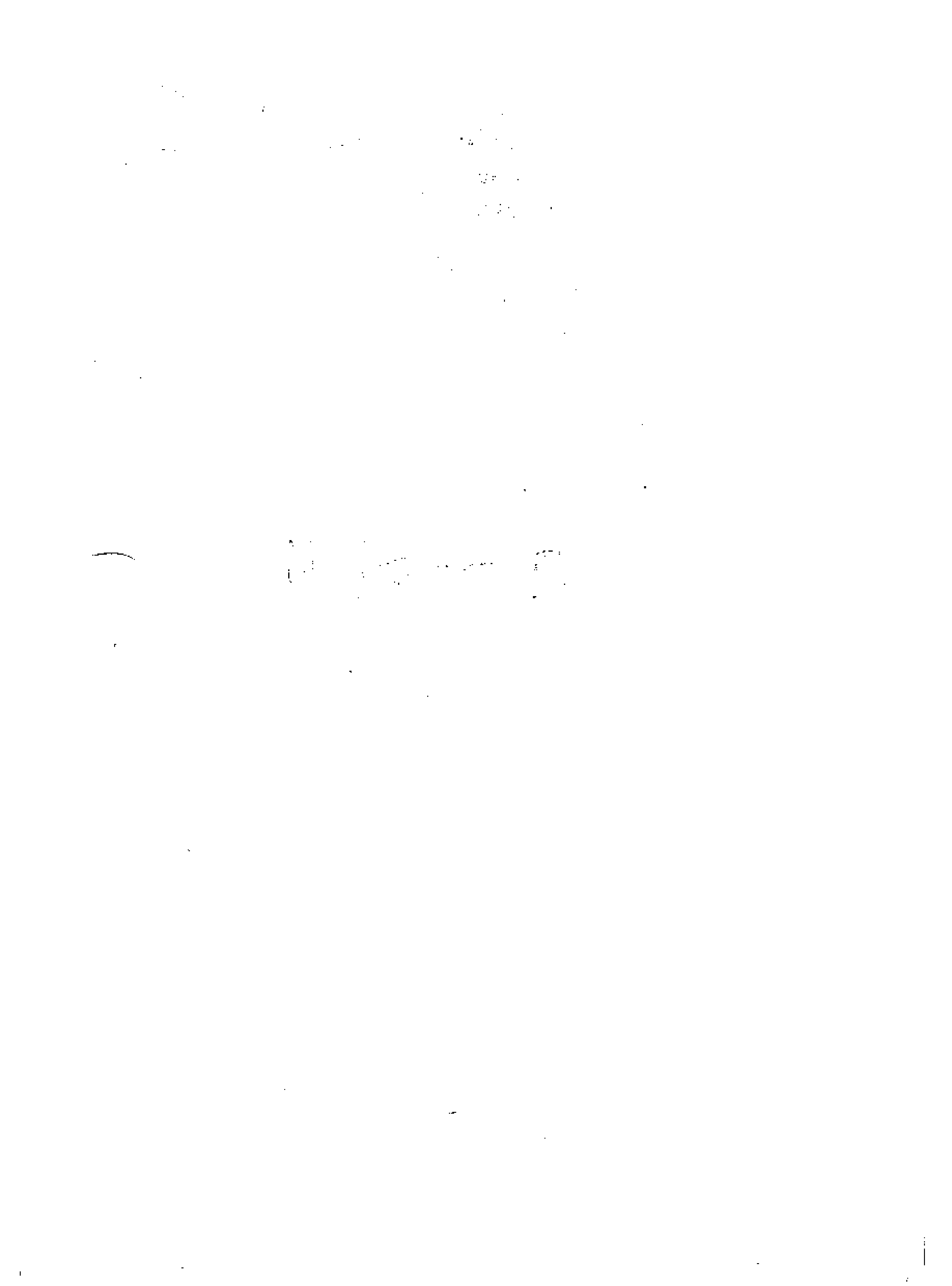
انتصر الأحباش وأكدوا انتصارهم بإخضاع ما بقى من القوى الإسلامية واستبعد النفوذ المصرى ؛

وبدأ الاستعمار البريطانى والفرنسى والإيطالى يثبت أقدامه فى هذه البلاد ، وخضعت سلطنة زنجبار للنفوذ البريطانى ، وبدا هذا الوطن الإسلامى يعانى من نفس الأدواء التى شهدتها الأقطار الإسلامية الأخرى .

تم بحمد الله وتوفيقه



المراجـــــع



أولا — المراجع العربية

أبو بكر خالد عمريا : فوتا السنغالية .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٤ .

الإدريسى محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى .

المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — ليدن ١٨٩٦ .

أدمس : الإسلام والتجديد ، تعريب عباس محمود . القاهرة ١٩٣٢

أرنولد : الدعوة إلى الإسلام الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٥٧ .

أحمد عزت عبد الكريم : العلاقات بين الشرق العربى وأوربا بين القرنين السادس عشر والسابع عشر .

دراسات فى تاريخ النهضة الحديثة جامعة الدول العربية .

أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر . القاهرة ١٩٣٥ .

بارتولد الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٤٥ .

بتلر : فتح العرب لمصر . القاهرة ١٩٣٢ .

ابن بطوطة : الرحلة . القاهرة ١٢٨٧ هـ .

البكرى : أبو عبيد الله بن عبد العزيز .

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . دى سلان : الجزائر ١٨٥٧ .

البلاذرى : كتاب فتوح البلدان . ليدن ١٨٦٦ .

تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان نشره هوداس ، باريس ١٨٩٩ .

تريتون : الذمة فى الإسلام .

التونسى : محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسير بلاد العرب والسودان .

جامع تواريخ فاس . طبع بمدينة بالرم سنة ١٨٧٨ .

الجزنائى : أبو الحسن على :

زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . تلمسان ١٩٢٢ .
حامد عمار : علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية . رسالة غير مطبوعة .
حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧ .
ابن حوقل : أبو القاسم محمد :
المسالك والممالك .

ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك . المجلد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٩٩ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . المجلد السادس بولاق ١٢٢٠ هـ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان . جزان ، بولاق ١٢٨٣ .
الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى :
معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء ، تونس ١٢٢٠ هـ
الدمشقى شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب .
نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، بطربورغ ١٨٢٠ .
ابن أبى دينار : المونس فى أخبار افريقية وتونس ، ١٢٨٦ هـ .
رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية .
ابن أبى زرع : أبوالحسن على بن عبد الله ؛
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، أو بسالة ١٨٤٢ .
زكى المحاسنى بواعث الحياة الأدبية والفكرية فى النهضة العربية الحاضرة
دراسات فى تاريخ النهضة العربية الحديثة . جامعة الدول العربية .
السعدى : عبد الرحمن بن عبد الله بن عامر :
تاريخ السودان . نشره وعلق عليه هوداس . باريس ١٨٩٨
سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
مصر فى عهد الأخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ .
الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، القاهرة ١٩٥٥
شكرى فيصل المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ .

شيبو فرج بن حمد الباقرى - خبرلامو .
ترجمة Hichens

Univ. Witwaterstand press, Johannespurg, 1939
صلاح العقاد : المغرب العربى ، جزءان .
عمارة : تاريخ اليمن نشر وترجمة كاى سنة ١٨٩٢ .
ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ليدن ١٩٢٠ .
عبد الرحمن بن زيدان - إتحاف أعلام الناس بجمال حاضر مكناس ، ٥أجزاء ، الرباط ١٩٢٩ .
عبد العزيز عبد المجيد - التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ، ٣أجزاء القاهرة ١٩٤٩ .
عبد النبى خلف الله - مستقبل افريقيا السياسى .
عبد اللطيف حمزة : الحركة فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ١٩٤٧ .
عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٢ . بين الحبشة العرب .
ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب . والجزء الأول والثانى والثالث ، ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥٠ وباريس ١٩٣٠ .
عرب‌فقية : شهاب الدين بن أحمد عبد القادر .
فتوح الحبشة : نشرة رينيه باسيه ، باريس ١٨٩٧ .
القلقشندى : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥ .
الكندى الولاة والقضاة ، بيروت١٩٠٧ .
المالكى : رياض النفوس نشره وعلق عليه حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ،
أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
محمد بديع شريف : النهضه الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر ، دراسات فى النهضة العربية الحديثة - جامعة الدول العربية .

محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . القاهرة ١٩٥٧ .

محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣

محمد ضيف الله بن محمد الجعل : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ـ القاهرة ١٢٢٤ هـ

محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله ـ القاهرة ١٩٥١

محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان .

محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ـ القاهرة ١٩٥٠

أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) .

محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية

محى الدين الزنزبارى : السلوى فى أخبار كلوا

ترجمة . J,R.A,S. 1865. S,A, Strong

محمود كعت التنبكتى : تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ترجمة هوادس ودى لافوس . باريس ١٩١٦

المراكشى : محى الدين أبو محمد عبد الواحد التميمى

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٢٩ ، ١٩٤٢ .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٨ أجزاء طبعة

Barbier de Mynard باريس ـ ١٨٦٠ ١٨٧٤ .

المسعودى : التنبيه والإشراف . الجزء الثانى من المكتبة الجغرافية ـ ليدن ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ .

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ـ القاهره ١٩٦٠

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٨٧٧

المقريزى : والمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . جزءان بولاق ١٢٧٠ هـ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزء الأول والثانى ، نشرة الدكتور زيادة القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٤٢ .

المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . جوتنجن ١٨٤٧ .

المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام . نشره الدكتور رنك .

مكى شبيكة : السودان فى القرآن . القاهرة ١٩٤٧ .

مؤنس حسين : فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧ .

نجلاء عزالدين : العالم العربى .

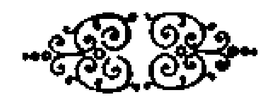
نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى رسالة غير مطبوعة

نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث — القاهرة ١٩٥٦ .

هوبير ديشان : الديانات فى أفريقية السوداء — القاهرة ١٩٥٦

الواقدى : فتوح الشام .

يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة — القاهرة ١٩٣٥ .



ثانيا : المراجع الأوروبيـــة

Allan (B. M.) : Gordon and the Sudan, 1931.

Anderson (J.N.P.) : Isamic law in Africa, London 1954.

André (R.) : L'Islam Noire, Paris 1924.

Arkell (A.J.) : Fung Origins, S.N.R. Vol. XV. p. 201—250.

Arkell (A.J.) : Fung Correspondense, vol. XXXIII p. 181—192.

Arkell (A.J.) : King Badi wad nol granting land S.N.R. vol. XV pp. 248—250.

Arkell (A.J.) : More about Fung origins, vol. XXVII pp. 37—47.

Ballard (A.) : Rulers of the Indian ocean, London 1927.

Barth : Travels and discoveries in North and Central Africa in the Years 7809—1855, London 1858 8 vols.

Basset (R.) : Les Inscription de l'ile de Dahlak.

Becker : Darfur, Ency. of Islam.

Blake (J.W.) : European beginnings in West Africa, Longmans 1937.

Blunt : Secret History of the British occupation of Egypt.

Blyden : Christianity, Islam and the Negaro race.

Bovill (F.W.) : Caravans of the old Sahara, Oxford 1933.

Browne : Travels in Africa, Egypt. and Syria.

Bruce (J.) : Travels to discover the Sources of the Nile. Edinburgh, 1805.

Budge (E.A.W.) : A History of Ethiopia, London 1918, 2 vols.

Burchardt (J.) : Travels in Nubia, London 1819.

Burns (A.) : A History of Nigiria, London 1955.

Buxton (D.) : Travels in Ethoipia, London 1950.

Campbell (A.) : The heart of Africa, New York 1954.

Carpenter (G.W.) : The Role of Christianity and Islam in Contemporary Africa, to day.

Cary (J.) : Britain and West Africa, London 1946.

Cerulli (E.) : Il Sultanàto dello Shoa nel secolo XIII R. S. E. I, 1941.

Cerulli (E.) : Somaliland, Encyc. of Islam.

Chataway (J.A.) : Fung origins, vol. XVII p. 111—117 S.N.R.

Chataway (J.A.) : Note on the history of the Fung vol. XIII, p. 247—250.

Clark (W.T.) : Manners, Customs and beliefs of the Northern Beja, S. N. R. XXI.

Cloeman (J.S.) : The Emergence of African Political parties, Africa to day.

Colson (E.) : Native Cultural and Social patterns in Contemporary Africa, Africa to day.

Conolly (R.L.) : Africa's Stratagic significance, africa to day.

Cooley (W.D.) : The Negroland of the Arabs, London 1841.

Coupland (A.) : The British Anti-Slavery Movement, 1933.

Coupland (A.) : East Africa and its invaders, London 1983.

Craster (E.) : Pemba the Spice Island of Zazibar, London 1913.

Crawford (O.G.S.) : The Fung Kingdom of Sennar, 1951.

Dale (G.) : The Peoples of Zanzibar.

Dames (M.L.) : The Book of Duarte Barbosa.

De La Chapelle (F.) : Esquisse d'une histoire de Sahara occidental, Hesperis, annee 1930 T.XI.

De la Fosse : Chronique du Fauta Senegalais, revue du Monde Musulman, Tome 25, 1913.

De la Fosse : Haut Senegal — Niger — Paris 1912.

De la Fosse : Senegal Encyc. of Islam.

De La Ronciére : La decouverte de l'afrique en Moyen age.

Demombynes (G.) : Masalik El absar Fi Mamalik el Amsar, Paris 1927.

Doman (M.H.) : The Kilwa Civilisation and the Kilwa ruins; T. N. R. 1938.

Dubois (F.) : Tombouctou la Mysterieuse, Paris 1899.

Du Mas-Latrie (M.L.) : Traités des paix et de Commerce et documents divers Concernant les relations des Chretiens avec les arabes de l'Afrique Sept. Paris 1866.

Elles (R.J.) : The Kingdom of Tegali, vol. XVIII p. 138.

Fage : An introduction to the History of West Africa. Cambridge 1955.

Fagnan (E.) : L'Afrique Septentrionale au XIle. S. de Noire ére (Constantine 1900).

Faria Y. Souza : In the Portuguese Asia, 1705.

Flury (S.) : The Kufic inscriptions of the Kisimkazi Mosque. J. R. A. S. 1922.

Gautier (E.F.) : Les Siécles obscurs du Maghreb, Paris 1927.

Gesse (R.) : Seven Years in the Sudan, London 1892.

Gibb : Modern trends in Islam, Chicago 1945.

Groves : The Planting of Christianity in Africa, Vol. I, London 1946.

Von Gruneboum : Unity and veriety in Muslim Civilisation.

Guidi : Abyssinia, Encyc. of Islam.

Guillain (M.) : Documents sur l'histoire de l'Afrique orientale, Pairs 1880.

Gunther (J.) : Inside Africa.

Henderson (K.) : Fung origins, vol. XXXII, pp. 174—175. vol. XXXIV, pp. 315—316.

Henry (P.) : The European Heritage, Africa to day.

Hersokovits (J.) : The African Cultural beakground in the Modern scene, africa to day.

Hichens (W.) : Islam in East africa, Islam to day.

Hichens : Divani ya Muyaka bin Haji al-Ghassani (Johannesburg) 1940.

Hichens : Utendi wa Mwana Kupona, Medstead, 1934.

Hichens : As-Seyyid abdallah Bin ali's al'Inkishaf, London 1939.

Hillelson (S.) : The Anglo-Egyptian Sudan, Islam to day.

Hogben (S.J.) : The Muhammedan Emirates of Nigeria, Oxford, 1930.

Hollings worth (L.W) : A Short history of the East Coast of africa., London 1951.

Holt P.M.) : Mahdiya, S.N.R. vol. XXXIII p. 182—186.

Hourani : Arab sea-faring in the Indian oceaa.

Howard : West African explorers, London 1951.

Huntingford (G.W.) : East African Bockground, London 1950.

Ingrams (W.H.) : Zanzibar, London 1931.

Jackson : Osman Digna.

Joao de Barros : Decadas da Asia (Lisbon and Madrid 1563—1615).

Kammerer (A.) : Le Mer rouge, l'Abyssinie et l'Arabic depuis l'antiquité, Cairo 1939.

Ketlie (J.S.) : The Partilion of Africa, 1895.

Lane-Poole : History of Egypt in the middle ages, London 1951.

Latourette (R.S.) : History of the expansion of christianity, 1938.

Littmann : Adal, Encyc. of Islam.

Littmann : Harar, Encyc. of Islam.

Longrigg (S.H.) : A Short history of Eritrea, London 1945.

Lady Lugard : A Tropica dependency, Nisbet 1905.

Lumb (S.) : Leaders of africa, London 1952.

Lyne (R.N.) : Zanzibar, London 1905.

Mac-Michael (H.A.) : A Hislory of the Arabs in the Sudan, Cambridge 1922.

Msrçais (G.) : Les Arabes en berberie du XIe. an XIV, Siécle, Paris 1913.

Morçais (G.) : Manuel d'art Muslman; l'architecture, Tome 11

Massignon(L.) : Annuaire du monde Musulman; statistique, historique, social et economique, Paris 1955.

Meek (C.K.) : The Northern tribes of Nigeria, 2 vols, London 1925.

Mengin : Histoire de l'Egypte sous le gouvernment de Mohammed aly.

Mitchell (Ph.) : Africa and the West in Historical pespective, Africa to day.

Molard (J.R.) : Afrique occidentale Françaís, Paris, 1952.

Munger (E.) : Geography of Sub-Saharan race relations, Africa to day.

Nadler (L.) : Fung origins. S.N.R. vol. XIV pp. 61—66.
Newman (B.) Morocco to day, London 1923.
Nicholson (R.A.) Studies in Islamic Mysticism.
Niver (C.R.) A Short History of Nigeria, London 1952.
Oldham (J.H.) New hope in africa, London 1955.
O'leary de lacy The Ethiopian church, London 1938.
Oliven (R.) : The Missionary factor in East africa London 1952.
Pallme : Travels is Kordfan, 1844.
Palmer (R.) : The Bronu, Sahara and Sudan, London 1936.
Palmer (R.) : Islam in the Western Sudan and on the West Coast of africa, Islam to day.
Paul (A.) : The Beja tribes, London 1954.
Pearce (F.B.) : Zanzibar, London 1920.
Pedler (F.J.) : West Africa.
Plowden Travels in Abyssinia.
Poncet (J.) : The red sea and Adjacent Counties at the Close of the Seventeenth Century. London 1949.
Radwan Old and New forces in Egyptian education.
Robertson (J.W.) Fung origins, vol. XVII p. 260—265.
Robinson (A.E.) : The Mamlukes in the Sudan, vol. V p. 88—94.
Robinson (K.) : French Africa and the French union, Africa to day.
Rodd (F.R.) : Peoples of the veil London 1926.
Rossini : La Guerra Turco-abissinia del 1578, Oriende Moderno. Rome. 1923.
Ruoseli (G.) : The Effects of Centralization of Education in Moder nEgypt, Cairo 1936.
Sehoff (W.H.) : The Periplus of the Erythrean sea London 1937.
Shukri (M.F.) : Khedive Ismail and Slavery in the Sudan Cairo 1937.
Sitwell (S.) : Mauritania, London 1951.
Spence (C.F.) : The Portuguese Colony of Mocambique, Cape Town, 1951.
Lord Stanley and aldarley : Narrative of the Portugues Embassy to Abyssinia, London 1881.

Stroland (C.H.) : The Land of Zing, London 1913.

Strong (A.S.) : History of Kilwa, J.R.A.S. 1895.

Talbot (P.A.) : Peoples of Southern Nigeria, Oxford 1926.

Terrasse (H.) : Histoire du Maroc, des origines à l'etablissement du Protéctoral Froncaise, Casablance, 1946.

Trimingham (S.) : The Christian Church and Islam in West Africa, London 1955.

Trimingham (S.) : Islam in Ethiopia, Oxford 1952.

Trimingham (S.) : Islam in the Sudan.
Islam in West Africa.

Tucker : The Eastern Sudanic language, Oxford 1940.

Turner (L.D.) : The impact of Western education on the African's way of Life, Africa to day.

Ward : A History of the Gold Coast, 1948.

Welsh (A.) : Africa south of the Shara, London 1951.

Werner : Zanzibar, Encycl, of Islam.

Worner : History of Pate, J. R. A. S. 1915.

Wiet (G.) : L'Egypte Arabe, Hist. de le Nation Egyptinne, Tome IV.

Wiet (G.) : Sultans Mamloukes, Le Caire, 1938.

Wiet (G.) : Précis de l'histoire d'Egypte, 2eme Partie.

Wingate (R.) : Mahdeism and the Egyptian Sudan, London 1891.

Wingate (R.) : Besiege and fall of Khartoum, S. N. R. vol. XIII.

Wyndham (H.A.) : The Atlantic and Slavery, Oxford 1935.

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الباب الثالث

إنتشار الإسلام والثقافة العربية فى غرب افريقيا

١٩٩ — ٢٧٥

الباب الرابع

إنتشار الإسلام والثقافة العربية

فى سودان وادى النيل

٢٧٧ — ٣٧٢

صفحة

الباب الخامس

إنتشار الاسلام والثقافة العربية
في بلاد الحبشة وشرق افريقيا

٣٧٥ — ٤٥٢

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٧ / ١٩٨٦
الترقيم الدولي ١ - ٠٢٣٤ - ١٠ - ٩٧٧

مطابع الدجوى - عابدين القاهرة